تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

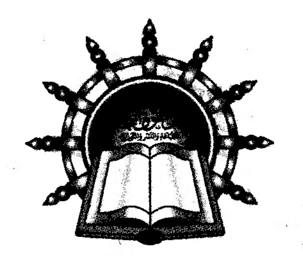
مكة المكرمة

المجلد الثالث عشر

دار طوق النجاة

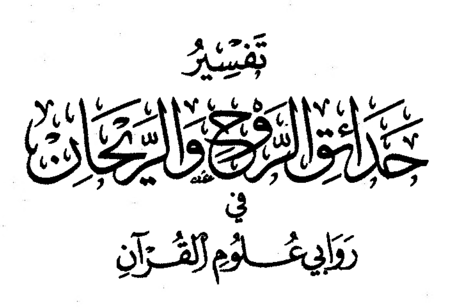
الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان


تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن



شعرٌ

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْراً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخرُ

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرَجَّىٰ وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِٱصْطِبَارٍ مَا قِيْلَ هَيْهَاتَ لاَ يَكُوْنُ
وَإِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ وَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلاَ

آخرُ

وَٱلنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدِ وَوَاحِدٌ كَٱلأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَرَا
يَا مَنْ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهْ طُوْبَىٰ لِمَنِ ٱرْتَضَاكَ ذُخْراً لِغَدِهْ
أُطْلُبُوْا ٱلأَرْزَاقَ مِنْ أَسْبَابِهَا أُدْخُلُوْا ٱلأَبْيَاتَ مِنْ أَبْوَابِهَا



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وآله، ما سطرت الأقلام وتعاقبت الأيام والليالي.

أمّا بعد: فلما فرغنا من تفسير الجزء الحادي عشر.. أخذنا في تفسير الجزء الثاني عشر مستمداً منه الهداية وكل التوفيق في تفسير كتابه لأقوم الطريق، وها أنا أقول: وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ

يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى[1] لما بيَّنَ في الآيات السالفة شمولَ قدرته تعالى لكلِّ شيء، وإحاطةَ علمه بما يسرُّون وما يعلنون، وبما في الصدور.. أردفَ ذلك بذكر ما يهم الناسَ من آثار قدرته، ومتعلّقاتِ علمه، وهوَ ما يتعلَّق بحياتهم، وشؤونهم المختلفة، ثمَّ بذِكْرِ خَلْقِهِ للعالَمِ كلِّه، ومكانِ عرشه قبلَ هذا من ملكه وبلاءِ البشر بذلك، لِيظهِرَ أيّهم أحسنُ عَمَلاً، ثم بعثه إيَّاهُم بعد الموت لينالوا جزاءَ أعمالهم مع إنكار الكفار لذلك، وطلب استعجال العذاب الذي أوعدهم به، مع بيانِ أنه واقع بهم لا محالةَ، إنْ أصرُّوا على كفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] ما يدل على كونه تعالى عالماً.. ذَكَرَ ما يدل على كونه تَعالى قَادِراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قَبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[3] أنَّ عذابَ الكفار، وإن تأخَّرَ لا بدَّ أن يحيقَ بهم.. ذكَرَ ما يدلُّ على كفرهم، وكونهم مستحقينَ العذابَ، لِمَا جبلوا عليه من كفر نعماءِ الله وما يترتبُ على إحسانه تعالى إليهم مما لا يلِيقُ بهم من فخرِهم على عباد الله تعالى.

وعبارةُ المراغي: مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى: لَمَّا ذَكَرَ[4] أنه خَلَق السمواتِ والأرضَ ليبلو الإنسانَ أيشكرُ أم يكفرُ. قَفى على

---

(١) المراغي.

(٢) (٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

ذلك بذكر طبيعة الإنسان في ذلك، وهي: أنه إذا أصابته نعماء، ثم نزعت منه، قَنَطَ من روح الله، وكفر بها، وإذا أذاقه نِعْمَةً بعد بؤس، بَطرَ وفَخَرَ، هكذا شأن الإنسان، إلا من صبرَ، وشكر، وعمِلَ صالحاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذَكَرَ في بَدْءِ السورة قولهم في القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأنهم ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ كي لا يسمعوه.. أردفَ ذلك بذكر تكذيبهم للرسول ﷺ والقرآن، وبيان أنَّ همه وحزنَه ﷺ مِنْ كلامهم، قد بلغ كل مبلَغ، ثمَّ أعقبَه بتحديه لهم بالقرآن، كي يأتوا بعشر سور مثله، حتَّى إذا ما عجزوا، عُلِمَ أنَّه وحيٌ من عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنها لا تتعلق أطماعُهم بأن يَتْرُكَ بعضَ ما يوحي إليه، إلا لدَعْوَاهم أنه ليس من عند الله، وأنه هو الذي افتراه، وإنَّما تَحدَّاهم أولاً بعشر سور مفتريَاتٍ قبل تحديهم بسورة؛ إذْ كانَت هذه السورة مكيةً، والبقرة مدنيةً، وسورةُ يونسَ أيضاً مكيةً، ومقتضى التحدي بعشر: أن يكونَ قبل طلب المعارضَةِ بسورة، فلَمَّا نسبوه إلى الافتراء طلبَ منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفترياتٍ إرخاء لعنانهم، وكأنه يقول: هبوا أنِّي اختلقته، ولم يوحَ إلَـيَّ فأتوا أنتم بكلام مثلِهِ مختلَق من عند أنفسكم، فأنتم عَرَبٌ فصحاء مثلي، لا تَعجزُون عن مثلِ ما أقدِر عليه من الكلام.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها؛ أنه تعالى لما ذكر شيئاً من أحوال المنافقينَ في القرآن.. ذَكَرَ شيئاً من أحوالهم الدنيوية، وما يؤولون إليه في الآخرة.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما

---

(١) البحر المحيط.

أقام الحجة على حَقِّيَةِ دعوة الإسلام، وعلى أنَّ القرآنَ من عند الله، وليس بالمفترَى من عند محمد ﷺ كما يدعيه المشركون.. أَرْدف ذَلِك ببيَان أنَّ البَاعِث لهم على المعارضة، والتكذيب، ليس إلا شهواتُهم، وحظوظُهم الدنيوية، والإسلام يدعو إلى إيثار الآخرة على الأولى.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لِمَا قبلَها: أنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى لما ذكر[1] مآلَ مَنْ كانَ يريد الدنيا وزينتها، ولا يهتم بالآخرَةِ وأعمالِها.. أردَفَ ذلِكَ بذكر مَنْ كَانَ يريد الآخرةَ، ويعمل لها، وكان على بينة من ربه في كلِّ ما يعملُ، ومعه شاهِدٌ يدل على صدقه، وهو القرآن، ومآل من أنكر صِحَّتَه، وكفرَ بِه.

وعبارة أبي حيان: مناسبةُ هذه الآية لما قبلَها: أنه تعالى لما ذكر حال مَن يريد الحياةَ الدنيا.. ذَكَرَ حَالَ من يريد وجهَ الله تعالى بأعماله الصالحة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: وما دابة، من أي نوع من أنواع الدوابِّ في الأرض ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وغذاؤها الذي تحتاج إليه اللائق بها على اختلاف أنواعها، تفضلاً منه، وإحساناً، وإنما جيء به على طريق الوجوب، كما تشعر به كلمة: ﴿عَلَى﴾ اعتباراً بِسَبْقِ الوعد به منه، وتحقيقاً لوصوله، وحملاً على التوكل فيه، وقيل: ﴿عَلَى﴾ بمعنى: من؛ أيَّ: من الله رزقُها، لا فرق[2] في ذلك بَيْنَ الجِنَة ـ المكروبات ـ التي لا ترى بالأبصار، وبين ضِخَامِ الأجسام، والوسطى بَيْنَ هذه وتلكَ، وقد أعطى كلاً خلقَهُ المناسبَ لمعيشته إلى تحصيل غِذَائِهِ بالغريزة، والفطرة، ولله تَعالى حِكَمٌ في خلق كل نوع منها، فإنْ خفيَ علينَا أمرُ خلق الحيات والسنانير ونحوها فلَنَا أن نَقولَ مثلاً: إنه لولاها لَضَاقَت الأَرض بكثرةِ أحيائها أو لأنتنت من كثرة أمواتها.

---

(١) (٢) المراغي.

ومعنى كفالته تعالى لرِزْقِها أنه سخَّره لها، وهدَاها إلى طلبه، وتحصيله كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وقد عُلِمَ بنصوص القرآن، وسُنَنِ الله في الخلقَ وأسبابِ الرزق، أنَّ مشيئته تعالى لا تكون إلا بمقتضَى سُنَنِهِ في ارتباط الأسباب بالمسببات مع الحكمةِ في ذلك، إلاَّ أنه يأتيها بمحض قدرتهِ، سواء طلبته أمْ لا.

و ﴿مِن﴾ زائدة للتأكيد، والدابَّةُ كُلِّ حيوان يَدِبُّ في الأرض.

رُوي[1] أن موسى عليه السلام تَعَلَّق قلبُه بأحوال أهله، فأمرَه الله تعالى أن يضرب بعصاه علَى صخرة، فانشقَّتْ وخرجَت صخرةٌ ثمَّ ضَرَبَ بعصاه عليها، فانشقت وخرجَت صخرةٌ ثانية، ثُمَّ ضَرَبَ بعصاه عليهَا فانْشَقَّتْ وخرجت صخرةٌ ثالثةٌ ثُمَّ ضَرَبها بعصاه فانشقت فخَرَجَتْ منها دُودةٌ كالذَّرَّةِ، وفي فيها شيء يجري مجرى الغذاء لها، ورفع الله الحجابَ عن سمع موسى عليه السلام فسَمِعَ الدودةَ تقولُ: سبحان من يراني، ويسمع كلامي، ويعرف مكاني، ويَذْكرُني ولا ينساني.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾؛ أي: محلَّ استقرارها في الأرض، أو محل قرَارِها في الأصلاب ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: موضِعَها في الأرحام، وما يَجْرِي مَجْرَاها كالبيضة ونحوها، وقال الفراء: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ حيث تأوي إليه ليلاً ونهاراً، ﴿ومستودعها﴾ موضِعَها الذي تموت فيه.

ووجه تقدُّمِ المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهرٌ[2]؛ وأما على القول الأول، فلعلَّ وجهَ ذلك أنَّ المستقرَّ أنْسَبُ باعتبار ما هي عليه حالَ كونها دابةً.

والمعنى[3]: وما من دابة في الأرض إلا يَرْزقُها اللَّهُ حيث كَانت من أَماكنها بعد كونها دابةً، وقبل كونها دابةً، وذلك حيثُ تكون في الرحم، ونحوه، ثم خَتَمَ الآية بقوله: ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كُلٌّ من الدواب وأرزاقها، ومستقَرّها، ومستودعِها ثابتٌ

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

(٣) الشوكاني.

مَرْقُومٌ ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في لوح محفوظ، كَتَبَ الله تعالى فيه مقاديرَ الخَلْقِ كلِّها؛ أي: كلَّ ذلك مذكور في اللوح المحفوظ قبلَ خلقِها، وثابتٌ في عِلْم الله تعالى.

وكأنه أريد بهذه الآية ببيان كونه عالماً بالمعلومات كلها[1]، وبما بعدَها بيانُ كونه قادراً على الممكنات بأسرها، تقريراً للتوحيد، ولما سبَقَ من الوعد والوعيد، ثُمَّ أكَّدَ دلائلَ قدرته بالتعرض لذِكْر خلق السموات والأرض، وكيف كان الحالُ قبلها، فقال: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإلَهُ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأنشأهما على غير مثال سبق، أي: خلقهما وما فيهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الله في الخلق والتكوين، وما شاء من الأطوار، لا مِنْ أيَّامِنا في هذه الدار التي وجدت بهذا الخلق، لا قَبْلَه، فلا يصح أنْ تُقدَّر أيامُ الله بأيامِنا المعروفَةِ، وهي المقابلة للَّيالي، لأنه لم يكُنْ حينئذ لا أرْضٌ ولا سماء، ويؤيِّد هذا قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾.

وكانَ خَلْقُ السموات في يومين والأرضين في يومين، وما عليهما من أنواع الحيوان، والنبات، والجماد في يومين، كما سيأتي في ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ السجدة.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ سبحانَه وتعالى؛ أي: كَانَ عَرْشُه قبل خَلْقِهما ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ الذي تحت الأرضين السبع، لم يكن حائل بَيْنَهُما، لا أنه كان موضوعاً على مَتْن الماءِ، بَل هُو في مكانه الذي كان فيه الآن، وهو ما فوقَ السمواتِ السبع، والماءُ في المكان الذي هو فيه الآن، وهو ما تَحْتَ الأرضينَ السبع، وفيه بيانُ تقدم خَلْقِ العرش والماء على السموات والأرضين، وقال ﷺ: «كان الله، وما كان معه شيءٌ ثُمَّ كان عَرْشُه على الماء»؛ أي: والعرش الذي هو أعظمُ المخلوقات قد أمْسَكَهُ الله تعالى فَوْقَ سبع سموات من غير دِعامةٍ تحته، ولا عِلاقة فوقه، وذلك يَدُلُّ على كمال قدرته تعالى.

---

(١) البيضاوي.

وقال سعيد بن جبير[1]: سُئِلَ ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ على أيِّ شيءٍ كان الماء، قال: على مَتْن الريح، وقال وَهْبُ بن منبه: إنَّ العرْشَ كَانَ قبل أن يَخْلُق الله السموات والأرض، ثُم قَبَضَ اللَّهُ قَبْضةً من صفاءِ الماء، ثم فتح القبضة، فارتفع دخان، ثُمَّ قضاهن سبع سموات في يومين، ثم أَخَذَ سبحانه وتعالى طينة من الماء، فوضعها مكانَ البيت، ثُمَّ دَحَا الأَرْضَ منها، ثُمَّ خَلَقَ الأقواتَ في يومين، والسموات في يومين، والأرض في يومين، ثم فرغ آخر الخلق في اليوم السابع.

قال بعض العلماء: وفي خلق جميع الأشياء، وجعلها على الماء ما يدلُّ على كمالِ القدرة؛ لأنَّ البناءَ الضعيفَ إذا لم يكن له أساسٌ على أرض صُلبة.. لم يَثْبُتْ، فكيف بهذا الخلق العظيم، وهو العرش والسموات، والأرض على الماء! فهذا يدل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى.

وعن عمرانَ بن حصين رضي الله عنه، قال: دخلتُ على النبي ﷺ وعقلْتُ ناقتي بالباب، فأتى ناسٌ من بني تميم، فقال: «ٱقْبَلُوا البشرى يا بني تميم» فقالوا: بَشَّرْتَنا فأعطنا، مرتين، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، ثُمَّ دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «ٱقْبَلُوا البُشْرىٰ يا أهلَ اليمن، إذْ لم يَقْبَلْهَا بنو تميم» قالوا: قَبِلْنَا يا رسول الله! ثم قالوا: جِئْنَا لِنَتَفَقَّه في الدين، ولنسألك عن أَوَّلِ هذا الأمر، ما كان؟ قال: «كان الله سبحانه وتعالى، ولم يكن معه شيءٌ قَبْله، وكان عَرْشُه على الماء، ثُمَّ خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كُلَّ شيء»، ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أَدْرِكْ نَاقَتَكَ؛ فقد ذهبَت، فانطلَقَتُ أَطْلبُها، فإذا السَّرَاب يقطع دُونها، وايْمُ الله لَوَدِدْتُ أَنَّها ذهبَتْ، ولم أَقُمْ. أخرجه البخاري.

وعن أبي رُزَين العقيليِّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أين كان ربنا قبلَ أن يَخْلُق خَلْقَه؟ قال: «كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، وخَلَق عرشه على الماء» أخرجه الترمذي، وقال: قال أحمد: يريدُ بالعماء أنه

---

(١) الخازن.

ليسَ معه شيءٌ.

قال أبو بكر البيهقيُّ في كتاب «الأسماء والصفات»[1] له: قولُه ﷺ: «كانَ الله ولم يكن شيء قبله» يعني لا الماءَ ولا العرشَ، ولا غَيْرَهُما، قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يعني: وخَلَقَ الماء، وخلق العرشَ على الماء، ثم كتَبَ في الذكر كلَّ شيء، وقوله: «في عماء» العَماء بالمدِّ: السحابُ الرقيقُ، ويريدُ بقوله: «في عماء»؛ أي: فوقَ سحاب مدبِّراً له، وعالياً عليه، وقوله: «وما فوقه هواء»؛ أي: ما فوق السحاب هواءٌ، وكذلك قوله: «وما تحته هواء»؛ أي: ما تَحتَ السحابِ هواء، وقال الأزهري: قال أبو عبيد: إنما تأوَّلْنا هذا الحديثَ على كلام العرب المعقولِ عَنْهُم وإلا فلا نَدْري كيف كان ذلك العماءُ؟ قال الأزهري: فنحنُ نُؤْمِنُ به ولا نكيِّفُ صِفَتَهُ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كتب الله مقاديرَ الخلق قَبْلَ أن يَخْلُق السموات والأرضَ بخمسين ألف سنةٍ، وكان عرشه على الماء»، وفي روايةٍ: «فَرَغَ الله من المقادير، وأمورِ الدنيا قبل أن يَخْلُقَ السموات والأرضَ، وكان عرشُه على الماء بخمسينَ ألْفَ سنة». أخرجه مسلم.

قوله: فَرغ: يريد إتْمامَ خَلْقِ المقادير، لا أنه كان مشغولاً، ففَرَغَ منه، لأنَّ الله تعالى لا يشغَلُه شأنٌ عن شأن، فإنما أمره إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له: كن فيكون.

وعرش الرحمن من عالم الغيب الذي لا ندركه بحواسِّنا، ولا نستطيع تصويرَهُ بأفكارنا، فلا نَعلمُ كُنْهَ استوائِه عليه، ولا صُدُورَ تدبيره، لأمر هذا الملك العظيم، ومِن ثَمَّ رُوي عن أمِّ سلمة، رضي الله عنها، وعن مالك، وربيعةَ قولهم: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ.

ومن الآية نَعْلَم أنَّ الذي كانَ دونَ العرش من مادَّةِ الخَلْقِ قبل تكوين السموات والأرض هو الماء الذي جَعَلَهُ الله أصْلاً لخلق جميع الأحياءِ، كما

---

(١) الخازن.

قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم عَلَّلَ خَلْقَهُ بما ذكر ببعض حِكَمِهِ الخاصَّة بالمكلفين المخاطبين بالقرآن، فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ و(اللام) فيه متعلقة بـ ﴿خَلَقَ﴾ أي: خلق[1] السموات والأرض، وما فيهما، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادىء وجودكم، وأسباب معايشكم، وأودعَ فيهما ما تستدلون به على مطالِبكم الدينية، ليعامِلَكم معاملةَ من يختبركم، فيُظْهِر أيُّكم أحسنُ عملاً؛ أي: عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأَسْرَع في طاعة الله، فإنَّ لكل من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به.

أيْ[2]: خَلَقَ هذه المخلوقات ليبتليَ عِبَادَهُ بالاعتبار، والتفكر، والاستدلال على كمال قدرته، وعلى البعث، والجزاء أيهم أحسنُ عملاً، فيما أُمِر به، ونهي عنه، فيجازي المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، ويُوفِّر الجزاءَ لِمَنْ كان أَحْسن عملاً من غيره، ويَدْخُل في العملِ الاعتقاد؛ لأنه من أعمال القلب، وقيل: المراد بالأحسن عملاً الأتمُّ عقلاً، وقيل: الأزْهَدُ في الدنيا، وقيل: الأكثر شكراً، وقيل: الأتْقَى لله.

أي: ليجعلَ ذلك ابتلاءً واختباراً لكم فيظهرَ أيكم أحسنُ إتقاناً لما يعمله لنفسه، وللناس، ذاك أنه تعالى سَخَّر لنا ما في الأرض، وجعلنا مستعدينَ لإبرازِ ما أَوْدَعَه فيها من منافعَ وفوائدَ ماديةٍ ومعنويةٍ، ومستعدِّين للإفساد، والضرر ليجزيَ كل عاملٍ بما يعمل، ثمَّ لما كان الابتلاء يتضمَّن حديثَ البعث، أَتْبَعَ ذلك بذكره، فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾؛ أي: وعزتي وجَلالي، لئن قُلْتَ: يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك على ما توجبه قضيَّة الابتلاء ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ للحساب، والجزاء، فيُجَازَى المحسنُ بإحسانه، والمسيءُ بإساءته، وقرأ[3] عيسى

---

(1) المراح.

(2) الشوكاني.

(3) البحر المحيط.

الثقفي: ﴿ولئن قُلتُ﴾ بضم التاء إخباراً عنه تعالى، والمعنى عليه: ولئن قلتُ مستدلاً على البعث من بعد الموت إذ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ دلالةٌ على القدرة العظيمةِ فمَنْ أخْبَر بوقوع ممكنٍ وَقَعَ لا محالةَ، وقد أَخْبَرَ بالبعث، فوجب قبولُهُ وتيقُّنُ وقوعه.

وكسرت[1] إن مِنْ قوله: ﴿إِنَّكُم﴾ لأنها وقعت بعد القول، وحكى سيبويه الفتحَ على تضمينِ قُلْتَ بمعنى: ذكرتَ أو على أنَّ (إن) بمعنى لعلَّ؛ أي: ولئن قلت: لعلكم مبعوثون على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين؛ أي: توقَّعوا ذلك، ولا تَبتُّوا القولَ بإنكاره.

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ منهم ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾؛ أي: ما هذا القرآنُ الذي تضمَّن البعث، والحسابَ، والجزاءَ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: إلاَّ سحر بَيِّنٌ ظاهر تُسْحَرُ به العقول وتُسَخَّرُ به الضمائر، والقلوب، أو المعنى: ما هذا القولُ الذي تقولونه لنا من البعث، والجزاء إلاَّ خديعةٌ منكم، وضَعْتُمُوها لمنع الناس عن لذات الدنيا، وإحرازاً لهم إلى الانقياد لكم، والدخول تحت طاعَتِكم.

وقرأ الحسن والأعرج، وأبو جعفر، وشيبةُ، وفرقةٌ من السبعة[2]: ﴿سِحْرٌ﴾، وقَرَأ حمزة، والكسائي: ﴿إن هذا إلا ساحر﴾ فاسم الإشارة حينئذ، عائد على النبي ﷺ؛ أي: ما هذا الرجل الذي يَدَّعي البعثَ، والجزاءَ إلا كاذبٌ مُبْطِلٌ، والمعنى؛ أي: ولئن أخبرت يا محمدُ هؤلاء المشركين أنَّ اللَّهَ سيبعثهم بعد مماتهم كما بَدَأهم ليجزِيَهم فيما بَلاَهم به كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ ليُجِيبَنَّك الذين كذَّبوا بلقاء الله قائلينَ: ما هذا الذي جئتَنا به مِن هذا القرآن لتسخِّرَنا لطاعتك، وتَمْنَعَنا عن لَذَّاتِ الدنيا إلاَّ سحرٌ بَيِّنٌ ظاهرٌ تَسْحَرُ به العقولَ وتُسخِّرُ به الضمائر والقلوب.

وبعد أنْ ذَكَرَ سبحانَه ما يقوله المنكرونَ للبعث.. ذَكَرَ ما يقوله المنكرونَ لإنذار الرسول ﷺ إيَّاهم عذابَ الدنيا، والآخرةِ بتكذيبهم له فقال: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا

---

(1) الشوكاني.　　(2) البحر المحيط.

﴿عَنْهُمُ﴾؛ أي: عن هؤلاء المشركين مِنْ قومك ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الذي تَقَدَّم ذِكْرُه في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، وقيل: عذاب يومِ القيامة، وما بعده، وقيل: يوم بدر ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؛ أي: إلى طائفة من الأيام قليلة، لأن ما يحصره العدُّ قليلٌ.

﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ بطريق الاستعجال استهزاءً ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾؛ أي: أيُّ شيء يَمْنَعُ العذابَ من المجيء إلينا، والنزولِ علينَا، والمعنى: وعزتي، وجلالي، لئن أخَّرْنَا عنهم عذابَنا الذي توعدهم به الرسول ﷺ إلى حين من الزمن مقدَّر في علمنا، وهو مقتضى سنتنا في خَلْقِنا وبيَّناه في كتابنا بقولنا: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ليقولُن استهزاءً، أيُّ شيء من الأشياء يمنع هذا العذاب، ويحبسهُ من الوقوع، إن كان حقّاً، والاستفهامُ فيه للإنكار، المضمَّنِ للاستهزاء، والسخرية، ثُمَّ توعَّدَهم بنزوله، وأجابَهم بقوله: ﴿ألا﴾؛ أي: انتبهوا أيُّها المخاطبون ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: العذابُ ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾، ولا مدفوعاً، ولا محبوساً ﴿عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم﴾ عبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقُّق وقوعه، فكأنَّه قد حاق بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: ويَحِيقُ ويُحيط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلُونه استهزاءً منهم، ووَضَع يستهزئون مكانَ يستعجلون؛ لأنَّ استعجالَهم كانَ استهزاءً منهم.

والمعنى: انتبهوا أنَّ له يوماً يأتيهم فيه حين تنتهي المدَّة المضروبةُ دُونَهُ، ويومئذ لا يصرفِه صارفٌ، ولا يحبسه حابسٌ، وسيحيط بهم يومَئذ مِن كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه، فلا هو يصرف عَنْهُم، ولا ينجَونَ مِنه.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و (اللام) فيه موطئة للقسم، والمراد: الجنسُ فشَمَلَ المؤمنَ والكافرَ بدليل الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي: لَئِن أذقنا الإنسان وأعطيناه ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾؛ أي: رحمةً كائنةً منا، ورحمةً صادرةً من جهتِنا كغِنًى، وصِحَّةٍ ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾؛ أي: سلبناه إياها ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾؛ أي: لَقاطع رجاءه من عود أمثالها لقِلَّةِ صبره وعدم ثقته بالله ﴿كَفُورٌ﴾؛ أي: عظيم الكفران لما سَلَفَ من النعم، وقيل: المرادُ بالإنسان جنس الكفار، ويؤيده أنَّ اليأسَ والكفرانَ، والفرحَ، والفخرَ، هي: أوصافُ أهل الكفر، لا أهل

الإسلام غالباً، وقيل: المرادُ بالإنسان الوليدُ بن المغيرة، وقيل: عبد الله بن أبي أُميةَ المخزوميّ، والمرادُ بالرحمة هنا: النعمةُ من توفير الرِزق والصحة والسلامة من المِحَنِ.

والمعنى[1]: والله لئن أعطينا الإنسانَ نوعاً من أنواع النِّعَم كرخَاءِ العيش وبَسْطةِ الرزق، وصحةٍ وأمن وولدٍ بارٍّ رحمةً مبتدأةً منا، أذقناهُ لَذَّتها، فكانَ شديدَ الاغتباط بِهَا ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التي قَدَّرها الله تعالى في الخليقة، كالمرض، والموت، والعسْر، إنّه لَيَظَلُّ في هذه الحال شديدَ اليأس من الرحمة، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة، كثيرَ الكفران لغيرها من النِّعَمِ التي لا يزالُ يتمتَّع بها فضلاً عمَّا سَلَفَ مِنها.

والخلاصةُ: أنَّهُ يجمع بَيْنَ اليأس بعودة ما نُزع منه، والكفر بما بقي له، لحرمانه من فضيلتي الصَّبْرِ والشكر ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾؛ أي: وعزتي، وجلالي: لئن أَعْطينَا الإنسَانَ ﴿نَعْمَآءَ﴾؛ أي: سعةَ رزق، وعافية، وفي التعبير[2] بالذوق ما يدلُّ على أنه يكون منه ذلكَ عند سلب أدنى نعمةٍ ينعم الله بها عليه؛ لأن الإذاقَةَ والذوق أقل ما يُوجَد به الطعم ﴿بَعْدِ﴾ كشف ﴿ضَرَّآءَ﴾ وشدة ﴿مَسَّتْهُ﴾؛ أي: أصابته كصحَّةٍ بعد سقم، وفرَجٍ بعد شِدَّةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك الإنسان ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾؛ أي: المصائب التي أساءتني ﴿عَنِّيٓ﴾ من الضرِّ والفقر.

والمعنى: أنه إن أذاق الله سبحانه العبدَ نعماءَه من الصحة، والسلامة، والغنى بعد أن كانَ في ضر من فقر، أو مرض، أو خوف، لم يقابِلْ ذلك بما يليقُ به من الشكر لله سبحانه، بل يقول: ذهبت السيئات؛ أي: المصائِبُ التي ساءَتْهُ من الضر والفقر، والخوف، والمرض عنه، وزال أثَرُهَا غَيْرَ شاكرٍ لله، ولا مثن عليه بنعمة ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ ذلك الإنسانَ ﴿لَفَرِحٌ﴾؛ أي: كثير الفرحِ، بَطَراً وأشراً ﴿فَخُورٌ﴾؛ أي: كثيرُ الفخر على الناس، والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم، وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس مناسبةٌ للتعبير في جَانِبِ

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

النعماء بالإذاقة، فإنَّ كِلَيْهِمَا لأدنى ما يُطْلَقُ عليه اسمُ الملاقاة، وقرأ الجمهور: ﴿لَفَرِحٌ﴾ بكسرِ الراء، وهو قياسُ اسم الفاعل من فعل اللازم، وقرأتْ فرقةٌ: ﴿لَفَرُحٌ﴾ بضم الراء وهي كما تقول: دنس وطمس ذكره أبو حيان.

وحاصل المعنى: ولئن[1] كشفنا عنه الضراء التي أصابَتْهُ، وحَلَّ محلَّها نعماءُ كشِفاءٍ من مرض، وزيادة قوة، وخروج من عسر إلى يُسْرٍ ونَجَاةٍ من خوف، وذلٍّ إنه ليقولن ذَهَبَ ما كان يَسُوءُني من المصائب والضراء، ولن يعودَ، وما هي إلا سحابة صيف قد تقشَّعَتْ، وعليَّ أنْ أنسَاها وأتمتَّعَ بتلك اللذَّاتِ، وإنه حينئذ لشديدُ الفرح بما يهيِّجُهُ البَطَرُ بتلك النعمة، وإنَّه ليُغالِي في الفَخْرِ والتَّعَالِي على الناس، والاحتقارِ لِمَنْ دُونَهُ فِيهَا.

والخلاصة: أنَّا إذا مَنَحْنَا هذا الإنسانَ اليؤوسَ الكَفورَ، نَعْماءَ أذقْنَاه لَذَّتَها، بَعدَ ضرَّاء مسَّتْه باقترافه أسبابَها، لم يُقابِلْهَا بشكر الله عليها، بل يَبْطَرُ ويفخَرُ على الناس، ولا يقومُ بما يَجِبُ عليه من مُواساة البائِسينَ، الفقراءِ، وعملِ الخير لبني آدَمَ كفاء ما هو متمتع به من تلك النِّعَمِ، ثمَّ استثنى سبحانه من جنس الإنسان فيما ذُكر من حالتَيْه السَّالِفَتَيْنِ قَبْلُ الصابرينَ الذينَ يعملون الصالحاتِ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على ما أصابهم من الضراء إيماناً بالله، واحتساباً للأَجْرِ عنده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حينما يكشِفُها ويبدِّلُ النعماءَ بِهَا، ويشكرهُ باستعمالها فيما يرضيه من عمل البر، والخير لعباده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكِر ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من ربهم تَمْحُو ما عَلِقَ بأنفسهم من ذَنْبٍ أو تقصير ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ثوابٌ جسيمٌ في الآخرة على ما وفِّقوا لعمله من برٍّ، وخير كثير.

والخلاصةُ[2]: أنَّ الإنسانَ وإن كانَ مؤمناً حقَّ الإيمان، لا يسلم من ضيق صَدْر حينَ حُلُول الضراءِ والمصائب، وذلك مِمَّا ينافي كمالَ الرضا كما لا يسلم حين النعماء من شيءٍ من الزُّهْوِ والتقصيرِ في الشكر، فيُغْفَرُ له كلٌّ منهما بصبره وشكره، وإنابته إلى ربه، وقد جاءَ بمعنى الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿الْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ ووصفُ الأجر بالكبير لِمَا حَواهُ من نعيم سَرْمديٍّ وأمْن من العذاب، ورضىً من الله عز وجل، ونظَرٍ إلى وجهه الكريم ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، واختيارُهُ على العظيم لرعاية الفواصل كما ذكره الكرخي، ثم سلَّى اللَّهُ سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾؛ أي: فلعلك يا محمدٌ تاركٌ تبليغَ بعض ما يوحي إليك ربُّك، أنْ تبلغه إلى مَنْ أمَرَكَ أن تبلِّغ ذلك إليه، ﴿و﴾ لعلَّك ﴿ضائق به صدرك﴾؛ أي: ولعلك[1] يضِيق صَدْرُك بما يوحى إليك، فلا تبلغه إيَّاهم، وذلك أنَّ كفَّارَ مكةَ قالوا: إئت بقرآنٍ غير هذا، ليس فيه سَبُّ آلهتنا، فهَمَّ النبيُّ ﷺ أن يَتْرُكَ ذِكْر آلهتهم ظاهراً، فأنزل الله عز وجل، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ يعني مِنْ ذكر آلهتهم، هذا ما ذكره المفسرون في معنى الآية، قيل[2]: وهذا الكلام خارجٌ مَخْرَجَ الاستفهام، فلعلَّ هنا للاستفهام الإنكاري، كقوله ﷺ: «لَعَلَّنا أعْجلنَاك»؛ أي: هل أنت تاركٌ، وقيل: هو في معنى النفي مع الاستبعاد؛ أي: لا يكونُ منك ذلك بل تبلغهم جميعَ ما أنزلَ اللَّهُ عليك أحَبُّوا ذَلِك أم كرهوه، شاؤوا أم أبَوا.

والمعنى على الاستفهام: أي أفتاركٌ[3] أنت أيها الرسول بعضَ ما يوحى إليكَ مما يشُقُّ سماعه على المشركين من الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، والإنذارِ والوعيد لهم، والنَّعْيِ على معبوداتِهم وتَسْفِيهِ أحلامهم، وضائقٌ به صَدْرُك أن تبلغَهم إياه، كما أُنزل ذاك أنهم كانوا يَتَهَاوَنُون به، فيَضِيقُ صَدْرُه أنْ يلقي إليهم ما لا يَقْبَلُون، وما يضحكون منه، فاستحثه سبحانه على أداء الرسالة، وعدم المبالاة باستهزائهم، وطرح مقالاتهم الساخرة وراءَه ظهرياً.

والخلاصة: تحمل أخف الضرَرَيْنِ، وهو تحمل سَفَاهَتِهم على ترك بعض الوحي، والوقوع في الخيانة فيه.

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

وعبر بـ ﴿ضائق﴾ دونَ ضيق، لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث، والعروض، والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم؛ أي: لا تَتْرُك تبليغَ بَعْضَ ما يُوحى إليك من البينات الدالَّة على حقيقة نبوتك، ولا يَضِيْقِ صدرك بتلاوته عليهم في أثناء الدعوة، والمحاجةِ، مخافةَ ﴿أَن يَقُولُوا﴾ لك ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: هلاَّ أُنْزِل على محمد ﴿كَنزٌ﴾؛ أي: مالٌ كثير مكنوز مخزون ينتفع به، ويَسْتَغْنِي به، ويُنْفِقُه ﴿أَوۡ﴾ هلاَّ ﴿جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يشهدُ بصدقه، وقائل[1] هذه المقالةِ هو: عبدُ الله بن أبي أمية المخزومي.

والمعنى: أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنتَ صادقاً في قولِك بأنَّكَ رسولُ الله، الذي تصفه بالقدرة على كل شيء، وأنت عزيزٌ عنده، مع أنك فقيرٌ، فهلاَّ أنزلَ عليك ما تستغني به، أنت وأصحابُك، وهلاَّ أَنْزَلَ عليك مَلَكاً يشهد لك بالرسالة، فتزولَ الشبهة في أمرك، فأَخْبَرَ الله تعالى عَزّ وجلّ أنه ﷺ نذيرٌ بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿نَذِيرٌ﴾ تُنذِر الناسَ بالعقاب على أعمالهم التي عَمِلُوها لِطلبِ الدنيا، وذلك أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى، يوسِّع عليهم الرزق، ويدفع عنهم المكارهَ في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ وليسَ عليكَ من أعمالهم شيءٌ.

وحاصل المعنى: أنَّ عِنادَهم وجحودَهم، وإعراضَهم عن الإيمان، وشدَّةَ اهتمامِك بأمرِهم، ممَّا شأنه أن يَقْتضِي ضَيْقَ الصدر بحسب الطباع البشرية، أو أن يخطرَ على البال، ترك بعضِ الوحي، ولولاَ عِصْمَتُنا إيَّاك، وتثبيتُنا لك، لاجْترَحت ذلك، واستَسْلَمْتَ لما لمثله جَرَت العادة، ولكنَّ الله تعالى حَفِظكَ حتى تؤدِّي رسالته، وترحَمَ العالمين بنور نبوتك، كما قال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤﴾.

وقد جاءَ بمعنى الآية قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾، وقولُه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا

(١) الخازن.

﴿يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾، وقوله: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ أي: ليس عليك إلا إنذارُهم بما أوحيَ إليك، غيرَ مبال بما يَصْدُر منهم، ويطلق ألسنتَهم، والله هو الرقيب على عباده، وليسَ عليكَ من أعمالهم شيء.

فصل

وأجمع المسلمون على أنه ﷺ فيما[1] كَانَ طريقه البلاغ فإنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه، بخلافِ ما هو به، لا خطأً، ولا عمداً، ولا سهواً، ولا غلطاً، وأنه ﷺ بلغَ جميعَ ما أنزلَ الله عليه إلى أمَّته، ولم يكتم منه شيئاً، وأجمعوا على أنَّه لا يجوز على رسول الله ﷺ خيانةٌ في الوَحْي، والإنذار، ولا يترك بَعض ما أوحي إليه لقولِ أحدٍ؛ لأنَّ تجويزَ ذلك يؤدي إلى الشك في أداء الشرائع، والتكاليف؛ لأنَّ المقصودَ من إرسال الرسول التبليغ إلى من أرسل إليه، فإذا لم يحصل ذلك، فقد فاتَتْ فَائدة الرسالة، والنبيُّ ﷺ معصوم من ذلك كله، وإذا ثَبتَ هذا وجب أن يكون المرادُ بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ شيئاً آخرَ سوى ما ذكره المفسرون، وللعلماء في ذلك أجوبةٌ:

أحدُها: قال ابن الأنباري: قد علمَ الله سبحانه وتعالى أنَّ النبي ﷺ لا يترك شيئاً مِما يوحى إليه إشفاقاً من مَوْجِدَةِ أحد، وغَضَبِه، ولكنَّ اللَّهَ تعالَى أكَّدَ على رسوله ﷺ متابَعَة الإبلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ الآية.

الثاني: أنَّ هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وتحريضه على أداءِ ما أنزله إليه، والله سبحانه وتعالى مِن وراء ذلك في عِصْمتِهِ مما يخافه ويَخْشاه.

الثالث: أنَّ الكفار كانوا يستهزئون بالقرآن، ويَضْحَكُون منه، ويتهاوَنُون به، وكانَ رسولُ الله ﷺ يضيق صَدْرُهُ لذلك، وأن يُلْقِي إليهم ما لا يقبلونه، ويستهزئونَ به، فأمَرَهُ الله سبحانَه بتبليغ ما أوحِي إليه، وأن لا يَلْتَفِتَ إلى

---

(١) الخازن.

استهزائهم، وأنَّ تحمُّلَ هذا الضَّرَرَ أهون من كتم شيء من الوحي، والمقصود من هذا الكلام: التنبيهُ على هذه الدقيقة، لأن الإنسان إذا عَلم أنَّ كلَّ واحد من طَرَفَي الفعلِ والترك مشتملٌ على ضَرَرٍ عظيم، ثمَّ عَلِمَ أنَّ الضَّرَرَ في بابِ الترك أعْظَمُ، سَهُلَ عليه الإقدامُ على الفعل، وقيل: إن الله سبحانه وتعالى مع علمه بأن رسولَ الله ﷺ لا يتركُ شيئاً من الوحي، هَيَّجَه لأداء الرسالة، وطرح المبالاةِ باستهزائهم، وردَّهم إلى قبول قوله بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾؛ أي: لعَلَّكَ تتركُ أن تلقِيَه إليهم مخافةَ رَدِّهم، واستهزائهم به، وضائقٌ به صَدْرُكَ؛ أي: بأنْ تَتْلُوَهُ عليهم، والله أعلم.

و ﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ..﴾[1] هي: المنقطعة التي تقدَّرُ بمعنى بَلْ الإضرابية، وهمزة الاستفهام التوبيخي، والتقريعي، والضميرُ المستتر في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ للنبي ﷺ، والبارزُ إلى ما يُوحى إليه.

أي: بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكَّة: إنَّ محمداً ﷺ قد افترَى هذا القرآن واختلقَه من عند نفسه، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في جواب مقَالَتِهم هذه، ورَدِّها إن كانَ الأَمْرُ كما تزعمون ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: مثل القرآن في البلاغة، وحُسْنِ النَّظْمِ، وجزالة اللفظ، وفَخامةِ المعاني، ووصَفَ السُّورَ بما يوصف به المفرد، فقال: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ ولم يقل: أمثالِه؛ لأنَّ المرادَ: مماثَلَة كلِّ واحد من السور، أو لقصد الإيماء إلى وَجْه الشبه، ومدارِ المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز، وهذا: إنما هو على القول بأنَّ المطابقةَ في الجمع، والتثنية، والإفراد، شرطٌ، ذَكَرَه الشوكاني، أي: بعشر سور مماثلة للقرآن في ذلك ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾؛ أي: مختلفات من عند أنفسكمْ، لا تدَّعُون أنها من عند الله تعالى، فإنكم أهلُ اللَّسَنِ والبيان، والمران على المفاخرة بالفصاحة، والبلاغة، وفنون الشعر، والخَطابة، ولَم يسبِقْ لي مع العمر الطويل الذي عشته بينكم أنْ أُزاوِل شيئاً من ذلك، فإن كَانَ من كلام البشر، فأنتم على مثله أقْدَرُ، وإنكم لتعلمون أني لم أكذب على بشر قط، فكيف أَفْتَرِي على الله؟

---

(١) الشوكاني.

﴿و﴾ إنْ زعمتم أنَّ لي من يعينني على تأليفِهِ ووصْفِه، فـ ﴿ٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ممن تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، ومِنْ سَائِرِ خلقه لِيُسَاعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر، ولتكن مِثْلَه مفتريات تشملُ على مثل ما فيه من تشريع دينيٍّ، ومَدَنيٍّ، وحكم ومواعظ، وآداب، وأنْباء غيبية إخباراً عن ماض، وأنباء غيبية. إخباراً عن مستقبل بمثل هذا النظام البديع، والأسلوب البالغ حَدَّ الإعجاز، والبلاغَةِ الساحِرَة للألباب، والسلطان الحَاكِم على الأنفس والأرواح ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعاءِ كونِ القرآن مفترًى على الله تعالى.

والخلاصة[1]: أنّ مشركي مكَّةَ المعانِدِينَ، لم يجدوا شبهةً في القرآن بعد شبهة السحر التي لم تَجِد أُذناً صاغيةً عند العرب؛ لأنهم أربابُ الفصاحة، واللسن، فعرفوا فضله على سائر الكلام، إلا زَعْمَهُمْ أنَّ محمداً قد افتراه جملةً، وليس بوحي من عند الله، فتحداهم بالإتيان بعشر سور مثله، في النظم والأسلوب محتويةٍ على التشريع القيم من دينيٍّ ومدَنيٍّ، وسياسيّ، وحكم، ومواعظ، وآداب، وكلَّفهم دعوةَ مَنْ استطاعوا من دون الله، لِيُظاهِرُوهم، ويُعَاوِنُوهم على ذلك، فعَجَزُوا، ولم يجدوا من فصحائهم من يستجيب لهم، فقامت الحُجَّةُ عليهم، وعلى غيرهم إلى يوم الدين، وهذا معنى قوله:

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾؛ أي: فإن لم يستجب لكم مَنْ تَدْعونهم من دونِ الله ليعاونوكم على الإتيان بالعشر السور المُمَاثلةِ للقرآن من فحول الكتَّاب، ومَصَاقِع الخطباء، وعلماء أهلِ الكتاب العارفين أخْبارَ الأنبياء ﴿فَٱعْلَمُوٓا﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ هذا القرآنُ على محمد ﷺ ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمقتضى علم الله وإرادتِه أن يبلِّغَه لعباده على لسان رسوله، ولا يقدرُ عليه محمد ولا غيره ممن تدعونه زوراً أنهم أعانُوه، لأنه من علم الغيب الذي لا يَعْلَمُه إلا مَنْ أعلمه الله به.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: واعلموا أيها المشركونَ، أنه لا معبودَ بحق في

---

(١) المراغي.

الوجود إلا اللَّهُ سبحانَه وتعالى، إذ من خصائص الإلّه أن يَعْلَمَ ما لا يعلمه غيره، وأن يُعْجِزَ مَن عداه عن مثلِ ما يقدر عليه، والاستفهام، في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ للتوبيخ المضَمَّنِ للأمر؛ أي: فهل أنتم أيها المشركون بعد أن قامت عليكم الحجة، داخلون في الإسلام الذي أدعوكم إليه، بهذا القرآن، مؤمنون بما فيه من عقائدَ، ووعد، ووعيد، وأحكام، وحِكم وآداب؛ أي: أَسْلِمُوا، وأَخْلِصُوا لله العبادةَ.

والخلاصة: أنه لم يَبْقَ لكم بَعْدَ أنْ دُحِضَتْ شبهتَكم، وانقطعَتْ مَعَاذِيركُم إلاَّ جُحودَ العناد، وإعراض الاستكبار، والعاقل المنصِفُ لا يرضَى لنفسه بمِثْل هذا.

والمعنى[1]: فإن لم يستجِب لكم آلهتكم، وسائرُ مَنْ إليه تجأرُونَ في مُلِمَّاتِكم إلى المعاونة، فاعلموا أنَّ القرآنَ خارج عن دائرة قدرة البشر، وأنه منزل من خالق القِوَى والقُدَرِ، واعلموا أيضاً أنَّ آلِهَتَكُم بمعزل عن رتبة الشركة في الألوهية، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام هذه الحجة القاطعة؟.

وقرأ زيد بن علي[2]: ﴿أنَّما نَزَّل﴾ بفتح النون والزاي وتشديدها، ويحتملُ أن تكونَ ﴿ما﴾ مصدرية، أي: ﴿أنَّ﴾ التنزيلَ، ويحتمل أن تكونَ بمعنى الذي؛ أي: أن الذي نزَّله، وحذف الضمير المنصوب لوجود شرط جواز الحذف. فإن قلت:[3] قد تحدَّاهم بأن يأتوا بسورة مثله، فلم يقدروا على ذلك، وعجزوا عنه، فكيف قال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾، ومَنْ عجزَ عن سورة واحدة، فهُو عن العشرة أعْجَز؟

قلتُ: قد قال بعضهم: إن سورة هود نزلَتْ قبل سورة يونس، وأنه تحدَّاهم أوَّلاً بعشر سور، فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس، وأنكر المُبرِّد هذا القول، وقال: إن سورةَ يُونُسَ نَزَلَتْ أوَّلاً. قالَ: ومعنى قولِه في سورة يونس: ﴿فَأْتُوا

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ يعني مثله في الإخبار عن الغيب، والأحكام، والوعد، والوعيد، وقولُه في سورة هود: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ يعني مجرَّدَ الفصاحة، والبلاغة من غير إخبارٍ عن غيبٍ، ولا ذِكرِ حكم، ولا وعد، ولا وعيد، ثم إنَّ اللَّهَ سبحانَه وتعالى توعَّدَ مَنْ كَانَ مقصورَ الهمة على الدنيا، لا يطلُب غَيْرَها، ولا يريد سِوَاها فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله الذي يَعْمَلَهُ من أعمال البر والخير من العبادات، وإيصال المنفعة إلى الحيوانات ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: التمتعَ بلذاتها من طعام وشراب ﴿وَزِينَتَهَا﴾؛ أي: ما يَتَزَيَّن به فيها من اللباس والأثاث، والرياش، والأموال، والأولاد دُونَ استعدادٍ للحياة الآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: نُؤدِّ إليهم جزاءَ أعمالهم، وثمراتها فيها، وافيةً تامَّةً بحسب إرادتنا، وسُنَّتِنَا في الأسباب؛ أي: نوصل إليهم ثمرات أعمالهم في الحياة الدنيا، كاملةً ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم في الحياة الدنيا: لا يُنْقَصون من جزاءِ أعمالهم نقصاً كلياً، ولا يحرمون من ذلك حرماناً كلياً، لأجل كفرهم إذ مدار الأرزاق فيها على الأعمال، لا على النيات، والمقاصد، وإن كانَ لهداية الدينِ أثر في ذلكَ كالاستقامة، والصدقِ واجتنابِ الخيانةِ والزور، والغش، وغير ذلك، وذلكَ الجزاء هو: ما يرزقون فيها من الصّحَّةِ، والرياسة، وسعة الرّزق، وكثرة الأولاد ونحو ذلك.

والخلاصة: أنَّ جزاءَ الأعمال في الدنيا مَنُوطٌ بأمرَين: كسب الإنسان، وقضاءِ الله، وقدره به، وأمَّا جزاءُ الآخرة فهو بفعلِ الله تعالى بلا وساطةِ أحد، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: هؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الدنيا ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾؛ أي: لا ينقصون منْ جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها، وذلك في الغالب، وليس بمطرد، بل إن قَضَتْ به مشيئتُهُ سبحانه ورجَّحَتْهُ حكمتُه البالغةُ، وقال[1] القاضي: معنى الآية مَنْ كانَ يريد بعمل الخيرِ الحياةَ الدنيا، وزينتَهَا نوف إليهم أعمالهم، وافيةً كاملةً من غير بخس في الدنيا، وهو ما ينالون فيها من

---

(١) الشوكاني.

الصحة، والكفاف، وسائر اللذات، والمنافع، فخص الجزاءَ بمثل ما ذكره، وهو حاصلٌ لكل عامل للدنيا، ولو كانَ قليلاً يسيراً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين لا هَمَّ لهم إلا الدنيا، وزينتَها الموفون فيها جزاءَ أعمالهم هم ﴿ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ بسبب هذه الأعمال الفاسدة المقرونةِ بالرياء، لأنَّ الجزاءَ فيها على الأعمالِ كالجزاءِ في الدنيا، وهم لم يعملوا للآخرة شيئاً، فإنَّ العمل لَهَا يكون بتزكية النفس بالإيمان، وعمل الفضائل، وبالتقوى باجتناب المعاصي، والرذائل، وما صَنَعُوه فيها مِمَّا ظاهِرُه البرُّ والإحسان كالصدقة، وصلة الرحم، ونحو ذلك، لم يكن تزكيةً لأنفسهم تُقربُهم إلى ربهم بَلْ كانَ لأغراض نفسية من شهواتهم كالرياء، والسمعة، والاعتزاز بذوي القرابة على الأعداء، ولو بالباطل فلا أجْرَ له فيها، وقد انقطع أثرهُ الدنيويُّ.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾؛ أي: ظهر حُبوطٌ ما صنعوه من الأعمال التي كانت صُورَتُها صورةَ الطاعات الموجبة للجزاء الأخروي، لولا أنهم أفسَدُوها بفساد مقاصدهم، وعدم الخلوص فيها، وعدم إرادة ما عند الله في دار الجزاء، بل قَصَرُوا ذَلك على الدنيا وزينتها؛ أي: ظَهَر حبوطُه وبُطْلانهُ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الآخرة، إن قلنا: إن الجار والمجرور متعلق بـ ﴿حبط﴾ فالضميرُ عائد إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وإن تعلق بـ ﴿صَنَعُواْ﴾ فهو عائد إلى ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: إنه كان عملهم في نفسه باطلاً غيرَ معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاءَ ويترتَّبَ عليه ما يترتَّبُ على العمل الصحيح.

فصل

ويندرج في عموم الآية[1] المُراؤون من أهل القبلة، كما ترى أحدَهم إذا صلّى إماماً يتنغم بألفاظ القرآن، ويُرتِّلِهُ أحسنَ ترتيل، ويُطيل ركوعَه وسجُودَه، ويتباكَى في قراءته، وإذا صَلّى وَحْدَهُ اختلسها اختلاساً، وإذا تصدَّقَ أظهَرَ صدقتَه أمَامَ مَنْ يثني عليه، ودَفَعها لمن لا يستحقها، حتى يُثْنِي عليه الناسُ، وأهلُ

(١) البحر المحيط.

الرباط المتصدق عليهم، وأين هذا من رجل يتصدَّقُ خفيةً، وعلى مَنْ لا يعرفه، كما جاء في السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه «ورجلٌ تصدَّق بصدقة، فأخفاها حتى لا تَعلم شماله ما تنفق يمينه»، وهذه مبالغة في إخفاء الصدقة جداً، وإذا تعلَّم علماً راءى به، وتبجَّح، وطلَبَ بمعظمه يسيرَ حطام من عرض الدنيا، وقد فَشَا الرياء في هذه الأمة فشواً كثيراً، حتى لا تكادُ تَرَى مخلصاً لله لا في قول، ولا في فعل، فهؤلاء من أولِ من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، والعياذُ بالله تعالى، والرياءُ هو أن يُظْهِرَ الإنسانُ الأعمالَ الصالحةَ ليحمده الناس عليها، أو ليَعْتَقِدُوا فيه الصلاحَ، أو ليقصدوه بالعطاءِ، فهذا العملُ هو الذي لغير الله تعالى، نعوذ بالله تعالى من الخذلان، اهـ من «الخازن».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نُوَفِّ﴾ بنون العظمة، وقرأ طلحة بن ميمون: ﴿يُوفِّ﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ زيد بن علي: ﴿يُوفِ﴾ مخففاً مضارعُ أوفى، وقرىء: ﴿تُوف﴾ بالتاء مبنياً للمفعول، و﴿أعمالهم﴾ بالرفع، وهو على هذه القراءات مجزوم جوابَ الشرط كما انجزم في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾.

وقرأ الحسن: ﴿نُوفي﴾ بالتخفيف وإثبات الياء، فاحتمل أن يكون مجزوماً بحذف الحركة المقدرة على لغة مَنْ قال:

أَلَـمْ يَـأْتِـيْـكَ وَٱلأَنْـبَـاءُ تَـنْـمِـيْ

وهي لغةٌ لبعض العرب، واحتملَ أن يكونَ مرفوعاً.

وقرأ زيد بن علي: ﴿وَبَطَلَ﴾ جعلَه فعلاً ماضياً، وقرأ أُبيٌّ وابن مسعود، و﴿باطلاً﴾ بالنصب، وخرَّجه صاحب «اللوامح» على أنه مفعول لـ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فهو معمولُ خبر ﴿كَانَ﴾ متقدماً، و(ما) زائدة؛ أي: وكانوا يعملون باطلاً، وفي جواز هذا التركيب خلافٌ بَيْنَ النحويين، وهو أن يتقدَّم معمول الخبر على الجملة بأسرها مِنْ كَانَ واسمها وخبرها، ويشهد للجواز قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا

---

(١) البحر المحيط.

﴿يَعْبُدُونَ﴾ ومَنْ مَنَعَ تأوَّل، ذكره أبو حيان. ثُمَّ ذكر الله سبحانه وتعالى أنَّ بين مَنْ كان طالباً للدنيا فقط، ومن كانَ طالباً لِلآخرة تفاوتاً عظيماً، وتبايناً بعيداً فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ و(الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري داخلةٌ على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أجَهِلتُم وتَعَامَيْتُم عن الحق فَمَنْ كان على بينة ومعجزة، وبيان وبرهان من ربه، والمراد بالبينة: القرآن، وهو النبي ﷺ والمؤمنون فـ﴿مَن﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره؛ أي: أفمن كان على برهان من ربه، كمن هو في كفر وضلالة، وجواب الاستفهام محذوف أيضاً، تقديره: لا يستويان، وقد صرَّحَ بهذين المحذوفين في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾ وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ معطوف على جملة الصلة، والضميرُ في ﴿يتلوه﴾ عائد على ﴿مَن﴾ وكذلك الضمير في قوله الآتي﴿من قبله﴾ كما في «الصاوي»، أي أفمن كانَ على بيان وبرهان من ربه ويتلوه؛ أي: ويتبعه ويصدِّقه، ويقوِّيه شاهد منه؛ أي: من الله تعالى، وهو جبريل كمن ليس كذلك وقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ حال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو معطوف على ﴿شَاهِدٌ﴾ وقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالانِ أيضاً من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ والتقدير: أفمَن كانَ على بيان وبرهان وحجة من ربه، ويتلوه ويتبَعُه ويصدِّقُه، ويقويه شاهد منه تعالى، يشهدُ بصدقه، وهو جبريل، ويتلوه ويتبعه، ويُوافقه كتاب موسى، فيما يدَّعِيه من التوحيد حالَ كون كتاب موسَى كائناً من قبله، وحالةَ كَوْن كتابه إماماً يقتدَى به في الدين، وحالةَ كونه رحمةً لمن آمن به من بني إسرائيل؛ لأنه يهدي إلى الحق في الدين والدنيا، كمَنْ ليسَ كذلك لا يستويان فبينهما بون بائن وفرق فارق.

وقرأ محمد بن السائب الكلبيُّ وغيره[1]: ﴿كتابَ موسى﴾ بالنصب عطفاً على مفعول ﴿يتلوه﴾ أو بإضمار فعل، فالضمير في ﴿يتلوه﴾ حينئذ عائدٌ على بينة، بمعنى القرآن؛ أي: ويتلو القرآن، وكتاب موسى شاهدٌ منه تعالى، وإنما خَصَّ كتاب موسى بالذكر دونَ كتاب عيسى؛ لأنَّ أهلَ الملتين اليهودَ،

(١) البحر المحيط.

والنصارى، متوافقان على أنَّ التوراةَ مِن عند الله تعالى بخلاف الإنجيل؛ لأنَّ اليهودَ تُخالِفُ فيه، فكان الاستشهادُ بما تَقُومُ به الحجة على الفريقين أولى.

وأعرب البيضاوي ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ مبتدأ والجار والمجرور خبراً.

والمعنى[1]: أفمن كان على نور، وبصيرة في دينِهِ، ويؤيده نُورٌ غيبيٌّ يشهدُ بصحته، وهو القرآن المشرِق النور والهدي ويؤيده شاهدٌ آخرَ جاء مِنْ قبله، وهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، حالَ كونه إماماً متَّبعاً في الهدى والتشريع، ورحمةً لِمَنْ آمن، وعَمِلَ به مِن بني إسرائيل وشهادةُ موسى لهذا النبي الكريم شهادةُ مقال بالبشارة بنبوته، وشهادة حال، وهي التشابه بين رسالتَيْهما؛ أي: أفمن كان على هذه الأوصاف كمَنْ يريد الحياة الدنيا الفانيةَ وزينتَها الموقوتة ويظل محروماً من الحياة العقلية، والروحية التي تُوصِل إلى سعادة الآخرة الباقية ونحو الآية قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾.

وإجمالُ المعنى[2]: أفمن كانَ كاملَ الفطرة، والعقل، وعَرَفَ حقيقةَ الوحي، وهو القرآن، وما فيه من نور وهداية وعرَف تأييدَه بالوحي السابق الذي اهتدى به بنو إسرائيل، فتظاهرت لدَيْه الحججُ الثلاثُ في الهداية كمال الفطرة، ونور القرآن، والوحي الذي أنزل على موسى كمَنْ حُرِم من ذلك، وكان هَمُّه مقصوراً على الحياة الفانية ولذاتِها.

والإشارةُ بقوله[3]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المتصفينَ بتلكَ الصِّفَةِ الفاضلةِ، وهو الكون على البينة من الله، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾؛ أي: يصدقون بالقرآن، أو بالنبي ﷺ؛ أي[4]: أولئك الذين جمعوا بين البينة الوهبية، والبينة الكسبية النقلية، يؤمنون بهذا القرآن إيمان يقين، وإذعان على علم بما فيه من الهدى، والفرقان، فيجزمون بأنه ليس بالمفترى من دون الله، ولم يكن من شأنه أن يكون كذلك.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) المراغي.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾؛ أي: ومن يكفر بهذا القرآن فيَجْحَدُ أنه من عند الله ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: ممن تحزّبوا، وتجمَّعوا من أهل مكة، وزُعماء قريش للصدِّ عنه، قال مقاتل: هم بَنُو أمية، وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي، وآلُ طلحة بن عُبيد الله، وقيل: من[1] جميع الكفار وأصحاب الأديان المختلفة، فتدخلُ فيه اليهودُ والنصارَى، والمجوس وعبدة الأوثان، وغيرهم، والأحزاب هم الفرق الذين تحزَّبوا، وتجمَّعوا، واتفقُوا على مخالفة الأنبياء ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾؛ أي: مكان وعده في الآخرة، ومصيرُهُ ومورِدُه يَرِدُها لا محالةَ، وهي التي فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب، فإنه يصير إلى جهنم من جَرَّاء تكذيبه لوعيده الذي جاء في نحو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

روى البغوي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يهودي، ولا نصراني، ومات، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلاَّ وجدت مصداقه في كتاب الله عز وجل حتى بَلَغني هذا الحديث: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة» الحديثَ، قال سعيد: فقلت: أيْنَ هذا في كتاب الله؟ حتَّى أتيت على هذه الآية: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قال: فالأحزاب أهلُ الملل كلها ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمد ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾؛ أي: في شك ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من القرآن ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ نَزَل به جبريل إن قلنا: إنه متعلق بما قبله من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أو المعنى: فلا تكن في شك من أنَّ مصيرَ من كفر بالقرآن النار، إنَّ هذا الوعدَ هو الحق الثابتُ مِمَّن يربيك في دينك ودنياك، إن قلنا: إنه راجع إلى قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والخطاب في قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ للنبي ﷺ، والمراد به غيره؛ لأنَّ النبيّ ﷺ لم يشُك قط، وقيل: الخطابُ لكل مكلف؛ أي: فلا تكن[2] أيها المكلف في شك من أمر هذا القرآن، إنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

يديه، ولا من خلفه، آتياً من ربك، وخالقِك الذي يربيك بما تكملُ به فطرتُك، ويُوصِلُك إلى سعادَتِك في دنياك، وآخرَتِك، وقرأ الجمهور[1]: ﴿في مِرية﴾ بكسر الميم، وهي لغة الحجاز، وقرأ السلمي، وأبو رجاء، وأبو الخطاب السدوسي، والحسن بضمها، وهي: لغة أسد، وتميم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به، وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً، أو قد طبع على قلوبهم، فلا يفهمون أنه الحقّ أصلاً.

أي: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هـذا الإيـمـانَ الـكـامِـل، أمّـا المشركون منهم، فلاستكبار زُعمائهم، ورؤسائهم وتقليد مرؤوسيهم، وعامتهم لهم وأما أهل الكتاب.. فلتحريفِهم دينَ أنبيائهم، وابتداعهم فيه.

الإعراب

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿مَا﴾ نافية ﴿مِن﴾ زائدة ﴿دَآبَّةٍ﴾ مبتدأ أول ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿دَآبَّةٍ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿رِزْقُهَا﴾ مبتدأ ثان مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول، وخبره مستأنفة ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ فعل ومفعول ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ معطوف عليه وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة المبتدأ الثاني على كونها خبراً للأول، ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ، وسوَّغ الابتداء بالنكرة نِيَّةُ الإضافة فيه، والمضاف إليه محذوف، تقديره: كل ما ذكر من الدابة، ورزقها، ومستقرها، ومستودعها ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ خبر المبتدأ ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبٍ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مقررة لما قبلها.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فعل ومفعول ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف عليه وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ﴾ على كونها صلةَ الموصول ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿يبلوكم﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لبلائكم، واختباركم الجار والمجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ، وخبر ﴿عَمَلًا ۗ﴾ تمييز محول عن المبتدأ منصوب باسم التفضيل، والجملة[1] الاسمية في محل النصب معمولة لـ﴿يبلوكم﴾ علق عنها باسم الاستفهام. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قلت: لما في الاختبار من معنى العلم، لأنه طريق إليه، فهو ملابس له، اهـ «سمين» ﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿قُلْتَ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعلَ شرط لها ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ ناصب واسمه وخبره والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قل﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم مؤكدة للام القسم الأولى ﴿يقولن الذين﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه جواب القسم تقديره، وإن قلت: إنكم مبعوثون يقول الذين كفروا، وجملة الشرط مع جوابه، وكذلك جملة القسم مع جوابه مستأنفة، ﴿كَفَرُوٓا۟﴾ فعل وفاعل صلةُ الموصول ﴿إِنْ﴾ نافية لا عمل لها لانتقاض نفيها بـ ﴿إلا﴾. ﴿هَٰذَآ﴾ مبتدأ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿سِحْرٌ﴾ خبر المبتدأ

---

(١) الفتوحات.

﴿مُّبِينٌ﴾ صفة لـ ﴿سِحْرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿أَخَّرْنَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونِه فعلَ شرط لها ﴿عَنْهُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ مفعول به ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَخَّرْنَا﴾ ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ صفة لـ ﴿أُمَّةٍ﴾ ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم، مؤكدة للأولى ﴿يقولن﴾ فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال؛ لأن أصلَه ليقولونن، وواو الجماعة المحذوفة، لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية جوابُ القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجوابُ الشرط محذوف لِدلالةِ جواب القسم عليه، تقديره: وإن أخرنا عنهم العذاب.. يقولون ما يحبسه، وجملة الشرط مع جوابه، وكذلك جملة القسم معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم﴾ و﴿يقولن﴾ بضم اللام هنا معرب بالنون المحذوفة لالتقاء الساكنين، وإنما أعرب مع نون التوكيد لانفصالها بالواو في التقدير، وإن بَاشَرَتْ في اللفظ، وشرط بناء الفعل معها مباشرتها فيهما، وهذا بخلاف ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ المتقدم فإنه مبني لمباشرة النون في اللفظ والتقدير كما سيأتي بيان إعلاله في مباحث الصرف، ﴿مَا﴾ استفهامية في محل الرفع مبتدأ ﴿يَحْبِسُهُۥٓ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ما الاستفهامية، والضمير المنصوب يعود على ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ والمعنى: أي شيء من الأشياء يحبس العذاب، ويمنعه من الوقوع؟ وهذا الاستفهام على سبيل الاستهزاء، والسخرية، وجملة ﴿يَحْبِسُهُۥٓ﴾ في محل الرفع خبر ﴿مَا﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية في محل النصب مقول القول ﴿أَلَا﴾ حرف استفتاح داخلة على ﴿لَيْسَ﴾ في المعنى ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية، متعلق بـ ﴿مَصْرُوفًا﴾ ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، والجملة في محل الجر، مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلْعَذَابَ﴾. ﴿مَصْرُوفًا﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾ والتقدير:

ألا ليس هو؛ أي: العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم العذاب، وجملة ﴿لَيْسَ﴾. مستأنفة ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلقان بـ﴿مصروفا﴾ ﴿وَحَاقَ﴾ فعل ماض ﴿بِهِم﴾ متعلق به ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ﴾ ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص، واسمه ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية (اللام) موطئة للقسم (إن) حرف شرط ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ (إن) على كونه فعلَ شرط لها ﴿مِنَّا﴾ حال من ﴿رَحْمَةً﴾ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول ثان ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿نَزَعْنَـٰهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَذَقْنَا﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾ (اللام) حرف ابتداء ﴿يئوس﴾ خبره ﴿كَفُورٌ﴾ صفة ﴿يئوس﴾ أو خبر ثان لـ (إن) وجملة (إن) جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف، دلّ عليه جواب القسم، تقديره: فهو يؤوس كفور، وجملة الشرط مع جوابه، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة، لا محلَّ لها من الإعراب.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

﴿وَلَئِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة (اللام) موطئة للقسم (إن) حرف شرط ﴿أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ﴾ فعل وفاعل ومفعولان في محل الجزم بـ (إن) الشرطية ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَذَقْنَـٰهُ﴾. ﴿مَسَّتْهُ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ضَرَّآءَ﴾، والجملة في محل الجر صفة لـ ﴿ضَرَّآءَ﴾ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ (اللام) موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، والجملة جوابُ

القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف تقديره: وإن أذقناه نعماء.. يقول: وجملة الشرط مع جوابه، وكذا القسم مع جوابه معطوفة على جملة، قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾ فعل وفاعل ﴿عَنِّىٓ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، ﴿لَفَرِحٌ﴾ خبره ﴿فَخُورٌ﴾ صفة ﴿فرح﴾ أو خبر ثان، وجملة (إنَّ) مستأنفة مسوقة لتعليل القول.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداةُ استثناء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مستثنًى[1] متصل في محل النصب، والمستثنى منه الإنسان، وقيل: الاستثناء منقطع، و ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن) الاستدراكية ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل الرفع مبتدأ أول، ﴿صَبَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿صَبَرُوا۟﴾، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان، ﴿لَهُم﴾ خبر مقدم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ ثالث ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿كَبِيرٌ﴾ صفة ﴿أجرٌ﴾ والجملة من المبتدأ الثالث، وخبره خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من الأول، وخبره جملة استدراكية لا محلَّ لها من الإعراب، وفي «السمين» قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه منصوب على الاستثناء المتصل، إذ المراد بالإنسان الجنس، لا واحد بعينه.

والثاني: أنه منقطع، إذ المراد بالإنسان شخص معين، وهو على هذين الوجهين، منصوب المحل.

والثالث: أنه مبتدأ، والخبر الجملة من قوله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهو منقطع أيضاً اهـ.

---

(١) العكبري.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿لعل﴾ حرف ترج ونصب ﴿والكاف﴾ في محل النصب اسمها ﴿تَارِكُۢ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة، و ﴿تَارِكُۢ﴾ اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على محمد، ﴿بَعۡضَ مَا﴾ مفعول، ومضاف إليه ﴿يُوحَىٰٓ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَيۡكَ﴾ متعلق به، وجملة ﴿يُوحَىٰٓ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ معطوف على ﴿تَارِكُۢ﴾، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به ﴿صَدۡرُكَ﴾ فاعل ﴿ضائق﴾، ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر إليه، تقديره: مخافةَ قولهم، أو كراهيةَ قولهم، والمصدر المقدر معلل لـ ﴿تَارِكُۢ﴾، و﴿ضائق﴾، ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوۡلَآ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به ﴿كَنزٌ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول، ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض ﴿مَعَهُۥ﴾ متعلق به ﴿مَلَكٌۚ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أُنزِلَ﴾، ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر ﴿أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿وَكِيلٌ﴾، ﴿وَكِيلٌ﴾ خبر عن الجلالة، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾.

﴿أَمۡ﴾ منقطعة مقدرة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الإنكار ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿قُلۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على

محمد، والجملة مستأنفة ﴿فَأْتُوا۟﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: (الفاء) رابطة لجواب شرط محذوف، تقديره: إن كان الأمر كذلك ﴿ائتوا﴾ فعل وفاعل ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بالشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ صفة أولى لـ ﴿عشر﴾ لأنه في تأويل مماثلة إياها ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صفة ثانية ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿فَأْتُوا۟﴾، ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿وَٱدْعُوا۟﴾، ﴿ٱسْتَطَعْتُم﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من استطعتموه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه حال من ﴿من﴾ الموصولة ﴿إِن كُنتُمْ﴾ جازم وفعل ناقص واسمه ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم بـ (إن) الشرطية، وجوابها محذوف معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم صادقين في دعواكم فادعوهم، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول القول.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِلَّمْ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم، ما قلت لكم من دعوة من يساعدكم، وأردتم بيان ما هو الأصلَح، إن لم يجيبوا لكم.. فأقول لكم: إن لم يستجيبوا لكم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم ﴿يَسْتَجِيبُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾، ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونها فعل شرط لها ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ (الفاء) رابطة لجواب (إن) الشرطية وجوباً ﴿اعلموا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب مقول لجواب (إذا) المقدرة ﴿أَنَّمَآ﴾ (أنَّ) حرف نصب ومصدر، ولكن بطل عملها لدخول (ما) الكافة عليها، ولذلك دخلت على الجملة الفعلية (ما) كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها، ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على القرآن ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه حال من

الضمير المستتر في ﴿أُنزِلَ﴾؛ أي: حالةَ كونه ملتبساً بعلم الله وقضائه، والجملة الفعلية في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم؛ أي: فاعلموا إنزالَ الله إياه بعلمه، ﴿وَأَن لَّآ﴾ (الواو) عاطفة (أن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن أي وأنه (لا) نافية تعمل عمل (إنَّ)، ﴿إِلَٰهَ﴾ في محل النصب اسمها، وخبر (لا) محذوف تقديره: وأنه لا إله موجود ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ ضمير للمفرد المنزه في محل الرفع بدل من الضمير المستكن في خبر (لا) وجملة (لا) في محل الرفع خبر لـ (أن) المخففة، وجملة (أن) المخففة في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها، تقديره: واعلموا عدمَ وجودِ إله إلا هو ﴿فَهَلْ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع (هل) حرف للاستفهام الطلبي المضمن للأمر ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على جملة ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف في محله ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ ﴿مَن﴾ على كونها فِعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ﴾ فعل ومفعول ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي: من كان مريداً الحياةَ الدنيا ﴿وَزِينَتَهَا﴾ معطوف على ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾، ﴿نُوَفِّ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مفعول به ﴿فِيهَا﴾ متعلق به أيضاً، وجملة (من) الشرطية مستأنفة، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بما بعده، وجملة ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم

لـ ﴿لَيْسَ﴾، ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ متعلق بالاستقرار، الذي تعلق به الخبر ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلنَّارُ﴾ اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، والتقدير ﴿لَيْسَ﴾ كائناً لهم في الآخرة إلا النار، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة الموصول، ﴿وَحَبِطَ﴾ فعل ماض ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل لـ ﴿حبط﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ﴾، ﴿صَنَعُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: ما صنعوه فيها، ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ خبر مقدم ﴿مَا﴾ موصولة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَيْسَ﴾، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة (ما) الموصولة، والعائد محذوف تقديره ما يعملونه.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾.

﴿أَفَمَن﴾ الهمزة: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أجهلتم أيها المشركون حَقِيَّةَ ما عليه محمد وأصحابه، فمن كان على بينة من ربه، كمن ليس على ذلك (من) اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على (من) ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ صلة الموصول، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: كمن ليس على ذلك، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة، وجواب الاستفهام محذوف أيضاً، تقديره: لا يستويان كما مر في مبحث التفسير، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على جملة ﴿كَانَ﴾، ﴿مِّنْهُ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿شَاهِدٌ﴾، ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ جار ومجرور حال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ معطوف على ﴿شَاهِدٌ﴾، والتقدير: ويتلوه كتاب موسى حالةَ كونه كائناً قبلَه ﴿إِمَامًا﴾ حال ثانية من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف على ﴿إِمَامًا﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿مَن﴾ اسم شرط في

محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب ﴿يَكْفُرْ﴾ فعل مضارع مجزوم على كونه فِعْلَ شرط لـ ﴿مَن﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَكْفُرْ﴾. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ مبتدأ وخبر، و ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب مَن الشرطية، وجملة مَن الشرطية مستأنفة.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَلَا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قلته وأردت بيان ما هو الأصلح اللازمُ لك.. فأقول لك ﴿لا تك في مرية منه﴾ ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَكُ﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ (لا) الناهية، واسمها ضمير يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ جار ومجرور خبرها ﴿مِّنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿مِرْيَةٍ﴾، وجملة تكون في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ ناصب، واسمه، وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ جار ومجرور، حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ (الواو) عاطفة ﴿لكنَّ﴾ حرف نصب واستدراك ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ اسم ﴿لكنَّ﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر ﴿لكنَّ﴾، وجملة ﴿لكنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والدابة[1] اسم لكلِّ نسمة حية تدب على الأرض، زحفاً أو على قوائم اثنين فأكثر، وغلبَ عُرْفاً على ما يركب من الخيل، والبغال، والحمير، والدبُّ، والدبيب الانتقال الخفيف البطيء، كدبيب الطفل، والشيخ المسن، والعقرب. وفي «المصباح»: دَبَّ الصغيرُ يدبُّ من باب: ضَرَب إذا مشى ودَبَّ الجيشُ دبيباً أيضاً إذا ساروا سيراً ليناً، وكل حيوان في الأرض دابَّةٌ. اهـ ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ والمرادُ به ما يقوم به رَمقُها وتَعِيش به. «الكرخي».

---

(١) المراغي.

﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ والمستقر مكانُ الاستقرار من الأرض، والمستودع حيث كانَ مودَعاً قبل الاستقرار في صلب أو رَحم أو بيضة، ويجوز[1] أن يكونَا مصدرين؛ أي: استقرارَها واستيداعَها، ويجوز أن يكونَ مستودَعها اسم مفعول ليتَعدَّى فعله، ولا يجوز ذلك في مستقر لأنَّ فعله لازمٌ، اهـ «سمين». وفي «البيضاوي»: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ أي: أماكنها في الحياة، وفي الممات، أو الأصلاب والأرحام، أو مساكنها من الأرض، حيث وجدَت بالفعل، ومُودَعَها من الموادِّ، والمقار حيث كانَت بعد بالقوة، اهـ. وقوله: من المواد كالمني والعَلقَةِ، والمَقارُّ كالصلب، والرحم، وقولُه: بعد؛ أي: بعد أنْ لم تكن شيئاً، اهـ «زكريا».

﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ والعرش مركز نظام الملك، ومصدرُ التدبير، والبلاء: الاختبار، والامتحان من بلاه يَبْلوه بلوى كدَعَا يدعو دَعْوَى وهو ناقص وَاوِيٌّ.

﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ الأمَّةُ في الأصل الجماعة، والطائفة من الناس من نوع واحد، أو دين واحد، أو ملة واحد، والمراد بها هنا: الطائفة، أو المدة من الزمن، قال القرطبي: الأمة: اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه: الجماعة، والملة، والرجل الجامع للخير، والحين، والزمن، وأتباع الأنبياء... الخ. ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾؛ أي: قليلة، إذ الحصر بالعد يشعر بالقلة ﴿مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: مدفوعاً ومحبوساً ﴿وَحَاقَ﴾ نزَلَ وأحاطَ.

﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وفي «السمين» قولُه﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۚ﴾ هذا الفعلُ معرب على المشهور لأنَّ النون مفصولة تقديراً إذ الأصلُ ليقولونن (النون) الأولى للرفع وبعدها نون مشددة، فاستثقل توالي الأمثال، فحذفت نون الرفع، لأنها لا تدل من المعنى على ما تدل عليه نُونُ التوكيد، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو التي هي ضمير الفعل، لالتقائها ساكنة مع النون، اهـ.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ الإذاقة هنا: الإعطاء القليل، والنزع، والسلب، والحرمان، واليؤوس: شديدُ اليأس من عود تلك النعمة، والكفور، كثيرُ الكفران، والجحود لما سلف عليه من النعم، والنعماء، والنعمةُ والنعمى الخير، والمنفعة، ويقابلها الضراء، والضر ﴿فرح﴾ بطر مغتر بهذه النعمة، ﴿فَخُورٌ﴾ أي: متعاظم على الناس بما أوتي من النعم، مشغولُ بذلك عن القيام بشكرها.

وفي «الشوكاني»: والنعماء: إنعام يظهر أَثَرُهُ على صاحبه، والضراءُ ظهورُ أثر الإضرار على من أصيب به، اهـ.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ لعل هنا: للاستفهام الإنكاري الذي يفيد النهي مع الاستبعاد، ؛ أي: لا تترك تبليغَ بعض ما أوحي إليك، ولا يَضِقْ به صدرُك، والتركُ، والضيقُ مستبعدان منك، وضيقُ الصدر يراد به الغم والحزن وعبر[1] بـ ﴿ضائق﴾ دون ضيِّق للمناسبة في اللفظ مع ﴿تَارِكٌۢ﴾ وإن كان ضيقٌ أكثرَ استعمالاً، لأنه وصف لازم، ﴿وَضَآئِقٌۢ﴾ وصف عارض، وقال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ عدَل عن ضيق إلى ﴿ضائق﴾؟

قلتُ: ليدل على أنه ضيقٌ عارض غيرُ ثابت، لأنه ﷺ كان أفسَحَ الناس صدراً ومثله قولك: سيدٌ، وجوادٌ تريد السيادةَ والجُود الثابتَين المستقرين، فإذا أردتَ الحدوثَ، قلت: سائدُ وجائدُ. انتهى ذكره أبو حيان. ﴿كَنزٌ﴾ والكنزُ ما يدخر من المال في الأرض، وفي «زاده» ﴿كَنزٌ﴾ أي: مال كثير من شأنه أن يكنز؛ أي: يدفن، اهـ. ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ نعت لـ ﴿سُوَرٍ﴾ و ﴿مثل﴾ وإن كانت بلفظ الإفراد فإنها يوصف بها المثنَّى، والجمع، والمؤنث كقوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ وتجوز المطابقة قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾، و (الهاء) في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ تعود لـ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ و ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ صفة لـ ﴿سُوَرٍ﴾ أيضاً، وهي جمع مفتراة كمصطفيات في

---

(١) البحر المحيط.

جمع مصطفَاة، فانقلبت الألفُ ياءً كالتثنية، اهـ «سمين».

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ والوكيل: الرقيب الحفيظ للأمور، الموكل بحراستها ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ والاستجابة للداعي إجابته إلى ما يريد، فالسين والتاء، فيه زائدتان ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الإسلام، الإذعان، والخضوع، والانقياد ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا..﴾؛ أي: نُوصل إليهم من وفَّى يوفي توفية ووفاء كزكى يزكي تزكيةً وزكاةً وهو من المضعف الناقص الذي قياس مصدره التفعلة، وهو مجزوم بحذف الياء ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون، وإنما[1] عبر عن عدم نقص أعمالهم، بنفي البخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن إعطائه بالتوفية، التي هي إعطاءَ الحقوق مع أن أعمالَهم بمعزل عن كَوْنِها مستوجبةً لذلك، بناءً للأمر على ظاهر الحال، مبالغة في نفي النقص؛ أي: إن كان ذلك ناقصاً لِحُقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع، والصدور عن الكريم أصلاً، اهـ «أبو السعود».

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟﴾؛ أي: فسد وبطل، ولم ينتفعوا به ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ و البينة[2] ما يتبين به الحق كالبرهان في الأمور العقلية، والنصوص في الأمور النقلية، والتجارب في الأمور الحسية، والشهادة في القضاء ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: يتبعه ويصدقه ويقويه والشاهد جبريل أو القرآن ﴿إِمَامًا﴾ والإمامُ[3] هو الذي يُؤتم به في الدين، ويُقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ و الرحمة النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على مَنْ أنزله عليهم، وعلى مَنْ بعدهم باعتبار ما اشتملَ عليه من الأحكام الشرعيةِ المُوافِقَة لحكم القرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والأحزاب قبائلُ الكفار الذين تحزبوا، واجتمعوا على معاداة النبي ﷺ ومعاندته ﴿مَوْعِدُهُۥ﴾ اسم مكان من وَعَد يعد وعداً وموعداً؛ أي: مكان وعده الذي يَصِير إليه، ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ المِرية بكسر الميم، وضمها: الشكُّ، ففيها لغتان: أشهرُهما: الكسرُ، وهي: لغة الحجاز، وبها قرأ جماهيرُ الناس، الثانية: الضم لغةُ أسد وتميم، وبها قرأ

---

(١) أبو السعود.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

السلميُّ وأبو رجاء وأبو الخطَّاب والسدوسيّ، اهـ «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآياتُ ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الحصر في قوله﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

ومنها: إفادة العموم بحذف المضاف في قوله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: كل من الدابة ومستقرها، ومستودعها، ورزقها.

ومنها: الإضافةُ للتشريف في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

ومنها: تكريرُ القسم في قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾.

ومنها: الطباق بين: ﴿نَعْمَآءَ﴾ و ﴿ضَرَّآءَ﴾.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كالسحر، فالكلام من باب التشبيه البليغ، حيث شَبَّهوا نَفْسَ البعث أو القرآن المتضمن لذكره بالسحر في الخديعة، حيث زعموا أنه إنما ذكر ذلكَ لمنع الناس عن لذات الدنيا، وصَرفِهم إلى الانقياد له، ودخولهم تحت طاعته، أو في البطلان، فإنَّ السحرَ لا شكَّ أنه تمويه، وتخييلٌ بَاطِل، فشبهوا الأمورَ المذكورة من البعث، والحساب، والجزاء في البطلان بالسحر، اهـ «زاده».

ومنها: الاستعارة التصريحيةُ التبعيةُ في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ لأنّ الذوقَ حقيقة في معرفة طَعْمِ المطعوم باللسان، فهو هنا كناية عن الإعطاء.

ومنها: وصف الأجر بالكبر في قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ للتفخيم، والتعظيم لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، ودفع التكاليف، والأمن من عذاب الله، والنظر إلى وجهه الكريم، وفيه أيضاً رعاية الفواصل حيث أتى به، ولم يَقُلْ أجر عظيم.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾.

ومنها: الكنايةُ في قوله: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾؛ لأن الضِّيقَ هنا كناية عن الهمِّ والحزن.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿صَدۡرُكَ﴾؛ أي: قلبك حيث أطلق المحل، وأراد الحال.

تنبيه: التحدي بعشر سور، جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم كله، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحدَّاهم بعشر سور، ثُمَّ لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة، والفصاحة، والاشتمال على المغيبات، والأحكام التشريعية، وأمثالها، وهي الأنواعُ التسعةُ، وقد نظَمَها بعضُهم بقوله:

أَلاَ إِنَّمَا ٱلْقُرْآنُ تِسْعَةُ أَحْرُفٍ ... سَأُنْبِيْكَهَا فِيْ بَيْتِ شِعْرٍ بَلا مَلَلْ

حَلاَلٌ حَرَامٌ مُحْكَمٌ مُتَشَابِهٌ ... بَشِيْرٌ نَذِيْرٌ قِصَّةٌ عِظَةٌ مَثَلْ

ومنها: الحذفُ والزيادة في عدّةِ مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾.

المناسبة

قوله تعالى﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أنه لمَّا سبق[1] قوله تعالى﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾.. ذكر هنا أنه لا

---

(١) البحر المحيط.

أحدَ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً، وهم المفترون الذين نسبوا إلى الله سبحانَه وتعالى الولدَ، واتخذوا معه آلهةً وحرَّموا وحلَّلوا من غير شرع الله تعالى.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ . . .﴾ الآيات، مناسبتُها لِما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما يَؤُول إليه الكفار من النار.. ذَكَرَ ما يَؤُول إليه المؤمنون من الجنة، والفريقان هنا: المؤمنُ والكافرُ، ولمَّا كان قدَّم ذِكرَ الكفار، وأَعْقبَ بذكر المؤمنينَ جاء التمثيلُ هنا مبتدأً بالكافر، فقال: ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾.

وعبارةُ المراغي هنا: مناسبتُها لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لمَّا بيَّن فيما سبق أنَّ الناس فريقانِ: فريقٌ يريدُ الدنيا وزينتَها، وفريق على بَيِّنَةٍ من ربه.. أَرْدفَ ذلك ببيانِ حالِ كلٍّ من الفريقين في الدنيا، وما يكون عليه في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ . . .﴾ الآيات، مناسبتُها لِمَا قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لَمَّا ذَكَرَ[1] بعثة النبيِّ الكريم، وأَثْبتَ بالبرهان أنه رسول من رب العالمين، وأنَّ القرآنَ وَحيٌ من الرحمٰن الرحيم.. أَرْدفَ ذلك بقصص الأنبياء قبله ليبينَ لقومه: أنَّ محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وإنه إنما بُعِثَ بمثلِ ما بعث به مَن قبله من الدعوةِ إلى عبادة الله تعالى وحده، والإيمان بالبعث والجزاء، فحالُه معهم كحال مَنْ قبله من الرسل عليهم السلام، مع أقوامهم جملةً وتفصيلاً، كما قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ . . .﴾ الآيات، مناسبتها لما قَبْلَها: أن الله سبحانه وتعالى لَمَّا ذَكَر مقالتَهم وطَعْنَهم في نوح عليه السلام بتلك الشُّبه السالفة.. قَفَّى على ذلك بدَحْضِ نوح عليه السلام لها، وردِّ شبهات أخرى، قد تكون صَدَرَتْ منهم، ولم يَحْكِها لعِلْمِها من الرد عليها، ورُبَّما لم

(١) المراغي.

يقولوها، وإن كان كلامهم يستلزمُهَا، وهذا من خواص أسلوب الكتاب الكريم، وسرٌّ من أسرار بلاغته.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا. . .﴾ الآيات، مناسبتها لِمَا قَبْلَها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذَكَرَ شُبهَاتِهم في رَفْضِ نبوة نوح عليه السلام، ورَد نوحٍ عليهم بما فيه مقنع لهم لو كانوا يعقلون. . ذَكَرَ هنا مقالتَهم التي تَدُلُّ على العجز والإفحام، وأنَّ الحِيَلَ قد ضَاقَتْ عليهم، فلم يَجِدُوا للردِّ سبيلاً في ذلك إيماءً إلى أنَّ الجدال في تقرير أدلة التوحيد، والنبوة والمعاد، وفي إزالة الشبهات عنها هيَ وظيفة الأنبياء، والتقليد، والجهلُ والإصرار على الباطل والإنكار والجحودُ هو دَيْدَنُ الكفار المعاندين.

التفسير وأوجه القراءة

والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ للإنكار؛ أي: لا أحَدَ أشدُّ ظلماً لنفسه ولغيره ممن افترى واخْتَلَق على الله كذباً في أقواله، أو أفعاله، أو أحكامه، أو صفاته، أو في اتخاذ الشفعاء والأولياء له بدون إذنه، أو في زعم أنه اتخذ له ولداً من الملائكة كالعرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، أو في تكذيب ما جاء به رُسُلُه من دينه، لصد الناس عن سلوك سبيله.

واللفظ[1] وإن كان لا يقتضي إلا نفيَ وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكاري، فالمقامُ يفيدُ نَفْيَ المساوي لهم في الظلم، فالمعنى على هذا لا أحد مِثْلَهم في الظلم فَضْلاً عن أن يُوجَد من هو أظلم منهم، والإشارةُ بقوله﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ؛ أي: أولئك المُفْتَرُونَ على الله الكذبَ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة للمحاسبة عرضاً تظهرُ به فضيحَتُهم؛ أي: يساقون إلى الأماكن المعدَّة للحساب، والسؤال، أو المعنى تعْرَضُ أعمالُ هؤلاء، وأقوالُهم على ربهم لمحاسبتهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ الذين يقومون للشهادة

---

(١) الشوكاني.

عليهم الذين هم الملائكة الحَفَظَةُ، وقيل: المرسلون، وقيل: الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمَرَهم الله تعالى بإبلاغه، وقيل: جميع الخلائق.

أي: يقولُ الأشهادُ عند العَرْضِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المُعرِضُون أو المعروضة أعمالُهم هم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ بما نسبوه إليه، ولم يصرِّحوا بما كَذَبوا به كأنهُ كان أمراً معلوماً عند أهلِ ذلك الموقف، وقولُهُ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد، أي: يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ويقولون: ألا لعنة الله، وطرده على الظالمين الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بالافتراء على الله، وغيرهم بالصدِّ عن سبيل الله، يفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة، باللعنة الدالَّة على خروجهم من مُحيط الرحمة؛ ويجوز أن يكونَ من كلام الله سبحانَه قَالَه بعد ما قال الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾.

وقد جاء في معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾.

وفي حديث ابن عُمر في «الصحيحين» وغيرهما، سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الله يدنِي المؤمنَ حتى يضَعَ كَنَفَه عليه ويَسْتُرُهُ من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرَف ذَنْبَ كذا؟ فيقول: رَبِّ أعْرِفُ، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هَلَكَ؟ قال: فإني سَتَرْتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثُمَّ يُعْطيَ كتابَ حسناته، وأما الكافرُ، والمنافق فيقول: ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾».

ثمَّ وصفَ هؤلاء الظالمينَ الذينَ لعنوا بأنهم هم ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾؛ أي: يمنعون مَن قَدَرُوا على مَنْعِه ويصرفونهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن دينه القيم وصراطه المستقيم، والدخول فيه ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾؛ أي: يصِفُونَها بالاعوجاج، والالتواءِ والميل عن الحق لينفروا منها أو يَبْغُون أهلها أن يكونوا معوَّجِينَ بالخروج عنها إلى الكفر ﴿وَ﴾ الحال أنَّ ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ لا يؤمنون ببعث، ولا جزاء؛ أي: يصفونها بالعِوَج، والحال أنهم بالآخرة غير مصدقين،

فكيف يَصُدُّون الناس عن طريق الحق، وهم على الباطل البَحْتِ؟ وتكريرُ الضمير لتأكيد كفرهم، واختصاصهم به، حتى كان كفر غيرهم غيرَ مُعتدٍّ به، بالنسبة إلى عَظيم كفرهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات السابقة يعني المفترينَ على الله الصادينَ عن سبيل الله ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ الله ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما كانوا يعجزون اللَّهَ في الدنيا، إن أرادَ عقوبتهم؛ أي: إن هؤلاء الذين يصُدون عن سبيل اللَّهِ لم يكونوا بالذين يعجزون رَبهم، بهربهم منه في الأرض، إذا أراد عِقَابَهم بل هم في قبضته وملكه لا يمتنعون منه إذا أرادهم، ولا يفوتونه هرباً إذا طلبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يدفعون عنهم ما يريده الله سبحانه من عقوبتهم، وإنزالِ بأسِه بهم؛ أي: ولم يكن لهم أنصار ينصرونهم من دونه، ويَحُولُون بَيْنَهم وبَيْنَه إذا هو عذَّبهم، وجملة قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ من أجل ضلالهم وإضلالهم، مستأنفة لبيان أنّ تأخير العذاب والتراخيَ عن تعجيله لهم، ليكون عذاباً مضاعفاً يعني الرؤساءَ الصَّادِّين عن سبيل الله، وذلك لإضلالهم أتباعَهم، واقتداء غيرهم بهم؛ أي: إنَّ عدمَ[1] نزول العذاب ليسَ لأجْلِ أنهم قَدَرُوا على منع الله من إنزال العذاب بالفرار وغيره، ولا لأجل أن لهم ناصراً يمنع العذابَ عنهم، كما زعموا أنَّ الأصْنَامَ شفعاؤُهُم عند الله، بل لأنه تعالى أمهلَهم كي يتوبوا عن كفرهم، فإذا أبوا إلاّ الثباتَ عليه، فلا بد من مضاعفة العذاب في الآخرة كما قال تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: يُزَاد عذابهم بسبب صدِّهم عن سبيل الله، وإنكارهم البعثَ بعد الموت، فيعذبون في الآخرة على ضلالهم في أنفسهم، وعلى إضلالهم غيرَهم، وهذا غيرُ خارج عن قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ويزيد، ويعقوب[2]: ﴿يُضعَّف﴾ بلا ألف مع تشديد العين. ثمَّ بين علّةَ هذه المضاعفة بقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم إلى القرآن إصغاءً لدعوة الحق، لاسْتحواذ الباطل على أنفسِهم، ورَيْنِ الكفر، والظلم على قلوبهم، كما حَكى الله عنهم

---

(١) المراح.　　(٢) الشوكاني.

بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ما يدُلُّ على صِدقه في الأنفس والآفاق.

وإجمال المعنى[1]: أنهم لشدة انهماكهم في الكفر، واتباع الهوى والشهوات، صاروا يكرهون الحقَّ والهدى فيثقل عليهم سماع ما يبيِّنه من الآيات السَّمعية، وما يثبته من الآيات البصرية، فهم قد خَتَم الله على سمعهم، وعلى أبصارهم، فلا يسمعون الحقَّ سماعَ منتفع، ولا يبصرون حُجَجَ الله إبصارَ مهتد.

والخلاصة: أنهم أفرطوا في إعراضهم عن الحق، وبغضهم له حَتّى كأنَّهم لا يقدرون على الاستماع، ولا يقدرون على الإبصار، لِفرط تَعامِيهم عن الصواب والحق.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المتصفون بتلك الصفات هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بعبادة غير الله تعالى؛ أي: اشترَوا عبادةَ الآلهة بعبادة الله، فكان خسرانهم في تجارتهم، أعظم خسران ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: ذَهب وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدعون أنها تشفع لهم، ولم يبقَ بأيديهم إلا الخسران. والمعنى: أي: أولئك الذين هذه صفتهم هم الذين غبَنُوا أنفسَهم حظوظَها من رحمة الله بافترائهم عليه، واشتراء الضلالة بالهدى، وبطل كذبهُم بادعاء أنَّ له شركَاءَ وشفعاء، يُقربونهم إليه زلفى ثم سلك بما كانوا يدعونه من دون الله غيرَ مسلكهم، إذ سلك بهم إلى جهنم، وصارت آلهتهم عَدَماً؛ لأنها كانت في الدنيا أحجاراً أو خشباً أو نحاساً، وذلك هو ضلالهم وبعدُهم عنهم.

والخلاصة: وبَطَل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله، وادعاؤهم أنَّ الملائكةَ والأصنامَ تشفع لهم، وكلمة لا في قوله﴿لَا جَرَمَ﴾ زائدة كما في «الإتقان»، وجَرَم فعل ماض بمعنى: حق، وثَبَتَ، وجملةُ قوله﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه فاعلاً لجرم؛ أي: حقَّ وثبَتَ كونهم في الآخرة أشدَّ الناس خسراناً إذ هم قد اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب

---

(١) المراغي.

الرحيق المختوم بسموم وحميم، وظلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن قربِ الرحمن بعقوبة الملك الديان.

وفي «الفتوحات»: كلمةُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ ورَدَتْ[1] في القرآن في خمسة مواضع متلوةً بأنَّ واسمها، ولم يجيء بعدها فعل، واختلف فيها، فقيل: ﴿لا﴾ نافية لما تقدمَ، وقيل: زائدةٌ، قاله في «الإتقان»، اهـ «كرخي».

وعبارة «أبي السعود» ﴿لَا جَرَمَ﴾ فيها ثلاثة أوجه:

الأول: أن (لا) نافية لما سبق، و(جرم) فعل ماض بمعنى حقَّ وثَبَتَ، و(أنَّ) وما في حيزها فاعله؛ أي: حقَّ وثبَتَ كونُهم في الآخرة هم الأخسرين، وهذا مذهب سيبويه.

والثاني: أنَّ ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى كَسَبَ وما بعده مفعولُه، وفاعله ما دلَّ عليه الكلام؛ أي: كَسَب ذلكَ خسرانهم، والمعنى ما حَصَل من ذلك إلا ظهورُ خسرانهم.

والثالث: أنَّ (لا جرم) بمعنى لا بدَّ؛ أي: لا بدَّ أنهم في الآخرة هم الأخسرون، اهـ.

وفي «الخطيب» ما نصه: قال الفراء: إن ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمنزلة قولنا: لا بُدَّ ولا محالةَ ثم كَثُرَ استعمالُها حتى صارت بمنزلة حقّاً، تقول العرب: لا جَرمَ أنك مُحْسِنٌ، على معنى حقاً أنك محسن، اهـ وسيأتي بقية مباحثها في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

وبعد أن بيَّنَ حالَ الكافرينَ وأعمالَهم ومآلهم..بيَّنَ حالَ المؤمنين، وعاقبةَ أمرهم، فقال﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا الله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟﴾ في الدنيا ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الأعمال الصالحة فأتوا بالطاعات وتركوا المنكرات ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: خشعت نفوسُهم واطمأنت إلى ربهم؛ أي[2]: إنَّ الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمانُ به، وأتوا بالأعمال الصالحات، بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، واطمأنَّتْ قلوبُهم عند أداء الأعمال إلى ذكر الله، فارغةً عن الالتفات

---

(١) الفتوحات. (٢) المراح.

إلى ما سوى الله تعالى، واطمأنت إلى صِدْقِ وعْدِ الله بالثواب على تلك الأعمال، وخافَتْ قُلوبُهم أنْ يكونوا أتَوا بتلك الأعمال مع وجود الإخلال، ومن أنْ لا تكون مقبولةً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الجميلة هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: قُطَّان الجنة الذين لا يخرجون منها، ولا يموتون بل ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: ماكثون فيها مكثاً مؤبَّداً دائمون فيها أبداً.

والإخْبَاتُ[1] في اللغة هو: الخشوع، والخضوع، وطمأنينة القلب، ولفظ الإخبات يتعدى بإلَى، وباللام فإذا قُلتَ: أَخْبَتَ فلان إلى كذا، فمعناه: اطمأنَّ إليه، وإذا قلتَ: أخبت له، فمعناه: خَشَعَ وخَضَعَ له، فقوله﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشارة إلى جميع أعمال الجوارح، وقوله﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ إشارة إلى أعمال القلوب، وهي الخضوع، والخشوع لله عز وجل، يعني: أنَّ هذه الأعمال الصالحة لا تنفعُ في الآخرة إلا بحصول أعمال القلب، وهي الخشوع، والخضوع، وإذا فسَّرْنَا الإخبات بالطمأنينة، كان معنى الكلام أنهم يأتون بالأعمال الصالحة، مطمئِنّين إلى صدق وعد الله بالثواب، والجزاء على تلك الأعمال، أو يكونون مطمئنين إلى ذكره سبحانه وتعالى، وإذا فسَّرنا الإخباتَ بالخشوع، والخضوع.. كان معناه: أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفينَ وَجِلينَ، أنْ لا تكونَ مقبولة، وهو الخشوع والخضوع، وقولُه: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ ضَرَب[2] به مثلاً للفريقين، وهو تشبيهُ فريق الكافرينَ بالأعمى، والأصم، وتشبيهُ فريق المؤمنين بالبصير والسميع، على أنَّ كلَّ فريق شُبِّه بشيئَين أو شبِّه بمَنْ جَمَع بين الشيئين، فالكافر شُبِّه بمنْ جمَعَ بين العَمَى والصمم، والمؤمن شبِّه بمَنْ جَمَعَ بين السمع والبصر، وعلى هذا تكونُ (الواو) في ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ وفي ﴿وَٱلسَّمِيعِ﴾ لعطف الصفة على الصفة، كما في قول الشاعر:

إِلَىٰ ٱلْـمَلِكِ ٱلْقَرْمِ وَٱبْنِ ٱلْـهُمَامْ وَلَيْثِ ٱلْكَرِيْهَةِ فِيْ ٱلْـمُزْدَحَمْ

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

أي[1]: صفة الكافر كصفةِ شخصٍ متصفٍ بالعمى، والصمم، فلا يهتَدي لمقصوده، وصفَةُ المؤمن كصفة شخص متصف بالبصر والسمع فاهتدى لمطلوبه.

والمعنى: مَثَلُ[2] فريقَيْ الكافرين والمؤمنين، وصفتُهما الحِسيَّةُ التي تطابق حالَهما كمثل الأعمى الفاقدِ لحاسَّةِ البصر في خِلْقَتِهِ والأصم الفاقد لحاسةِ السمع الذي حُرِمَ وَسَائِلَ العلم والمعرفة الإنسانية والحيوانية، ومَنْ هو كاملُ حَاستَي السمع والبصر، فهو يستمد العِلْمَ من آيات الله في خَلقِهِ بما يسمعُ من القرآن، وبما يَرَى في الأكوان، وهما وسيلتا العلم والهدى لعقل الإنسان.

والاستفهام في قوله﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ للإنكار، وهذه الجملة مقررةُ لِمَا تقدم من قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: هل يستوي الفريقان صفةً وحالاً ومآلاً؟ كلاَّ، إنهما لا يَستويان، و (الهمزةُ) في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ للتوبيخ داخلةٌ على محذوف، و (الفاءُ) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتَغْفُلُون عن ذلك المَثَلِ الجَليِّ الواضح وتَشكُّون في عدم الاستواء، فلا تَتَذكَّرون ما بينهما من التَّباين والاختلاف، فتعتبرُوا به؛ أي أفلا تذكرون في عدم استوائهما، وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذي لا يَخفى على مَنْ له تذكُّرٌ وعنده تأمُّلٌ، والهمزةُ لإنكارِ عدم التذكر، وابتعاد صدورِه من المخاطبين.

وإجمالُ المعنى: أنه شَبَّهَ الكافرين بالعُمْي الذين لا يستعملون أبْصَارهم فيما يفضلون به الحيوانَ الأعجم من فَهْمِ آيات الله التي تزيدُهم عِلْماً وهُدًى وبالصم الذين لا يَسْمَعون داعِيَ الله إلى الرشاد والهدى فيجيبونه، ويهتدون به، وشبه المؤمنين الذين انْتَفَعُوا بأسماعهم وأبصارهم، واهتدوا إلى الجنة، وتركوا مَا كَانوا خابطينَ فيه من كفر وضلال، بحال مَنْ هو سميع بصير، فيهتدي بِسَمْعِهِ إلى ما يبعدُه من مواضع الهلاك، ويهتدي ببصرِه بواسطة النور حين السير في الظلام، وقرأ الجمهور: ﴿أفلا تذَّكَّرُونَ﴾ بإدغام التاء الثانية في الأصل في الذال، وفي قراءة سبعية: ﴿تَذَكَّرُون﴾ بحذف إحدى التائين تخفيفاً. ولمّا أورد سبحانه على

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

الكفار المعاصِرينَ لمحمد ﷺ أنواعَ الدلائل التي هي أوْضَحُ من الشمس. . أكَّد ذلك بذكر القصص على طريقةِ التَّفَنُّنِ في الكلام، ونَقْلِه من أسلُوب إلى أسلوب لِتكونَ الموعظةُ أظْهَر، والحجةُ أبْينَ، والقبولُ أتمَّ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

فصل فيما حوته قصص القرآن

إنَّ في قصص[1] القرآن لأَشِعَّةً من ضياء العلم والهدى، جاءَتْ على لسان رَجْلٍ أمّـيّ لم يكن منشئاً، ولا راويةً، ولا حافظاً، ويمكن أن نَجْعَلَ أغراضَها فيما يلي:

١ ـ بيان أُصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله، وتوحيده، وعلمه، وحكمته، وعدله، ورحمته، والإيمان بالبعث والجزاء.

٢ ـ بيانُ أنَّ وظيفة الرسل تَبْليغُ وَحْيِ الله تعالى لعباده فحَسْبُ، ولا يملكون وَراءَ ذلِكَ نَفْعاً، ولا ضَرّاً.

٣ ـ بيانُ سُنن الله في استعدادِ الإنسان النفسيّ والعقليّ لكلّ من الإيمان، والكفر، والخير، والشر.

٤ ـ بيان سُنَنِ الله في الاجتماع، وطباع البشر، وما في خلقه للعالم من الحكمة.

٥ ـ آياتُ الله وحججه على خلقه في تأييد رسله.

٦ ـ نصائح الأنبياء ومواعظُهم الخاصَّة بكل قوم بحسَبِ حَالِهم كَقَوْمِ نوح في غِوَايتهم، وغرورهم، وقوم فرعون، ومَلَئِهِ في ثَرْوَتِهم، وعُتوِّهم، وقوم عاد في قُوَّتِهم وبطشهم، وقوم لوط في فحشهم.

٧ ـ تسليه للنبي ﷺ حيث يَعْلَمُ ما وقع لغيره من الأنبياء.

---

(١) المراغي.

وجملة ما ذكره في هذه السورة من القصص سبعةٌ[1]:

القصة الأولى: قصة نوح عليه السلام، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ إلخ.

القصة الثانية: قصة هود عليه السلام، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾.

القصة الثالثة: قصة صالح عليه السلام، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًاۚ﴾ إلخ.

القصة الرابعة: قصة إبراهيم عليه السلام، مع الملائكة، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾.

القصة الخامسة: قصة لوط عليه السلام، المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ إلخ.

القصة السادسة: قصة شعيب المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ إلخ.

القصة السابعة: قصة موسى المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ إلخ، وهي آخر القصص.

وتقدَّم أنَّ نوحاً اسمه عَبْدُ الغفار، ونوحُ لقبه، قال ابن عباس[2]: بُعث نوح بعد أربعينَ سنةً، ولبِثَ يدعو قومَه تسع مئة سنة وخمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين سنةً، فكان عُمْرُه ألف سنة وخمسين سنة، وقال مقاتل: بُعِثَ، وهو ابن مئة سَنَةٍ، وقيل: وهو ابن خمسين سنة، وقيل: وهو ابنُ مئتين وخمسين سنة، ومكَثَ يَدْعُو قَوْمَه تسع مئة سنةٍ وخمسين سنةً، وعاش بعد الطوفان مئتين وخمسين سنةً، فكان عمره ألفَ سنة وأربع مئة سنة وخمسين سنة، اهـ «خازن».

---

(١) الفتوحات.

(٢) الخازن.

أي: وعزتي وجلالي.. لقد أرسلنا وبعثنا نوحاً عليه السلام إلى قومه قائلاً لهم: يا قوم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوف لكم من عذاب الله تعالى، وبأسه إن خالفتم أمر الله سبحانه وعبدتُم غيرَه ﴿مبِينٌ﴾؛ أي: بَيّن الإنذار، أبيِّن لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه.

أي: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه قائلاً لهم: إني لكم نذير من الله أُنْذركم بأْسَه على كفركم به فآمنوا به، وأطيعوا أمْرَه.

وقرأ النحويان[1] أبو عَمرو، والكسائي، وابن كثير: (أَنِّي) بفتح (الهمزة)؛ أي: بأني وباقي السبعة بكسرها على إضمار القول ثم فسَّر هذا الإنذار بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدل[2] من ﴿إني لكم..﴾ إلخ. على قراءة الفتح ومجرور بالباء المقدرة التي للتعدية المتعلِّقة بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بأن لا تعبدوا إلا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وكانوا أولَ مَنْ أشْركَ بالله، واتخذوا الأندادَ، وكان هو أوَّل رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ثم علل هذا بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: إن لم تخصوه بالعبادة، وتفردوه بالتوحيد، وتخلعوا ما دونه من الأنداد، والأوثان.. أخَف عليكم من الله عذابَ يوم مؤلم عِقَابُه وعذابه، لمن عذب فيه، وهو يوم القيامة أو يوم الطوفان، ووصَفَه بالأليم من باب الإسناد المجازي مبالغةً، وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضةٍ ظنّاً منهم أنها تكفي في رد دعوته، وهذا الجواب يتضمَّن الطعنَ منهم في نبوته من ثلاثِ جهات:

الجهة الأولى: ما ذكره بقوله﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾؛ أي: الأشراف، والرؤساء الذين كفروا من قومه؛ أي: من قوم نوح، ووصفهم بالكفر ذمّاً لهم، وفيه دليلٌ على أنَّ بعضَ أشرافِ قومه لم يكونوا كفرةً ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾؛ أي: ما نعلمك إلا آدميّاً مثلنا، ليس فيك مزية تخصك بوجوب الطاعة علينا؛ أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم يكن لك علينا مزيةٌ تستحق بها النبوةَ دُوننا؟

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.

وهذه هي الجهة الأولى من جهات طعنهم.

والجهة الثانية: ما ذكره بقوله﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾، وأطاعك في دعوتك ﴿إِلَّا﴾ الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وأخساؤنا كالحجَّامين والنساجين والأساكفة، ولم يَتْبَعْكَ أحد من الأشراف، فليس لك علينا مزية باتباع هؤلاء الأراذل لك، وانتصاب ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ على الظرفية، والعامل فيه اتبعك؛ أي: اتبعوك في ظاهر رأيهم، وابتداء فكرهم من غير تعمق، ولا تأمل فيه، ولو احتاطُوا في الكفر ما اتبعوك؛ أي: وإنَّا لم نَرَ متبعيك إلاّ الأخساء والفقراء كالزراع والصناع، ومن في حكمهم في المكَانَة الاجتماعية باديَ الرأي قبل التأمل في عواقبه، والنظر في مستنده، وترجيح العقل له، وهذا مما يرجِّح ردَّ الدَّعوة، والتولي عنها.

والجهة الثالثة من جهات طعنهم في نبوته: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ أي: لا نرى لك، ولمن اتَّبعك من الأراذل فضْلاً علينا لا في العقل، ولا في رعاية المصالح العاجلة، ولا في قوة الجَدَل تتميزون به عنا، وتستحقون به ما تدعونه، خاطبوه في الوجهَين الأولَين منفرداً، وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه.

والمعنى: وما نَرى لك، ولمن اتبعك أدْنَى امتياز عنا من قوة أو كثرة علم، أو أصالة رَأي يَحْمِلُنا على اتباعكم، ويَجْعَلُنا ننزِل عن جاهِنا ومالِنا، ونكون نحنُ وأنتم سواءً، ثم أضرَبوا عن الثلاثةِ المَطَاعن، وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان، الذي لا مستندَ له إلا مجردَ العصبية، والحسد، واستبقاءَ ما هم فيه من الرياسة الدنيوية، وهذا هو الجوابُ الرابعُ فقالوا﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدَّعُون؛ أي: بل إنَّا نُرَجِّحُ الحكم عليك، وعليهم بالكذب، فأنت كاذب في دعوى النبوة، وهم كاذبون في تَصْدِيقك؛ أي: بل نَظُنُّك يا نوح كاذباً في دعوى النبوة، ونظن أصحابكَ كَاذِبينَ في تصديق نبوتك.

وقرأ أبو عمرو، وعيسى الثقفي[1]: ﴿بادىء الرأي﴾ من بَدأ يبدأ، ومعناه:

---

(١) البحر المحيط.

أولَ الرأي، وقرأ باقي السبعة ﴿بادِيَ﴾ بالياء من بَدا يَبْدُو، ومعناه ظاهرَ الرأي، وقيل: ﴿بادي﴾ (بالياء) معناه بادِىءَ بالهمز فسهِّلت الهمزة، بإبدالها ياءً لكسر ما قبلها، والعامل فيه نراك، أو اتبعك، أو أراذلنا؛ أي: وما نراك فيما يَظهرُ لنا من الرأي، أو في أول رأينا، أو وما نراك اتبعك أوَّل رأيهم، أو ظاهرَ رأيهم، واحتملَ هذا الوَجْهُ معنيين:

أحدُهما: أنْ يريد: اتبعوك في ظاهرِ أمرهم، وعسى أن تكونَ بواطنهم ليسَتْ معك.

والمعنى الثاني: أن يُريد: اتبعوكَ بأوَّلِ نظر، وبالرأي البادىء دون تثبت، ولو تثبتوا.. لم يتبعوك، وإذا كان العاملُ أراذلنا فمعناه الذين هم أراذِلنا بأدل نظر فيهم، وببادىء الرأي يُعْلَمُ ذلك منهم. ذكره أبو حيان.

ثمَّ ذَكَر سبحانه ما أجاب به نوحٌ عليهم فقال﴿قَالَ﴾ نوحٌ ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾؛ أي: أَخْبِرُوني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على برهان من ربي في النبوة، يدل على صحتها، ويُوجب عليكم قبولَها مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة، فإنَّ المساواةَ في صفة البشرية لا تمنعُ المفارقةَ في صفة النبوة، واتباعُ الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة، فإنهم مثلكم في البشرية، والعقل، والفهم، فاتباعهم لي حجةٌ عليكم لا لكم، ويجوز أنْ يُرِيدَ بالبينة المعجزةَ ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾؛ أي: أعطاني ﴿رَحۡمَةٗ﴾؛ أي: نبوَّةً ﴿مِّنۡ عِندِهِۦ﴾؛ أي: من فضله سبحانه وتعالى وقيَّدَ الرحمة بكونها من عنده تأكيداً، وفائدتُهُ رَفْعُ الاشتراك، ولو بالاستعارةِ. ذكره أبو حيان. وقيل: الرحمةُ المعجزةُ، والبينةُ النبوةُ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾؛ أي: خَفِيَتْ كُلٌّ واحدة من البينة، والرحمة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ وصار ذلك البرهانُ مشكوكاً في عقولكم، والإفرادُ في ﴿عميت﴾ على إرادة كلّ واحدة منهما، أو على إرادة البينة، لأنَّها هي التي تَظْهَر لِمَنْ تَفَكَّر، وتَخْفى على مَنْ لم يَتَفَكَّرْ.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم[1]: ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ بضم العين،

---

(١) البحر المحيط.

وتشديد الميم، مبنياً للمفعول؛ أي: أبهمت عليكم، وأُخْفِيَت، وقرأ باقي السبعة ﴿فعميت﴾ بفتح العين، وتخفيف الميم مبنياً للفاعل، وقرأ أبيٌّ وعليٌّ السلميُّ، والحسَن، والأعمش، فعَمَّاهَا عليكم، وروى الأعمش عن أُبيٍّ ووَثَّاب ﴿وعميت﴾ بالواو خفيفةً.

والمعنى[1]: أي قال نوحُ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أخْبِرُوني ماذا تَرون، وماذا تقولون، إن كنتُ على حجة فيما جئتكم به من ربي يَتَبيَّن لي بها أنه الحق من عنده لا من عندي، ومن كسبي البشري الذي تُشاركُونني فيه، وآتاني رحمةً من عنده، وهي النبوةُ وتعاليمُ الوحي التي هي سبَبُ رحمةٍ خاصَّةٍ لِمن يَهتدِي بِهَا، فحَجَبَها عنكم جهلكم، وغروركم بالمال والجاه، فلم تتبينوا منها ما تَدُلُّ عليه من التفرقة بيني وبينكم، فمنعتم فَضْلَ الله عني بحرماني من النبوة، والاستفهامُ في قوله﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ للإنكار؛ أي: أنُكْرِهُكُم على قبولها، والاهتداء بها، والمرادُ إلزام الجبر بالقَتْلِ ونحوه لا إلزام الإيجاب، إذ هو حاصلٌ كما في «البيضاوي» ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾؛ أي: وأنتم عنها معرضون غير متدبرين لها، كلاّ إنَّا لا نفعل ذلك بل نَكِلُ أمركم إلى الله، حتى يقْضي في أمركم ما يَرى ويشاء، وما عليَّ إلا البلاغُ وهذا أوّلُ نصٍّ في دين الله على أنه لا ينبغي أن يكون الإيمانُ بالإكراه.

والخلاصة: أخبروني إن كنتُ على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، إلاّ أنها خَافِيةٌ عليكم أيُمْكِنُنَا أن نَضْطَرَّكم إلى العلم بها، والحال أنكم كارهون لها غير متدبرين فيها، فإنَّ ذلك لا يَقْدِرُ عليه إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ؛ أي: أخْبِروني بجواب هذا الاستفهام، وهو أني لا أقْدِر على إجْباركم.

وحَكى الكِسَائي[2]، والفراء إسكان الميم الأولى في ﴿أَنُلْزِمْكُمُوهَا﴾ تخفيفاً كما في قول امرىء القيس:

فَٱلْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْمَاً مِنَ ٱللَّهِ وَلاَ وَاغِلِ

فإنَّ إسكانَ الباء في أشْرَبْ للتخفيف، وقد قرأ أبو عمرو كذلك.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

قال ابن عطية[1]: وفي قراءة أبيّ بن كعب ﴿أنلزمكموها من شطر أنفسنا﴾ ومعناه: مِن تلقاء أنفسنا، ورُوي عن ابن عباس: أنه قرأ ذلك ﴿من شطر قلوبنا﴾ انتهى، ومعنى شطر نحو، وهذا على جهة التفسير لا على أنه قرآن، لمخالفته سوادَ المصحف.

وفي هذه الآية[2] إثباتٌ لنبوته عليه السلام، وردٌّ لإنكارهم لها، وتكذيبِه ومن معه فيها، وإبطالُ لشبهتهم في أنه بشرٌ مثلهم، وقد فاتهم أنَّ المساواة في البشرية لا تقتضي استواءَ أفرادِ الجنس في الكمالات، والفضائل، فالمشاهدَةُ والتجاربُ، تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر في العقل والفكر والرَّأي، والأخلاق والأعمال حتى إنّ الواحِدَ منهم ليأتي بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل، يَعْجزُ عن مثلها الأُلُوفُ من الناس في أَجْيالٍ كثيرة:

وَٱلنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدِ   وَوَاحِدٌ كَٱلأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَرَا

فما بَالُكَ بِمَنْ يَخْتَصُّهم الله تعالى من عباده بما شاء مما لا كسب لهم فيه، كالأنبياء والرسل الكرام، وقال نُوحٌ أيضاً﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾؛ أي: لا أطْلُب مِنكم مالاً، وجُعْلاً على تبليغي دَعْوةَ الرِّسالةِ، وعلى نصيحتي لكم، ودعوتي إياكم إلى توحيد الله، وإلى إخلاص العبادة له، فأكُونُ مُتَّهَماً فيه عندكم، لمكانة حبِّ المال من أنفسكم، واعتزازكم به عليَّ، وعلى الفقراء من أتباعي، وما أريد بذلك إلا خَيْرَكم، ومصلحتكم، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: فما أَجْرِي على ذلك إلاّ على الله، الذي أرْسَلَنِي، فهو الذي يجازيني، ويثيبُني عليه، وإن ظننتم أنّي إنما اشتغلت بهذا التبليغ لأجل أخذ أموالكم، فهذا الظنُّ منكم خَطأٌ، وإنما أسْعَى في طلب الدين، لا في طلب الدنيا، وهذا يوجب فضلي عليكم، فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد.

ومثْل هذه المقالة قد صدَرَتْ من جميع الأنبياء بعده، فجَاءت على لسان هُود، وصالح، وشعيب، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، كما ترى ذلك في

---

(١) البحر المحيط.   (٢) المراغي.

سورة الشعراء مَحْكِيّاً عنهم.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ بالله وحده، وصدَّقوا برسالتي عن مجلسي بسبب قولكم اطْرُدهم عنك نتبعك؛ أي: ليس من شأني، ولا بالذي يكون مني أن أبعد من يؤمن بي، وأنحيه عني احتقاراً له على أيِّ حال كانَتْ صفتُه، وفي هذا إيماءٌ إلى الجواب عن قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وقد روي أنهم قالوا له: يا نوح! إن أحبَبْتَ أن نتبعك، فاطردْ هؤلاء، فإنَّا لن نَرْضَى أن نكون نحن وهم في الأمر سواءً، وقرىء ﴿بطاردٍ﴾ بالتنوين، قال الزمخشري: على الأصل، يعني أن اسمَ الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال أصله: أن يَعْمَلَ، ولا يُضَافُ وهذا ظاهر كلام سيبويه، ذكره أبو حيان ثُمَّ علَّل الامتِناع من طردهم بقوله:

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: إنَّ هؤلاء الذين تسألونَني طردَهم صائرون إلى ربهم، وهو سائلهم عمَّا كانوا يعملون في الدنيا، ولا يسألهم عن حَسَبهم وشَرَفهم؛ أي: إنهم فائِزون في الآخرة بلقاء الله تعالى، فإنْ طردتهم.. استَخْصَمُوني في الآخرة عنده، فأُعاقبُ على طَرْدِهِم.

والمعنى: لا أطردهم فإنَّهم ملاقونَ يومَ القيامة ربَّهم، فهو يجازيهم على إيمانهم، لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عندَه سبحانه، وكأنَّه قال هذا على وَجْه الإعظام لَهم، ويحتمل أنَّه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربهم، بسببِ طرده لهم، ثمَّ بيَّنَ لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طَلَبُوها منه، والعلل التي اعتلُّوا بها عن إجابته، فقال﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ كل ما ينبغي أن يُعْلَمَ، ومن ذلك استرذالُهم للذين اتبعوه، وسؤالُهم له أن يطردَهم، أي: تجهلون ما يَمْتَازُ به البشر بعضُهم عن بعض من اتباع الحقِّ، والتَحلِّي بالفضائل، وعملِ البر، والخير، وتظنون أنَّ الميزةَ إنما تكون بالمال والجاه.

وقد جاءَ هذا المعنى في قصته من سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾. ثم أكد عدمَ جوازِ طردِهم

بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي﴾، ويمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وانتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾؛ أي: إن طرَدت الذينَ آمنوا عن حَضْرَتِي، وأبْعَدْتُهم عن مجلسي بسبب قَوْلِكُم، فإنَّ طردَهم بسبب سبقهم إلى الإيمان، والإجابة إلى الدعوة التي أرسَلَ الله رسلَه لأجلها.. ظلم عظيم، لا يَقَعُ من أنبياء الله المؤيدينَ بالعصمة، ولو وقَعَ ذلك منهم فرضاً وتقديراً.. لكان فيه من الظلم ما لا يكون، لو فَعَلَه غَيْرُهم من سائر الناس، والاستفهام في قوله: ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ للإنكار و (الهمزة) في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ للتوبيخ داخلةٌ على محذوف، و (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أتستمرون عَلى ما أنتم عليه مِنَ الجهل بما ذكر، فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره، وتتفكرون فيه حتَّى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، فَتَنْتَهُوا عنه، وما هم عليه من الصواب، فإنَّ لهم ربّاً ينصرهم، وينتقم لهم.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ بادّعائي للنبوة والرسالة ﴿عِندِي خَزَآئِنُ﴾ رزق ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى أي أنواع[1] رزقه التي يَحْتَاجُ إليها عبادُهُ للإنفاق منها، أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخَّرة لسائر الناس، فأنفق على نفسي، وعلى من تَبِعَني بالتصرف فيها بخوارق العادات، بل أنا وغيري في الكسب سواء، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة، ولا من خصائص النبيّ، ولو كَانَ كذلك لاتبع الناس الرُّسلَ لأجلها، بل الغاية من بعْثِ الرسل تزكية الأنْفُس بمعرفة الله وعبادته، وتأهيلها لِمَثُوبتِهِ في دَارِ كرامته، ورضاه عنها يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون.

وقال ابن الأنباري[2]: أراد بالخزائن: عِلْمَ الغيب المَطْوِيِّ عن الخَلْق لأنهم قالوا له: إنما اتَّبَعَكَ هؤلاء في الظَّاهِر، وليسوا مَعَك فقال لهم: ليس عندي خزائن غيوب الله، فأعلمَ ما تَنْطوِي عليه الضمائر، وإنما قيل للغيوب خزائنُ لِغُموضها عن الناس، واستتارها عنهم. قال سفيان بن عيينة: إنما آيات القرآن خزائن، فإذا دَخَلْتَ خزانة.. فاجْتَهد أن لا تَخْرُجَ منها حتى تعرف ما فيها.

---

(١) المراغي.

(٢) زاد المسير.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾؛ أي: ولا أدَّعي أنِّي أعلَمُ بغيب الله، فلا أمْتَازُ عن سائر البشر، بعلم ما لا يصل إليه علمهم الكسبيُّ من مصالحهم، ومنافعهم، ومضارِّهم في معايشهم، وكسبهم، فأُخْبَرُ بها أتباعي، لِيَفْضُلوا عليكم، ومن ثَمَّ أمَرَ الله تعالى نبيَّه أن يقول لقومه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾.

قيل: إنما قالَ لهم هذا، لأنَّ أرضَهم أجْدَبَتْ فسألوه متى يَجِيءُ المطر، وقيل: بل سألوه متى يجيء العذابُ، وقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ جوابُ لقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾؛ أي: ولا أقول لكم إني مَلَكٌ من الملائكة، أُرْسِلْتَ إليكم، فَأكون كاذباً فيما أدَّعِي، بل أنا بشر مثلكم، أمرتُ بدعائكم إلى الله، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم.

وفي هذا[1]: دحض لشبهَتهم إذ زعموا أنَّ الرَّسولَ من الله إلى البشر، يجب أن يفضُلَهم، ويمتازَ عنهم، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بأن يكون مَلَكاً يَعلمُ ما لا يعلمه البشر، ويقدر على ما لا يقدر عليه البشر.

والحاصلُ: أنكم[2] اتخذتم فقدانَ هذه الأمور الثلاثة ذريعةً إلى تكذِيبي، والحالُ أنِّي لا أدَّعي شيئاً من ذلك، والذي أدَّعِيه لا يتعلق بشيء منها، وإنما يتعلَّقُ بالفضائل النفسانية التي بها تَتَفاوَتُ مقاديرُ البشرِ.

فصل في الاستدلال على تفضيل الملائكة على الأنبياء

استدلَّ بعضُهم بهذه الآية[3] على تفضيل الملائكة على الأنبياء، قال: لأن نوحاً عليه السلام قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ لأنَّ الإنسان إذا قَالَ: أنا لا أدَّعِي كذا وكذا، لا يحسن إلا إذا كَانَ ذلك الشيء أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل، فلَمَّا قال نوح عليه السلام هذه المقالة، وجب أن يكون ذلكَ المَلَكُ

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.
(٣) الخازن.

أفضلَ منه، والجواب أن نوحاً عليه السلام إنما قال هذه المقالةَ في مقابلة قولهم: ما نراك إلا بشراً مثلَنا لِما كان في ظنِّهم أنَّ الرُّسُلَ لا يكونون من البشر، إنما يكونون من الملائكة، فأعلمهم أن هذا ظن باطل، وأن الرسل إلى البشر إنما يكونون من البشر، فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولم يُرِدْ أنَّ دَرَجَةَ الملائكة أفضلُ من درجة الأنبياء، والله أعلم.

وقال الشوكاني: وقد استدلَّ بهذا مَنْ قال: إنَّ الملائكةَ أفضل من الأنبياء، والأدلَّة في هذه المسألة مختلفة، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجةٌ، فليست مما كلَّفنا الله سبحانه وتعالى بعلمه.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ﴾ ـهم وتحتقِرُهم ﴿أَعْيُنُكُمْ﴾ وتنظرهم نَظْرَةَ احتقار ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ولن يعطِيَهم ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: هدايةً وأجْراً، بل آتاهم الخير العظيم، بالإيمان به، واتباع نبيه، فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة، ورافِعُهم في الدنيا إلى أعلى محل، ولا يضرهم احتقارُكم لهم شيئاً.

أي: ولا أقولُ للذين اتبعوني، وآمنوا بالله وحده، وأنتم تنظرون إليهم نَظْرَةَ استصغارٍ، واحتقارٍ، فتزدريهم أعينُكم لفقرهم، ورَثَاثَةِ حالهم: لن يؤتيهم الله خيراً، وهو ما وعدوه على الإيمان والهُدى من سعادة الدنيا والآخرة، ولا يُبْطِلُ احتقَارُكم إيَّاهُمْ أجْرَهم، وليس لي أن أطَّلِعَ على ما في نفوسهم فأقْطَعَ عليهم بشيء.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الإيمان به، والإخلاص له فَيُجازِيهم على ذلك، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء؛ أي: بل الله سبحانه وتعالى أعْلَمُ بما في قلوبهم، وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة، ومن اتباع رسوله بإخلاصٍ وصدق سريرة، لا كَمَا زَعمتم من اتباعهم إيايَ باديَ الرأي، بلا بصيرة ولا علم.

﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم: إن فعلْتُ بهم ما تُريدونه أو من الظالمينَ لأنفسهم إن فعلتُ ذلك بهم؛ أي: إنّي إذا قَضَيْتُ على سرائرهم، بخلاف ما أبْدَتْه لي ألسنتهم على غير علم مني بما في نفوسهم، أكُونَ ظالماً لهم بهضم

حقوقهم.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال قومُ نوح له؛ أي: جاوبوه بغير ما تقدم مِنْ كلامهم وكلامِه عجزاً عن القيام بالحجة، وقصوراً عن رتبة المناظرة، وانْقِطاعاً عن المباراة بقولهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾؛ أي: خاصَمْتَنَا بأنواع الخصام، وحاجَجْتَنَا بضروب الحجج، ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾؛ أي: خصومَتَنا، ودفاعنا بكل حجة لها مدخل في المقام، واستقصيت فيه، فلم تدع حجة إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا، ولم يَبْقَ لنا في هذا الباب شيءٌ من الجواب، فقد ضاقَتْ علينا المسالك، وانسدَّتْ أبوابُ الحِيَلِ، ولم يَبْقَ لدَيْنا شيء نَقُولُه كما قال في سورة نوح حكايةً عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ قال أبو السعود: فَأكْثَرْتَ جِدَالنا؛ أي: شَرَعْتَ في الجدال، فأكثرت، أو جادلْتَنا؛ أي: أرَدتَ جِدالَنا فأكثرتَ جِدَالَنا، فلا بُدَّ من أحد هذين التأويلين لِيَصِحَّ العطف، انتهى. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ أي: بالذي تعدناه، وتُخْبِرَنا به من عذاب الله الدنيوي الذي تَخَافُه علينا، وهو الذي أراده بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تقوله لنا؛ أي: إن كنتَ صادقاً في دَعْواكَ أنَّ اللَّهَ يعاقبنا على عصيانه في الدنيا قبلَ عقابِ الآخرة.

وإنَّما كثرت مُجَادَلتُهُ لهم؛ لأنه أقام فيهم ما أخبر الله به ألْفَ سنة إلا خمسينَ عاماً، وهو كل وقت يدعوهم إلى الله، وهم يجيبونه بعبادتهم أصنامهم، وقرأ[1] ابن عباس: ﴿فأكثرت جدلنا﴾ كقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. قال أبو البقاء: قوله تعالى: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ الجمهور على إثبات الألف، وكذلك: ﴿جدلتنا﴾ فأكثرتَ جدلنا بغير ألف فيهما، وهو بمعنى غلبتنا بالجَدَل، انتهى. ﴿قال﴾ نوح لقومه حين استعجلُوه بإنزال العذاب يا قوم ﴿إِنَّمَآ﴾ ذلكم العذاب بيد الله لا أملكه، وهو الذي ﴿يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾؛ أي: إن تعلقت مشيئته به في الوقت الذي تَقتضيه حكمتُه، فإن قضَتْ مشيئته، وحكمته بتعجيله.. عَجَّلَهُ لكم،

(١) البحر المحيط.

وإن قَضَتْ مشيئته، وحكمته بتأخِيرِه.. أخَّره ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: بفائتين عمَّا أراده الله بِكُم بهربٍ، أو مدافعة؛ أي: لستم بفائتيه هرباً منه إن أخَّره لحكمة يعلمها، وهو واقع لا محالةَ متى شاء، لأنكم في ملكه وسلطانه، وقدرتُه نافذة عليكم لا يمكن أن تفلِتوا منه، ولا أنْ تَمْتَنِعُوا.

ولمّا قالوا[1] قَدْ جَادَلْتَنَا، وطلبوا تعجيلَ العذابِ، وكانَ مجادلَتُهُ لهم، إنما هو على سبيل النصح، والإنقاذ من عذاب الله قال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ وقرأ عيسى بن عُمَر الثقفي: (نَصْحِي) بفتح النون، وهو مصدر، وقرأه الجمهور بضمها، فاحتملَ أن يكونَ مصدراً كالشكر، واحتمل أن يكونَ اسماً.

أي: ولا ينفعكم، ولا يفيدكم إنذاري، وتحذيري إياكم عقوبتَه، ونزولَ العذاب بكم ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ وجوابُ هذا الشرط محذوف، دَلَّ عليه ما قبله، تقديره: إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي الذي أبذُلُه لكم، وأستكثر منه قياماً مني بحقِّ النصيحة لله، بإبلاغ رسالته، ولكم بإيضاح الحق، وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ ويضلكم عن طريق الهدى والتوحيد، فلا ينفعكم نصحي بمجرد إرادتي له فيما أدْعُوكم إليه، بل يتوقف نَفْعُه على إرادة الله تعالى له، وقد مضت سنته كما دلَّت عليه التجارب، أنَّ النُّصْحَ إنما يقبله المستعد للرشاد، ويرفضه مَنْ غَلَبَ عليه الغيُّ والفسادُ باجتراحه أسْبَابَه من غُرور بِغنًى أو جاهٍ، أو باتباع هَوًى وحبِّ شهوات تمنع من طاعة الله تعالى.

فمعنى الآية[2]: لا ينفعكم نصحي، إن كان الله يريد أنْ يُضِلَّكُم عن سبيل الرشاد، ويَخْذلكم عن طريق الحق.

والخلاصة[3]: أنَّ معنى إرادة الله إغواءَهم: اقتضاءُ سننه فيهم أن يكونوا من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

الغاوينَ لا خَلْقه للغواية فيهم ابتداء من غير عمل منهم، ولا كسب لأسبابها، فإن الحَوادثَ مرتبطة بأسبابها، والنتائجَ متوقفة على مقدماتها ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: مالك أُموركم، ومُدبِّرُها بحسب سُنَنِه المطردة في الدنيا، فإليه الإغواء، وإليه الهدايةُ، ولكل شيء عنده قدر، ولكل قدر أَجَل ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون، إن خيراً.. فخيراً، وإن شرّاً.. فشر، ولا تظلمون نقيراً.

الإعراب

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، ﴿مِمَّنِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَظْلَمُ﴾، ﴿افْتَرَى﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة الموصول ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿افْتَرَى﴾، ﴿كَذِبًا﴾ مفعول به ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ فعل ونائب فاعل ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبرُ المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعْرَضُونَ﴾، ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي وإن شئت: قلتَ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾، ﴿كَذَبُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ متعلق به ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ صفة لـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾، ﴿يَصُدُّونَ﴾ فعل وفاعل صلةُ الموصول ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق به، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَصُدُّونَ﴾، ﴿عِوَجًا﴾ حال من (الهاء) في ﴿يبغونها﴾، ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ متعلق

بـ ﴿كَفِرُونَ﴾، ﴿وَهُم﴾ توكيد لفظي ﴿كَفِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من (واو) يصدون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة (ما) نافية (﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، حال ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر؛ أي: وما كان أولياء كائنينَ لهم من دون الله، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَمْ يَكُونُواْ﴾، ﴿يُضَٰعَفُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿لَهُم﴾ متعلق به ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ نائب فاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿لَمْ يَكُونُواْ﴾، ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة مستأنفة مسوقةٌ لتعليل مضاعفة العذاب، ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة (ما) نافية ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿يُبْصِرُونَ﴾ خبره، وجملة (كان) معطوفة على جملة ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَضَلَّ﴾: فعل ماض. ﴿عَنْهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿ضل﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل رفع فاعل ﴿ضل﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص، والواو: اسمها في محل رفع ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل مضارع والجملة في محل نصب خبر كان، والجملة الاسمية صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما يفترونه. ﴿لَا﴾: زائدة ﴿جَرَمَ﴾

فعل ماض بمعنى حق، وثبت مبني على الفتح، ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق بـ ﴿الأخسرون﴾، ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿الْأَخْسَرُونَ﴾ خبر (أنّ)، وجملة (أنّ) المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿جَرَمَ﴾، والجملة مستأنفة، والمعنى حَقَّ، وثبت كَوْنُهم الأخْسرين.

فصل في لا جرم

وقد مر لك بعض المباحث في جرم في مبحث التفسير، وفي «السمين»: وفي هذه اللفظة خلاف بين النحويين، وتلخَّص من ذلك وجوه.

أحدُها: وهو مذهب الخليل، وسيبويه، أنهما مركَّبتان من ﴿لا﴾ النافية و ﴿جَرَمَ﴾ وبُنِيَتا على تركيبهما تركيبَ خمسة عشر، وصار معناهما معنى فعل، وهو حقَّ، فعلى هذا يرتفع ما بعدهما بالفاعلية، فقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾؛ أي: حقَّ وثَبَت كون النار لهم، أو استقرارُها لهم.

الوجه الثاني: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى لا رَجُل في كون ﴿لا﴾ نافية للجنس، وجرمَ اسمها مبني معها على الفتح، وهي واسمها في محلّ رفع بالابتداءِ، وما بعدهما خبر ﴿لا﴾ النافية للجنس، وصار معناها، لا محالةَ في أنهم في الآخرة هم الأخسرون؛ أي: في خسرانهم.

الوجه الثالث: أنَّ ﴿لا﴾ نافية لكلام قد تقدم تكلم به الكفرةُ، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿لا﴾ كما ترد لا هذه قبلَ القسم في قوله لا أقسِمُ وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقد تقدَّم تَحْقِيقُه، ثم أتى بعدها بجملة فعلية، وهي جرم أنَّ لهم كذا وجَرَم فعل ماض معناه كسب وفاعله مستتر يعود على فعلهم المدلول عليه بسياق الكلام، وأنَّ وما في حيزها في موضع المفعول به؛ لأنَّ ﴿جَرَمَ﴾ يتعدى إذا كان بمعنى كسَبَ، وعلى هذا فالوَقْف على قوله: ﴿لا﴾ ثم يبتدىءُ بـ ﴿جَرَمَ﴾ بخلاف ما تقدَّم.

الوجه الرابع: أنَّ معناه لا حَدَّ، ولا منعَ، ويكون ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى القَطْعِ

تقول: جرمت؛ أي: قطعت فيكون ﴿جَرَمَ﴾ اسمَ لا مبنيٌّ معها على الفتح كما تقدَّم، وخبرها ﴿أَنَّ﴾ وما في حيزها على حذف حرف الجر، أي: لا منع من خسرانهم فيعود فيه الخلاف المشهور، وفي هذا اللفظ لغاتٌ: يقال: لا جِرْمَ بكسر الجيم، ولا جُرْم بضمها، ولا جَر بحذف الميم، ولا ذا جَرم، ولا أنَّ ذا جَرم، ولا ذُو جرم، وغير ذلك انتهى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾ إلى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ متعلق به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مؤكِّدة لما قَبْلَها.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه، ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة، ﴿وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ معطوفات على ﴿الأعمى﴾، ﴿هَلْ﴾ حرف للاستفهام الإنكاري ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ فعل وفاعل ﴿مَثَلًا﴾ تمييز محول عن الفاعل، والأصل هل يستوي مثَلُهما، والجملة مستأنفة ﴿أَفَلَا﴾ (الهمزة) للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، و (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف، (لا) نافية ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفةٌ على ذلك المحذوف، والتقدير: أتشكون في عدم الاستواء، فلا تذكَّرون ما بَيْنَهما من التباين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو: استئنافية واللام موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿أَرْسَلْنَا

﴿نُوحًا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾: متعلق به، والجملة جواب للقسم المحذوف وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿إِنِّي﴾ بالكسر ناصب واسمه ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، ﴿نَذِيرٌ﴾ خبر إن ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة نذير، وجملة إن المكسورة في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره قائلاً: إني لكم نذير مبين، وأما قراءة فتح$ِ همزة أنَّ فعلى تقدير حرف الجر.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿لَّا﴾ ناهية جازمة ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾ فعل وفاعل في محل نصب بـ﴿أن﴾ المصدرية مجزوم بـ﴿لَّا﴾ الناهية ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر ومجرور بحرف جر محذوف تقديره: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بعدم عبادة غير الله تعالى، ويصح كونُ أنْ مخففة، وكونُها تفسيرية ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه ﴿أَخَافُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة ﴿يَوْمٍ﴾ على سبيل التجوز، أو صفة ﴿عَذَابَ﴾ مجرور بالجوار نظير هذا جحر ضب خرب، وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ ولقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ إلخ كما في «الجمل».

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

﴿فَقَالَ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ مقول محكي لـ ﴿قال﴾، وإن شئتَ قلت: ﴿ما﴾ نافية ﴿نَرَىٰكَ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿بَشَرًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿نَرَىٰكَ﴾ إن كانت علمية أو حال من الكاف إن كانت بصرية ﴿مِّثْلَنَا﴾ صفة لـ ﴿بَشَرًا﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة.

ما نافية ﴿نَرَىٰكَ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ فعل ومفعول به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل ﴿اتبع﴾، وجملة ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿نَرَىٰكَ﴾ إن كانت علمية، أو حال من الكاف إن كانت بصرية، والجملةُ الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿نَرَىٰكَ﴾ الأول ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، (ما): نافية ﴿نَرَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، إن كانت علمية ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ ﴿فَضْلٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة ﴿فَضْلٍ﴾ مفعول أول لـ ﴿نَرَىٰ﴾، والجملةُ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب ﴿نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ والجملة في محل النصب معطوفة على الجمل التي قبلَها على كونِهَا مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل وفاعله ضمير يعود على نوحٍ، والجملة مستأنفة ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلتَ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول قال ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل وفاعل، وهو: يتعدى إلى مفعولين، والأول محذوف، لدلالة ما بعده عليه، تقديره: أرأيتم البَيِّنة من ربي إن كنتُ عليها أنلزمكموها، والمفعولُ الثاني: جملة الاستفهام الآتية ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعلَ شرط لها ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كان﴾، ﴿مِّن رَّبِّى﴾ صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾، ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول ثان لـ﴿آتاني﴾ لأنه بمعنى أعْطَى ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿رَحْمَةً﴾، وجملة ﴿آتاني﴾ في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿كان﴾، ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿عميت﴾ فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم معطوف على ﴿آتاني﴾ ونائب

فاعله ضمير يعود على كل من البينة والرحمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إن كنت على بينة من ربي، أأقدر على إلزامكم إياها، وجملة الشرط معترضة بينَ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وبين مفعولها الثاني في محل النصب، مقول لـ ﴿قَالَ﴾، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الأنكاري ﴿نلزم﴾ فعل مضارع مرفوع، وقرىء بإسكان الميم الأول فراراً من توالي الحركات، وهو متعد إلى مفعولين، وفاعله ضمير يعود على نوح ومَنْ معه، (الكاف) ضمير المخاطبين في محل النصب مفعول أول، و(الميمُ) حرفُ دال على الجمع، مبني بسكونٍ مقدر، مَنَعَ من ظهوره حركة إتباع الكاف، و﴿الواو﴾ حرف متولد من إشباع ضمة الميم، و﴿الهاء﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ﴿ألزم﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ كما مرَّ آنفاً، ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿لَهَا﴾ متعلق بما بعده ﴿كَٰرِهُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من كاف المخاطبين في ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف معطوف على ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ الأول ﴿لَآ﴾ نافية ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به ﴿مَالًا﴾ مفعول ثان، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونه جوابَ النداء ﴿إِنْ﴾ نافية ﴿أَجْرِيَ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ما﴾ نافية ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ ﴿بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ﴾ خبر، ومضاف إليه و﴿الباء﴾ زائدة، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِنَّهُم﴾ ناصب واسمه ﴿مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ خبره ومضاف إليه، وجملة إن في محل النصب مقول لـ ﴿قَالَ﴾ على كونها معلّلةً لما قبلها ﴿وَلَٰكِنِّىٓ﴾ ناصب واسمه ﴿أَرَىٰكُمْ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿قَوْمًا﴾ مفعول ثان، وجملة ﴿تَجْهَلُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾ وجملة ﴿أَرَىٰكُمْ﴾

في محل الرفع خبر ﴿لكنَّ﴾ وجملة الاستدراك معطوفة على ما قبلَها على كَوْنِها مقولَ القول.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف معطوف على ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ الأول. ﴿مَن﴾ اسم للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ ﴿يَنصُرُنِي﴾ فعل ومفعول ونون وقاية وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿من﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية جواب النداء على كَوْنِهَا مقول القول، ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قَبْلَهَا، والتقدير: إن طردتهم فمن ينصرني، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾ ﴿أَفَلَا﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي داخلةٌ على محذوف، و﴿الفاء﴾ عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾ نافية ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: ما ينبغي تذكره من أحوالهم، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، تقديره: أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل فلا تذكرون؟ والجملة المحذوفة مع ما عُطِفَ عليهَا مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿أَقُولُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ على كونهَا جوابَ النداءِ ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق بـ﴿أَقُولُ﴾ ﴿عِندِي﴾ خبر مقدم ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿أقول﴾.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فعل ومفعولٌ به، لأنَّ عَلِم هنا بمعنى عَرَفَ، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملةُ الفعلية معطوفة على جملة ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ على كَوْنِهَا مقولَ أقول؛ أي: ولا أقول لكم إني أعلم

الغيبَ، ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ معطوف على ولا أقول الأول ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة في محل النصب مقول أقول، ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ معطوف على ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ الأول ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق به ﴿تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: تزدريهم وهو العائد على الموصول، والجملة الفعلية صلةُ الموصول ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ ناصب وفعل ومفعول أول وفاعل ومفعول ثان، والجملةُ في محل النصب مقول ﴿أَقُولُ﴾، ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾، ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ والجملةُ الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه ﴿إِذًا﴾ حرف جواب لا عمل لها لعدم دخولها على الفعل ﴿لَّمِنَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَٰنُوحُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰنُوحُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداءِ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محلِّ النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾ على كونهَا جوابَ النداء، ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾، ﴿فَأْتِنَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَأَكْثَرْتَ﴾، ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أتنا﴾، ﴿تَعِدُنَآ﴾ فعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: تعدناه، وهو العائد على الموصول، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كَوْنِهِ فعلَ شرط لها ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خبره، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتَ من الصادقين.. فأتنا بما تعدنا، وجملةُ ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مقول محكي، وإن شئتَ قلت: ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر، ﴿يَأْتِيكُم﴾ فعل ومفعول ﴿بِهِ﴾ متعلق به ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض في محل الجزم، بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فِعلَ شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ وجواب إن معلوم مما قبلها تقديره: إن شاء يأتيكم به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب، مقولُ ﴿قَالَ﴾، ﴿وَمَآ﴾ حجازية، أو تميمية لعدم ظهور الإعراب في الخبر، ﴿أَنتُم﴾ اسمها أو مبتدأ ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ خبرها أو خبر المبتدأ، و (الباء) زائدة، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾: ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿أَرَدتُّ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم على كونه فعلَ شرطِ لها ﴿أَنْ أَنصَحَ﴾ ناصب وفعل منصوب ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إن أردت النصح لكم، وجوابُ ﴿إِن﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن أردت النصحَ لكم لا ينفعكم نصحي، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ (إنْ) على كونه فِعْلَ شرط لها، ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة في محل النصب خبرُ ﴿كَانَ﴾، ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، لـ ﴿يُرِيدُ﴾ تقديره: يريد إغواءه إياكم، وجواب هذا الشرط الثاني: هو الشرط الأول، وجوابه تقديره: إن كان الله يريد أن يُغْويكم.. فإن أردتُ أن أنْصَحَ لكم.. فلا ينفعكم نصحي، وذلك لأنه إذا اجتمع في الكلام شرطان وجواب، يُجعل الشرط الثاني

شرطاً في الأول؛ لأنَّ الشرطَ مقدَّم على المشروط في الخارج، ذكَرَه في «الفتوحات» ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها تَعْلِيلاً لِما قبلها، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ متعلق بما بعده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ على كونهَا تَعْلِيلاً لما قبلها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿أَظْلَمُ﴾ اسم تفضيل من ظلم يظلم، من باب: ضرب: ظلماً، والظلم وضع الشيء في غير محله، وهو ضد العدل، والافتراءُ: اختلاق الشيء من عند نفسه، من غير أن يكون له أساس ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: للمحاكمة عرضاً تظهر به فضيحتهم على ربهم؛ أي: على من يحسن إليهم، ويَمْلِكُ نواصِيَهم وكانوا جَديرينَ أن لا يكذبوا عليه ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾، والأشهاد: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، أو جمع شهيد كشريف وأشراف، والأشهادُ الملائكة الذين يحفظون عليهم أعمالَهم في الدنيا أو الأنبياءُ أو هما والمؤمنون، أو ما يشهد عليهم من أعضائهم، أقوالٌ، واللعنة الطرد من الرحمة، والصدُّ عن سبيل الله الصرف عن دينه، والمنع من الدخول فيه ﴿يبغونها عوجاً﴾؛ أي: يصفونها بالاعوجاج تنفيراً للناس عنها، والعِوج: الالتِواءُ، وعدمُ الاستِواء يقال: بَغَيْتُك شرّاً؛ أي: طلبته لك.

وفي «المختار»: عوج ـ من باب طرب ـ فهو أعوج، والاسمُ العِوَجُ بكسر العين، فما كان في حائط أو عُود أو نحوهما، مما ينتصب فهو عَوَج بفتح العين، وما كان في أرض أو دين أو معاش فهو عِوَجٌ بكسر العين، واعوجَّ الشيء اعوجاجاً، فهو معوَّج بوزن محمد، وعصا معوجة أيضاً؛ أي: غيرَ مستقيمة. اهـ.

﴿مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يمكنهم أنْ يهربوا مِنْ عذابه ﴿وَضَلَّ﴾؛ أي: غابَ ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال الفراء: هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بُدَّ، ولا محالةَ

فَجَرَتْ على ذلك، وكثُرَتْ حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمنزلة حقّاً، فلذلك يجاب عنها باللام، كما يجاب بها عن القسم، ألا تراهم يقولون: لا جرم لآتينك. اهـ «مختار». وقد مر البحث عن ﴿لَا جَرَمَ﴾ في مبحثِ التفسير، وفي مبحثِ الإعراب، فلا حاجةَ إلى إطالة المبحث عنه هنا.

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ والإخبات في اللُّغة هو: الخشوعُ، والخضوع، وطمأنينة القلب، ولفظُ الإخبات يتعدَّى بإلى وباللام، فإذا قُلْتَ: أَخْبَت فلان إلى كذا، فمعناه اطمأنَّ إليه، وإذا قلتَ: أخْبَتَ له فمعناه: خَشَعَ، وخضع له، ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ بمعنى: خشعوا، وخضعوا، وأصْلُه من الخبت، وهو الأرضُ المطمئنة ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾، و﴿الأعمى﴾ هو من قام به العَمَى، والعَمى بفتحتين ذهابُ البصر، خِلْقةً أوْلاً يقال: عَمِيَ من باب صَدِي فهو أعمى، وقوم عُمْيٌ ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ هو من قام به الصمم، والصمم ذَهابُ السمع خِلقة أوْلا، يقال: أصمّه الله فصم يصم بالفتح صمماً، وأصمَّ أيضاً بمعنى صَمَّ؛ أي: حَصَلَ له الصممُ، ورَجب شهر الله الأصمُّ، قال الخليل: إنما سمى بذلك؛ لأنه كان لا يسمع فيه صوت مستغيث، ولا حركة قتال، ولا قعقعةُ سِلاح، لأنه من الأشهر الحُرُم. اهـ «مختار».

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه إدغامُ التاء الثانية في الأصل، في الذال على قراءة التشديد، وقرىء في السبعة: تذكرون بتخفيف الذال وتشديد الكاف بحذف إحدى التائين على حدِّ قول ابن مالك ـ وما بتاءين ابتدى قَدْ يُقْتَصَرُ ـ إلخ.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الملأُ: الأشرافُ، والرؤساءُ، والزعماء ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، وفي «السمين»: الأراذل فيه وجهان:

أحدهما: أنه جمع الجمع، فهو جمع أرذل بضم الذال، جمع رذل، بسكونها مثل أكالب، وأكلب، وكلب.

ثانيهما: أنه جمع مفرد، فالأراذل جمع الأرذل، كأكابر وأكبر، وأساود وأسود، وأباطح وأبطح، وأبارق وأبرق، وجمع على هذه الزنة، وإن كان وصفاً؛ لأنه غلبت عليه الاسمية، فصارَ كالأسماء، ومعنى غَلَبَتِهِ أنّه لا يكاد يذكر الموصوف معه، وهو مثل الأبطَح، والأبرق. ذَكَره أبو البقاء، والأرذل: الخسيس

الدنيء المرغوب عنه لدناءته والسفلة، قال النحاس: الأراذِلُ الفقراء الذينَ لا حسَبَ لهم، والحسَبُ الصِّناعاتُ. قال الزجاج: نسبوهم إلى الحياكة، ولم يعلموا أنَّ الصناعات لا أثرَ لها في الديانة، وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: السفلة هو الذي يُصْلِحُ الدنيا بدينه، قيل له: فمن سَفَلَةُ السَّفلةِ قال: الذي يُصْلِحُ دنيا غيرهِ بفساد دينه، والظاهر من كلام أهل اللغة أنَّ السفلة هو الذي يدخل في الحِرَفِ الدنية. ذكره الشوكاني.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ يقرأ[1] بهمزة بعد الدال، وهو من بَدَأَ يبدأُ إذا فَعَلَ الشيءَ أولاً، ويقرأ بياءٍ مفتوحة، وفيه وجهان:

أحدهما: أنَّ الهمزةَ أبدِلَتْ ياءً لانكسار ما قبلها.

والثاني: أنه من بدا يبدو إذا ظَهَرَ وبادِيَ هُنَا ظَرفٌ، وجاء على فاعل كما جاءَ على فعيل نَحْو: قريب، وبعيد، وهو مصدرُ مِثْلُ العافية، والعاقبة، وفي العامل فيه أربعةُ أوجه:

أحدها: نراك أي فيما يظهر لنا من الرأي، أو في أول رأينا فإن قيل ما قبل إلاّ إذا تمَّ لا يعمل فيما بعدها كقولك، ما أعطيتُ أحداً إلا زيداً ديناراً، لأنَّ إلاّ تُعدِّي الفعلَ ولا تعديه إلا إلى واحد كالواو في باب المفعول معه قيل جاز ذلك هنا، لأنَّ بادِيَ ظرف أو كالظرف، مثل جَهْد رأيي إنك ذاهب؛ أي: في جهدِ رأيي، والظروف يتوسع فيها.

والوجه الثاني: إن العاملَ فيه: اتبعكَ؛ أي: اتّبعوك في أول الرّأي، أو فيما ظَهَر منه من غير أن يبحثوا.

والوجه الثالث: أنه من تمام أراذلنا؛ أي: الأراذل في رَأينا.

والرابعُ: أنَّ العاملَ فيه محذوف؛ أي: يقول ذاك في بادي الرأي به، والرأي مهموز، وغير مهموز، ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ والازدراء مأخوذٌ من أزرى عليه إذا عابه،

---

(١) (٢) العكبري.

وزَرَى عليه إذا احتقره، وأنشَدَ الفراء:

يُبَاعِدُهُ ٱلصَّدِيقُ وَتَزْدَرِيهِ   حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ ٱلصَّغِيرُ

وقال الآخر:

تَرَىٰ ٱلرَّجُلَ ٱلنَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ   وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ

وقال أبو البقاء: ﴿تَزْدَرِيٓ﴾[1] الدال فيه بدل من تاء الإفعالِ، وأصْلُ تزدري تزتري بوزن تفتعِلُ من زَرَيت، وأبدِلت دالاً لتجانس الزاي في الجهر والتَّاء مهموسةٌ، فلم تجتمع مع الزاي. انتهى.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ يقال: عُمِّي عن كذا، وعمِّي عليه كذا بمعنى التبسَ عليه، ولم يَفْهَمْهُ، وخفيَ عليه أمرُهُ.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ أصل الجدال، هو: الصراعُ، وإسقاطُ المرء صَاحِبَه على الجدالة، وهي الأرضُ الصلبة، ثم استُعمل في المخاصمة، والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق، ووضوح الصواب.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ والنصحُ بضم النون، وفتحها مع سكون الصاد فيهما، مصدر نَصَح من بابَ فَتَحَ، والنصحُ معناه: تحري الخير، والصلاح للمنصوح له، والإخلاص فيه قولاً وعملاً. ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ من أغوى الرباعي يُغْوِي إغواءً بمعنى أضله، والإغواء الإيقاع في الغي، وهو الفسادُ الحِسيُّ والمعنويُّ ثلاثيُّهُ غوى الرجل يَغْوِي إذا ضَلَّ وأخطأ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهامُ الإنكاريُّ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

ومنها: التحقيرُ في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إشارةٌ إلى تحقيرهم، وإصْغَارِهم بسوء مرتكبهم، وفي قوله﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: على مَنْ

يُحْسِنُ إليهم، ويَمْلِكُ نَوَاصِيَهم ذكره في «البحر».

ومنها: تكريرُ الضمير في قوله: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ لتأكيد كفرهم واختصاصهم به حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة إلى عظيم كفرهم.

ومنها: التشبيه المرسلُ المجمل في قوله: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ لوجود أداة التشبيه، وحذف وَجْهِ الشبه؛ أي: مَثَلُ الفريق الكافر ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ في عدم البصر والسمع. ومثلُ الفريق المؤمن كالسميع والبصير، وهذا التشبيه تشبيه معقول بمحسوس فأعمى البصيرة أصمها، شبِّهَ بأَعْمى البصرِ أصم السَّمْعَ ذلك في ظلمات الضلالات متردد تَائِهٌ، وهذا في الطرقاتِ متحيِّرٌ لا يهتدي إليها.

ومنها: التنبيه بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ على أنه يُمْكِنُ زوالُ هذا العَمَى وهذا الصممُ المعقولُ فيجب على العاقل أن يتذكَّر ما هو فيه، ويَسْعَى في هداية نفسه، ويمكن أن يكونَ من باب تشبيه اثنين باثنين، فقُوبِل الأعمى بالبصير وهو طباق، وقوبل الأصمُّ بالسميع وهو طباق أيضاً، والعمى والصمم، آفتان تمنعان من البصر والسمع، ولَيْسَتَا بِضِدَّين لأنه لا تَعاقُبَ بينهما، ويحتمل أن يكون من تشبيه واحد بوصفيه بواحد بوصفيه، فيكون من عطف الصفات، كما قال الشاعر:

إِلىٰ ٱلْمَلِكِ ٱلْقِرْمِ وَابْنِ الْهُمَامْ   وَلَيْثِ ٱلْكَرِيْهَةِ فِيْ ٱلْمُزْدَحَمْ

ولم يجيء التركيب كالأعمى والبصير والأصم والسميع فيكون مقابلة في لفظ الأعمى وضِدِّه، وفي لَفْظِهِ الأصَمِّ وضدهِ، لأنه تعالى لَمَّا ذكر انسدادَ العين أَتْبَعَه بانسداد السمع، ولَمَّا ذَكَرَ انفتاحَ البصر أتبعه بانفتاح السمع، وذلك هو الأُسلوب في المقابلةِ والأتَم في الإعجازِ، ذَكَرَه في «البحر».

ومنها: المجازُ العقليُّ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ لأنَّ نسبة الإيلام إلى اليوم مجاز عقلي نظير قولهم: نَهارُه صائم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ شبه خَفَاءَ الدليل بالعَمى في أنَّ كُلاً يمنع الوصولَ إلى المقاصد، فاشتقَّ من العمى بمعنى الخفاء، ﴿عميت﴾ بمعنى خفيت على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، ويمكن أن يكون

استعارةً تمثيليةً بأن شَبَّهَ الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه، بمَنْ سَلَكَ مفازة لا يعرف طُرُقَها، ومسلكها، واتبع دليلاً أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية.

ومنها: الاستفهامُ التوبيخيُّ المضمن للإنكار في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومنها: التهكمُ والاستهزاء في قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

ومنها: الحذفُ والزيادة في عِدَّةِ مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ...﴾ الآية، قال مقاتل وغيره: هذه الآية معترضة في قصة نوح عليه السلام حكايةً لقول مشركي مكة في تكذيب هذه القصص، وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حكم وفوائد:

منها: تنبيهُ الأذهان، ومنعُ السآمة، وتجديد النشاط بالانتقال من غرض إلى آخر، والتشويقُ إلى سماع بقية الكلام، ومن المتوقع هنا أن يَخْطُرَ في بال

المشركين حينَ سماع ما تقدم من هذه القصة، أنها مفتراةٌ لاستغرابهم هذا السبك في الجدال والقُوَّةَ في الاحتجاج؛ فكان إيراد هذه الآية تجديداً للردَّ عليهم، وتجديداً لِنشاطِهم.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها؛ أن الله سبحانه وتعالى لَمَّا أخبر أنَّ نوحاً قد أكثرَ في حجاجهم وجدالهم، وأنه كلما ازدادَ في ذلكَ زَادُوا عتوّاً وطغياناً حين تعجَّلوا منه العذابَ، وقالوا له: ائتنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين.. أَرْدَفَ ذلك بذكر ما أَيْأَسَه من إيمانهم، وأعلمه بأنَّ ذلك كالمحال الذي لا يكون، فالجدالُ والحجاجُ معهم عبث ضائع؛ فلن يؤمن إلا من قد حَصَلَ منه إيمان من قبل، فإِيَّاك أن تَغْتَمَّ على ما كان منهم من تكذيب في تلك الحقبة الطويلة، فقد حَانَ حِينُهُم، وأزِفَ وقت الانتقام منهم.

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ...﴾ الآيات، هذه الآيات غايةٌ لما ذكر قبلها من الاستعدادِ لهلاكهم، ومقابلةِ السخرية بغير ابتئاسٍ ولا ضجرٍ.

قوله تعالى﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ...﴾ الآيات الثلاث الأُولى تبيِّنُ أنَّ حُكْمَ الله في خلقه العدل بلا محاباة لولي ولا نبيٍّ وأنَّ الأنبياء قد يجوز عليهم الخطأُ في الاجتهاد، ويعد ذلك ذنباً بالنظر إلى مقامهم الرفيع، ومعرفتهم بربهم، وذلك مَا عرض له نوحُ عليه السلام من الاجتهاد في أمر ابنه الذي تخلَّف عن السفينة فَكَانَ من المغرقين، كما أنَّ في الآية الأخيرةِ استدلالاً على نبوة محمدٍ ﷺ وطلب صبره على أذى قومه.

التفسير وأوجه القراءة

و ﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ منقطعة تقدر ببَلْ الإضرابية، وبهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أيقول مشركو مكة: إنَّ محمداً ﷺ افتراه؛ أي: اختلق خبر قوم نوح عليه السلام، وجاءَ به من عند نفسه، أو اختلقَ القرآنَ، وافتراه من عندِ نفسه، فأمره الله سبحانه وتعالى أنْ يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم

يا محمد في الجواب: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾؛ أي: أنِ افتريت خبرَ قوم نوحٍ، أو افتريتُ هذا القرآنَ على الله من عند نفسي كما تزعمون ﴿فـ﴾ـما عليكم بأس، ولا ضَرَرَ في ذلك إنما ﴿علي إجرامي﴾؛ أي: إنما عليَّ لا على غيري، ولا عليكم عقوبة إجرامي وذنبي ﴿و﴾ أنتم بريئون من إجرامي كما ﴿أنا بريء مما تجرمون﴾؛ أي: مَن عقوبة إجرامكم، وذنبكم، فحكم الله العدل: أن يجزى كل امرىء بعمله، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والإجرامُ والجرم اكتساب الذنب كما سيأتي في مبحث الصرف، وفي الآية حذف، والتقدير إن كنت افتريته فعليَّ عقاب جرمي، وإن كنتُ صَادِقاً وكذبتموني فعليكم عقابُ ذلك التكذيب، إلاَّ أنه حذِفَت هذه البقية لدلالة الكَلام عليهَا.

فعلى هذا التفسير تكون هذه الآيةُ[1]: دَخيلة في أثناء قصة نوح ومعترضة بين أجزائها؛ لأجل تنشيط السامع لسماع بقية القصة، وأكثر المفسرين على أن هذه الآية من جملة قصة نوح، كما هو ظاهرُ السِّياق والمعنى عليه ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾؛ أي[2]: بل أيقول قوم نوح ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: إن نوحاً افترى بما أتانا به من عند نفسه مسنداً إلى الله تعالى ﴿قُلْ﴾ لهم يانوح ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾؛ أي: إن اختلقت الوحيَ الذي بلغته إليكم من تلقاء نفسي.. ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾؛ أي: فعليَّ عقاب اكتسابي للذنب، وإن كنتُ صادقاً، وكذبتموني.. فعليكم عقاب ذلك التكذيب ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ أي: من عقاب كسبكم الذنبَ بإسناد الافتراء إليَّ، وقرأ الجمهور ﴿إجرامي﴾ بكسر الهمزة، وهو مصدر أجرم، وهو الفاشي في الاستعمال، ويجوز (جرم) ثلاثياً، وقرىء شاذاً: (أجرامي) بفتح (الهمزة) جمع جرم كأقفال جمع قفل، اهـ «سمين».

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾؛ أي: أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح بعد أن استعجلَ قومه بالعذاب، ودعا عليهم دعوتَه التي حَكَاهَا الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ أي: أَوْحَى الله تعالى إليه

---

(١) الفتوحات. (٢) المراح.

﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أنَّ الشأنَ، والحال ﴿لَن يُؤْمِنَ﴾ أحدٌ ﴿مِن قَوْمِكَ﴾ المصرينَ على الكفر فيتبَعُك على ما تدعوه إليه من التوحيد ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ من قبل، فيَظلُّ على إيمانه، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحْزَنْ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والإيذاء في هذه المدة الطويلة، فقد انتهى أفعالهم، وحانَ وقت الانتقامِ منهم والبؤس والحزن، والابتئاس الحزن مع الاستكانة والتذلل.

والمعنى[1]: فلا يشتدَّ عليكَ البؤس والحزن بعد اليوم بما كانوا يفعلون في السنين الطوال، من العناد والإيذاء، والتكذيب لك، ولِمَنْ آمن مَعَكَ فَأَرِحْ نَفْسَكَ بعد الآن من جِدَالِهِم، ومن إِعراضِهِم، واحْتِقارِهم فَقَد آنَ زَمَن الانتقام، وحَانَ حين العذاب.

قال ابن عباس[2]: إنَّ قومَ نوح كانوا يضربونَ نوحاً حتى يَسْقُطَ فيلفُّونَه في لبد، ويلقونه في بيت يظنون أنه قد مَاتَ، فيخرج في اليوم الثاني، ويدعوهم إلى الله، ويروى أنَّ شيخاً منهم جَاءَ متكئاً على عصاه، ومعه ابنه فقال: يا بنيَّ لا يَغُرنك هذا الشيخُ المجنون، فقال: يا أبت أمكنّي مِن العَصا فأَخَذَها من أبيه، وضرب بها نوحاً عليه السلام، حتى شجَّه شجَّةً منكرةً فأوحى الله إليه إنه لن يُؤْمِنَ مِن قومك إلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ.

وحكى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن عُمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يَبْسطون نُوحاً فيخنِقُونه حتى يغْشَى عليه، فإذا أفاق قال: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى تمادَوا في المعصية، واشتدَّ عليه منهم البلاء، وهو ينتظر الجيلَ بعد الجيل، فلا يأتي قرن إلا كان أنحس مِنَ الذي قبله، ولقد يأتي القرنُ الآخِر منهم فيقول: قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجْدادِنا هكذا مجنوناً، فلا يقبلون منه شيئاً فشكا نوحٌ إلى الله عز وجل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ الآيات حتى بلغ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى لما أخبره أَنهم لا يؤمنونَ ألبتة عرفه وجهَ

---

(١) المراغي.   (٢) الخازن.

إهلاكهم، وألهَمَهُ الأمرَ الذي يكون به خلاصُه وخلاص من آمن معه فقال: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾؛ أي: واعْمَلْ السفينة التي سننجيك ومن آمن معك فيها حالة كونك محفوظاً محروساً ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ أي: بحفظنا لك، وحراسَتِنَا لك ﴿و﴾ معلماً كيفيةَ صنعتها بـ ﴿وحينا﴾ وتعليمنَا لك؛ أي: إنَّنا حافظوك في كل آن، فلا يمنعك مِنْ حفظنا مانعٌ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه، فلا يعرضَنَّ لك خَطَأٌ في صنعتها، ولا في وصفها، والظاهر: أنه أمر إيجاب لأنه لا سبيلَ إلى صون نفسه وأرواح غيره من الهلاك إلا بهذَا الطريقِ، وصَوْنُ النفس من الهلاك واجبٌ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ، اهـ «كرخي».

والمراد بقوله[1]: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ أي: بحِراسَتِنَا لك، وحفظِنَا لك، وعَبَّر عن ذلك بالأعْيُن لأنها آلةُ الرؤية، والرؤية هي التي تكونُ بها الحراسةُ والحفظ في الغالب، وجَمَع الأعْيُنَ للتعظيم لا للتكثير، لئلا يناقض قولَه تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، وقيل: المعنى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ أي: بأعين ملائكتنا الذين جعَلْناهم عُيوناً على حفظك، وقيل: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بعِلمنا، وقيل: بأمرنا، ومعنى بِوَحْيِنا؛ أي: بما أوْحَيْنا إليك من كيفية صنعتها.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾؛ أي: ولا تُراجعني ﴿فِي﴾ شيءٍ من أَمْر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسَهم بالإشراك بدفع العذاب عنهم، وطلبِ الرحمة لهم، فقد حقَّتْ كلمة العذاب عليهم؛ أي: لا تطلب إمهالَهم فقد حان وَقْتُ الانتقام منهم، وجملةُ قوله: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ بالطوفان للتعليل؛ أي: لا تطلب منَّا إمهالَهم، فإنه محكوم منا عليهم بالإغراق، وقد مضى به القضاء، فلا سبيلَ إلى دَفْعِهِ، ولا إلى تأخيره، وقيل: المعنى: ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم، فإنَّهم مغرقون في الوقتِ المضروب، لذلك لا يتأخر إغراقُهم عنه، وقيل: المراد بالذين ظلموا: امرأتُهُ وابنُه.

والخلاصة: لا تأخذنَّك بهم رأفةٌ ولا شفقةٌ، وقرأ[2] طلحة بن مصرف: (بأعيُنَّا) مدغمةً ﴿و﴾ شَرَعَ نوح عليه السلام ﴿يصنع﴾، ويعمل ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ والسفينةُ

---

(1) الشوكاني. (2) البحر المحيط.

﴿و﴾ الحال أنه ﴿كلما مر﴾ وجاوز ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على نوح ﴿مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾؛ أي: جماعةٌ من كبراء قومه، ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾؛ أي: سخر الملأ من نوح وعمله، واستهزؤوا به، وضَحِكُوا منه، وتنادَوْا عليه ظَنّاً منهم أنه أُصِيبَ بالهَوَسِ والجنون.

رُوي أنهم قالوا له: أتحولت نَجَّاراً بعد أنْ كُنْتَ نَبيّاً، وليس ذلك بالغريب منهم، فإنه ما من أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سخروا منه قبل أن يكْتبَ له النجاح.

وفي وجه سخريتهم منه قولان:

أحدُهما: أنهم كانوا يرونه يَعْمل السفينةَ، فيقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً.

والثاني: أنهم لَمَّا شاهدوه يعمل السفينة، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك، قالوا: يا نوح ما تصنع بها؟ قال: أمشِي بها على الماء، فعجبوا من قوله، وسَخِرُوا به.

وقال ابن عباس(١): اتَّخذَ نُوحٌ السفينةَ في سنتين، فَكَانَ طولها ثلاث مئة ذراع، وعَرْضُها خمسينَ ذراعاً، وطُولُها في السماء ثلاثينَ ذراعاً، وكانت مِن خشب السَّاجِ وجَعَلَ لها ثلاثة بطون فَجَعَل في البطن الأسفل الوحوش، والسباع، والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب، والأنعام، ورَكبَ هو ومن معه في البطن الأعلى، وجعل معه ما يحتاج إليه من الزاد وغيره، قال قتادة: وكان بابها في عَرْضِها. انتهى.

وقال كعب الأحبار(٢): عمل نوح عليه السلام السفينةَ في ثلاثين سنة، ورويَ أنها ثلاثة أطباق: الطبقة السفلى: للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى: للإنس، والطبقة العليا: للطير، فلما كثرت أرواث الدواب: أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنبَ الفيل، فغَمَزَه فوَقَع منه خنزيرٌ وخنزيرة، ومَسَح على الخنزير فوقع منه الفأر والفأرة، فأقبلوا على الروث، فأكلوه فلما أفسد الفأر في

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.

السفينة، فجعل يقرضها، ويقرض حِبَالَها، أوْحى الله سبحانه وتعالى إليه أن اضرب بين عَيْنَي الأسدِ فضربَ فخَرَج من منخره سنَّور وسِنّوَرة، وهي القطة والقط، فَأَقْبَلا على الفأر، فأكلاه. ثُمَّ أجاب عليهم نوح بما ذكره بقوله: ﴿قَالَ﴾ نوح مجيباً لهم عن سخريتهم ﴿إِن تَسْخَرُواْ﴾ وتستهزؤوا ﴿مِنَّا﴾ اليومَ وتستجهلونا لرؤيتكم ما لا تتصوَّرون له فائدةً ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ اليومَ لجهلكم بالله، وشرككم به وغداً حين ينزلُ بكم العذاب لكفركم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ مِنَّا جزاءً وفاقاً؛ أي: إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنعُ، فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر، والتعرض لسخط الله، وعذابه، ثم هدَّدَهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وتَرَون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: أينا يأتيه عذاب في الدنيا يهينه ويذله، وهو عذابُ الغرق، ومَنْ هو أحق بالسخرية، ومَنْ هو أحْمَدُ عاقبةً ﴿و﴾ تعلمون من ﴿يحل﴾ وينزل ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم؛ أي: وسوفَ تعلمون أينا ينزل عليه النار الدائم في الآخرة.

والمعنى[1]: فإن كنتم لا تعلمون اليومَ فائدةَ ما نعمل، وما له من عاقبة محمودة، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه، ويَجْلِب له العارَ، والخِزيَ في الدنيا، وهو عذاب الغرق، ويحل عليه عذاب دائم في الآخرة بعد ذلك، وكل ما في الدنيا فهو هيِّن ليِّنٌ بالنسبة إلى ما يكون في الآخرة لانقضائه وزواله، وبقاء ذَاكَ ودَوامِهِ.

فإن قُلتَ[2]: السخريةُ لا تَلِيقُ بمنصب النبوة، فكيف قال نوح عليه السلام: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

قلتُ: إنما سَمَّى هذا الفعلَ سخريةً على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام، كما في قوله﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ والمعنى: إنا نَرى غِبَّ سخريتكم بِنا إذا نزل بكم العذاب.

والتشبيه في قوله[3]: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ لمجرد التحقق، والوقوع، أو التجدد

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) الشوكاني.

والتكرر، والمعنى: إنَّا نَسْخَرُ منكم سخريةً متحققة واقعةً كما تسخرون منَّا كذلك، أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك.

وحكى الزهراويُّ أنه يقرأ[1]: (ويَحُلُّ) بضم الحاء، ويَحِل بكسرها بمعنى ويَجِبُ، وحتى في قوله﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ ابتدائية، دخلَتْ على الجملة الشرطية، وجُعلت غايةً لقوله﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: وكان يَصْنَعُ الفلكَ حتى إذا جاء وَقْتُ أمْرِنا وقضائنا بهلاكهم، ووَقْتُ عذابنا الموعود به ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: نَبَعَ الماءُ من التنور؛ أي: من وَجْه الأرض أو من تنور الخُبْز، وارتفعَ بشدة، كما تَفُور القدر بغليانها، وكانَ ذلِكَ علامةً لنوح عليه السلام، رُوي[2] أنه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيتَ الماء يفور من التنور، فَارْكَب ومن مَعَك في السفينة، فلما نَبَعَ الماء أخبرته امْرَأته.. فرَكِبَ، وقيل: كانَ التنور لآدم، وكانت حواء تقمر فيه الخبز، فصار إلى نوح، وكانَ من حجارةٍ وهو بالكوفة على يمين الداخل، مِمَّا يلي باب كندة في المسجد، والأقرب أن يكونَ المراد من التنور وجه الأرض، ويكون المعنى حتى إذا نَبَع الماء من وجه الأرض ﴿قلنا﴾ لنوح آنئذ: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: احمل في السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين، ذكراً وأنثى، لِيبقى ذلك النوع بعد غرق سائر الأحياء، فيتناسل ويَبْقَى على الأرض.

وقرأ حفص[3]: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ بتنوين (كلٍ)، (زوجين) مفعول به و (اثنين) نعت توكيد؛ أي: احمل من كل حيوان، زوجين اثنين كل منهما زوج للآخر، وقرأ باقي السبعة بالإضافة؛ أي: احمل من كل فردين متزاوجين اثنين، بأن تحمل من الطير ذكراً وأنثى، ومن الغنم ذكراً وأنثى، وهكذا، وتترك الباقي، والمرادُ من الحيوانات التي تنفعُ، والتي تلد وتبيض، فتخرج المضرات، والتي تَنْشَأ من العفونات والتراب كالدود، والقمل، والبق، والبعوض. قال البغوي: وروي عن بعضهم: أنَّ الحيَّة والعقربَ أتَيا نوحاً عليه السلام، فَقَالتا: إحمِلنا معَك،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراح.
(٣) البحر المحيط.

فقال: إنكما سبب البلاء، فلا أحمِلُكما، فقالتا: إحملنا معك، فنحن نَضْمَنُ لك أن لا نَضُرَّ أحداً ذَكَرَك، فَمَنْ قرأ حين يخاف مضرَّتُهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لم تضرَّاهُ، ذكره في «الخازن».

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ معطوف على زوجين على قراءة حفص، وعلى اثنين على قراءة غيره؛ أي: واحمل فيها أهلَ بيتك ذكراناً وإناثاً ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، والقضاءُ بأنهم من المغْرَقِين بسبب ظلمهم، كما قال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ والمرادُ[1] به: ابنه كَنعَان، وأمه واعلة أم كنعان، فإنهما كَانَا كافرين، فحَمَل في السفينة زوجتَه المؤمِنةَ وأولادَها الثلاثةَ مع نسائهم: ساماً، وحاماً، ويافثاً، فسامُ أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك، وإفرادُ الأهلِ منهم لمزيد العناية بهم، أو للاستثناء منهم، وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ معطوف على زوجين، أو على اثنين على اختلاف القراءة؛ أي: واحمِل معك مَنْ آمن، وصَدَّقَكَ واتبعك من غير أهلك.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ من قومه، قيل: إنهم كانوا ثمانية: نوحاً عليه السلام، وأبناءه الثلاثة، وأزواجهم. وعن ابن عباس[2] قال: كان في سفينة نوح ثمانون إنساناً، نصفهم رجال، ونصفُهم نساءٌ. وقال مقاتل: في ناحية الموصل قريةٌ يقال لها: قرية الثمانين، سميت بذلك؛ لأنَّ هؤلاء لَما خرجوا من السفينةِ بَنَوْها فسُمِّيَتْ بهذا الاسم.

ولكن لم يبين[3] الله سبحانه وتعالى لَنَا ورَسولُه ﷺ عَدَدَهم فحصره في عدد معين من قبيل الحدس والتخمين، كما لَمْ يبيِّنِ لنا أنواعَ الحيوان التي حملها، ولا كيف حَمَلها، وأدْخلها السفينة، وقد فصل ذلك في سفر التكوين من التوراة.

وقوله: ﴿وَقَالَ﴾ معطوف على محذوف تقديره، فحَمَلهم نوحٌ، وقال: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾؛ أي: في جوف السفينة، والخطابُ فيه للإنس، وأما غيرهم من

---

(١) المراح.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

الحيوانات أخذه بيده، وألقاه فيها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾؛ أي: باسم الله سبحانه وتعالى جريانُ السفينة على الماء وإرساؤها؛ أي: وقوفها، فهو الذي يتولَّى ذلك بحوله وقوته، وحفظه وعنايته، وروي[1] أنه كان إذا أراد أنْ تجري قال: بسم الله، فَجَرَتْ، وإذا أراد أن تَرْسُو قَالَ: بسم الله، فرَسَتْ؛ أي: وقفت، ويجوز أن يكون الاسمُ مُقْحماً كقوله:

إِلَىٰ ٱلْحَوَلِ ثُمَّ ٱسْمُ ٱلسَّلَامِ عَلَيْكُمَا

وهذا تعليم من الله لعباده أنه ينبغي لهم أن يستعينوا بالله تعالى، وقد يكون المعنى أنَّ نوحاً أمرهم بأن يقولُوها كما يقولُها على تقدير اركبوا فيها قائلينَ باسم الله؛ أي: بتسخيره، وقدرته، مجْراها حين تَجْرِي ومرساها حين يرسيها، لا بحولنا ولا بقوتنا، ويحتمل أن يكونَ مجْريها ومُرْسَاهَا اسمي مكان أو زمان، أي: اركبوا فيها ذاكرينَ اسمَ الله، وقتَ جريانها أو إرسائِهَا، أو مكانهما.

وقرأ مجاهدٌ والحسنُ وأبو رجاء، والأعرج، وشيبة، ونافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر[2]: ﴿مُجراها﴾ بضم الميم، وقَرأ حمزةُ والكسائِيّ وحَفْصٌ بفتحها، وكلهم ضمَّ ميم ﴿مُرساها﴾، وقرأ ابن مسعود، وعيسى الثقفيّ وزيد بن علي والأعمش: ﴿مجراها ومرساها﴾ بفتح الميمين ظرفيْ زمان، أو مكان، أو مصدرين على التقارير السابقة، وقرأ الضَّحاك، والنخعيُّ، وابن وثاب، وأبو رجاء، ومجاهد، وابن جندب، والكلبيُّ، والجحدري: ﴿مجريها، ومرسيها﴾ سمي فاعل من أجرى وأَرْسى على البدل من اسم الله، ولا يكونان صفتين لكونهما نكرتَين.

﴿إِنَّ رَبِّى﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَغَفُورٌ﴾؛ أي: سَتُورٌ عليكم ذنوبَكم، بتوبتكم وإيمانكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ لكم إذ نَجَّاكم من الغرق، ولولا مغفرتُه تعالى ورحمته إياكم، لما نجَّاكم لأنكم لا تنفكون عن أنواع الزَّلاَّت؛ أي: إنَّ ربِّي لواسع المغفرة لعباده حيثُ لم يهلكهم بذنوبهم، بل يهلك الكافرينَ الظالمينَ منهم، رحيم بهم إذ

---

(١) البيضاوي.　　(٢) البحر المحيط.

سخَّر لهم هذه السفينةَ لنجاة بقيَّةِ الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذي اقتضته مشيئته، ورُوي في الحديث: «أنَّ نوحاً رَكِبَ في السفينة، أوَّل يوم من رجب، وصام الشهر أجْمَعَ ـ وعن عكرمة لعشر خلون من رجب ـ ونَزَلَ عنها عَاشِرَ المحرم، فصَامَ ذلك اليوم، وأَمَرَ مَنْ معه بصيامه شكراً لله تعالى» وكانَتْ مدة مُكْثِه على السفينة سِتَّةَ أشهر تقريباً.

وأخرج الطبرانيُّ[1] وغيره عن الحسن بن علي رضي الله عنه أنَّه قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا: باسم الله الملك الرحمٰن الرحيم بسم الله مجريها» الآية.

قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ هذه الجملة[2] متصلة بجملة محذوفة دلَّ عليها الأمر بالركوب، والتقدير فركبوا مُسَمِّينَ وهي تَجْري بهم، والموج جمع مَوْجَةٍ وهي ما ارتفعَ مِن جملةِ الماء الكثير عند اشتدادِ الريح، وشبَّهَها بالجبال المرتفعة على الأرض.

أي: فركبوها، والحال أنها تَجْرِي بهم في موج يشبه الجبالَ، في عُلُوِهِ وارتفاعه وامتداده، ومَنْ كابد ما يحدث في البحار العظيمة من الأمواج حين ما تهيجها الرياحُ الشديدة.. عَرَفَ أنَّ المبالغةَ في هذا التشبيه غير بعيدة، فإنَّ السفينة لترى كأنها تهبط في غور عميق كَوادٍ سحيق يُرَى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليهَا، وبعد هنيهة يرى أنَّها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنَّها في شاهق جبلٍ تُرِيدُ أن تنقضَّ منه، والملاَّحُون يَرْبِطُون أنْفُسُهم بالحبال على ظهرها وجوانبها لئلا يجرفهم ما يفيضُ من الموج عليها.

وهذه الجملةُ تدُلُّ على وجود الرياح الشديدة في ذلك الوقت، قال علماءُ[3] السير: أرسلَ الله تعالى المطَرَ أربعين يوماً وليلةً، وخرج الماء من الأرض، وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً، وقيل: خَمْسَةَ عَشَر ذِراعاً حتى أغرَق كل شيء.

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.

ورُوي[1] أنه لما كَثُر المَاءُ في السكك خَافَتَ أم صبيٍّ على ولدها من الغرق، وكانت تحبه حبّاً شديداً، فخرجت به إلى الجبل حتى بَلغت ثلثه، فلَحِقَهَا الماء، فارتفعَتْ حتى بلغت ثلثَيه فلَمّا لَحِقَها الماء ذهبَتْ حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء إلى رقبتها رفعت الصبيَّ. بِيَدَيْها حتى ذَهَبَ بهِمَا الماءُ فأغرقهما، فلَوْ رحم الله منهم أحداً.. لرَحِمَ أمُّ الصبيّ ثم بَيَّنَ أنَّ نوحاً دَعَته الشفقة على ابنه، فناداه كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ هو كنعانُ[2]، وقيل: يَام، قيل: وكان كَافِراً، واستبعِدَ كون نوح ينادي مَنْ كان كافراً مع قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وأُجيب بأنه كان منافقاً، فظنَّ نوح أنه مؤمن، وقيل: حملته شَفَقَةُ الأُبُوَّة على ذلك، وقيل: إنه كان ابنَ امرأته، ولم يكن بابنه، ويؤيِّده ما روى أنّ علّياً قرأ: ﴿ونادى نوح ابنها﴾، وقيل: إنَّه كان لغير رشدة، وولدَ على فراش نوح، ورُدَّ بأن قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ يَدْفَعُ ذلك على ما فيه من عدم صيانةِ مَنْصِبِ النبوة.

أي: ونادى نوح ابنه كنعانَ قَبْلَ سَيْرِ السَّفينَةِ ﴿و﴾ الحال أنه ﴿كان في معزل﴾؛ أي: في مكان بعيد عزل وبعد وفصل فيه نفسه عن أبيه وإخوته وقرابته وقومه، بحيث لم يَبْلُغه الخطاب بارْكَبُوا؛ أي: قول نوح لمَنْ آمَن ﴿اركبوا﴾ وقيل: ﴿في معزل﴾ عن دين أبيه، وقيل: من السفينة، قيل: وكان هذا النداء قبل أنْ يَسْتَيْقِنَ الناسُ الغرَقَ بل كان في أوَّلِ فور التنور.

وقرأ الجمهورُ[3]: بكسر تنوين ﴿نوحٍ﴾، وقرأ وكيع بن الجراح بضمه أتبع حركتَه حركةَ الإعراب في الحاء، قال أبو حاتم: هي لغة سوء لا تُعْرَف، وقرأ الجمهور بوصل (هَاءِ) الكناية، بواو، وقرأ ابن عباس: ﴿ابنَهْ﴾ بسكون الهاء، قال ابن عطية وأبو الفضل، وأبو الفضل الرازي، وهذا على لغة الأزد الشراة يسكنون هاء الكناية من المذكر، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

وَنَـضْـوَايَ مُـشْـتَـاقَـانِ لَـهُ أرِقَـانِ

وذكر غيره أنها لغة لبني كلاب، وعُقيل، وقرأ السدي: ﴿ابناهْ﴾ بألف وهاء السكت، قال أبو الفتح: ذلك على النداء، وذهبَتْ فرقة إلى أنه على الندبة والرثاءِ.

وقرأ علي وعروة وعلي بن الحسين وابنه أبو جعفر وابنُه جعفر[1]: ﴿ابنه﴾ بفتح الهاء من غير ألف، أي: ابنها مضافاً لضمير امرأته، فاكتفي بالفتحة عن الألف، قال ابن عطية: وهي لغةٌ ومنه قول الشاعر:

إِمَّـا تَـقُـوْدُ بِـهَـا شَـاةً فَـتَـأْكُـلُـهَـا   أَوْ أَنْ تَـبِـيْـعَـهَ فِـيْ بَـعْـضِ الأَرَاكِـيْـبِ

يريد تَبِيعَها، وقرأ أيضاً علي وعروة: ﴿ابنها﴾ بفتح الهاء وألف.

وقرأ عاصم: ﴿يا بنيَّ اركب معنا﴾ بفتح الياء، ووجه على أنه اجتزأ بالفتحة عن الألف، وأصله يا بُنيا، كيا غلاماً ثُمَّ حذفت، وبقيت الفتحة لِتَدُلَّ عليه، أو على أنَّ الألِفَ انحذفت لالتقائها مع راءِ اركب، وقرأ باقي السبعة بكسر الياء اجتزاءً بالكسرة عن ياء الإضافة، أو حذِفَت لالتقاء الساكنين.

وقرأ أبو عمرو والكسائي وحفص[2]: ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ بإدغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج، وقَرأ الباقون بعدم الإدغام.

والمعنى: ونادَى نوحٌ ابنه حينَ الركوب في السفينة، وقبل أنْ تجرِيَ بهم، وكان في مكان منعزل بعيد عن أبيه وإخوته ومَنْ آمن من قومه يا بنيَّ اركب معنا الفلك، ولا تكن مع الكافرين الذين قضي عليهم بالهلاك، نَهَاه عن الكون مع الكافرين؛ أي: خَارجَ السفينةِ، ويُمْكِنُ أنْ يُرادَ بالكون معهم الكونَ على دينهم.

ثمَّ حكى الله سبحانه وتعالى ما أجاب به ابن نوح على أبيه، فقال: ﴿قَالَ﴾ ابن نوح جواباً لأبيه، ظانّاً أنَّ ذلك المطرَ والتَّفْجِيرَ على العادة ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾ وألتجىء من وصول الماء إلـيَّ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ أتحصن به من الماء ﴿يَعْصِمُنِى﴾ أي

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الشوكاني.

فيحفظني ذلك الجبل ﴿مِنَ﴾ الغرق بـ ﴿ٱلْمَآءِ﴾ وهذا يدل على عادته في الكفر، وعدم وثوقه بأبيه فيما أخبر به، قيل: والجبل الذي عَناه طُورُ زيتا، فلم يمنعه فأجَابه نوح مبيناً له خطأه بما ذكره الله سبحانه وتعالى ﴿قال﴾ نوح لابنه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا شيء يعصِم أحداً في هذا اليوم العصيب، زاد اليومَ تنبيهاً على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع التي ربما يخلص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب، اهـ «روح البيان».

﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: مِن عذاب الله الذي قضاه على الكافرين، فليس الأمر أمر ماء يتقى بالأسباب العادية، وإنما هو انتقامٌ من أشرار العباد الذين أشركوا بالله، وظلموا أنْفُسَهم، وظلموا الناسَ بطغيانهم في البلاد. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ منقطع بمعنى لكن؛ أي: لا عاصم اليومَ من أمر الله لكن من رحمه الله تعالى فهو المعصوم، لأنَّ المستثنى هو المعصوم، والمستثنى منه هو العاصم؛ أي: لكن مَنْ عصمه الله سبحانه وتعالى ورحمه، فهو المعصومُ المرحوم، وقد اختص بهذه الرحمة والعصمةِ مَنْ حَمَلَهُم في السفينة.

والمعنى: لا مانِعَ[1] من أمر الله وعذابه اليومَ فإنه يوم قد حق فيه العذاب، وجف القلم بما هو كائن فيه، نفى جنسَ العاصم، فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أولياً، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره، والاستثناء هنا قال الزجاج: هو منقطعٌ؛ أي: لكن مَنْ رَحِمَهُ الله فهو يعصمه فيكون ﴿مَن رَّحِمَ﴾ في مَوْضع نصب، ويجوز أن يكونَ الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصم بمعنى معصوم؛ أي: لا مَعْصُومَ اليومَ من أمر الله إلاّ مَنْ رحمه الله مثل: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ بمعنى مدفوق و﴿عيشة راضية﴾ بمعنى مَرْضِيَّةٍ، وقول الشاعر:

بَطِيْءُ ٱلْقِيَامِ رَخِيْمُ ٱلْكَلَامْ   أَمْسَىٰ فُؤَادِيْ بِهِ فَاتِنَا

أي مفتوناً، واختارَ هذا الوجه ابن جرير، وقيل: العاصم بمعنى ذي

(١) الشوكاني.

العصمة كَلاَبِنٍ وتامر، والتقديرُ: لا عَاصمَ قط؛ أي: لا مكانَ ذا عصمةٍ إلا مكانَ مَنْ رحم الله، وهو السفينةَ.

وذكر صاحب «الانتصاف»[1]: أنَّ الاحتمالات الممكنة هنا أربعةٌ: لا عَاصمَ إلاّ راحم، لا معصومَ إلا مرحوم، لا عاصمَ إلا مرحوم، لا معصومَ إلا راحم. فالأولان استثناء من الجنس، والآخران استثناء من غير الجنس، فيكون منقطعاً؛ أي: لكنِ المرحومُ يُعْصَمُ على الأول ولكن الراجح يَعْصِمُ مَنْ أراد على الثاني، اهـ «زاده» و «شهاب».

وقُرِىءَ[2]: ﴿إلا مَنْ رُحِم﴾ بضم الراء، بالبناء للمفعول، وهذا يدل على أنَّ المراد بِمَنْ في قرَاءة الجمهور الذين فتحوا الراءَ هو المرحومُ لا الراحمُ.

﴿و﴾ كان الماء يتزايدَ ويرتفع أثناء المحادثةِ والمراجعة بينهما حتى ﴿حال بينهما﴾؛ أي: بين الولد ووالده ﴿ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الولدُ ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ بالفعل الهالكين بالطوفان، فتعذَّر خَلاصُه مِن الغرق، قيل: كَانَا يتَراجَعَانِ الكلامَ فما استتمَّت المراجعةُ حتى جاءت موجة عظيمةٌ، وكان راكباً على فرس قد بَطِرَ وأعجب بنفسه، فالتقمته وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق وقال الفراء[3]: بَيْنَهُما؛ أي: بين نوح والجبل الذي ظنَّ أنه يعصمه، والأول أولى لأن تَفَرُّعَ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ عليه يدل على الأول لا على الثاني، لأنَّ الجبلَ ليس بعاصم.

ثُمَّ ذَكَر ما حدث بعد هلاكهم مبيِّناً قُدْرَتَه تعالى فقال: ﴿وَقِيلَ﴾؛ أي: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾؛ أي: أنشفي ما على وَجْهك من ماء الطوفان، ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾؛ أي: أمسكي عن إرسال المطر، وقدَّم نداء الأرض على السماء لكون ابتداءِ الطوفان منها ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: ونقَصَ ما بين السماء والأرض من الماء، وفي «القرطبي»، وقيل: ميز الله بين الماءين فَمَا كَانَ من ماء

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

الأرض أمرَهَا فبلعته، وصَارَ مَاء السماء بِحاراً، اهـ. ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: أتم الله الأمر من هلاك قوم نوح؛ أي: أحكم وأمضى ,فرغ منه ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ الفلك؛ أي: واستقرت السفينة رَاسِيةً واقفة ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾؛ أي: على جبل بالجزيرة، مدينة بالعراق قريب من الموصل، يقال له: الجوديُّ، وكان ذلك الجبل منخَفِضاً، ويقال: إنَّه مِن جبال الجنة، فلذا اسْتَوَتْ عليه.

وفي «القرطبي»: رُوِيَ أن الله تعالى أُوحى إلى الجبال أنَّ السفينةَ تُرْسَى إلى واحد منها، فتطاولت وبقي الجودي لم يتطاول تواضعاً لله تعالى، فَاسْتَوَتْ السفينة عليه، وبقيت على أعوادها، وفي الحديث: أنَّ النبي ﷺ قال: «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة». اهـ.

رُوي[1] أنه عليه السلام رَكِبَ في الفلك في عاشر رجب، ومرَّتْ بالبيت الحرام، فطافَتْ به سبعاً، ونَزَل عن الفلك عَاشِرَ المحرم، فصام ذَلِك اليومَ وأمر من معه بصيامه شكراً لله تعالى، وبَنَوا قريةً بقُربِ ذلك الجبلِ فسمَّوها قرية الثَّمانِين، فهي أوَّل قرية عمِّرت على الأرض بعد الطوفان، وقَرأ الأعمش، وابن أبي عَبْلَةَ على ﴿الجوديْ﴾ بسكون الياء مخففةً، قال ابن عطية: وهما لغتان، وقال صاحب «اللَّوامح»: هو تخفيفُ ياء النسب، وهذا التخفيفُ بابُهُ الشعرُ لشذوذه ذَكَرَه أبو حيان. ومعنى الآيةِ وجاء نداء[2] من الملأ الأعلى خُوطِبَتْ به الأرضُ والسماء: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾ الذي عليك، والذي تفجرَ من باطنِكِ، ويا سماء كُفِّي عن المطر، فلم يلبث أن غاض الماء امتثالاً للأمر، وقضي الأمر بإهلاك الظالمين، واستقرت السفينة راسية على جبل الجودي، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: قال الله سبحانه وتعالى: بعداً من رحمتي، وهَلاكاً بعذابِي قضيت وأثبت للقوم الظالمين بما كَانَ من ظلمهم، وفقدهم الاستعدادَ للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل، والقائل هو سبحانه وتعالى كما فسَّرنا ليناسب صَدْرَ الآية، وقيل: هو نوحٌ وأصحابه.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

والمعنى: أي قال نوح وأصحابه: بَعِدُوا بُعْداً من رحمة الله للقوم المشركين، بحيث لا يرجَى عودهم، وهذا الكلام جار مجرى الدعاء عليهم، لأنَّ الغالبَ ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة إذا هلكوا ونجا منهم قالَ مثْلَ هذا الكلام، وهذا من الكلمات التي تختص بدعاء السوء، ووَصَفهم بالظلم، للإشعار بأنه علة الهلاك، وللإيماء إلى قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾.

فإنْ قلتَ[١]: كيف اقتضَتْ الحكمة الإلهية، والكرمُ العظيم إغراقَ مَنْ لم يبلغوا الحلم من الأطفال، ولم يَدْخلوا تحت التكليف بذنوبِ غيرهم؟

قلت: الجواب الشافي عن هذا أنْ يقال: إنَّ الله سبحانه وتعالى متصرِّف في خَلْقِهِ، وهو المالك المطلقُ، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسْأَلُ عما يفعل، وهم يسألون، لا ما قيل: من أن الله عز وجل أعْقَمَ أرْحَامَ نسائهم أربعين سنة، فلَمْ يُولد لهم ولد في تلك المدَّة، لأنَّ هذا الجواب ليس بقويٍّ لأنه يَرِدُ عليه إغراقَ جميع الدواب والهوام والطير.

قال العلماء بالسير[٢]: لمَّا استقرت السفينةُ بَعَثَ نوحٌ الغرابَ ليأتِيَه بخبر الأرض، فوقع على جيفة، فلم يرجع إليه، فبَعَثَ الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها، ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوحٌ أن الماءَ قد ذهَبَ، فدعا على الغراب بالخوفِ فلذلك لا يألف البيوتَ، وطوق الحمامة بالخضرة التي في عنقها، ودعا لها بالأمان فمن ثم تألَفُ البيوت.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾ إثر ندائه لابنه الذي تخلف عن السفينة، ودَعاهُ إليها فلم يستجب، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي﴾ هذا ﴿مِنۡ أَهۡلِي﴾ الذي وعدَتني بنجاتهم، إذ أمرتني بحَمْلهم في السفينة ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ﴾ يا إلٰهي ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ أي: خير الحاكمينَ بالحق، وأفضلُهم كما قلتَ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ فحكمك يصدر عن كمال العلم والحكمة، فلا يعرض له الخطأ، ولا الحَيف، ولا الظلم.

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

والمعنى: وأنت أعلم الحكَّام وأعْدَلُهم إذ لا فَضْلَ لحاكم على غيرِه إلاَّ بالعلم، والعدل، ورُبَّ جاهل ظالم من متقلدي الحكومة في زمانك لقد لقِّبَ بأقضى القُضاة، وقال جَارُ الله:

قُضَاةُ زَمَانِنَا صَارُوْا لُصُوْصَا عُمُوْمَاً فِيْ ٱلْقَضَايَا لاَ خُصُوْصَا

خَشِيْنَا مِنْهُمُ لَوْ صَافَحُوْنَا لَلَصُّوْا مِنْ خَواتِمِنَا فُصُوْصَا

اهـ «روح البيان».

وهذا الدعاء من نوح عليه السلام في غاية التلطُّف، وهو مِثْلُ دعاءِ أيوب عليه السلام ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

والخلاصة: أن نوحاً كانَ يريد أن ينجوَ ابنه الذي تخلَّفَ عن السفينة من الغرق، بعد أن دعاهُ إليهَا، ومن البَيِّنِ أنَّ هذا الدّعاءَ لا بُدَّ أنْ يَكُونَ بعد المحاورة مَعَ ابنِه قبل أن يَحُولَ بينهما الموج، ومعنى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ﴾؛ أي: أراد أن يناديه، ولذلك أَدْخَلَ الفاء؛ إذ لو كان أراد حقيقةَ النداءِ والإخبار عن وقوعه منه لم تَدْخُل (الفاء) في ﴿فقال﴾ ولسقَطَتْ كما لم تَدْخل في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ﴾ و (الواو) في هذه الجملة لا ترتب أيْضاً، وذلك أنَّ هذه القِصَّةَ كانت أوَّلَ ما ركب نوحُ السفينةَ، ويظهر من كلام الطبري أنَّ ذلك مِنْ بعدِ غَرْقِ الابن ﴿قال﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ ابْنَكَ هَذَا ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين أمرتك أنْ تحملهم في الفلك لإنجائهم، وقد بَيَّن سبحانه سببَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ ابْنك هذا ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ أي: ذو عمل غير صالح؛ لأنه عَمِلَ عملاً غير مرضيٍّ، وهو الشركُ والفسادُ والتكذيب.

قال الزَّمخشري[1]: فإنْ قُلْتَ: فَهَلاَّ قيل: إنه عمل فاسد؟

قلتُ: لمَّا نفاه من أهله نَفَى عنه صِفَتَهم بكلمة النفي التي يُستنفى بها معها لفظ المنفي، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله بصلاحهم لا لأنهم

---

(١) البحر المحيط.

أهلك وأقاربك، وإنَّ هذا لمَّا انتفى عنه الصَّلاحُ لم تنفعه أُبُوَّتُكَ.

والظاهر[1]: أن الضمير في أنه عائد على ابن نوح، لا على النداءِ المفهوم من قوله: ﴿وَنَادَىٰ﴾ المتضمّن سؤالَ ربِّهِ، وجعَلَه نفس العمل مبالغة في ذمِّهِ هذا على قراءة جمهور السبعة عمل بلفظ المصدر، وقرأ الكسائي: ﴿عَمِلَ غَيْرَ صالحٍ﴾ على جعله فعلاً ناصباً ﴿غير صالح﴾ وهي قراءة عليّ وأنس، وابن عباس، وعكرمة، ويعقوب، وعائشة، وروتها عائشة وأم سلمة عن النبي ﷺ وهذا يُرَجِّحُ أن الضميرَ يعود على ابن نوحٍ، قيل: ويرجِّح كونَ الضمير في أنه عائداً على نداءِ نوح المتضمن السؤالَ أنَّ في مصحف ابن مسعود: ﴿إنه عملٌ غيرُ صالح أن تسألني ما ليس لك به علم﴾ وقيل: يعودُ الضمير في هذه القراءةِ على ركوب ولد نوح معهم الذي تضمَّنه سؤالُ نوح.

المعنى: أن كونَه مع الكافرين، وتركَه الركوبَ مع المؤمنين، عمل غيرُ صالح، وكون الضمير في أنه عائداً على غير ابن نوح عليه السلام تكلفٌ وتعسفٌ لا يليق بالقرآن، ذكره أبو حيان.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: إذا وقَفْتَ على جَلِيَّةِ الحال، فلا تَطْلُب مني مطلباً لا تَعْلَمُ يقيناً أن حصولَه صوابٌ وموافقٌ للحكمة، ولمَّا بيَّنَ له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله، فرَّع على ذلك النهي عَنِ السؤال، وهو وإنْ كان نَهْياً عامّاً بحيث يشمل كُلَّ سؤال لا يعلمُ صاحبه أنَّ حصولَ مطلوبه منه صواب، فهو يَدْخُلُ تحته سؤاله هذا دُخولاً أوليّاً.

أي: فلا تسألني يا نوح في شيء ليس لك به علم صحيح، وقد سمَّى دعاءَه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال؛ لأنه تضمَّن ذكر الوعد بنجاة أهله، وما رتَّبه عليه من طلب نجاة ولده.

وفي الآية[2]: إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله في خلقه، بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعي، ولا بطلب ما هو محرَّمٌ شرعاً،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب، والتوفيق فيها، والهداية إلى العلم بالمجهول، من السنن والنظام لنكثر من عمل الخير، ونزيدَ من عمل البر والإحسان ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾؛ أي: أُخَوِّفكَ وأحذرك وأنهاك عن ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ بالسؤال، سَمَّى سؤالَه عليه السلام جهلاً؛ لأنَّ حُبَّ الولد شَغَلَه عن تذكرِ استثناءِ مَنْ سبق عليه القول منهم بالإهلاك.

أي: إني أنهَاكَ أن تكون من زُمرةِ مَنْ يجهلون فيسألونَه تعالى أن يبطِلَ حكمتَه، وتقديرَه في خلقه إجابة لشهواتهم، وأهْوائِهم في أنفسهم، أو أهليهم، أو مُحِبِّيهم، وفي ذلك[1] دليلٌ على أنَّ منْ أكبر الجهالات أنْ تسأل بعضَ الصَّالحِينَ والأولياء ما نهى الله عنه نَبِيّاً من أولي العزم مِنْ رسله أن يَسْألَهُ إيَّاه، فإنَّ ذَٰلِك يقتضي بأن الله يعطيهم ما لم يعط مثله لرسله.

قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله، وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويُعْلِيه بها إلى مقام العلماء العاملين.

وقرأ الصاحبان[2] - نافع وابن عامر -: ﴿تَسْأَلَنِّ﴾ بتشديد النون مكسورةً، وقرَأ أبو جعفر، وشيبة، وزيد بن عليّ كذلكَ إلا أنهم أثبتوا (الياء) بعد (النون)، وابنُ كثير بتشديدها مفتوحةً، وهي قراءة ابن عباس، وقرأ الحسن، وابن أبي مليكةَ ﴿تسالنِي﴾ من غير همز من سال يسال، وهما يتساولان، وهي لغة سائرة، وقَرأ باقي السبعة بالهمز وإسكان اللام، وكسر النون، وتخفيفِها وأثْبتَ الياء في الوصل وَرْشٌ، وأبو عمرو، وحَذَفَها الباقون.

قال الزمخشري: المعنى فلا تلتمس ملتمَساً أو التماساً لا تعلمُ أصَواب هو أم غير صواب؟ حتى تَقِفَ على كنهه، ثمَّ لمَا عَلِمَ نوح بأنَّ سؤاله لم يطابق الواقع، وأنَّ دعاءَه ناشىء عن وهم كانَ يتوهمه، بادَرَ إلى الاعتراف بالخَطأ، وطلب المغفرة والرحمة فـ ﴿قال﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ وألتجِىءُ إليكَ وأحتمي بك من ﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ بعد الآن ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾؛ أي: شيئاً لا

---

(1) المراغي.

(2) البحر المحي.

أعْلَمُ أنَّ حُصُولَهُ على مقتضى الحكمة ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾؛ أي: وإن لم تغفر لي ذَنْبَ هذا السؤال الذي سولته لي الرحمة الأبوية، وطمعي في الرحمة الربانية ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ بقبول توبتي، برحمتك التي وَسِعَت كُلَّ شيء ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في أعمالي، فلا أربح فيها؛ أي: أكنْ من الخاسرين فيما حاولته من الربح بنجاة أولادي كلِّهم، وسعادتِهم بطاعتك، وأنت أعلم بها مني، وقد استدلّ بهذه الآيات من لا يرى عِصْمَة الأنبياءِ، والخاسرون هم المغبونون حُظُوظَهم من الخير، ونَسَب النَّقْصَ والذَّنْبَ إلى نفسه، تأدباً مع ربه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾، أي: ما فرط من سؤالي، وترحمني بفضلك، وهذا كما قال آدم عليه السلام.

والعبرة في الآية من وُجوهٍ[1]:

١ـ أنَّ ما سأله نوح لابنه لم يكن معصيةً لله تعالى، خَالَفَ فيها أمْرَه أو نَهْيَهُ، وإنما كَانَ خَطأً في اجتهاد بنية صالحةٍ، وعَدَّ هذا ذَنْباً لأنه ما كان ينبغي لِمِثْلِهِ من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه، ومِثلُ هذا الاجتهاد لم يُعْصَم منه الأنبياء، فهم يقعون فيه أحياناً ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم، وتكميله إياهم حيناً بعد حين.

٢ـ أنه لا علاقةَ للصلاح بالوراثةِ والأنساب، بل يختلفُ ذلك باختلاف استعداد الأفراد، وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات، ولو كَانَ للوراثة تأثير كبيرٌ.. لكان جميع أولاد آدم سواء، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين.

٣ـ أنه تعالى يجزي الناسَ في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسابهم، ولا يحابِي أحداً منهم لأجل الآباء والأجداد، وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين.

٤ـ أنه من يغتر بنسبه، ولا يعمل ما يرضي ربَّه، ويزعم أنه أفضلُ من العلماء العاملين، والأولياءِ الصالحين فهو جاهل بكتاب ربِّه الذي لا يأتيه الباطل

(١) المراغي.

من بين يديه ولا من خلفه ﴿قِيلَ﴾؛ أي: قال الذي[1] بيده ملكوت كل شيء ومدبر أمر العالم كلّه لنوح بعد أن انتهى الطوفان، وأقلعت السماء عن المطر، وابْتَلَعَت الأرْضُ ماءَها، وصَارَت السكنى على الأرض، والعملُ عليها سَهْلاً مُمْكِناً، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ وانزل من الجودي الذي استوَتْ عليه السفينة، وقرىء ﴿اهبط﴾ بضم الباء ممتعاً ﴿بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: بسلامةٍ وتحية وأمن ﴿مِّنَّا﴾ كما قال تعالى ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾، وذلك أنَّ الغَرَق لما كان عَاماً في جميع الأرض، فعندما خَرَجَ نوح عليه السلام من السفينة عَلِمَ أنه ليس في الأرض شيءٌ مما ينتفع به من النبات والحيوانات، وقيل: فكان كالخائف في أنه كيف يَعِيش، وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب، فلَمَّا قَالَ الله له: اهبط بسلام مِنَّا زَالَ عَنْهُ الخَوْفُ؛ لأن ذلك يَدُلُّ على حصول السلامة، وأن لا يكون إلا مع الأمن وسعة الرزق ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ في المعايش والأرزاق، وقيل: أي: ونعم ثابتة، وفي هذا الخطاب له دليل على قبول توبته، ومغفرة زلته، وحَكَى عبد العزيز بن يحيى ﴿وبركة﴾ على التوحيد عن الكسائي؛ أي: وبركات فائضة ﴿عَلَيْكَ﴾ وعلى مَن مَعَكَ في السفينة، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ مؤمنة ناشئة ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ في السفينة؛ أي: وعلى ذريات يتناسلون منهم، ويتفرقون في الأرض، فيكونون أُمَماً مستقلاً بعضها من بعض، يعني بهؤلاء المؤمنين من ذرياتهم، ولم يُعْقِبْ أحدٌ منهم إلاَّ أولادَ نوح الثلاثةَ، فانحصر النوع الإنسانيُّ بعد نوح في ذريته، ﴿وَأُمَمٌ﴾ كافرة متناسلة ممن معك ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بالأرزاق، والبركات، ولا يصيبهم لطفٌ من ربهم ورحمة كما يصيب المؤمنين، فإنَّ الشَّيْطانَ سيغويهم، ويزين لهم الشرك، والظلمَ، والبغْيَ ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم إلى ربهم ﴿يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وَجيع، فيكون جزاؤُهم فيها دارَ البوار، وبئس القرار.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أنَّ هذا قَصَصٌ من عالم الغيب لا يعرفه هو، ولا قوْمُه من قبل، فقال: ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذا القصص الذي قصصته عليك من خبر نوح وقومه ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: من أخبار الغيب التي لم تشهدها حتى

---

(١) المراغي.

تَعۡلَمَها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾؛ أي: نُخْبِرُها لك فنعرفكها تفصيلاً، و ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ الوحي الذي نَزَل مبيناً لها تفصيلاً، وربما كَانَ يعلمها هو، وقومه على سبيل الإجمال ﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ يا محمد على أَذَى هؤلاء الكفار كما صبر نوح على أذى أولئك الكفار؛ أي: فاصبرْ على القيام بأمر الله، وتبليغ رسالته، وما تَلْقى مِنْ قومك من أذًى، كما صَبَرَ نوح على قومه، ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ﴾ المحمودة؛ أي: آخِرَ الأمر بالظفر في الدنيا، وبالفوز في الآخرة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ لله المؤمنين بما جاءَتْ به رسله؛ أي: فإنَّ سُنَّة الله سبحانه وتعالى في رسله، وأقوامهم أن تكونَ العاقبة بالفوز، والنجاة للمتقينَ الذين يتجنبون المعاصيَ، ويعملونَ الطاعاتِ، فأنتم الفائزون المفلحون، والمصرُّون على عُداونكم هم الخاسرون الهالكون، وفي هذا تسلِيةٌ لرسول الله ﷺ وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر ولا اعتبار بمباديه. وفي مصحف ابن مسعود[1]: ﴿مِنْ قبلِ هذا القرآن﴾.

الإعراب

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾.

﴿أَمۡ﴾ منقطعة مقدرة ببل الإضرابية وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على نوح على الخلاف في معنى الآية، كما سبق، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿قُلۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على نوح، والجملة مستأنفة ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم، بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَعَلَيَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة ﴿علـيَّ﴾ خبر مقدم ﴿إِجۡرَامِي﴾ مبتدأ مؤخر والجملة الإسمية في محل الجزم بـ(إن) على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب، مقول القول ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ﴾ مبتدأ وخبرٌ، والجملة

---

(١) البحر المحيط.

الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في الخبر، ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَرِيٓءٌ﴾، ﴿تُجۡرِمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: مما تجرمونه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَأُوحِيَ﴾ الواو: استئنافية ﴿أوحي﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾ متعلق به، ﴿أَنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿لَن يُؤۡمِنَ﴾ ناصب وفعل منصوب ﴿مِن قَوۡمِكَ﴾ متعلق به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل ﴿يُؤۡمِنَ﴾، ﴿قَدۡ ءَامَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الموصولة، والجملة الفعلية صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، وجملة قوله: ﴿لَن يُؤۡمِنَ﴾ في محل الرفع خبر أنَّ وجملة أنَّ في تأويل مصدر مرفوع على كونه نائبَ فاعل لأُوحي تقديره وأُوحي إلى نوح عدمُ إيمان قومه، وجملة أوحي مستأنفة ﴿فَلَا﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، لا: ناهية جازمة ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿لَن يُؤۡمِنَ﴾، ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾، ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلةٌ لما أو صفة لها.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ﴾ والتقدير: أوحي إلى نوح أن اصنع الفلك، ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿اصنع﴾ ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ معطوف عليه، والتقدير: واصنع الفلكَ حالةَ كونك محروساً بأعيننا، ومعلماً بوحينا ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة ﴿تُخَٰطِبۡنِي﴾ فعل ومفعول ونون وقاية مجزوم بـ (لا) الناهية، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿فِي ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿اصنع﴾ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ ناصب واسمه، وخبره، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿وَكُلَّمَا﴾ (الواو) حالية ﴿كلما﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على السكون، والظرف متعلق بـ ﴿سَخِرُواْ﴾، ﴿مَرَّ﴾ فعل ماض ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به ﴿مَلَأٞ﴾ فاعل ﴿مَرَّ﴾، ﴿مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ صفة لـ﴿ملأ﴾ والجملة الفعلية فعلُ شرط لـ﴿كلما﴾ لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿سَخِرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿كلما﴾، ﴿مِنۡهُ﴾ متعلق به وجملة ﴿كلما﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يصنع﴾.

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿مِنَّا﴾ متعلق به ﴿فَإِنَّا﴾ (الفاء) رابطة ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿نَسۡخَرُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح ومن معه ﴿مِنكُمۡ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إنَّ) في محل الجزم بـ (إن) الشرطيةِ على كونها جواباً لها، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب مقول (قال) ﴿كَمَا﴾ و﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه (ما) مصدرية ﴿تَسۡخَرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة (ما) المصدرية (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف تقديره: كسخريتكم ﴿مِنَّا﴾ الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: نسخر منكم سخريةً كسخريتكم منا.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَسَوۡفَ﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيانَ عاقبتِنا، وعاقبتكم.. فأقول لكم ﴿سوف تعلمون﴾ ﴿سوف﴾ حرفُ تنفيس للاستقبال البعيد، ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ فعل

وفاعل ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به؛ لأنَّ (عَلِم) هنا بمعنى عرف يتعدَّى لمفعول واحد، أو (مَن) استفهامية في محل الرفع، وجملة ﴿يَأْتِيهِ﴾ خبر (مَن) الاستفهامية، وجملة (من) الاستفهامية سادة مسدَّ مفعول (علم)، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿يَأْتِيهِ﴾ فعل ومفعول ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل، والجملة صلة (مَن) الموصولة ﴿يُخْزِيهِ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿عَذَابٌ﴾ والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿وَيَحِلُّ﴾ فعل مضارع ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل ﴿مُّقِيمٌ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾ وجملة ﴿يحل﴾ معطوفة على جملة ﴿يَأْتِيهِ﴾ على كونها صلة (من) الموصولة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية، وابتداء ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَ﴾، ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا مَحَلَّ لها منَ الإعراب ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ﴾ مقول محكي، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الغائية، والتقدير: ويصنع الفلك إلى قولنا: احمل فيها وَقْتَ مجيء أمرنا وفوران التنور، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يصنع﴾ وسميت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غائية لكونها غاية لما قبلها، أعني قوله: ﴿وَيَصْنَعُ﴾ وما بينهما اعتراض، وابتدائية، لدخولها على الجملة، وإن شئت قلت: ﴿ٱحْمِلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْنَا﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿ٱحْمِلْ﴾، ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين جار ومجرور حال من ﴿زَوْجَيْنِ﴾ لأنه صفة نكرة قُدمت عليها، ﴿زَوْجَيْنِ﴾ مفعول به لـ ﴿ٱحْمِلْ﴾، ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ صفة مؤكدة لـ ﴿زَوْجَيْنِ﴾؛ أي: احمل فيها زوجين اثنين حالةَ كونهما مِنْ كل حيوان، وعلى قراءة الإضافة الجار

والمجرور حالٌ من ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ و ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ مفعول به لـ ﴿ٱحۡمِلۡ﴾، ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ معطوف على المفعول على كلا القراءتين ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء ﴿سَبَقَ﴾ فعل ماض ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به، ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ فاعل، والجملة صلة من الموصولة، ﴿وَمَنۡ﴾ الواو: عاطفة ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على المفعول ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مِن﴾ والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَمَآ﴾ (الواو) استئنافية (ما) نافية ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض ﴿مَعَهُۥٓ﴾ متعلق به ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿قَلِيلٞ﴾ فاعل ﴿ءَامَنَ﴾، والجملةُ مستأنفةٌ.

﴿۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: فحمل غير الإنس، وقال للإنس: اركبوا. ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئتَ قلت: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ مبتدأ مؤخر ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ معطوف عليه، والجملة في محل النصب حال مقدرة من (الواو) في ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ تقديره: اركبوا فيها حالةَ كونكم مُسمين اللّهَ أو قائلينَ بسم الله، وَقْتَ جَرَيَانِها وإرْسَائِها، أو حال مقدرة مِن (الهاء) في ﴿فِيهَا﴾ كما ذكره أبو البقاء، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه ﴿لَغَفُورٞ﴾ خبره ﴿رَّحِيمٞ﴾ صفة ﴿غَفُورٞ﴾ أو خبر ثان، وجملة (إنَّ) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها تعليليةً.

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَهِيَ﴾ الواو: حالية ﴿هِيَ﴾ مبتدأ ﴿تَجۡرِي﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على السفينة ﴿بِهِم﴾ متعلق به، وكذا قوله: ﴿فِي مَوۡجٖ﴾ يتعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من شيء محذوف، تضمنته جملة محذوفة، دلَّ عليها سياق الكلام، تقديره: فركبوا فيها

حالَ كونها تجري بهم أو مستأنفة ﴿كَٱلۡجِبَالِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿مَوۡجٖ﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، ﴿وَكَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الابن ﴿فِي مَعۡزِلٖ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب حال من ﴿ٱبۡنَهُۥ﴾، ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿بني﴾ منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياءِ المتكلم المنقلبة ألِفاً محذوفة اجتزاءً بالفتحة، وياء المتكلم المنقلبة ألِفاً محذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: قائلاً: ﴿يا بنيّ اركب معنا﴾ ﴿ٱرۡكَب﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على الابن ﴿مَّعَنَا﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق به، والجملة جواب النداءِ ﴿وَلَا تَكُن﴾ جازم وفعل ناقص، واسمها ضمير يعود على الابن ﴿مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱرۡكَب﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الابن والجملة مستأنفة ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الابن، والجملة في محل النصب مقول (قال) ﴿إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ متعلق به ﴿يَعۡصِمُنِي﴾ فعل مفعول ونون وقاية، وفاعله ضمير يعود على ﴿جَبَلٖ﴾، ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو يعصمني، والجملة الاسمية في محل الجر صفة لـ﴿جَبَلٖ﴾.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة ﴿لَا﴾ نافية تعمل عمل إنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَا﴾، والتقدير: لا عاصم كائن من أمر الله اليوم، كما ذكره أبو البقاء. وجملة ﴿لَا﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿مَن﴾ اسم موصول، في محل النصب على الاستثناء، والاستثناء متصل إن كان ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى معصوم، ومنقطع إن كان على معناه،

﴿رَحِمَۚ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾ والجملة صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره إلا من رحمه الله ﴿وَحَالَ﴾ فعل ماض ﴿بَيْنَهُمَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْمَوْجُ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة ﴿فَكَانَ﴾ (الفاء) عاطفة (كان) فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الابن، ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة ﴿حال﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ الواو: استئنافية ﴿قيل﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ إلى ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ نائب فاعل محكي، والجملة مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾ منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء في محل الرفع نائبُ فاعل ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ فعل أمر، وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع نائب فاعل على كونها جوابَ النداء، ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ منادى نكرة مقصودة معطوف على قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾. ﴿أَقْلِعِى﴾ فعل وفاعل جواب لنداء ﴿يا سماء﴾، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿وَقِيلَ﴾، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿وَغِيضَ﴾، ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ بمعنى السفينة، والجملة معطوفة على جملة ﴿قضي﴾. ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ﴾ متعلق بـ﴿استوت﴾. ﴿وَقِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نائب فاعل محكي، والجملة معطوفة على وقيل الأول، وإن شئت قلت: ﴿بُعْدًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أبعد بعداً، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لِّلْقَوْمِ﴾ متعلق بالفعل المحذوف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة ﴿لِّلْقَوْمِ﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿فَقَالَ﴾ (الفاء) عاطفة ﴿قال﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة معطوفة على جملة ﴿نادى﴾، ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت:

ناصب واسمه ﴿مِنۡ أَهۡلِي﴾ خبر (إن) وجملة (إن) في محل النصب مقول (قال) على كونها جوابَ النداء ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ ناصب واسمه وخبره، والجملة معطوفة على (إن) الأولى ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من كاف ﴿وَعۡدَكَ﴾.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

﴿﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة مستأنفة ﴿يَٰنُوحُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰنُوحُ﴾ منادى مفرد العلم ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿لَيۡسَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الابن ﴿مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَيۡسَ﴾، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة (إن) في محل النصب مقول (قال) على كونها جَوَابَ النداء ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿عَمَلٌ﴾ خبره، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: ذو عمل ﴿غَيۡرُ﴾ صفة لـ﴿عَمَلٌ﴾ ﴿صَٰلِحٖۖ﴾ مضاف إليه، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مُعلّلةً لما قبلها، ﴿فَلَا﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع (لا) ناهية جازمة ﴿تَسۡـَٔلۡنِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت و (النون) نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول أول ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ(سأل)، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة (إن) على كونها مفرعةً عليها ﴿لَيۡسَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿لك﴾ خبر مقدم لـ ﴿لَيۡسَ﴾ ﴿به﴾ متعلق بـ ﴿عِلۡمٌۖ﴾، ﴿عِلۡمٌۖ﴾ اسم ﴿لَيۡسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيۡسَ﴾ صلة لـ(ما) أو صفة لها ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه ﴿أَعِظُكَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كَوْنِها مُعَلَّلَةً لما قبلها ﴿أَن تَكُونَ﴾ ناصب وفعل ناقص، واسمه ضمير يعود على نوح

﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ خبر ﴿تَكُونَ﴾، وجملة ﴿تَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: إني أعظك من كونك من الجاهلين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على نوح، والجملة مستأنفة، ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول (قال)، ﴿إِنِّي﴾ ناصب، واسمه ﴿أَعُوذُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿بِكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول (قال) على كونها جَوَاب النداء ﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ ناصب وفعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ (سأل) ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لِي﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾ مقدم ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿عِلْمٌۖ﴾، ﴿عِلْمٌۖ﴾ اسم ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها، وجملة ﴿سأل﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: إني أعوذ بك من سؤالي إياك ما ليس لي به علم، ﴿وإلا﴾ (الواو) عاطفة (إلا) (إن) حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في (لام) (لا)، (لا) نافية ﴿تَغْفِرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ (إن) الشرطية، وفاعله ضمير يعود على اللَّه ﴿لِي﴾ متعلق به، ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ فعل ومفعول ونون وقاية معطوف على ﴿تَغْفِرْ﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿أَكُن﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ (إن) الشرطية على كونه جواباً لها، واسمها ضمير يعود على نوح ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خبرها، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة (إن) على كونها مقول (قال).

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قِيلَ﴾ فعل ماض ﴿يَٰنُوحُ﴾ إلى آخر الآية نائب فاعل محكي، والجملة

مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿يَٰنُوحُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل الرفع، نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾ ﴿ٱهْبِطْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على نوح ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ جار ومجرور، حال من فاعل ﴿ٱهْبِطْ﴾؛ أي: متلبساً بسلام، ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ (سلام)، وجملة ﴿ٱهْبِطْ﴾ في محل الرفع، نائب فاعل، لـ (قيل) على كونها جَوَابَ النداء، ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ معطوف على (سلام)، ﴿عَلَيْكَ﴾ صفة لـ﴿بركات﴾، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله، ﴿مِّمَّن﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿أُمَمٍ﴾ تقديره: وعلى أمم متناسلين ممن معك، أو كائنينَ ممن معك ﴿مَّعَكَ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة (من) الموصولة ﴿وَأُمَمٌ﴾ مبتدأ سوغ الابتداء بالنكرة، وقوعه في معرض التقسيم، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع نائب فاعل لـ (قيل) ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ فعل ومفعول معطوف على سنمتعهم ﴿مِّنَّا﴾ حال من ﴿عَذَابٌ﴾ لأنه صفة نكرةٍ قُدِّمَت عليها ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿نُوحِيهَآ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب حال ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ والعامل فيه ما في الإشارة من معنى الفعل، ﴿مَا﴾ نافية ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿تَعْلَمُهَآ﴾ فعل ومفعول به، لأن علم هنا: بمعنى عرف، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿أَنتَ﴾ تأكيد للضمير المستتر في الفعل ليعطف عليه ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ معطوف على ضمير الفاعل ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ(تعلم) وجملة ﴿تعلم﴾ في محل النصب خبر (كان) وجملة (كان) مستأنفة ﴿فَٱصْبِرْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما أوحينا إليك من قصة قوم نوح، وإذايتهم له، وأردت بيانَ ما هو الأصلحُ لك.. فأقول لك: اصبر إن العاقبة للمتقين ﴿اصبر﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد،

والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ ناصب واسمه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿إِن﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة على كونها مُعَلّلةً لما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ الإجرام والجرم بمعنى، وهو اكتساب الذنب، وفي «المصباح» جرم جرماً من باب: ضرب إذا أذنب، واكتسب الإثم، وبالمصدر سُمِّيَ الرجلُ، والاسم منه الجُرم بالضم، والجريمة مثله، وأجرمَ إجراماً كذلك، اهـ.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ يقال: ابتأس فلانُ إذا بَلَغَه ما يَكْرَه، اهـ «سمين»، وفي «المختار»: فلا تبتئس؛ أي: لا تَحْزَن ولا تشتك، والمبتئسُ: الكَارِهُ الحزينُ، اهـ. ويقال: ابْتَأَس إذا اشتد بُؤْسه وحُزْنُه ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السفينةُ، ويطلق على الجمع كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ وعلى المفرد كما هنا، ويذكر بمعنى المركب، ويؤنَّث بمعنى السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، والمرادُ بالأعين هنا شدة الحِفاظ والحراسة، وفي «الكرخي»: قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: بمرأى منَّا، وحفِظَنا، فلا يمكن إجراؤُه على ظاهره، لوجوه:

منها: أنَّه يقتضي أن يكونَ لله أعين كثيرة، وهذا يناقض قولَهُ تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

ومنها: أنه يقتضي أن يُصْنَعَ الفلك بتلك الأعين كقولك: قطعتُ بالسكين، وكتبت بالقلم، ومعلوم أنَّ ذلك باطلٌ إلى غير ذلك ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ يقال: سَخِرَ منه إذا استهزأ به، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: يذله ويفضحه، ويَحِلُّ التلاوةُ بكسر الحاء، ويجوزُ لغةً ضَمُّها. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: عذابُنا أو وقته، اهـ «زاده». فهو واحد الأمور، لا الأوامر، ويصح أن يُرادَ الثاني على معنى: جاء أمْرُنا بركوب السفينة، اهـ «شهاب».

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ الفور والفَوران: الارتفاع القويُّ يقال في الماء إذا نَبَعَ وجرى، وإذا غلا وارتفع، والمرادُ منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس وحلول وقت انتقامه منهم، والتنور ما يُخْبَزُ

فيه الخبز، اتَّفقَتْ فيه لغة العرب والعجم، كان من حجارة، وكانت حواء تَخْبِزُ فيه، وصار إلى نوح، وكان ذلك التنُّور في الكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة، اهـ «خازن». وفي «السمين»: والتنور قيل: وزنه تفعول فقلبت الواو الأولَى همزةً لانضمامها، ثمَّ حُذِفَت ثمَّ شُدِّدَت النون للعوض عن المحذوف، ويُعْزَى هذا لِثَعْلب، وقيل: وَزْنُه فعول، ويعزَى لأبي علي الفارسي، وقيل: هو أعجميٌّ، وعلى هذا فلا اشتقاقَ له، والمشهور أنه مما اتفق فيه لغةُ العرب والعجم كالصابون ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ والزوجان: هما الاثنان اللذان لا يستغني أحدهما عن الآخر، ويطلق على كل واحد منهما زوجٌ، كما يقال للرجل: زوج، وللمرأة: زوجة، ويطلق الزوج على الاثنين، إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويُطلق الزوج على الضرب والصنف، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ والمعنى: من كل صنف زوجين اثنين.

﴿وَأَهْلَكَ﴾؛ أي: واحمل أهلك، وأهلُ بيتِ الرجل: نساؤه وأولاده وأزواجَهم، ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، والركوبُ: العلو على شيء متحرك، ويتعدَّى بنفسه، واستعماله هنا بكلمة (في) ليس لأجل أنَّ المأمورَ به كونهم في جوفها، لا فوقَها؛ كما ظنَّ فإنَّ أَظْهَرَ الروايات أنه عليه السلام جَعَلَ الوُحُوشَ ونظائِرَها في البطن الأسفل، والأنعام في الأوسط، ورَكِبَ هو ومن معه في الأعلى، بل لرعاية جانب المحلية، والمكانية في الفلك، والسر فيه أنَّ معنى الركوب العلو على شيءٍ له حركة إمَّا إراديَّةٌ كالحيوان، أو قسرِيَّةٌ كالسفينةِ، والعَجَلَة ونحوهما، فإذا استعمل في الأول توفر له حظ الأصل، فيقال: ركبت الفرس، وعليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، وإن استعمل في الثاني يلوح بمحلية المفعول بكلمة (في) فيقال: ركبتُ في السفينة، وعليه الآية الكريمة وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، وقوله: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ اهـ، «أبو السعود».

﴿مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بفتح الميم فيهما إما مصدران، الأول من جَرَتْ تَجْري جَرْياً، والثاني: من رَسَتْ تَرْسُو رسُوّاً من باب سما أو رَسْواً من باب عدا ومرسىً إذا ثبتَتْ؛ أي: جَرَيانُهَا ورسُوّها، أو اسمَا زمان؛ أي: زمان جَرْيها ورُسوها، أو مكان؛ أي: مكان جريها ورسوها.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ أصله بثلاث ياءات الأولى: ياء التصغير، والثانية: لاَمُ الكلمة، وأصلُها واو عند قوم، وياءٌ عند آخرين، والياءُ الثالثةِ ياء المتكلم، ولكنَّها حذفت لدلالة الكسرة عليها فراراً من توالي الياءين، ولأنَّ النداءَ موضع تخفيف، وقيل: حذفت من اللفظ لالتقائها مع الراء في ﴿ٱرْكَب﴾ ويقرأ بالفتح، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه أبْدلَ الكسرةَ فتحةً فانقلبت ياءُ الإضافة أَلِفاً، ثُمَّ حذفت الألِفُ كما حُذفت الياءُ مع الكسرة؛ لأنها أصلُها.

والثاني: أنَّ الألِفَ حذفت من اللفظ لالتقاء الساكنين ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ والموج جمع موجة، وهي ما ارتفعَ عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي﴾ يقال: بَلَعَ الماءَ يبلعه مثل مَنَعَ يمنَع وبلع يَبلَع مثل حَمِدَ يَحْمَدَ لغتان؛ حكاهما الكسائِي، والفراء، والبَلَعُ الشرب، ومنه البَالُوعَةُ: وهي الموضع الذي يُشْرَب منه الماء، وبئر ضيِّقُ الرأس، يجري إليها مَاءُ الغُسَالة ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ الإقلاع الإمساك، يقال: أقلع المطر إذا انقطع، ومنه أقْلَعَت الحُمَّى، وقيل: أقلع عن الشيء إذا تركه، وهو قريب من الأوّل ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: نقص يقال: غاض الماء وغضته، وهو هنا مبنيٌّ للمجهول إذ يستعمل لازماً ومتعدياً، وعبارة «السمين»: الغَيْضُ: النقصانُ، وفعله لازمٌ ومتعد، فمن اللازم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾؛ أي: تَنْقُص، وقيل: بل هو هنا متعدٍ أيضاً؛ لأنه لا يبنى للمفعول من غير واسطة حرف جر إلا المتعدي بنفسه، اهـ «سمين». وفي «المختار»: غاض الماء إذا قَلَّ ونَضَبَ؛ أي: ذَهَب في الأرض، وبابه بَاعَ وانغَاضَ مثله وغيضَ الماء: فعِل به ذلك، وغَاضَ الله يتعدَّى ويَلْزَمُ، وأغَاضَه الله أيضاً، وغيض الماء تَغْييضاً نَقَصه، وحبَسَه ويقال: غَاض الكرام؛ أي: قلوا، وفَاضَ اللئَامُ؛ أي: كَثُرُوا، اهـ. ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: أحكم، وفرغ منه يعني أهلك قومُ نوح علَى تَمَامٍ، وإحكام اهـ «قرطبي» ﴿بُعْدًا﴾ يقال: بَعِدَ بكسر العين بُعْداً بضم فسكون، وبَعَداً بفتحتين: إذا بَعُدَ بُعْداً بعيداً بحيث لا يُرجى عوده، اهـ «بيضاوي».

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ يقرأ بتشديد النون مع فتح اللام قبلَها، فالنون المشددة للتوكيد،

والفعل مبني على الفتح لاتصاله بها، وحينئذ فيقرأ بثبوت الياء، وحذفها وهذا عند كسر نون التوكيد، ويُقرَأ أيضاً بفتحها، وبلا ياءٍ أصلاً، فالقراءات السبعية في التشديد ثلاثة، ويقرأ بتخفيفها؛ أي: تخفيف النون مع سكون اللام قَبْلَها، وعليه فالنون للوقاية، ويقرأ بثبوت الياء، وحذفها في الوصل، فالقراءات السبعية في هذا المقام خمسة، وثبوت الياء في بعض هذه القراءات سواء مع التخفيف والتشديد؛ إنما هو عند الوصل، وأمَّا عند الوقف فلا تثبت في شيء من هذه القراءات كُلِّها، بل ولا تثبُتُ في الرسم؛ لأنها من ياءات الزوائد، وهي تثبتُ في الوصل دون الوقف، ودون الرسم اهـ «جمل» ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ هذه إن الشرطية، و (لا) النافية كما مَرَّ في بحث الإعراب أُدْغِمَتْ نونَ إن في لاَم (لا) ولا تُرْسَمُ النونُ كما ترى.

﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ وهي عبارة عن بقاء النعمة ودَوامِها، وثَباتِها مشتق من بروك الجَمَل، وهو ثبوته، ومنه البُرْكَةُ لثبوت الماءِ فيها ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ والأنباءُ جمع نبأ وهو الخبر الذي له شَأن.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: مجاز بالحذف في قوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾؛ أي: عقوبةُ إجرامي.

ومنها: جناس الاشتقاق بين إجرامي، وتجرمون.

ومنها: الإتيان، بـ (إن) الدالة على الشك في قوله: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ لبيان أنه على سبيل الفرض بخلاف إجرامهم، فإنه محقق.

ومنها: الجناسُ المماثل بين قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾، وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾، لأنَّ حقَّ العبارة أنْ يقال: ويصنعها.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ لأنَّ المراد به بحراستنا، وحفظنا ففيه إطلاق السبب الذي هو الأعين، وإرادةُ المسبب الذي هو الحراسةُ والحفظ لأنَّ الأعين آلة للحراسة مبالغةً في الحفظ.

ومنها: حكاية الحال الماضية لاستحضار الصورة في قوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ فالمضارع بمعنى الماضي، أي وصَنَعَها.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ إذ السخرية لا تليق بمقام الأنبياء، وقيل: لجزائهم من جنس صنيعهم، فلا يَقْبُحُ كما في «الشهاب».

ومنها: الطباق بين الأرض والسماء، والجناس الناقص بين ﴿ٱبْلَعِى﴾ و﴿أَقْلِعِى﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ وكلاهما من المحسنات البديعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ٱبْلَعِى﴾ شبَّهَ تغويرَ الماء وشُرْبَه في بطنها ببلع الحيوان؛ أي: إزدراده لطعامه وشرابه في جوفه بجامع الوصول إلى الجوف في كلٍّ، فاشتق منه ابلعي بمعنى غوري على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، واستُعير البلع الذي هو من فعلِ الحيوانَ للنَّشَفِ دلالةً على أنَّ ذلك ليس كالنَّشَفِ المعتاد الكائن على سبيل التدريج.

ومنها: التفخيم في قوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ عَبَّر عن الغرق بأمر الله تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره.

ومنها: الإبهام ثُمَّ التفسيرُ في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ أي: إلا الراحمَ، وهو الله تعالى تفخيماً لشأنه الجليل بالإبهام ثمّ التفسير، وبالإجمال ثُمَّ التفصيل، وإشعاراً بعلية رحمته في ذلك بموجب سبقها على غضبه.

ومنها: حكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها، في قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾، وحقُّ العبارة أن يقال، وهي جَرَت بهم.

ومنها: التشبيهُ في قوله: ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ شبَّه كلَّ موجة من ذلك بالجبل في عِظَمِها وارْتِفَاعِها على الماء وتراكمها.

ومنها: الاستعارة التصريحيةُ الأصلية في قوله: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنَّ البُعْدَ هنا مستعارٌ للهلاك.

ومنها: التعرُّض لوَصف الظلم في قوله: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للإشعار بعِلِّيَّتِهِ للهلاك، ولتذكير ما سَبَق مِنْ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عِدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾ الآيات، هذا القصصُ ذكِرَ في سورة الأعراف بأسلوب ونظم يخالف ما هنا، وفي كل منهما من العظة والعبرة ما

ليسَ في الآخر، وسيأتي في السور التالية بسياق آخر، وقد جاء في بعض الروايات، أنَّ هوداً أوَّلَ مَنْ تكلم بالعربية، فهو أول رسول عربيٍ من ذرية نوح، وآخِرُ رسول هو محمدٌ ﷺ، وهو عربي أيضاً.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ...﴾ الآية، مناسبتُها لما قبلها: لَمَّا ذَكَرَ تبليغَ هود عليه السلام قومَه دعوةَ ربه.. ذَكَر هنا رَدَّ قومه لتلك الدعوة في جحودهم للبينة، ثم إنذاره لهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر سبحانه وتعالى إصرارَ قوم هود على العنادِ، والعتو وتكذيب هود فيما جاء به من الآيات... ذكَرَ هنا عاقبةَ أمْرِه وأمْرِهِم، وأنه تعالى أصابَه برحمة مِن لدنه، وأنْزلَ بهم العذابَ الغليظَ كِفاءَ كفرِهم بآياتِه وعصيان رسله.

قولُه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًاۚ...﴾ الآيات، جاء هذا القصص في بيان دعوة صالح لقومه ثمود وردِّهم لها بعد احتجاجه عليهم، وصالحُ هو الرسول الثاني من العرب، ومساكن قبيلته ـ الحجر ـ وهي بين الحجاز والشام، وسيأتي ذِكْرُ قصصهم في سورة الشعراء، والنمل، والقمر، والحجر، وغيرها، وفي كل منها من الموعظة والعبرة ما لا يُغني عنه غيره.

قوله تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبتُها لِمَا قبلها: أنه تعالى لَمَّا ذَكَر أن قومه قالوا له: إننا لفي شك مما تدعونَا إليه، وسألُوه الآية على ما دعاهم إليه.. ذَكر هنا أنه قال لهم: إنَّ آيَته على رسالته هي الناقة، وأنَّ مَنْ يَمَسُّها بسوء يُصيبه عذابٌ أليم.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ معطوف على ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾؛ أي: وأرسلنا إلى عاد الأُولى أخاهم في النسب، والوَطنِ لا في الدين. هوداً أي واحداً منهم يسمى هوداً، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان، وقيل: هم عاد الأُولى وعاد الأخرى، فهؤلاء عاد الأولى، وعادُ الأخرى هم: شدادٌ ولقمانُ وقومُهما

المذكورون في قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ وأصل عادٍ اسم رجل ثُمَّ صار اسماً للقبيلة، كتَمِيمٍ وبكر ونحوهما، والمرادُ بعاد هنا: اسم قبيلة تُنسب إلى أبيها عاد من ذرية سام بن نوح، فعاد أبو القبيلة، وسمِّيت باسمه، وهودٌ من تلك القبيلة، فينتسب إلى عاد أيضاً، وبَيْنَ هود ونوح ثمان مئة سنة، وعاش أربع مئة سنة، وأربعاً وستينَ سنةً فـ ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام، ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أفردُوا الله سبحانَه وتعالى بالعبادة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ أي: ليس لكم إلَهٌ غيره تعالى، فلا تعبدوا من دونه وَثَناً ولا صنماً، وقرأ غيره بالجر على اللفظ، وبالرفع على محلِّ ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ وقرِيء بالنصب على الاستثناء ذكره الشوكاني ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾؛ أي: ما أنتم باتخاذ إلَه غير الله، إلا كاذبون على الله عز وجل؛ أي: فما أنتم في عبادتكم غَيْرَه تعالى من الأنداد والشركاء، إلا مختلقون الكذبَ عليه تعالى، بتسميتكم إياهم شُفَعَاءَ تتقرَّبون بهم أو بقبُورهم، أو بصورهم وتماثيلهم، وتَرْجُون النَّفْعَ وكَشْفَ الضر عنكم بجاههم عنده تعالى و ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على تبليغ ما أدْعوكم إليه من إخلاص العبادة لله وحده، والبراءة من الأوثان ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: مالاً مَجْعولاً لي في مقابلة التبليغ، فتَتَّهموني بأني أريد المنفعةَ لنفسي، خاطب بهذا كل نبي قَوْمَه إزاحة للتهْمةِ، وتمحيضاً للنصيحة، فإنها لا تنجع ما دامَتْ مَشُوبةً بالمطامع، وقرأ ابن محيصن: (يا قوم) بضم الميم كقراءة حفص ﴿وقل رب احكُم﴾ بالضم، وهي لغةٌ في المنادى المضاف حكاها سيبويه وغيره، ذكره أبو حيان ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾؛ أي: ما ثوابي الذي أرْجُوهُ على تبليغي إياكم ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾؛ أي: إلا على الله الذي خلقني على الفطرة السليمة مبرأ من هذه البدَعِ الوثنيَّةِ التي ابتدعها قوم نوح حين صنعوا التماثيلَ لحفظِ ذِكرى الصالحين، فزَيَّن لهم الشيطانُ تعظيمَ هذه التماثيل، فَعَبَدُوها، وإنما جعل[1] الصلةَ فِعلَ الفطرة لكونه أقدمَ النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر.

وإنما قال[2] فيما تقدم في قصة نوح: ﴿مَالًا﴾ وهنا قال: ﴿أَجْرًا﴾ لذكر

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

الخزائن بَعْدَه في قصة نوح، ولفظُ المال بها ألْيَق، وفي «الجمل» قوله: ﴿أَجْرًا﴾ قال في نوح مالاً، وهنا أجراً تَفنُّناً، اهـ.

و (الهمزة) في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للتوبيخ داخلة على محذوف، و (الفاء) عاطفةٌ على ذلك المحذوف، والتقدير: أي أتغفلون عن هذه القصة فلا تعقلونَها أو أفلا تعقلونَ أنّ أجْرَ الناصحين، إنما هو من رب العالمين، أو أفلا تعقلون ما يقال لكم: فتميزوا بين ما يضرُّ وما ينفع، وإني لكم ناصح أمين، فلا أغشكم فيما أدعوكم إليه.

ثمَّ أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: سَلُوهُ أن يغفرَ لكم ما تقدَّم من شرككم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ من بعد التوحيد بالندم على ما مضى، وبالعزم على أن لا تعودوا لمثله، وفي «الخازن»: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: آمنوا[1] به، فالاستغفار هنا بمعنى الإيمان؛ لأنه هو المطلوب أولاً ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ يعني من شرككم، وعبادتكم غيره، ومن سالف ذنوبِكم، انتهى. وفي «روح البيان» واللاَّئِحُ[2] للبال أن المعنى: أطْلُبُوا مغفرةَ الله تعالى لذنوبكم السالفةِ من الشرك، والمعاصي بأنْ تُؤمنوا به، فإنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قَبْلَهُ أي يقطع، ثم ارْجِعُوا إليه بالطاعة؛ فإنَّ التحليةَ ـ بالمهملة ـ بعد التخلية ـ بالمعجمة ـ، فتكون ثُمَّ على بابها في التراخي، انتهى.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾؛ أي: يُنْزِل المطرَ عليكم حالةَ كونه ﴿مِّدْرَارًا﴾؛ أي: كثيرَ الدرور والنزول مُتَتابعاً مرة بعد مرة في أوقات الحاجة إليه، وذلك[3] أنَّ بِلاَدَهم كانت مخصبةً كثيرة الخير والنعم، فأمسك الله عنهم المطر مُدَّةَ ثلاث سنين، فأجْدَبَتْ بلادهم وقحطت بسبب كفرهم، فأخبرهم هود عليه السلام أنهم إنْ آمنوا بالله وصدقوا رسوله أَرْسَلَ اللَّهُ إليهم المطرَ فأحيا به بلادهم كما كانت أولَ مرَّةٍ.

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: شِدَّة ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾؛ أي: مع شدتكم، ويضاعفها لكم، وقيل معناه: إنكم إن آمنتم.. يُقوِّكم بالأموال والأولاد، وقَصَدَ[1] هودُ بذلك استمالَتَهم إلى الإيمان بكثرة المطر، وزيادة القوة، وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى أعْقَمَ أرحامَ نسائهم، فلم تَلِدُ فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرْسَل الله المطرَ فتزدادون مالاً ويعيد أرحام النساء إلى ما كانت عليه، فيَلِدْنَ فتزدادون قُوَّةً بالأموال، والأولاد، وقد كانوا يَهْتَمُّون بذلك، ويَفْخَرُون على الناس، وقيل معناه: تزدادُون قوةً في الدين إلى قوة الأبدان ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾؛ أي: ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي، حال كونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: مصرِّينَ على الإجرام والإشراك والآثام، والإجرامُ كَسْبُ الجُرْمِ كالإذناب بكسر (الهمزة) كَسْبُ الذنب.

وعن الحسن[2] بن علي رضي الله عنهما أنه وَفَد على معاويةَ فلَمَّا خَرَجَ قال لَهُ بَعضُ حُجّابه: إنّي رَجلٌ ذُو مال ولا يُولد لي، علِّمني شيئاً لَعَلَّ الله يرزقني ولداً، فقال الحسنُ: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى رَبَّما استغفر في يوم واحد سبع مئة مرة، فوُلد له عشر بنين فبلغ ذلك معاويةَ فقال: هلاَّ سأَلْتَه مِمَّن قال ذلك، فوَفَدَ وَفْدةً أخرى فسأله الرجلُ فقال: ألَم تَسْمَعْ قولَ هود: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وقول نوح: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾.

ثم أجابه قومه بما يَدُل على فَرْطِ جهالتهم، وعظيم غباوتهم، فـ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي﴾ عبادة ﴿آلِهَتِنَا﴾ وأصْنَامنا التي نَعْبُدُها، وأصله تاركينَ سقطت النونُ للإضافة، وقولُه: ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ حال مِنَ الضمير في ﴿تاركي﴾[3] كأنه قِيلَ: وما نَتْرُكُ آلهتنا صَادِرينَ عن قولك؛ أي: صادراً تركنا عن قولك بإسناد حال الوصف إلى الموصوف، ومعناه: التعليل، على أبْلغ وَجْهٍ لدلالته على كونه عِلَّةً فاعليَّةً،

---

(١) النسفي.

(٢) النسفي.

(٣) روح البيان.

ولا يفيده الباء واللام. قال السعديُّ: قد يقال: (عَنْ) للسببية فيتعلَّقُ بـ﴿تاركي﴾؛ أي: بسبب قولك: المجرَّدِ عن حُجَّةٍ.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بمصدَقين فيما تَدعُونا إليه من التوحيد، وتركِ عبادةِ الآلهة وهو إقناطٌ له من الإجابة والتصديق.

﴿إِن نَّقُولُ﴾؛ أي: ما نقول في شأنك شيئاً ﴿إِلَّا﴾ قولَنا ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ وأصابَك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: بجُنون فقوله: ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ جملة[1] مفسِّرة لمصدر محذوف، تقديره: ما نقولُ في شأنك إلاّ قَوْلَنا اعتراك؛ أي: أصَابَكَ، من عراه يعروه إذا أصابه ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: بجنون لسبك إياها، وصدِّك عنها، وعداوتك مكافأةً لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المرسمين.

والخلاصة[2]: أنَّ ما تقولُه لا يصدر إلا عَمَّنْ أصيب بشيءٍ اقتضى خروجه عن قانون العقل، فلا يُعْتَدُّ به؛ لأنه مِنْ قبيل الخرافات، والهذيانات التي لا تصدر إلا عَن المجانين، فكيف نؤمن بك، فأجابهم بما يَدُلُّ على عدم مبالاته بهم، وعلى وثوقه بربه، وتوكله عليه، وأنَّهم لا يقدرون على شيءٍ مما يريده الكفار، بل الله سبحانه وتعالى هو الضار النافع، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم هودٌ ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ سبحانَه وتعالَى على براءتي من إشراككم ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ أنتم؛ أي: وأقولُ اشْهَدُوا؛ لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ﴾ تنازع فيه أُشْهِدُ اللَّهَ واشهدوا؛ أي: واشهدوا أنتم على أنّي بريء ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: من إشراككم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ سبحانَه وتعالَى أو ﴿مِّمَّا﴾ تشركونه به من آلهة غير الله، فـ (ما) إما مصدرية أو موصولة وإشهادُ الله تعالى حقيقةٌ وإشهادهم استهزاءٌ بهم، واستهانةٌ؛ إذ لا يقولُ أحد لِمَنْ يعاديه أُشْهِدُكَ على أنِّي بريء منك إلاّ وهو يريد عَدَم المبالاة ببراءته، والاستهانةَ بعداوته. واعلم: أنهم لمَّا سموا أصنامَهم آلِهةً وأثبتوا لها الضررَ.. نفى هود بقوله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ الآيةَ كونَهم آلهةً رأساً ثُمَّ نَفى

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الضررَ بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم، واحتالوا في إضراري إن كانت كما تَزْعمون، أنها تقدر على الإضرار بي، وأنها اعترتني بسوء، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا تمهلوني ولا تؤخِّرُوني حتى آتِيَ بشيءٍ يحفظني من قراة وسلام، بل عاجلوني واصنعوا ما بَدا لكم، وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصك مسَامِعَهم، ويوضحُ عَجْزَهم وعدمَ قدرتهم على شيءٍ قوله: ﴿فَكِيدُونِي﴾ بثبوت الياء وصلاً، ووقفاً لكلهم، والتي في المرسلات بحَذْفها، كذلك لكلهم، وأمَّا التي في الأعراف فمِنْ ياءات الزوائد فتحذف وقفاً لا غيرُ وتثبت وتحذَفُ في الوصل. ذكره «الجمل».

والكيد[1] إرادةُ مضرة الغير خفيةً، وهو من الخَلْقِ: الحِيلةُ السيئةُ، ومن الله التدبيرُ بالحقِّ، لمجازاة أعمال الخلق؛ أي: إن صحَّ ما تفوهتم به من كون آلهتكم مما تَقْدِر على إضرار من يَسُبُّها، ويَصُدُّ عن عبادتها، فإنِّي بَريءٌ منها، فكونوا أنتم وآلهتكم ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير ﴿كيدوني﴾ على قصد إهلاكي، بكل طريق ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك، (فالفاء) لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا، وعلى البراءة كليهما.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: هلاَّ قيل: إني أُشهدُ الله وأشهدكم؟

قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهادٌ صحيح، ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وأما إشهادهم فما هو إلا تَهاونٌ بدِينهم، ودَلالة على قلة المبالاة بهم فحَسْبُ، فَعَدَلَ به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيءَ به على لفظ الأمر بالشهادة، انتهى. وقولُه: ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ هذا من[3] معجزاته الباهرة، لأنَّ الرَّجُلَ الواحدَ إذا أَقْبَل على القوم العظام، وقال لهم: بَالِغُوا في عداوتي، وفي إيذائي، ولا تؤجِّلوني، فإنه لا يقول هذا إلا إذا كان واثقاً من الله بأنه يحفظه، ويصونه عن كيد الأعداء، وهذا هو المُرادُ بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾، واعتمدتُ ﴿عَلَى

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الفتوحات.

﴿ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ أي: مالكي، ومالككم، يعني: أنكم وآلهتكم لا تقدرون على ضرري، فإني متوكل على الله القادر القوي، وهو مالكي ومالككم ومالك كل شيء إذ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ ونسمة تَدبُّ وتتحرك على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾؛ أي: إلا وهو مالك لها، قَادر عليها، يصرفها على ما يريد بها، والناصية عند العرب[1]: مَنْبَتُ الشعر في مقدم الرأس، ويُسمّى الشَّعْرُ النابت هناك أيضاً ناصية، تسميةً له باسم منبته، والأخذ بناصية الإنسان عبارةٌ عن قهره، والغلبة عليه، وكونه في قبضة الآخذ بحيثُ يَقْدِرُ على التصرف فيه كيف يشاء، والعربُ إذا وَصفوا إنساناً بالذلة والخُضوع لرجل.. قالوا: ما ناصيته إلا بيدِ فلان؛ أي: إنه مُطيع له؛ لأنَّ كل من أخذْتَ بناصيته فقد قهَرْتَه، وأَخْذُ الله سبحانه وتعالى بناصية الخلائق استعارة تمثيليةٌ لنفاذ قدرته فيهم.

والغرض من هذا الكلام: الدلالة على عظمته تعالى وجَلالة شأنه وكبرياء سلطانه، وباهر قدرته، وأنَّ كُلَّ مقدور، وإن عَظُم وجَلَّ في قوته وجثته، فهو مستصغرٌ إلى جنب قدرته، مقهور تحت قهره وسلطانه، منقاد لتكوينه فيه ما يشاء غَيْرُ ممتنع عليه ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: إنه سبحانه وتعالى، وإن كان قادراً على عباده، لكنَّه لا يظلمهم، ولا يفعلُ بهم إلا ما هو الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

وقولُ هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يتضمَّن جملةَ أُمورٍ[2]:

١ ـ البراءة من إشراكهم الذي اقْتَرَفُوه، ولا حقيقةَ له.

٢ ـ إشهاد الله على ذلك ثِقَةً منه بأنه على بينةٍ من ربه.

٣ ـ إشهادهم أيضاً على ذلك إعلاماً منه بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه وضرره.

٤ ـ طَلَبهُ منهم أن يجمعوا كُلُّهم على الكيد له، والإيقاع به بلا إمهال، ولا

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

تأخير إن استطاعوا.

وفي هذا دليل واضح على أنه لا يخافُهم، ولا يخافُ آلهتهم.

٥ ـ عدم الخوف منهم ومن آلهتهم إذ وكل أمْر حفظه وخِذْلانِهم إلى ربه وربهم، ومالك أمره وأمرهم المتصرف في كل ما دبَّ على وجه الأرض، والمسخِّر له، وهو سبحانه وتعالى مطلع على أمور العبادة، مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كافٍ لمَن اعتصَمَ به، وهو لا يسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق مِنْ رسله، ولا يفوته ظالم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: فإن تتولَّوا، بحذف إحدى التائين؛ أي: وإن تستمروا على التولي، والإعراض عن الإيمان، والتوبة، فلا تفريطَ مِنّي في الإبلاغ ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: لأنّي قد أدَّيْتُ ما عليَّ من الإبلاغ، وإلزام الحجة، وكنتم محجوجينَ، بأن بلغكم الحقُّ فأَبَيْتُم إلا التكذيب، والجحود، فالمذكور دليل الجواب المحذوف.

وقال الزمخشري[1]: فإن قلتَ: الإبلاغ كان قبل التولي، فكيف وَقَعَ جزاءً للشرط؟

قلت: معناه: فإن تَولَّوا لم أُعاقَبْ على تفريط في الإبلاغ، فإنَّ ما أرسلت به قد بَلَغَكُم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة، وعداوة الرسول.

وقرأ الجمهور فإن ﴿تَوَلَّوْا﴾؛ أي: تتولوا مضارع تولَّى، وقرأ الأعرج، وعيسى الثقفي، ﴿تُولُّوا﴾ بضم التاء واللام مضارع ولَّى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أي: ويهلككم الله، ويجيء بقوم آخرين، يَخْلُفونكم في دياركم وأموالكم.

وقرأ الجمهورُ: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بضم الفاء على معنى الخبر المستأنف، وقرأ حفص في رواية هبيرة بجزمها عطفاً على موضع الجزاء، وقرأ عبد الله كذلك، ويجزمُ ﴿ولا تضرُّوه﴾ وقرأ الجمهورُ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى بتوليكم

---

(١) البحر المحيط.

وإعراضكم ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر، لأنه غني عنكم، وعن إيمانكم لا يجوز عليه المضارُّ والمنافِع، وإنما تضرون أنفسَكم.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ أي: رقيب مهيمن عليه، يحفظه من كل شيء، فلا يَخْفى عليه أعمالكم، ولا يَغْفَلُ عن مجازاتكم، قيل: (وعلى) بمعنى اللام فيكون المعنى: إنَّ ربي لكل شيء حفيظ فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء قرأ عبد الله: (ولا تنقصونه شيئاً).

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: عذابنا، فيكون مصدرَ أمر ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ من قومه، وكانوا أربعةَ آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنةٍ ﴿مِّنَّا﴾ لهم؛ أي: نجَّيْنَاهم بمجرد رحمة وفضل لا بأعمالهم؛ لأنه لا يَنْجُو أحَدٌ، وإن اجتهد في الأعمال، والعمل الصالح، إلا برحمة الله تعالى كما هو مذهبُ أهل السنة، وذلك أنَّ العذابَ إذا نزل قدْ يَعُمُّ المؤمنَ والكافرَ، فلما أَنْجَى الله المؤمنينَ مِنْ ذلك العذابِ كان برحمته وفضله وكرمه، وقيل: الرحمة هي الإيمان.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم﴾؛ أي: ونجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديد، وهو تكرير لبيان ما نجيناهم منه؛ أي: كانت تلك التنجية من عذاب غليظ، وهي السموم التي كانت تدخل أنوفَ الكفرة، وتخرج من أدبارهم، فتقطعهم إرَباً إرباً، وفيه[1] إشارة إلى أنَّ العذاب نوعان: خفيف، وغليظ؛ فالخفيفُ هو: عذاب الشَّقَاوةِ المقدَّرة قبل خلق الخلق، والغليظ هو عذابُ الشقيّ بشقاوة معاملات الأشقياء، التي تَجْرِي عليه مع شقاوته المقدرة له قبل الوجود، وقيل[2]: المراد بالعذاب الغليظ هو عذابُ الآخرة، وهذا هو الصحيح ليحصل الفرقُ بين العذابين.

رُوي[3]: أنَّ الله تعالى لما أهلك عاداً، ونجَّى هوداً، والمؤمنين معه، أتَوا مكة، وعبدوا الله تعالى فيها حتى ماتوا، قال في «إنْسان العيون»، كُلُّ نبيّ من

---

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.
(٣) الخازن.
(٤) روح البيان.

الأنبياء كان إذا كَذَّبه قومه خَرجَ من بين أظهرهم، وأتى مكة يَعْبُدُ اللَّهَ تعالى حتى يموتَ وقد وَرَد «ما بين الركن اليماني، والركن الأسود رَوْضَةٌ مِنْ رياض الجنة، وإنَّ قَبْرَ هود وشعيبٌ وصالح وإسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة».

﴿وَتِلْكَ﴾ القَبِيلَة التي كذبت هوداً فأهلكْناهم، والخطابُ لقوم محمد ﷺ ﴿عاد﴾؛ أي: قبيلة تسمَّى عاداً بالصرف، قال الكسائي: إنَّ من العرب من لا يصرف عاداً، ويجعلُه اسماً للقبيلة ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كفروا بها، وكذَّبوها، وأنكروا المعجزات ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ تعالى، هوداً وَحْدَه؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جَمَع هنا: لأنَّ مَنْ كَذَّب رسولاً فقد كَذَّب جميعَ الرسل، لاتفاق كلمتهم على التوحيد، وأُصول الشرائع، وقيل: إنهم عصوا هوداً ومَنْ كان قَبْلَه من الرسل أو كانوا بحيثُ لو بَعَث الله إليهم رُسُلاً متعددين.. لكذَّبُوهم.

وهذا الجحودُ والعصيانُ شامل لكل فرد منهم؛ أي: لرؤسائهم وأسافلتهم، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾؛ أي: الأسافِلُ ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾؛ أي: أمر كل شخص متعظم في نفسه، متكبر على العباد ﴿عَنِيدٍ﴾؛ أي: كثير العناد، والمعارضة للحق، أي: واتبع السفلة أَمْرَ رؤسائهم الدُّعاةِ إلى الضلال، وإلى تكذيب الرسل، والمعنى: عَصَوْا مَنْ دعاهم إلى الإيمان، وما يُنْجِيهم، وأطاعُوا مَنْ دعاهم إلى الكفر، وما يُرْدِيهم، وقال في «التبيان»: الجبار المتعظم في نفسه، المتكبر على العباد، والعنيد الذي لا يقول الحقَّ، ولا يقبَله ﴿وَأُتْبِعُواْ﴾؛ أي: أتبع الرؤساءُ والمرؤوسون منهم، وأرْدِفوا ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ الدار ﴿ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ تَتْبَعُهم، وتلحقهم وتنصرف معهم؛ أي: أتبعوا كلهم في الدنيا إبعاداً، وطرداً عن الرحمة، وعن كل خير على لسان الأنبياء، فما جاء نَبِيٌّ بَعْدَهم إلاَّ لعنهم؛ أي: جُعلت[1] اللعنة من الناس تابعةً لهم، ولازمة تكبهم في العذاب كَمَنْ يأتي خَلْفَ شخص فيدفعه من خلف، فيكبُّه، وإنما عبَّر عن لزوم اللعنة لهم بالتبعية للمَبَالَغَةِ، فكأنها لا تفارقهم، وإن ذَهَبوا كلَّ

---

(١) روح البيان.

مذهب، بل تَدُورُ معهم حيث دَارُوا، ولوقوع صحبة أتباعهم رؤَسائهم، يعني: أنَّهم لما اتبعوا.. أتبعوا ذلك جزاءً لصنيعهم، جزاءً وفاقاً، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: وأتبعوا في يَوْم القيامة أيضاً لعنةً، وهي عذابُ النار المخلَّد، حذفت لدلالة الأولى عليها، يعني وفي يوم القيامة أيضاً تتبعهم اللعنة كما تتبعهم في الدنيا، ثمَّ ذَكَر سبحانه وتعالى السببَ الذي استحقُّوا به هذه اللعنة، فقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا﴾؛ أي: انْتَبَهوا! إنَّ عاداً ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: كفروا بربهم، وجحدوه كأنَّهم كانوا من الدهرية، وهم الذين يَرَوْنَ مَحْسُوساً، ولا يرون معقولاً، وينسبون كل حادث إلى الدهر؛ أي: إنَّ عاداً كفروا نعمه عليهم، بجحودهم بآياته، وتكذيبهم لِرسُلِه كِبْراً وعناداً ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾؛ أي: انتبهوا! إنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى أَبْعَدَ عاداً منْ رحمته فبَعُدوا عنها بعداً، والمرادُ منه تحقيرهم، وقولُه: ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد قُيِّدَ به، لأن عاداً عَادانَ: عادُ هود القديمةُ، وعادُ إرم الحديثةُ التي هي قوم صالح المسماة بثمود، فقومُ هود عادُ الأولى، وقومُ صالح عاد الثانية.

وإنما كرَّر ألا ودعاءَه عليهم، وأعادَ ذِكرهم تهويلاً لأمرهم، وتفظيعاً له، وحثّاً على الاعتبار بهم، والحَذَرِ من مثل حالهم، وفي «الخازن» فإنَّ[1] قلت: اللعنة معناها الإبعادُ والهلاكُ، فما الفائدة في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾؛ لأنَّ الثانيَ هو الأولُ بعينه؟ قلتُ: الفائدةُ فيه: أنَّ التكرارَ بعبارتين مختلفتين، يدُلُّ على نهاية التأكيد، وأنَّهم كانوا مستحقّين له.

وقولُه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ متعلق بمحذوف كما مَرَّ نظيره أي: وأرسلنا إلى ثمود، وهي قبيلةٌ من العرب، سُمُّوا باسم أبيهم الأكبر، ثمودَ بن عاد بن إرم بن سام، وقيل: إنما سُمُّوا بذلك لقلةِ مائهم من الثَّمد، وهو الماءُ القليلُ، وقرأ ابن وثاب، والأعمش[2]: ﴿وإلى ثمودٍ﴾ بالصرف على إرادة الحيّ، والجمهورُ على منع الصرف ذهاباً إلى القبيلة، وفي «تفسير أبي الليث»: إنما لم ينصرفْ لأنه اسمُ قبيلة، وفي الموضع الذي ينصرف جعله اسماً للقوم ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ أي: واحداً منهم

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

في النسب ﴿صَـٰلِحًاۚ﴾ عطف بيان، لأخاهم، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسخ بن عبيد بن خاور بن ثمود، وعاش صالحٌ مئتي سنة وثمانين سنةً، وبينه وبين هود مئةُ سنة، وثمود هم سكَّانُ الحِجْر، مكانٌ بين الشام والمدينة ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ كأنَّ قائِلاً قال: فما قال لهم صالحٌ حين أرسل إليهم؟ فقيل: قال: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده، أي: وَحِّدُوا الله وخُصّوه بالعبادةِ، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ يعني هو إلَهكم المستحق للعبادة، لا هذه الأصنام، ثُمَّ ذَكَرَ سبحانه وتعالى الدَّلائِلُ الدالَّةَ على وحدانيته، وكمال قدرته، فقال: ﴿هو﴾ سبحانه وتعالى الإلَه الذي ﴿أَنشَأَكُم﴾، وابتدأ خَلْقَكُم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وذلك أنهم من بني آدم، وآدم خُلق من الأرض، فمن لابتداء الغاية[1]؛ أي: ابتدأ إنشاءَكم منها؛ فإنَّه خَلَق آدمَ من التراب، وهو أنموذج منطو على جميع ذرياته التي ستوجد إلى يوم القيامة، انطواءً إجمالياً؛ لأنَّ كل واحد منهم مخلوق من المني، ومن دم الطَّمثِ، والمنيُّ إنما يتولد من الدم، والدمُ إنما يتولد من الأغذية، وهي إما حيوانية أو نباتية، والنباتية، إنما تتولد من الأرض، والأغذية الحيوانية لا بُدَّ أن تَنتَهي إلى الأغذية النباتية المتولدة من الأرض، فثبَتَ أنه تعالى أنشأَ الكل من الأرض، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: جَعَلَكم سُكَّانَ الأرض، وصيركم عامرين لها، أو جَعَلَكم معمِّرين ديارَكم تسكنونَها مدة أعماركم، ثُمَّ تتركونها لغيركم، وقال الضحاك[2]: أطال أعمارَكم فيها، حتى كان الواحدُ منهم يعيشُ ثلاثَ مئة سنة إلى ألف سنة، وكذلك كان قوم عاد، وقال مجاهد: أعْمَركم من العمرى؛ أي: جَعَلَها لكم ما عشتم ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾؛ أي: فاطلبوا مغفرةَ الله بالإيمان، أي آمِنُوا بالله وحده ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: ارْجِعُوا إلى عبادته تعالى من عبادة غيره، لأنَّ التوبةَ لا تصح إلا بعد الإيمان ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ إلى عباده بالعلم، والسمع، والرحمة، ﴿مُّجِيبٌ﴾ دعاءَ المحتاجين بفضله ورحمته، والذي[3] يَلُوحُ للخاطر أنَّ قوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ راجع لـ ﴿تُوبُوٓاْ﴾ و ﴿مُّجِيبٌ﴾ لـ ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾؛ أي: ارجعوا إلى الله، فإنه قريب ما هو

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) روح البيان.

ببعيد، واسألوا منه المغفرةَ، فإنه مجيبٌ لسائله ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال قومُ صالح بعد دعوتهم إلى الله تعالى، وعبادته ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾؛ أي: مأمولاً؛ أي: كُنَّا نرجوا أن تكونَ فِينَا سَيِّداً مطاعاً ننتفع برأيك، ونَسْعَدُ بسيادتك ﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾ الذي أظهرته لنا من ادعائك النُّبوَّةَ ودعوتك إلى التوحيد، أو قَبْلَ[1] هذا الوقت، وهو وقت الدعوة، كانَتْ تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد والسداد، فإنَّكَ كنت تعطفُ على فقرائنا، وتعِينَ ضُعَفَاءنا، وتعود مَرْضَانَا فقَوِيَ رجاؤُنا فيك، فكنَّا نَرْجوك أنْ تكون لنا سَيِّداً ننتفع بك ومستشاراً في الأمور، ومسترشداً في التدابير، فلما سَمِعْنَا منك هذا القَول انقطع رجاؤُنا عنك، وعَلِمْنا أن لا خَيْرَ فيك.

والخلاصة[2]: أي قَدْ كنت عِندنا موضعَ الرجاءِ لِمَهامِّ أمورِنا؛ لمَا لَكَ من رجاحة عقل، وأصالَة رأي، ولحسبك ونَسبِك قبل هذه الدعوة، التي تَطلُب بها إلينا أن نبدل ديننا، زَعْماً منك أنه باطل، فالآن قد انقطع رجاؤنا منك، ثُمَّ ذَكَروا أسباب انْقِطَاع رَجائِهم بقولهم متعجِّبين تعجّباً شديداً ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾، و (الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري التعجبي؛ أي: أتمنعنا من ﴿أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: ما عَبَدُوه من الأوثان، والعدول فيه إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية.

أي: عجيب منك أن تَنْهانا عن عبادة ما كان يعبدُ آباؤنا من قبلنا، وقد سِرْنا نحن على نهجهم، ولم ينكره أحدٌ علينا، ولم يستقبحه فكيف تُنْكِرُه؟ ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد، وترك عبادة الأوثان ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع في الريبة، أي: في اضطراب القلوب، وانتفاء الطمأنينة من أرابَه إذا أوقعه في الريبة، وإسنادُ الإرابة إلى الشك، وهو أن يبقى الإنسانُ متوقِّفاً بين النفي والإثبات مجازي لأنَّ الريبَ هو انتفاء ما يرجح أحد طرفي النسبة، أو تعارض الأدلة لا نفس الشك.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

والمعنى: أي وإنا لفي شك من دعوتك إلى عبادته تعالى وحده، دونَ أن نتوسَّل إليه بأحد من الشفعاء، المقربين عنده تعالى، ولا أن نُعَظِّم ما وضَعه آباؤنا لهم من صور وتماثيل، تذكُّرنا بهم، فكل هذا يوجب الريبَ والتهمةَ، وسوء الظن، وعدمَ الطمأنينة إلى دعوتك.

والخلاصة: إننا لفي شك مِمَّا تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان موقع في الريب، و (إنا) و (إننا)[1] لغتان لقريش قال الفراء: مَنْ قال إنَّنا أَخْرج الحرفَ على أصله؛ لأنَّ كناية المتكلمين (نا) فاجتمعت ثلاث نونات، ومن قال: (إنا) استثقل اجتماعَها فأسقط الثالثةَ، وأبْقَى الأولتين، انتهى. والذي أختاره أنَّ (نا) ضمير المتكلمين، لا تكون المحذوفة، لأنَّ في حذفها حَذْف بَعْضِ اسم، وبقي منه حرف ساكن، وإنما المحذوفة النون الثانية من (إنَّ) فحذفت لاجتماع الأمْثال، وبقي من الحرف (الهمزة) والنون الساكنة، وهذا أولى من حذف ما بقي منه حرف، وأيضاً فقد عهد حذف هذه النون مع غير ضمير المتكلمينَ، ولم يُعْهَدْ حذف نون (نا) فكان حَذْفُها من إنَّ أوْلَى، فأجابهم صالح فـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾؛ أي: أخْبِرُوني عن حالي معكم، ﴿إِن كُنتُ﴾ في الحقيقة ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾؛ أي: على بصيرة، وبرهان صادر ﴿مِّن رَّبِّي﴾ ومالك أمري ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾؛ أي: أعطاني ﴿مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ تعالى؛ أي: من قِبَله رِحمةً خاصةً من عنده، جَعَلني بها نبياً مرسلاً إليكم، وهذه الأُمورُ[2]، وإن كانت متحققةَ الوقوع، لكنَّها صدرت بكلمة الشك، اعتباراً بحال المخاطبين؛ لأنهم في شك من ذلك، كما وَصَفوه عن أنفسهم، والاستفهامُ في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكار بمعنى النفي؛ أي: فمن يمنعني، ويُنْجِيني ويحفظني من عذاب الله ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ تعالى، وخالَفْتُه بالمساهلة في تبليغ الرسالة، وفي المَجاراة معكم؛ أي: فَمَنْ يَنصُرَني منجياً من عذابه تعالى، أي لا ناصرَ لي يمنعني من عذاب الله ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾، وخالفته في تبليغ الرسالة، وراقبتكم، وفترت عما يجِبُ علـيّ من البلاغ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بتثبيطكم إياي ﴿غَيۡرَ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

﴿تَخۡسِيرٖ﴾؛ أي: غير إيقاعكم لي في الخسارة بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي، والتعرض لعقوبة الله تعالى، والمعنى: أخبروني إن كنتُ على بينة ونبوة من ربي، فلا أحد يمنعني من عذاب الله إن اتبعتكم، وعصيتُه، وحينئذ أكون خاسراً مضيِّعاً لما أعطاني الله من الحق، وهَلْ رأيتم نبياً صار كافراً؟ وكلٌّ هذا منه لهم، اهـ «صاوي». قال الفراء: غَيْر تضليل، وإبعاد من الخير، أو فما تزيدونني بما تقولون غير بَصيرة في خسارتكم؛ أي: وما زادني قولُكم إلاَّ قولي لكم: إنكم لخاسرون، أو المعنى: فما تفيدونني غير تَخسير إذْ لم يكن فيه أصلُ الخسران حتى يزيدوه، وحاصل المعنى: أي: فمن يمنعني من عذابه، إذا أنا كَتَمْتُ الرسالةَ أو كتمت ما يسوؤكم من بُطلان عبادةِ الأصنام، والأوثان تقليداً لآباءكم؛ أي: لا أحَدَ يدفع ذلك عني في هذه الحال، فلا أُبالي إذا انقطع رجاؤكم فيَّ، ولا بما أنتم فيه من شك وريب في أمري، ثم ذكر مآل أمره إذا هو اتبعهم فقال: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾؛ أي: فما تزيدونني باتقاء سوء ظنكم وارتيابكم غير إيقاعي في الخسران بإيثار ما عندكم على ما عند الله تعالى، واشتراءِ رضاكم بسخطه تعالى ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾؛ أي: ويا قومي ﴿هَٰذِهِۦ﴾ البهيمةُ التي خَرَجَتْ من الصخرة ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الإضافة فيه للتشريف، كبيت الله؛ لأنه أخرجها لهم من صخرة في جوف الجبل حاملاً من ذكر على تلك الصورة دفعة واحدة وقد حصل منها لبنٌ كثيرٌ يكفي الخلقَ العظيمَ؛ أي: هذه ناقة ممتازة عن سائر الإبل بما ترَوْن من أكْلِها وشربها، وجميع شؤونها، قد جعلها الله سبحانه وتعالى ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ بينة منه، ومعجزةً باهرةً تدل على صدقي، وعلى إهلاككم إن أنتم خالفتم أمره فيها ﴿فَذَرُوهَا﴾؛ أي: فاتركوها، وخلوها ﴿تَأۡكُلۡ﴾ وتَشْرَبُ فهو من باب الاكتفاء نظيرَ قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾؛ أي: والبردَ مِمّا ﴿فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، من المراعِي والمياه، تَرْعَ نباتَها وتشرب ماءها، فليس عليكم كلفة في مؤونتها، وكانت هي تنفعهم، ولا تَضُرُّهم، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها، وقرأَتْ[1] فرقة (تأكُلُ) بالرفع على الاستئناف أو على الحال ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾؛

---

(١) البحر المحيط.

أي: ولا يمسَّها، ولا يصبها أحدٌ منكم بأذى من ضرب وعقر وقتل ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾؛ أي: فيهلككم ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ النزول والوقوع لا يَتراخى عن مسكم لها بالسوء إلا بيسير، وهو ثلاثةُ أيام، وكانت تصيفُ بظَهْرِ الوادِي فتهربُ منها أنعامُهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتَهْرُب مواشِيهم إلى ظهره، فشَقَّ عليهم ذلك ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: عَقرها، وقَتلَها قُدارُ بن سالف بأمرهم، ورضاهم فَضرَبها في رجليها، فأوقَعها، فذَبَحُوها، وقسَمُوا لَحْمَها على جميع القرية على ألْفٍ وخمس مئةِ دارٍ ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح بعد قتلهم لها ﴿تَمَتَّعُوا﴾؛ أي: استمتعوا بحياتكم، وعِيشُوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾؛ أي: في بلادِكم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ من العَقْر: الأربعاءَ، والخميسَ، والجمعةَ، ثم يأتيكم العذابُ في اليوم الرابع، يوم السبت، وإنما أقاموا ثلاثةَ أيام؛ لأنَّ الفَصِيلَ بَقِيَ يَنُوح على أمه ثلاثةَ أيام، وانفجَرتْ له الصخرة بعد تلك المدَّة فدَخَلها، ولما عقروا الناقَةَ.. أنذرهم صالح بنزول العذابِ، ورَغَّبَهم في الإيمان، فقالوا: يا صالحُ، وما علامةُ العذاب؟ فقال: تصبح وجوهكم في اليوم الأول مصفرة، وفي الثاني محمرةً، وفي الثالث مسودةً، وفي الرابع يأتيكم العذاب صَبِيحَتُه ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: نزولُ العذاب عقبَ ثلاثَةِ أيام ﴿وَعْدٌ﴾ من الله سبحانه وتعالى وَعَدكم حين انقضائِها بالهلاك ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فهو لم يكذبكم فيه مَنْ أعلمكم ذلك، أو وعد غَيْرُ كذبٍ كالمجلود بمعنى الجلد الذي هو الصلابة، والمفتون بمعنى الفتنة.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال[1]: «إنَّ صَالِحاً لمَّا دعا قومَه إلى الله تعالى كذَّبوه، فضاق صدره، فسأل ربَّه أنْ يأذن له في الخروج من عندهم، فأذن له فَخَرَج، وانتهى إلى ساحل البحر، فإذا رجل يمشِي على الماء، فقال له صالح: ويْحَكَ من أنت؟ فقال: أنا من عباد الله، كنت في سفينة كانَ قومها كفَرة غيري، فأهلكهم الله تعالى، ونجاني منهم، فخَرَجْتُ إلى جزيرة أتعَبَّدُ هناكَ فأَخْرُجُ أحياناً، وأطلب شيئاً من رزق الله، ثم أرجع إلى مكاني فمضى صالح، فانتهى إلى تل عظيمٍ، فرَأى رجلاً فانتهى إليه، وسَلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، فقال له صالِحُ: مَنْ أنتَ؟ قال: كانت ههنا قريةٌ، كان أهلها كفاراً غيري، فأهلكهم الله

---

(١) روح البيان.

تعالى، ونجَّاني منها، فجعَلْتُ على نفسي أنْ أعبد الله تعالى ههنا إلى الموت، وقد أنْبَتَ اللَّهُ لي شجَرةُ رُمَّانٍ، وأَظْهَرَ عَيْنَ ماء، آكُل من الرمان وأشرب من ماء العَينِ، وأتوضَّأ منه، فذهب صالح، وانتهى إلى قريةٍ كان أهلها كفاراً كُلُّهم غَيْر أخَوين مُسْلِمَين، يعملان عملَ الخَوص ـ فضَرَبَ النبيّ ﷺ مثَلاً فقال: لو أن مؤمناً دَخَلَ قريةً فيها ألف رجل، كلهم كفارٌ، وفيهم مؤمنٌ واحد، فلا يسكن قلبه مع أحدٍ حتى يجد المؤمنَ، ولو أنَّ منافقاً دَخَل قرية فيها ألفُ رجل كلهم مؤمنون، وفيهم منافق واحد.. فلا يسكُن قَلْبُ المنافق مع أحد ما لم يجد المنافقَ ـ فدَخَل صالح، وانتهى إلى الأخوين، فَمَكَثَ عِندهما أياماً، وسألَ عن حالهما فأخبرا أنهما يصبران على أذى المشركين، وأنهما يعملان عملَ الخوص، ويمسكان قُوتَهُما، ويتصدَّقان بالفَضْلِ، فقال صالح: الحمد لله الذي أرَاني في الأرض منْ عبادِهِ الصالحين، الذين صَبَرُوا على أذَى الكفار، فأنا أرْجِعُ إلى قومي، وأصبرُ على أذاهم، فرجع إليهم، وقد كانوا خرجوا إلى عيد لهم، فدَعَاهم إلى الإيمان، فسألوه آيةً، فقال: أيَّة آية تريدون؟ فأشارَ سيِّدهم جندع بن عَمرو إلى صخرة منفردة، يقال لها: الكَاثِبَةُ، وقال له: أخْرِجْ من هذه الصخرة ناقةً واسعةَ الجوف كثيرةَ الوبر عشراء؛ أي: أتت عليها من يوم أرْسَل الفحل عليهَا عشرة أشهر، فإن فَعَلْتَ صَدَّقْنَاكَ، فأخذ عليهم مواثقَهم لئنْ فعلت ذلك لتؤمِنُنَّ فقالوا: نَعَمْ فصَلَّى، ودَعا ربه، فتمخضت الصخرةُ تمخض النتوج بولدها، فانشقَّتْ عن ناقة عشراء جَوْفَاء، وبراء كما وصفوا فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ فكانت تَرْعَى الشجرةَ، وتشرب الماءَ ثم تفرِّج بين رجليها، فيحلبون ما شاؤوا، حتى تَمْتَلِىءَ أوانيهم، فيشربون ويَدَّخِرُون، وهم تسع مئة أهل بيت، وقيل: ألْفٌ وخَمسُ مئة، ثُمَّ إنه عليه السلام لمَّا خَافَ عليها منهم قال: ولا تمسُّوها بسوء، فيأخُذَكم عذاب قريب، فعقروها، أي: عقرها قُدَارُ ـ بوزن غراب ـ بن سالف فقال: تمتَّعُوا في داركم ثَلاثَةَ أيام ذلك وَعْدُ غيرُ مكذوب.

ثُمَّ ذَكَرَ وقوعَ ما أوعِدوا به، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾؛ أي: جَاءَ ثمودَ

عذابنا، ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ والظرف[1] متعلق بـ﴿نَجَّيْنَا﴾ أو بـ﴿ءَامَنُوا۟﴾، وهو الأظهر؛ إذ المراد ﴿ءَامَنُوا۟﴾ كما ﴿آمن﴾ صالحٌ، واتبعوه في ذلك، لا أنَّ أزمانَ إيمانهم مقارن لزمان إيمانه، فإن إيمان الرسول مقدَّم على إيمان من اتبعه من المؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ أي: متلبسينَ بمجرد رحمة عظيمة ﴿مِّنَّا﴾، وفضل لا بأعمالهم، كما هو مذهبُ أهل السنة، وهِيَ بالنسبة إلى صالح: النبوة، وبالنسبة إلى المؤمنين الإيمان ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ عطف على ﴿نجينا﴾؛ أي: ونجيناهم من خزي يومئذ؛ أي: من ذلته ومَهَانته وفَضِيحَته، ولا خِزْيَ أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه وكرر نَجَّيْنَا لبيان مَا نَجَّاهُم منه، وهو هلاكُهم يومئذ؛ أي: يَوْم، إذ جاء أمرنا فإنَّ إذ مضافة إلى جملة محذوفة، عوِّض عنها التنوين؛ أي: ونجيناهم من عذاب يوم إذ جاء أمرنا وعذابُنا. قيل[2]: الواوُ زائدة في ﴿وَمِنْ خِزْىِ﴾؛ أي: من خزي يومئذ فيتعلَّق من بِنَجَّيْنا، وهذا لا يجوز عند البصريين، لأن الواو لا تزاد عندهم، بل تتعلق (من) بمحذوف؛ أي: ونجيناهم من خِزْيٍ؛ أي: وكانت التنجية من خزي يومئذ، ولكون الإخبار بتنجية الأولياء، لا سيما عند الإنباء بحُلول العذاب أهم ذَكَرَها أولاً، ثم أخْبَر بهلاك الأعداء، وقَرَأ طلحةُ وَأبانُ بن تغلب، ﴿ومن خزيٍ﴾ بالتنوين، ونصب (يومَئذ) على الظرف معمولاً لخزي، وقرأ الجمهور بالإضافة، وفَتَح المِيمَ الكسائي ونافع في رواية ورش وقالون هنا وفي المعارج، وهيَ فتحة بناءٍ لإضافته إلى إذ، وهو غيرُ متمكن، وقرأ باقي السبعة بكسر الميم فيهما، وهي حركة إعراب، والتنوين في إذ تنوين عوض من الجملة المحذوفة المتقدمة الذكر؛ أي: ومن فضيحة يوم إذ جاء الأمر، وحَلَّ بهم، فلما قطِعَ المضاف إليه عن إذْ نُوِّنَ؛ ليدلَّ التنوين على ذلك، ثم كسرت الذال لسكونها، وسكون التنوين، ولم يلزم من إضافة يوم إلى المبني، أن يكون مبنياً؛ لأنَّ هذه الإضافة غيرُ لازمة.

ثم بين عظيم قدرته على التنكيل بأمثالهم من المشركين، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد الذي فَعَلَ هذا بقوم صالح، ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾؛ أي: القادر على أنْ

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط والمراح.

يفعلَ مِثْلَ ذلك بقومك إن أصَرُّوا على الجحود وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب الذي لا يعجزه شيء، فإنه أوْصَلَ ذلك العذاب إلى الكفار، وصان أهلَ الإيمان عنه، وهذا التمييز لا يصح إلاّ من القادر الذي يقدر على قهر طبائع الأشياء، فيجعل الشيءَ الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاءً وعذاباً وبالنسبة إلى إنسان آخرَ راحةً ورَيْحاناً.

ثمَّ ذَكَر مآلَ أمرهم وشديدَ عقابه بهم فقال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفُسَهم بالكفر والتكذيب؛ أي: أهلكتهم ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: صيحةُ جبريل مع الزلزلة في اليوم الرابع من عَقر الناقة، وذكَّر الفعلَ لأنَّ الصيحة، والصياح، واحد مع كون التأنيث غير حقيقي، وللفصل بينهما بالمفعول، والصيحة فعلةٌ تدل على المرة من الصياح، وهو الصوت الشديد، يقال: صاح يَصِيح صياحاً؛ أي صوت بقوة قيل: هي صيحة جبريل، فقد صاح عليهم، وقيل: صيحة من السماء، فيها صوتُ كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، فتقطَّعَتْ قلوبهم في صدورهم، فماتوا جميعاً، وتقدَّم في الأعراف، فأخذَتْهم الرجفةُ قيل: ولعلَّها وقعت عَقِبَ الصيحة، ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾؛ أي: صاروا ﴿فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ وبلادهم، وفي مساكنهم: ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: ساقطينَ على وجوههم ميتين، لا يتحركون، ولا يضطربون عند نزول العذاب، قد لَصِقُوا بالتراب كالطير، إذا جثمت حَالةَ كَوْنِهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾؛ أي: كأنهم لم يقيموا في بلادهم، فإنهم صاروا رماداً، أي: أصْبَحُوا جاثمين، حالَ كونهم مماثلينَ لمن لم يوجد، ولم يقم في مكان قط، ولا يَخْفَى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ، وسرعته. اللهم إنَّا نعوذ بك من حلول غضبك.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر، لزيادة البيان، وصرَّح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: جَحَدُوا بوحدانية الله تعالى، فهذا تَنْبِيه وتخويفٌ لِمَنْ بَعْدَهم، وقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ مَصْدَرٌ[1] وُضعَ موضع فِعْلِه،

---

(١) روح البيان.

فإنَّ معناه بَعُدُوا؛ أي: هلكوا، واللام لبيان مَنْ دعي عليهم، وفائدة الدعاء عليهم: بعد هلاكهم: الدلالةُ على استحقاقهم عذابَ الاستئصال بسبب كفرهم، وتكذيبهم، وعقرهم، ناقةَ الله تعالى، والمعنى، أي كأنَّهم[1] لسرعة زوالهم، وعدم بقاء أحد منهم لم يقيموا في ديارهم ألبتةَ، وما سبب هذا إلا أنْ كفروا بآيات ربهم، فجحدوها ألا بُعْداً، وهلاكاً لهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ مَنَع حمزة وحفصُ صَرْفَهُ وصَرفَه الباقون ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ صرفه الكسائي، ومَنْعه باقي السبعة، والصرفُ على إرادة معنى الحي، ومَنْعُه على إرادة معنى القبيلة، وعن جابر[2] رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا نَزَلَ الحجرَ في غزوة تبوك قَامَ فخَطَبَ النَّاسَ فقال: «يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم الآيات، هؤلاء قومُ صالح، سَألُوا نَبِيَّهم أن يَبْعَثَ لهم الناقةَ فكانت تَرِدَ من هذا الفجِّ فَتَشْرَبُ ماءَهم يوم وردها، ويَحْلُبون مِنْ لبنها، مِثْلَ الذي كانوا يشربون من مائها يَوْمَ غبّها، فعتوا عن أمر ربهم، فقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾ وكان وعداً من الله غير مكذوب، ثم جاءَتْهم الصيحة فأهلك الله مَنْ كان في مشارق الأرض ومغاربها منهم، إلاّ رجلاً كان في حرم الله، فَمَنَعه حَرم الله من عذابِ الله، يقال له: أبو رِغَال»، قيل له: يا رسول الله، مَنْ أبو رِغَال قال: «أبو ثَقِيفٍ».

الإعراب

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: وأرسلناإلى عاد، والجملة المحذوفة معطوفةً على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ عطف قصة على قصة، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول به لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المحذوف ﴿هُودًاۚ﴾ عطف بيان له، أو بدل منه، ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنَّ سائلاً قال: ماذا قال لهم؟ فأجابه بقوله، قال: يا قوم اعبدوا اللّه. ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى آخرِ الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

﴿يَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء على كَوْنِها مقول ﴿قال﴾ ﴿مَا﴾ نافية أو حجازية ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم ﴿مِّنۡ﴾ زائدة ﴿إِلَٰهٍ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ والتقدير: ما إله غيره تعالى كائنٌ أو كائناً لكم، والجملة الاسمية مسوقة لتعليل ما قبلها، على كونها مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنۡ﴾ نافية ﴿أَنتُمۡ﴾ مبتدأ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مُفۡتَرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول (قال).

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾.

﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إلى قوله ﴿قَالُواْ﴾ مقول محكي، وإنْ شئتَ قلتَ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول (قال) ﴿لا﴾ نافية ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ فعل ومفعول أول ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به ﴿أَجۡرًاۖ﴾ مفعول ثان، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة الفعلية في محل النصب مقول (قال) على كَوْنِهَا جوابَ النداء ﴿إِنۡ﴾ نافية ﴿أَجۡرِيَ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَى ٱلَّذِي﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿فَطَرَنِيٓۚ﴾ فعل ومفعول ونون وقاية وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملةُ صلة الموصول ﴿أَفَلَا﴾ (الهمزة) للاستفهام التوبيخي، داخلة على محذوف تقديره: أتغفلون عن هذه القصة و (الفاء) عاطفة على ذلك المحذوف ﴿لا﴾ نافية ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملةُ معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف معطوف على المنادى الأول ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كَوْنِها جَوابَ النداء، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾، ﴿إِلَيۡهِ﴾ متعلق به ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على

الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جوابَ الطلب السابق ﴿مِّدْرَارًا﴾ حال من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ ولم يؤنثه مع كون صاحب الحال مؤنثاً لثلاثة أوجه[1]:

أحدها: أن المراد بـ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ السحاب أو المطر، فذكَّر الحال على المعنى.

والثاني: أنَّ مِفعالاً للمبالغة، فيستوي فيه المذكر والمؤنث، مثل فَعُولٍ كصبور، وشكور، وفعيل كجريح.

والثالث: أنَّ الهاءَ حُذِفَتْ عن مفعال على طريق النسب قاله مكي، اهـ «سمين». ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾، ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿قُوَّةً﴾ تقديره: قوة مضافة إلى قوتكم، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية ﴿مُجْرِمِينَ﴾ حال من ﴿الواو﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ على كونها مقول القول.

﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَـٰهُودُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿مَا﴾ نافية ﴿جِئْتَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿جِئْتَنَا﴾ والجملة في محل النصب، مقول ﴿قال﴾ على كونها جوابَ النداء، ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة (ما) نافية أو حجازية، ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ أو في محل الرفع اسم (ما) ﴿بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾ خبر المبتدأ، أو خبر (ما) ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ متعلق ﴿بِتَارِكِىٓ﴾ فـ ﴿عَن﴾ للتعليل، وهذا هو الأولى، أو حال من الضمير في

---

(١) الفتوحات.

﴿تاركي﴾؛ أي: وما نترك آلهتنا تركاً صادراً عن ﴿قَوْلِكَ﴾، ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة (ما) حجازية، أو تميمية ﴿نَحْنُ﴾ اسمها أو مبتدأ ﴿لَكَ﴾ متعلق ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ خبر (ما) أو خبر المبتدأ و (الباء) زائدة، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها على كونها مقولَ ﴿قَالُوا﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥)﴾.

﴿إن﴾ نافية ﴿نَقُولُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على قوم هود، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿اعْتَرَاكَ﴾ فعل ماض، ومفعول ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿بِسُوءٍ﴾ متعلق بـ ﴿اعْتَرَاكَ﴾ وجملة ﴿اعْتَرَاكَ﴾ في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: ما نقول في شأنك إلا قولَنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة مستأنفة ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على هود، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَاشْهَدُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة (إن) على كونها مقول ﴿قال﴾، ﴿أَنِّي بَرِيءٌ﴾ ناصب واسمه وخبره ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بريء﴾ وجملة (أن) في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تنازع فيه الفعلان قبله، ولكن أعمل فيه الثاني؛ أي: واشهدوا براءتي مما تشركون ﴿تُشْرِكُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةُ لـ(ما) أو صفة لها، والعائدُ أو الرابط محذوف تقديره: مما تشركونه، ويحتمل كونُ (ما) مصدرية ﴿مِن دُونِهِ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المحذوف من ﴿تُشْرِكُونَ﴾ ﴿فَكِيدُونِي﴾. الفاء: رابطة لجواب شرط محذوف، تقديره: إن كانت آلهتكم كما قلتم من أنها تنفع، وتضر.. فكيدوني ﴿كيدوني﴾ فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية ﴿جَمِيعًا﴾ حال من (واو) الفاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم على كونها جواباً للشرط المحذوف، والشرط المحذوف في محل النصب مقول القول، ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿لا﴾ ناهية

جازمة ﴿تُنظِرُونِ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والنونُ المذكورة نونُ الوقاية لأنَّ أصْلَه، ولا تنظرونني وياء المتكلم المحذوفة في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم، معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿رَبِّي﴾ بدل من الجلالة، ﴿وَرَبِّكُم﴾ معطوف على ﴿رَبِّي﴾، وجملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في محل الرفع خبر، (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقولُ القول على كَوْنِها مَسُوقة لتعليل مَا قَبلها ﴿مَا﴾ نافية ﴿مِن﴾ زائدة ﴿دَآبَّةٍ﴾ مبتدأ أول، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ثان ﴿ءَاخِذٌۢ﴾ خبرٌ للمبتدأ الثاني ﴿بِنَاصِيَتِهَآ﴾ متعلق بـ﴿آخذ﴾ وجملة الثاني في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مع خبره في محل النصب مقول القول على كونها مسوقةً لتعليل ما قبلها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ خبره ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾ وجملة (إن) مستأنفة في محل النصب مقول القول.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلت لكم، وأردتم بيانَ حُكم ما إذا توليتم.. فأقول لكم ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ (إن) حرف شرط جازم ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعل مضارع وفاعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، أصله (تتولوا) حذفت إحدى التاءين لتوالي الأمثال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فلا أبالي بكم، ولا مؤاخذةَ عليّ، وجملة الشرط في محل النصب مقولٌ لجوَاب ِ إذا المقدَّرة ﴿فَقَدْ﴾ (الفاء) تعليلية (قد) حرف تحقيق ﴿أَبْلَغْتُكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مَّآ﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها

(بالفاء) التعليلية؛ لأنها تعليل للجواب المحذوف، تقديره: فلا أُبالي بكم لإبْلاغي إياكم ﴿ما أرسلت به﴾، ﴿أُرْسِلْتُ﴾ فعل ونائب فاعل ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، وكذلك ﴿إِلَيْكُمْۚ﴾ يتعلق به، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى﴾ فعل وفاعل ﴿قَوْمًا﴾ مفعول به ﴿غَيْرَكُمْ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة على كونها مقولَ القول، أو معطوفةٌ على جملة الجواب، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿شَيْـًٔاۚ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾، ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿حَفِيظٌ﴾، ﴿حَفِيظٌ﴾ خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة على كونها مقولَ القول.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية (لما) حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ (لمّا)، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿هُودًا﴾ والجملة الفعلية جواب (لما)، وجملة (لمَّا) مستأنفة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مَعَهُۥ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من فاعل ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ متعلق بـ ﴿نَجَّيْنَا﴾، ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾ متعلق به ﴿غَلِيظٍ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٍ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة لا معطوفة على ﴿نَجَّيْنَا﴾ الأول لأنَّ الأول مقيد بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ إلخ، والثاني لا يتقيد به، اهـ «فتوحات».

﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿جَحَدُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة سيقت للإخبار عن حالهم، وليسَتْ حالاً ممّا قبلها كما في «الجمل» ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَحَدُوا۟﴾، ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَحَدُوا۟﴾ ﴿أَمْرَ كُلِّ

﴿جَبَّارٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿عَنِيدٍ﴾ صفة ﴿جَبَّارٍ﴾، ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ فعل ونائب فاعل ﴿فِي هَٰذِهِ﴾في هذه متعلق به ﴿الدُّنْيَا﴾ بدلُ من اسم الإشارة أو عطف بيان ﴿لَعْنَةً﴾ مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَحَدُوا﴾، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف معلوم مما قبله تقديره: وأتبعوا يوم القيامة لعنة على رؤوس الخلائق، ﴿ألا﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ عَادًا﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة ﴿ألا﴾ حرف تنبيه ﴿بُعْدًا﴾ مصدر نائب عن التلفظ بفعله تقديره بعدوا أي هلكوا ﴿لِعَادٍ﴾ اللام لبيان مَنْ دُعِي عليهم متعلقة بالمصدر كـ(لام) سقياً لك ورعْياً لك ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ بدل من ﴿عَادٍ﴾ أو عطف بيان له.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ متعلق بمحذوف معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المحذوف ﴿صَالِحًا﴾ عطف بيان له ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على صالح، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿يَا قَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَا قَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول القول على كَوْنِهَا جَوابَ النداء ﴿ما﴾ نافية، ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ مبتدأ مؤخر و﴿من﴾ زائدة ﴿غَيْرُهُ﴾ صفة لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾ فعل ومفعول ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾، ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (الفاء) عاطفة تفريعية، ﴿استغفروه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية معطوفةٌ مفرعة على الجملة الاسمية في قوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾

متعلق به ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه ﴿قَرِيبٌ﴾ خبره ﴿مُّجِيبٌ﴾ خبر ثان، أو صفة له، وجملة (إن) مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملةُ النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿قَدْ كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿فِينَا﴾ متعلق بـ ﴿مَرْجُوًّا﴾، ﴿مَرْجُوًّا﴾ خبر كان ﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ (كان)، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾ على كونها جوابَ النداء، ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري ﴿تنهانا﴾، فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على صالح، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ ناصب وفعل منصوب، وفاعله ضمير يعود على قوم صالح، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره أتنهانا عن عبادة ما يعبد آباؤنا ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿نَّعْبُدَ﴾، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يعبده آباؤنا ﴿وَإِنَّنَا﴾ ناصب واسمه ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ جار ومجرور خبر (إن) و (اللام) حرف ابتداء، وجملة (إن) معطوفة على جملة ﴿كان﴾ على كونها جوابَ النداء، ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ (شك)، ﴿تَدْعُونَآ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على صالح ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، ﴿مُرِيبٍ﴾ صفة ﴿شَكٍّ﴾ والجملة الفعلية صلة لـ (ما)، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿إِلَيْهِ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على صالح، والجملة مستأنفة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قال﴾، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل

وفاعل ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُ﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ(إن) ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ خبر (كان)، ﴿مِّن رَّبِّي﴾ صفة لـ ﴿بَيِّنَةٍ﴾، ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجزم، معطوفة على جملة (كان) ﴿مِنْهُ﴾ جار ومجرور حال من ﴿رَحْمَةً﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول ثان لـ﴿آتى﴾ ﴿فَمَن﴾ (الفاء) رابطة لجواب (إن) الشرطية ﴿من﴾ اسم استفهام إنكاري في محل الرفع مبتدأ ﴿يَنصُرُنِي﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل الجزم بـ (إن) على كونها جَواب (إن) الشرطية، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب سادةً مسد مفعولي ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَنصُرُنِي﴾. ﴿إنْ﴾ حرف شرط ﴿عَصَيْتُهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها، وجواب (إن) معلوم مما قبلها، تقديره: إن عصيته.. فمَنْ ينصرني، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب، مقولُ ﴿قال﴾. ﴿فَمَا﴾ (الفاء) عاطفة (ما) نافية ﴿تَزِيدُونَنِى﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ مفعول ثان، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف معطوف على ﴿يَٰقَوْمِ﴾ الأول ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول (قال) على كونها جوابَ النداء، ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور حال من ﴿ءَايَةً﴾ لأنه نعت نكرة قدمت عليها ﴿ءَايَةً﴾ حال من ﴿نَاقَةُ﴾، ﴿فَذَرُوهَا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم هذه ناقةَ الله، وأردتم بيانَ ما هو الأصلح لكم، فأقول لكم ﴿ذروها﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب، مقول ﴿قال﴾، ﴿تَأْكُلْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الناقة ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَأْكُلْ﴾، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾

فعل وفاعل، ومفعول مجزوم بـ (لا) الناهية ﴿بِسُوٓءٍ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَذَرُوهَا﴾، ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ (الفاء) عاطفة سببية ﴿يأخذكم﴾ فعل، ومفعول منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد الفاء السببية ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل ﴿قَرِيبٌ﴾ صفة له، والجملة في تأويل مصدر معطوف على مصدر مقيد من الجملة التي قبلها، من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن مسكم إياها بسوء فأخذُ عذاب قريب إياكم.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾.

الفاء: عاطفة ﴿عقروها﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة معطوفة على جملة ﴿قال﴾ ﴿فَقَالَ﴾ الفاء عاطفة، (قال) فعل ماض وفاعله ضمير يعود على صالح، والجملة معطوفة على جملة (عقروها). ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ فعل وفاعل والجملة في محل النصب مقول (قال) ﴿فِي دَارِكُمۡ﴾ متعلق به. ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ صفة ﴿وَعۡدٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول (قال).

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء): فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قال لهم صالح، وأردتَ بيانَ حال المؤمِنينَ بهِ، وحال المكذبين له بعدما جاء العذابُ فأقول لك: ﴿لما﴾ حرف شرط. ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب (لما) وجملة (لما) في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿صَٰلِحٗا﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مَعَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾ أو بـ ﴿نَجَّيۡنَا﴾. ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ متعلق بـ ﴿نَجَّيۡنَا﴾. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ (رحمة). ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره ونجيناهم وذلك المحذوف معطوف على ﴿نَجَّيۡنَا﴾ وقال بعضهم: إنه متعلق بـ ﴿نَجَّيۡنَا﴾ الأول، و (الواو)

زائدة، وهذا لا يجوز عند البصريين غير الأخفش، لأن زيادة (الواو) غير ثابتة ﴿خِزۡيِ﴾ مضاف ﴿يَوۡمِئِذٍۚ﴾ (يوم) مضاف إليه (يوم) مضاف (إذ) مضاف إليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ خبر (إن) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ صفة القوي، وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول. ﴿ظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فاعل لـ (أخذ)، والجملة معطوفة على ﴿نَجَّيۡنَا﴾ على كونها جواب (لما). ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ (الفاء) عاطفة، ﴿أصبحوا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ متعلق بـ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ خبر ﴿أصبحوا﴾ وجملة ﴿أصبح﴾ معطوفة على جملة ﴿أخذ﴾ ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف تقديره: كأنهم ﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿فِيهَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿كَأَن﴾ وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب حال من واو ﴿أصبحوا﴾ تقديره: فأصبحوا جاثمينَ، حالَ كونهم مماثلينَ لمن لم يوجد، ولم يقم في مكان قط ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه ﴿إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه ﴿بُعۡدٗا﴾ مصدر نائب مناب فعله منصوبٌ بفعله المحذوف تقديره: ألا بعدوا بعداً ﴿لِّثَمُودَ﴾ متعلق بـ ﴿بُعۡدٗا﴾ وزيدت اللام لبيان المدعو عليهم كـ(لام) سُقياً لك.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾؛ أي: جعلاً، ورشوة، ومعناه: لست بطامع في أموالكم. ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ من[1] أبنية مبالغة الفاعل، يستوي فيه المذكر والمؤنث،

(١) روح البيان.

وأصله من دَرَّ اللبن دُروراً، وهو كثرةُ وروده على الحالب، يقال: سحاب مِدْرَارٌ ومطر مدرارٌ إذا تتابع منه المطر في وقت الاحتياج إليه، والمعنى: حالَ كونه مُتَتَابِعاً دائماً، كلما تحتاجون إليه ويقال: درَّ يدرُّ كردَّ يرُدُّ. وفي «المصباح»: درَّ اللبن وغيره دراً من بابي ضرب وقتل إذا كثر دَرهُ، اهـ. وفي «القاموس»: ودرَّت السماء بالمطر درّاً ودروراً فهي مدرار، اهـ. ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ يقال: عراه الأمر يعروه واعتَرَاهُ إذا ألمّ به وأصابه. ﴿فَكِيدُونِي﴾ والكيد: إرادة مضرَّة الغير خُفيةً، وهو من الخلق الحيلة السيئة، ومن الله التدبير بالحق لمجازاةِ أعمالِ الخلق. ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، وفي «السمين»: الناصية: منبت الشعر من مقدم الرأس، ويسمَّى الشعر النابت أيضاً ناصيةً، تسميةً له باسم محلِّه، ويقال: نصوت الرجل إذا أخَذت بناصيته، فلامها واوٌ، يقال له: ناصاه، فقلبت ياؤُها ألفاً، فالأخذ بالناصية عبارة عن الغلبة والقهر، وإن لم يكن أخذ بناصية، ولذا كانوا إذا منوا على أسير، جزُّوا نَاصِيَتَه، اهـ. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أصله: تَتولُّوا فحذفت إحدى التاءين لتوالي الأمثال، لأنه مضارع تولى من باب تفعل.

﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وجَحَد يتعدى[1] بنفسه، ولكنه ضمِّن معنى كَفَرَ، فتعدى بحرف الجر، كما ضمِّن كفر معنى جحد، فتعدى بنفسه في قوله: ﴿بعد ذلك﴾ ﴿كفروا ربَّهم﴾. وقيل: إن كَفَرَ كشكر في تعديته بنفسه تارةً، وبحرف الجر أخرى، اهـ «سمين». ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ أصله عصيوا؛ لأنه من عَصَى يَعْصِي كرمى يرمي، تحركت الياء وانفتحَ ما قبلها، قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، فحذفت الألِفُ لبقاءِ دَالها فصار عَصَوا بوزن رَمَوا.

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً. والعنيد: الطاغي المتجاوز في الظلم، من قولهم: عَنَدَ يعند، من باب: جَلَسَ إذا حادَ عن الحق من جانب إلى جانب، ومنه عند الذي هو ظرف لأنه في معنى جانب في قولك: عندي كذا؛ أي: في جانبي، وعند أبي عبيد: العنيد، والعنود،

---

(١) الفتوحات.

والعاند، والمعاند كله بمعنى المعارض والمُخَالِف، اهـ «سمين». والعنيد: الطاغي الذي لا يقبل الحقَّ، ولا يذعن له، ومنه قيل للعِرق الذي ينفجر بالدم عَانِد. قال الراجز:

إِنِّـــيْ كَـبِـيْــرٌ لاَ أُطِـيْــقُ ٱلْـعَـنَـدْ

وفي «المختار» عند من باب جلس؛ أي: خَالفَ ورد الحقّ، وهو يعرفه فهو عنيد، وعاند، اهـ. ﴿لَعۡنَةٗ﴾؛ أي: طرداً وبعداً عن كل خير.

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾؛ أي: لا زالوا[1] مبعدينَ من رحمة الله تعالى. والبعد: الهلاك، والبعدُ التباعد من الخير، يقال: بَعُدَ يبعد من باب: كرم بعداً، إذا تأخر، وتَبَاعد، وبَعِدَ يبعد، من باب: طَرِب، بعداً إذا هلكَ. ومنه قول الشاعر:

لاَ يَـبْـعُـدَنْ قَـوْمِـيْ ٱلَّـذِيْـنَ هُـمُ ... سُـمُّ ٱلْـعُـدَاةِ وَآفَـةُ ٱلْـجُـزُرِ

وقال النابغة:

فَـلاَ تَـبْـعُـدَنْ إِنَّ ٱلْـمَـنِـيَّـةَ مَـنْـهَـلٌ ... وَكُـلُّ ٱمْـرِىءٍ يَـوْمـاً بِـهِ ٱلْـحَـالُ زَائِـلُ

ومنه قول الشاعر:

مَـا كَـانَ يَـنْـفَـعُـنِـيْ مَـقَـالُ نِـسَـائِـهِـمْ ... وَقـتـلـتُ دُوْنَ رِجَـالِـهِـمْ لاَ تَـبْـعَـدِ

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾، وهي قبيلة من العرب، سموا باسم أبيهم الأكبر، ثمودَ بن عاد بن إرم بن سام بن نوح. سمُّوا بذلك لقِلَّة مائهم من الثمد، وهو الماءُ القليلُ. ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾؛ أي: كونكم وخلَقَكم. ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾؛ أي: عمركم وأسكنكم[2] فالسين والتاء زائدتان، أو صيَّركم عامرينَ لها، فهما للصيرورة. وفي «البيضاوي»: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾؛ أي: عمَّركم فيهَا واستبقاكم من العمر، يقال: عمر الرجل يَعْمُرُ عَمْراً بفتح العين وسكون الميم؛ أي: عاش زماناً طويلاً، واستعمره الله؛ أي: أطال بقاءه، ونظيره بَقِي الرجلُ، واستبقاه الله من البقاء،

---

(١) الشوكاني.

(٢) الفتوحات وروح البيان.

أي: إبقاء الله، فبِناءِ استفعل للتعدية. والمعنى: عَمَّرَكُم واستبقاكم في الأرض، أو أقدركم على عمارتها، وأمرَكم بها، وقيل: هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم، ويَرِثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرينَ ديارَكم، تسكنونها مدةَ عمركم، ثم تتركونها لغيركم، اهـ. ويقال: أعمرتُه الأرضَ، واستعمرته إياها، إذَا فوضت إليه عِمَارَتَها. ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: مُوقِعٌ في الريب، اسم فاعل من أَرَابَ المتعدي بمعنى أوقعه في الريب، أو مِن أَرَابَ اللازم بمعنى صارَ ذَا ريب وشك، وذو الريب وصاحبه من قام به، لا نفس الشك، فالإسناد مجازي للمبالغة كجد جده. والرَّيْبُ: الظن والشك، يقال: رابني الشيءُ يَريبني، إذا جَعَلَك شاكاً. ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ الآية المعجزة الدالة على صدق نبوته. ﴿ذروها﴾ اتركوها وخلوها وشأنَها. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يقال: عَقرَ الناقة بالسيف، إذا قطع قَوائِمَها به أو نَحرَها. ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ﴾ التمتع: التلذذ بالمنافع والدار البلد كما يقال: ديار بكر؛ أي: بلادهم. ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ أي: غير مكذوب فيه؛ لأن المكذوبَ وصف الإنسان لا الوعد؛ لأنه يقال: كَذَبَ زيد عمراً في مقالته، فزيد كاذب، وعمرو مكذوب، والمقالةُ مكذوب فيها. فالكلامُ على الحَذْفِ والإيصال، فلمَّا حذف الجار صار المجرورُ مفعولاً على التوسع، فأقيم مقام الفاعل، اهـ «شهاب». وفي «السمين»: قولُه: ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ يجوز أن يكونَ مَصدراً على وزن مفعول، وقد جاء منه ألفاظ: نَحْوُ: المجلود، والمعقول، والمنشور، والمغبون، والمفتون، ويجوز أن يكونَ اسمَ مفعول على بابه، وفيه تأويلان:

أحدهما: غير مكذوب فيه، ثُمَّ حذف حرف الجر، فاتصل الضمير مرفوعاً مستتراً في الصفة، ومثله يوم مشهود.

والثاني: أنه جَعَلَ هو نفسَه غير مكذوب؛ لأنه قد وَفَى به، وإذا وَفى به.. فقد صَدَقَ، اهـ. والوعد خبر موقوت كأنَّ الواعدَ قال للموعود: إنّني أفِي به في وقته، فإنْ وفى.. فقد صَدَقَ، ولم يكذبه. ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وأصلُ الأخذ: التناولُ باليد، ثم استعمل في الأشياء المعنوية، كأخذ الميثاق، والعهد، وفي الإهلاك، وحُذفت تاء التأنيث من الفعل إما لكون المؤنث مجازياً، أو للفصل بالمفعول، أو لأن الصيحةَ بمعنى الصياح، والصيحةُ فعلة تَدُلُّ على المرة

من الصياح، وهو الصوت الشديد. يقال: صاح يصيح صياحاً؛ أي: صوَّت بقوة، اهـ «سمين». ﴿جَاثِمِينَ﴾؛ أي: ساقطينَ على وجوههم مصعوقينَ لم يَنْجُ منهم أحدٌ، وجثومهم سُقُوطُهم على وجوههم، أو الجُثُوم: السكونُ: يقال للطير: إذا باتت في أوكارها.. جَثَمَتْ، ثم إن العرَبَ أطلقوا هذا اللفظَ على مَا لا يتحرك من الموت. قال في «بحر العلوم» يقال: الناسُ جثم أي قعود لا حرَاكَ بهم. وفي «المصباح»: جثم الطائر، والأرنب يجثُمُ من بابي دَخل، وجلس جُثُوماً، وهو كالبروك من البعير، والفاعل جَاثِم وجثام مبالغة، اهـ. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ يقال: غنيت بالمكان إذا أتيتَه وأقمتَ فيه. وفي «المختار»: وغَنِي بالمكان إذا أَقَام به، وبابه صَدِيَ، اهـ. والمَعنى: المنزلُ، والمقام الذي يقيم فيه الحي، يقال: غني الرجلُ بمكان كذا؛ أي: أقام به، وغَنيَ أي عاش.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجازُ المرسل في قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾؛ لأنَّ المرادَ بالسماءِ المطر، فهو من إطلاق المحل، وإرادة الحال؛ لأنَّ المطر ينزل من السماء.

ومنها: المبالغة في ﴿مِّدْرَارًا﴾ لأن مفعالَ من صيغ المبالغة؛ ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ﴾.

ومنها: التعجيز في قوله: ﴿فَكِيدُونِي﴾ لأنَّ المرادَ من هذا الأمر التعجيز.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾؛ لأنَّ الأخذَ بالناصية عبارة عن الغلبة والقهر، أو فيه استعارة تمثيليَّة، شبَّهَ الخلقَ، وهم في قبضة الله، وملكه وتحت قهره وسلطانه، بالمالك الذي يقودَ المقدورَ عليه بناصيته، كما يقاد الأسيرُ والفرس بناصيته.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ لأنه عبارة عن كمال العدل في ملكه تعالى، فهو مطلع على أمور العباد، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ لأن الأمرَ كناية عن العذاب.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لبيان أنَّ الأمرَ شديد عظيم، لا سهلٌ يسيرٌ.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾؛ أي: عصَوا رَسولَهم هوداً من باب إطلاق الكل وإرادة البعض، وفيه: تفظيع لحالهم، وبيان أنَّ عصيانَهم له، عصيانٌ لجميع الرسل، السابقين، واللاحقين.

ومنها: المبالغة في التهويل والتفظيع في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا﴾، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ لأنَّ في تكرير حرف التنبيه، وتكرير لفظ عاد من المبالغة في التهويل من حالهم ما لا يخفى.

ومنها: القصر في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾؛ أي: هو سبحانه لا غيره أنشأكم وخلَقَكم؛ لأنه فاعل معنوي، وتقديمه يدل على القصر ذكره في «روح البيان».

ومنها: الإسناد المجازي في قوله﴿لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فإسناد الريب إلى الشك مجاز، لأن الموقع في الريب بمعنى القلق والاضطراب، هو الله سبحانه وتعالى لا الشك، ولكن أسنده إليه للمبالغة كجد جده.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من يمنعني، ويحفظني من عذاب الله؛ لأن النصرةَ هنا مستعملة في لازم معناها، وهو المنع والحفظ.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ كبيت الله بمعنى أنها لا اختصاصَ لأحد بها.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ترع نباتَها وتشرب

ماءَها فهو من قَبيل الاكتفاء، نحو: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾.

ومنها: المجاز المرسل، في قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ لأنَّ العاقرَ واحد منهم، وهو قدار بن سالف، فأطْلَقَ ما للبعض على الكل، لرضاهم بفعله، وأمرهم له.

ومنها: حكاية الحال الماضيةِ استحضاراً لها في قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ أي: ما عَبَد آباؤنا.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار، في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ لزيادة البيان.

ومنها: تكرار حرف التنبيه، ولفظ ثمود مبالغةً في التهويل مِنْ حالهم.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾.

ومنها: الطباقُ بين ﴿نَجَّيْنَا﴾ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لأن معنى أَخَذَ أهلك.

ومنها: الزيادة، والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ...﴾ الآيات، واعلم أنَّ ترتيب[1] قصص هذه السورة كترتيب قصص الأعراف، وإنما أدرج شيئاً من أخبار

---

(١) البحر المحيط.

إبراهيم عليه السلام بين قصة صالح ولوط؛ لأن له مَدْخَلاً في قصة لوط، وكان إبراهيمُ ابنَ خالةِ لوط.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذَكَرَ بَعضَ ما جرى بين إبراهيم والملائكة، وَصَل به بعضاً آخر كالتتمة له.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن ما يدل على أن لوطاً كان قلقاً على أضيافه مما يوجب الفضيحة لهم، وذلك قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ذَكَرَ هنا أنَّ الرُّسلَ بشروه بأن قومَه لن يصلوا إلى ما هموا به، وأنَّ اللَّهَ تعالى مهلِكُهُم ومنجيه مع أهله من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآية، تقدم ذكر قصة شعيب في سورة الأعراف، وذكرت هنا مرة أخرى، وقد جاء في كل منهما من العظات والأحكام والحكم ما ليس في الآخر، مع الإحكام في السبك، وحسن الرصف، والسلامة من التعارض والاختلاف والتفاوت.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد جاءت رسلُنَا من الملائكة جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، على ما قاله ابن عباس وعطاء في صورة الغلمان، الذين يكونون في غاية الحُسنِ والبهاءِ والجمالِ، إلى إبراهيم عليه السلام حالةَ كونهِم متلبسينَ بالبشارة له بالولد من سارةَ بدليل ذكره في سورة أخرى، ولأنه أطلق البشرَى هنا، وقيَّد في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ والمطلق محمول على المقيد، وهذا شروع[2] في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، لكنها مذكورة هنا توطئةً لقصة لوط لا استقلالاً، ولذا لم يذكرهما على أسلوب ما قبلها وما بعدها، فلم يقل وأَرْسَلنا إبراهيمَ إلى كذا كما قال ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾، ﴿وَإِلَىٰ

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.

﴿ثَمُودَ﴾، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ مثلاً وعاش إبراهيم من العمر مئة وخمساً وسبعينَ سنةً، وبينه وبين نوح ألفاً وست مئة وأربعون سنة. وابنه إسحاق عاش مئةً وثمانين سنةً. ويعقوب بن إسحاق عاش مئةَ وخمساً وأربعين سنةً.

و﴿رُسُلُنَآ﴾ يقرأ بسكون السين وضمها حيثما وقع مضافاً للضمير بخلاف ما إذا أضيف إلى مظهر، فليس فيه إلا ضمها، والرسل: هم الملائكة كما مر، واختلفوا في عددهم. فقال ابن عباس، وعطاء، كانوا: ثلاثةً جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ. وقال الضحاك: كانوا تسعةً. وقال مقاتل: كانُوا اثني عشر مَلَكاً. وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريلُ، ومعه سبعة أملاك. وقال السدي: كانوا أحَدَ عَشَرَ مَلَكاً على صور الغلمان الحسان الوجوه.

وقول ابن عباس هو الأولى؛ لأن أقلَّ الجمع ثلاثةٌ. وقوله: ﴿رُسُلُنَآ﴾ جمع فيحمل على الأقل، وما بعده غير مقطوع به، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف من الوحي، ولم يثبت شيء منه في عددهم. والبشرى هي: البشارة بإسحاقَ ويعقوبَ. وقيل: بإهلاك قوم لوط وإنجائه. والأول أظهر. وقوله: ﴿قَالُواْ﴾ استئناف بياني؛ أي: قالت الرسلُ لإبراهيم. ﴿سَلَـٰمًا﴾؛ أي: سلمنا عليك سلاماً أو نسلم عليك سلاماً، هذه تحيتهم التي وَقَعَتْ منهم، وهي لفظ سلاماً، وهو مصدر معمول لفعل محذوف وجوباً؛ أي: سلمنا سلاماً ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليكم ﴿سَلَـٰمٌ﴾ هذه تحيته الواقعةُ منه جواباً، وهي لفظ سلام، وهو مبتدأ خبره محذوف كما قَدَّرنا، فقد حيَّاهم بالجملة الاسمية في جواب تحيتهم بالفعلية، ومن المعلوم أنَّ الاسمية أبلغُ من الفعلية؛ لأن الجملةَ الاسمية دالة على الثبات والاستمرار، والفعليةَ دالة على التجدد والحدوث، فكانَتْ تحيتُه أحسنَ من تحيتهم كما قال: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾.

وفي «السمين»: ﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ في نصبه وجهان:

أحدهما: أنه مفعول به، ثمَّ هو محتمل لأمرين:

١ ـ أن يُرادَ: قالوا هذا اللفظَ بعينه، وجاز ذلك؛ لأنه يتضمن معنى الكلام.

٢ ـ أنه أرادَ قالوا معنى هذا، وقد تقدم ذلك في نحو قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾.

وثاني الوجهين: أن يكونَ منصوباً على المصدر بفعل محذوف، وذلك الفعل في محل نصبٍ بالقول، تقديره: قالوا: سلمنا سلاماً، وهو من بابٍ: ما نابَ فيه المصدر عن العامل فيه، وهو واجبُ الإضمار، وقوله: ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ في رفعه وجهان:

١ ـ أنه مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: سلام عليكم.

٢ ـ أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: أمري، أو قولي سلام، وقد تَقَدَّم أول هذا الموضوع، أن الرفعَ أدل على الثبوت من النصب، والجملةُ بأسرها، وإن كان أحدُ جزأيها محذوفاً في محل نصب بالقول. وقرأ الأخوان حَمزةُ والكسائيّ: ﴿قال سلم﴾ هنا، وفي سورة الذاريات: بكسر السين، وسكون اللام، ويلزم بالضرورة سقوطُ الألف. فقيل: هما لغتان كحِرْم، وحرام، وحِلٍ وحَلاَل. وقيل: السِّلْمُ، بالكسر، ضدُّ الحرب، وناسبَ ذلك، لأنه نكرهم فكأنه قال: أنَّا مُسَالِمكم غيرُ محارب لكم، اهـ.

ولفظةُ (ما) في قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ نافية، و﴿لبث﴾ فعل ماض بمعنى أَبْطأَ، وجملة: ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فاعله؛ أي: فما أبطأ[1] وتأخَّر عنهم مجيء إبراهيم بعجل حنيذ؛ أي: بولد بقر مشويّ بحجارة محماة في حفرة من الأرض من غير أن تمسه النار، فوضَعَه بين أيديهم، وكان مِنْ فعلِ أهل البادية، وكان سَميناً يسيل منه الوَدَكُ. قال قتادة: وإنما جاءهم بعجل؛ لأنه كان عامَّة مال إبراهيم البقر، وقيل: مُكَثَ إبراهيم عليه السلام خَمَسَ عشرة ليلةً لم يأته ضيف، فاغتم لذلك، وكان يحب الضيف، ولا يأكل إلا معه، فلما جاءت الملائكة رأى أَضيافاً لم يرَ مِثْلُهم قطُّ فَعَجَّلَ قراهم، فجاءهم بعجل سمينٍ مشويٍّ.

وقال أكثر النحويينَ[2]: (أنْ) هنا بمعنى حتى. والمعنى: فما لَبِث إبراهيم

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

حَتّى جاءَ بعجل حنيذ، وقيل: إنها في محل نصب بسقوط حرف الجر، والتقدير: فما لبث إبراهيم عن أن جاء؛ أي: فما أَبْطَأَ إبراهيم عن مجيئه بعجل حنيذ. و (ما) نافية قاله سيبويه. وقال الفراء: فما لبث مجيئه؛ أي: ما أبطأ وتأخر مجيئه بعجل حنيذ. وقيل: إن (ما) موصولة، وهي مبتدأ، والخبر أَنْ جاءَ بعجل حنيذ، والتقدير: فالذي لَبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيذ؛ أي: قدر زمان مجيئه به. والحنيذ: المشويُّ مُطْلقاً. وقيل: المشوي بحَرِّ الحجارة من غير أن تَمَسَّه النار، يقال: حَنِذَ الشاةَ يحنذها جعلها فَوْقَ حجارة محماةٍ لتنضجها فهي حنيذ. وقيل: معنى (حنيذ): سمين. وقيل: الحَنِيذُ: السَّمِيطُ. وقيل: النَّضيجُ، وهو فعيل بمعنى مفعول كما سيأتي في مباحث الصرف.

وقد[1] اهتدى البشر إلى شَيِّ اللحم مِنْ صيدٍ وغيره على الحجارة المُحَمَّاة بِحَرِّ الشمس قديماً قبل الاهتداء إلى إنضَاجِه بالنار. وجاء في سورة الذاريات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾. وفي هذا دليل على أنه كان مَشْوِيّاً مُعَدّاً لِمَنْ يجيء من الضُّيوف، وربما كان قد شَوِيَ عند وصولهم بلا إبْطاءٍ.

فلما قرب إليهم، ووضع بين أيديهم كفوا عنه ﴿فَلَمَّا رَءَآ﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: أيدي الرسل ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: لا تمتد إلى الطعام الذي قَدَّم إليهم ﴿نَكِرَهُمْ﴾؛ أي: أنكر إبراهيم ذلك منهم، ووجده على غير ما يعهد من الضيوف، ولم يعرف سبب عدم تناولهم منه، وامتناعهم عنه، فالعادة قد جرت أنَّ الضيفَ إذا لم يطعم مما قدم إليه.. ظنَّ أنه لم يَجِيء بخير، وأنه يُحَدِّثُ نَفْسُه بشرٍّ، ﴿وَأَوْجَسَ﴾ إبراهيم؛ أي: أحس وأدرك إبراهيم ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من جهتهم ﴿خِيفَةً﴾؛ أي: خوفاً في نفسه؛ أي: أحسَّ وعلم في نفسه فزعاً وخوفاً منهم حين شعر أنهم ليسوا بشراً، ووقع في نفسه أنهم ملائكة، وأنَّ نزولَهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه.

والوجس رعب القلب[2]، وإنما خاف إبراهيمُ عليه السلام منهم؛ لأنه كان

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

ينزل ناحيةً من الناس، فخاف أن ينزلوا به مكروهاً لامتناعهم من طعامه، ولم يعرف أنهم ملائكة. وقيل: إن إبراهيمَ عرف أنهم ملائكة، وإنما خَافَ أَنْ يكونوا نزلوا بعذاب قومه، فخاف من ذلك. والأقرب: أَنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكةً في أول الأمر، ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدمَ إليهم الطعام، ولو عرف أنهم ملائكة لما قدمه إليهم، لعلمه أن الملائكةَ لا يأكلونَ ولا يشربون، ولأنه خافهم، ولو عرف أنهم ملائكة. . لما خافهم، فلما عرف الملائكة خَوفَ إبراهيم منهم بأمارات تدل عليه كظهور أثره على وجهه، أو بكلام من إبراهيم يدل على خوفه كما قال في سورة الحجر: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾. فلا يقال: الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، فمن أينَ علمت الملائكة إخفاءه للخيفة. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالتَ الملائكة لإبراهيم ﴿لَا تَخَفْ﴾ منَّا يا إبراهيم فنحن لا نريد بك سوءاً ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالعذاب؛ أي: وإنما نحنُ ملائكة الله أرسلنا إلى قوم لوط خاصة لإهلاكهم، وكانت دِيارهم قريبةً من دياره، وما أرسلنا إلى قومك، فكُنْ طيبَ النفس، وكان لوط أخا سارة، أو ابنَ أخي إبراهيم عليهما السلام، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنت هاران بن ناخور، وهي ابنة عمه ﴿قَآئِمَةٌ﴾ وراءَ الستر بحيث تسمع محاوراتهم، أو على رؤوسهم للخدمة، وكانت نساؤهم لا تحتجب كعادة الأعراب، ونازلة البوادي والصحراء، ولم يكن التبرج مكروهاً، وكانت عجوزاً، وخدمة الضيفان مما يعدُّ من مكارم الأخلاق.

وجاء في شريعتنا مثل هذا في حديث أبي أسيد الساعدي، وكانت امرأته عروساً فكانت خَادِمَة الرسول ﷺ، ومن حضر معه من أصحابه. والجملة الاسمية حال من ضمير قالوا: أي: قالوا لإبراهيم لا تخف في حال قيام امرأته. ﴿فَضَحِكَتْ﴾ امرأة إبراهيم سروراً بالأمن من الخوف، أو لقرب عذاب قوم لوط لكراهتها لسيرتهم الخبيثة. قال الجمهور: هو الضحك المعروف، فقيل: هو مجاز معبر به عن طلاقة الوجه، وسرورها بنجاة أخيها وهلاك قومه. وقال مجاهد، وعكرمة، فضحكت حَاضَتْ عند فرحها بالسلامة من الخوف، فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد. قال الزمخشري[1]: وفي مصحف عبد الله:

---

(١) البحر المحيط.

﴿وامرأته قائمة وهو قاعد﴾. وقال ابن عطية: وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وهي قائمة وهو جالس﴾ ولم يتقدم ذِكرُ امرأة إبراهيم، فيُضْمَرُ لكنه يفسره سياق الكلام. وقرأ محمد بن زياد الأعرابي، رجل من قراء مكة ﴿فضحكت﴾ بفتح الحاء. قال المهدوي، وفتح الحاء غير معروف. ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾؛ أي: فعقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا، وإسحاق بالعبرانية الضحاك، وولد إسحاق بعد البشارة بسنة، وكانت ولادته بعد إسماعيل بأربع عشرةَ سنةً. ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾؛ أي: ووهبنا لها من بعد إسحاق ﴿يَعْقُوبَ﴾ ولدَ إسحاق، فهو من عطف جملة على جملة، ولا يكون يعقوب على هذا مبشَّراً به، وبشِّرَت من بين أولاد إسحاق بيعقوب؛ لأنها رأَتْهُ، ولم ترَ غيْرَه، وهذه البشارة لسارة كانت وهي بنت تسعٍ وتسعينَ سنةً، وإبراهيم ابن مئة سنة.

واعلم: أنه لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر، تمَنَّتْ سَارةُ أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنها، فبُشِّرَت بولد يكون نبياً، ويلد نبياً، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولدَ ولدها، وإنما بشروها دونَه؛ لأن المرأَة أعجل فرحاً بالولد، ولأن إبراهيمَ بشروه، وأمنوه من خوفه، فأتبعوا بشارَتَه ببشارتها. وقال في «التبيان»[1]: أي بشروها بأنها تلد إسحاق، وأنها تعيش إلى أن ترى وَلَد الولد، وهو يعقوب ابن إسحاق. والاسمان[2] يحتمل وقوعهما في البشارة، كيحيى حيث سمي به في البشارة قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾. ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن ولدا فسميا بإسحاق ويعقوب، وتوجيه البشارة إليها لا إليه، مع أنه الأصلُ في ذلك للدلالة على أنَّ الولدَ المبشرَ به يكون منها، ولأنها كانت عَقِيمَةً حريصةً على الولد، وكان لإبراهيم ولدُه إسماعيل من هاجر، ولأنَّ المرأةَ أشدُّ فرحاً بالولد.

وقال ابن عباس ووهب: فضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها، وسن زوجها، وعلى هذا تكون الآية من التقديم والتأخير، تقديره: وامرأته قائمةٌ فبشرناها بإسحاق، ومِن وراءِ إسحاقَ يعقوب، فضحكت كما في «بحر

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

العلوم» وتفسير أبي الليث. قال ابن عطية: أضاف فعلَ الملائِكَةِ إلى ضمير اسم الله تعالى في قوله﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ إذ كَانَ ذلك بأمره ووحيه، وقد وَقَعَ التبشير هنا لها، ووقع لإبراهيم في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة لكونه منهما. وقرأ[1] الحرميان نافع، وابن كثير، والنحويان أبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر ﴿يعقوبُ﴾ بالرفع على الابتداء ﴿وَمِن وَرَآءِ﴾ الخبر كأنه قيل، ومن وراء إسحاق يعقوب كائن. وقدره الزمخشري مولودٌ أو موجودٌ. قال النحاس: والجملة داخلة في البشارة، أي: فبشرناها بإسحاق متصلاً به يعقوب. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص، وزيد بن علي ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب. قال الزمخشري، كأنه قيل: ووهبنا لها إسحاقَ، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوب، يعني أنه عطف على التوهم، والعطف على التوهم لا ينقاس، والأظهر أن يَنْتَصِبَ ﴿يَعْقُوبَ﴾ بإضمار فعل، تقديره: ومن وراء إسحاقَ وهبنَا لَهَا يعقوب، ودلَّ عليه قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ لأن البشارة بمعنى الهبة، ورجح هذا الوجه أبو علي، ومن ذهب إلى أنه مجرور معطوف على لفظ بـ ﴿إِسْحَٰقَ﴾ أو على موضعه فقوله: ضعيف؛ لأنه لا يجوز الفصل بالظرف، أو المجرور بين حرف العطف، ومعطوفه المجرور، فلا يجوز مررت بزيد اليومَ وأمس عمرو.

وقوله: ﴿قَالَتْ﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قالت إذ بشِّرت بذلك، فقيل: قالت سارة لما بشرت بإسحاق ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وقرأ الحسن: ﴿ياويلتي﴾ بالياء، وهي كلمة تقال عند التعجب؛ أي: يا عجباً. وأصله[2]: ﴿يا ويلتي﴾ بالياء فأبدل من الياء الألف، ومن كسرة التاء الفتحة، لأنَّ الألفَ مع الفتحة أخفُّ من الياءَ مع الكسرة، وأصل هذه الكلمة في الشر؛ لأنَّ الشَّخْصَ ينادي ويلته، وهي هلكته يقول لها تعالي واحضري فهذا أوان حضورك، ثمَّ أطلق في كل أمر عجب، كقولك: يا سبحانَ الله، وهو المراد هنا. قال سعدي المفتِي أصل الدعاء بالويل ونحوه في التفجع لشدة مكروه يدهم النفسَ، ثم استعمل في عَجَب يدهم النَّفسَ، والاستفهام في قوله: ﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهام تعجب، أي: قالت سارة لما بشرت بإسحاق، يا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح المعاني.

ويلتا، ويا عجباً احضري إلـيَّ لأتعجب منك، فهذا أوان التعجب منك كيف أَلِدُ وَلداً ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾؛ أي: والحال أني عجوز قد بلغت السن التي لا يلد مَنْ كان قد بَلغها من الرجال والنساءِ، بلغت تسعينَ سنةً أو تسعاً وتسعينَ سنةً لم ألد قط، ومثلي لا يلد، بل الغالب أن ينقطع حيضُ المرأة في سن الخمسين، فيبطل استعدادها للحمل، والولادة، على أنها كانت عقيماً ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي﴾؛ أي: والحال أن هذا الرجلَ الذي تشاهدونه بعلي أو زوجي حالة كونه ﴿شَيۡخًاۖ﴾ كبيراً لا يولد لمثله ابن مئة سنة، أو مئة وعشرين سنةً. وأصل معنى البعل: هو المستعلي على غيره، ولما كان زوج المرأة مستعلياً عليها قائماً بأمرها سَمِيَّ بعلاً، اهـ «خازنٍ».
﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ الذي بشرتمونا به ﴿لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ مخالف لسنن الله تعالى التي سلكها في عباده، وقرأ ابن مسعود وهو في مصحفه والأعمش[1]: ﴿شيخ﴾ بالرفع، وجوَّزوا فيه، وفي ﴿بعلي﴾ أن يكونا خبرين كقولهم هذا حلو حامض، وأن يكونَ بعلي الخبر، وشيخ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من بعلي، وأن يكون بعلي بدلاً، أو عطف بيان وشيخ الخبر.

والإشارة بهذا إلى الولادة، أو البشارة بها تعجبتْ من حدوث ولد بين شيخين هرمين، واستغربت ذلك من حيث العادة، لا إنكاراً لقدرة الله تعالى. ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾؛ أي[2]: حصولَ الولد من هرمين مثلنا، ﴿لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ بالنسبة إلى سنة الله المسلوكة فيما بين عباده، ومقصدها استعظام نعمة الله عليها في ضمن الاستعجاب العاديّ، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرة الله تعالى؛ لأن التعجبَ من قدرة الله يوجب الكفرَ، لكونه مستلزماً للجهل بقدرة الله تعالى.

وقدَّمَتْ بيانَ حالها على بيان حال بعلها؛ لأن مُباينة حَالها لِمَا ذُكر من الولادة أكثر، إذ رُبَّما يُولد للشيوخ من الشَّواب، ولا يولد للعجائز من الشبان.

والاستفهام في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ للإنكار لعَجَبِهَا؛ أي: قالت الملائكة لسارة منكرينَ عليها لعجبها، أتعجبين يا سارة من أمر الله وشأنه،

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

وقدرته على إيجاد الولد من كَبيرَيْن. قال سعدي المفتي: أخذ جبريل عوداً من الأرض يابساً، فدلكه بين أصبعيه، فإذا هي شجرة تهتزُّ، فعرفت أنه من الله تعالى؛ أي: قالوا لها: لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء يَصْدُر عن أمر الله الذي لا يُعجزه شيءٌ كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ والله الخالق للسنن، والواضع لنظام الأسبابِ، هو الذي أرادَ أنْ يستثنيَ منها واقعةً بعينها، يجعلُها من آياته لحكمة من حِكَمِه أرادها لبعض عباده.

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾ التي وسعت كلَّ شيء، واستبقت كلَّ خير ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾؛ أي: خيراته النامية المتكاثرة في كل باب، التي من جملتها هبة الأولاد حالتان ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لازمتان لكم لا تفارقكم. وحكى سيبويه ﴿عليكِم﴾ بكسر الكاف، لمجاورة الياء كما في «القرطبي». يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: يا أهلَ بيت النبوة، ويراد بالبيت، بيت السكنى كما ذكره أبو حيان. أرادوا أنَّ هذه، وأمثالَها مما يكرمكم به ربّ العزة، ويخصكم بالإنعام يا أهل بيت النبوة، فليست بمكان عَجَبٍ.

والمعنى: رحمة[١] الله الواسعةُ لكل شيء، وخيراته الفائضة منه بواسِطَة تلكَ الرحمة، لازمة لكم لا تفارقكم يا أهلَ بيت إبراهيم، فإذا رأيتم أنَّ الله خَرَق العاداتِ في تخصيصكم بهذه الكرامات العالية، فكيفَ يليق به التعجبُ، وما تلك بأُولَى آية لإبراهيم، فقد نجَّاه الله من نار قومه الظالمين، وآواه إلى الأرض التي بَارَكَ فيها للعالمين، وهذه الجملة مستأنفة. فقيل: خبر، وهو الأظهر. وقيل: دعاء. وقيل: الرحمة: النبوة، والبركات: الأسباط من بني إسرائيل؛ لأنَّ الأنبياء منهم، وكُلُّهم من ولد إبراهيم عليه السلام. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿حَمِيدٌ﴾ الفعال؛ أي: فاعل ما يستوجب به الحمدَ من عباده، لا سيما في حقها، ﴿مَّجِيدٌ﴾ الذات أو كثيرُ الخير والإحسان إلى عباده، خصوصاً، في أنْ جَعَلَ بيتَها مهبطَ البركات. ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ وزال ﴿عَنْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿ٱلرَّوْعُ﴾؛ أي: الخوف والفزَعُ الذي أصابه لمَّا لم يأكلوا من العجل، واطمأنَّ قلبه بعرفانه

---

(١) المراح.

بحقيقتِهم المَلَكِيّةِ، وعرفانِ سببِ مجيئهم ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بنجاة قومه كما قال: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أو بالولدِ إسحاقَ كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ وإبراهيم أصل في التبشير، كما قال في سورة أخرى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ أي: أخذ يجادل، ويخاصم رسلَنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط، وجُعِلَتْ مجادلتهم مجادلةَ الله؛ لأنها مجادلة في تنفيذ أمره. وقد صرَّح في سورة العنكبوت بكون هذه المجادَلَةِ مع الرسل حيث قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

وجيءَ بجواب[1] لَمَّا مضارعاً مع أنه ينبغي أن يكون ماضياً لكونها موضوعة للدلالة على وقوع أمر في الماضي لوقوع غيره فيه على سبيل حكاية الحال الماضية، أي جَادَلَ، وخَاصَمَ رسلَنَا في شأن قوم لوط وحقِّهم لرفع العذاب عنهم جدالَ الضعيف مع القويِّ لا جِدَالَ القوي مع الضعيف بل جدالَ المحتاج الفقير مع الكريم الغني، وجدالَ الرحمة والمعاطفة وطلب النجاة للضعفاء، والمساكين الهالكين. وكان لوط ابنَ أخيه، وهو لوط بن هاران بن آزر، وإبراهيم بن آزر، ويقال: ابن عمه، وسارة كانت أختَ لوط. فلما سمعا بهلاك قوم لوط اغتما لأجل لوط، فطفق إبراهيم يجادل الرسلَ حينَ قالوا: إنا مهلكوا أهل هذه القرية، فقال: أرأيتم لو كانَ فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعونَ؟ قالوا: لا، قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسةً قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجلٌ واحد مسلمٌ، أتُهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿لَحَلِيمٌ﴾؛ أي: غير[2] عجول على كل من أساءَ إليه، فلذلك طَلَبَ تأخيرَ العذاب عنهم، رَجَاءَ إقدامهم على الإيمان،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

والتوبة عن المعاصي ﴿أَوَّٰهٞ﴾؛ أي: كثيرُ التضرع إلى الله عند وصول الشدائد إلى الغير ﴿مُّنِيبٞ﴾؛ أي: رجاع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم.

والمعنى: أنه جَادَلَ الملائكةَ في عذاب قوم لوط؛ لأنه كان حليماً لا يعجل بالانتقام من المسيء، كثير التأوه مما يَسُوء الناسَ، ويؤلمهم يَرْجِع إلى الله في كل أموره؛ أي: كَانَ جداله بحلم وتأوه عليهم، فإنَّ الذي لا يتعجل في مكافأة من يؤذيه يتأوه أي: يقول أوه وآه، إذَا شاهدَ وصولَ الشدائد إلى الغير، وأنه مع ذلك راجعٌ إلى الله في جميع أحواله؛ أي: ما كان بعض أحواله مشوباً بعلة راجعةٍ إلى حَظِّ نفسه، بل كان كُله لله، فتبيَّنَ أنَّ رقَّةَ القلب حَمَلَتْهُ على المجادلة فيهم، رَجَاءَ أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلَّهم يحدثون التوبةَ والإنابَةَ، كما حملته على الاستغفار لأَبِيهِ.

وقوله: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ على تقدير القول؛ أي: قالت الملائكة يا إبراهيم ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ الجدال، والمحاورَة في شيء مفروغ منه، والأمر ما قضاه، وحكم به من عذابه الواقع بهم لا مَحالَةَ، ولا مردَّ له بجدال، ولادعاءٍ، ولا غير ذلك ﴿إنه﴾؛ أي: إنَّ الشَّأنَ ﴿قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ وقدره بمقتضَى قضائِه الأزليِّ بعذابهم، وهو أَعْلَمُ بحالهم، والقضاء[1] هو الإرادة الأزلية، والعناية الإلّهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص، والقدرُ تعلق الإرادة بالأشياء في أوقاتها ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾؛ أي: وإنَّ قوم لوط ﴿ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾؛ أي: غير مصروف عنهم، ولا مدفوع بجدال، ولا دعاءٍ، ولا غيرهما، وإنك مأجور مثاب فيما جادلتَنَا لنجاتهم، وهذا كما كان النبي ﷺ، يقول: «اشفعوا تؤجَروا، وليقضينَّ اللَّهُ على لسان رسوله ما شاء».

والمعنى[2]: يا إبراهيم أعرض عن الجدال في أمر قوم لوط، والاسترحام لهم، إنه قد نَفَذَ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

لا يردُّ عن القوم المجرمينَ وإنهم آتيهم عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده بِجَدَلٍ ولا شفاعة، ولا بغيرهما. وقرأ عمرو بن هرم[1]: (وإنهم أتاهم) بلفظ الماضي، وعذاب فاعل به عبر بالماضي عن المضارع لتحقق وقوعه كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

والظاهر: أنَّ إتيان العذاب الغير المردود لإصرارهم على الكفر، والتكذيب بعد استبانة الحق، واللواطةُ من جملة أسباب الإتيان كالعَقْرِ لناقةِ الله بالنسبةِ إلى قوم صالح.

رُوي: أنَّ الرسلَ الذين بَشَّروا إبراهيمَ ذهبوا بعد هذه المجادلة من عنده، وانطلقوا إلى قرية لوط سدوم، وما بين القريتَين أربع فراسخ، فانتهوا إليها نصفَ النهار، فإذا هم بِجَوَارٍ يَسْتَقِيْنَ من الماء، فأبصَرَتْهُم ابنةُ لوط، وهي تستقي الماء، فقالت لهم: ما شأنكم؟ وأين تريدون؟ قالوا: أَقْبَلْنَا مِنْ مكان كذا، ونريد كذا، فأخبرتهم عن حال أهل المدينة، وخبثِهم، فأظهروا الغَمَّ مِنْ أنفسهم، فقالوا: هل أحد يضيفنا في هذه القرية؟ قالت: ليس فيها أحد يضيفكم إلا ذاك الشيخ، فأشارتِ إلى أبيها لوط، وهو قائم على بابه فأتَوا إليه. فلمَّا رآهم، وهيئتهم ساءه ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾؛ أي: ولما جاءت ملائكتُنا لوطاً ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾؛ أي: حَزِنَ بسببهم؛ أي: سَاءَهُ مجيؤهم، وهو فعل مبني للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير لوط من قولك: ساءني كذا؛ أي: حصل لي منه سوء وحزن، وغم وبهم متعلق به؛ أي: بسببهم. والمعنى: ساءَهُ وأَحْزَنَه مجيئهم. ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾؛ أي: ضاق صدره بمجيئهم وكونهم عنده، وضيق الصدر كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه.

والمعنى: ساءه مجيؤهم، وضَاقَ بهم صَدْرُه، لا لأنهم جاؤوا مسافرين، وهو لا يُحِبُّ الضيفَ، فحاشا بيت النبوة عن ذلك، بل لأنهم جاؤوا في صورة غلمان حِسان الوجوه، فحَسِبَ أنهم أناس، فَخَافَ عليهم أن يَقْصِدَهُم قومُه، فيعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم.

---

(١) البحر المحيط.

وفيه إشارة إلى عروض الهم والحزن له، لهلاك قومه بالعذاب، فَانْظُر إلى التفاوت بين إبراهيم، ولوط، وبين قومهما حيث كان مجيؤهم لإبراهيم للمسرة، وللوط للمساءة، مع تقديم المسرة، لأنَّ رحمةَ الله سابقة على غضبه. وروي أنَّ الله تعالى قال لهم: لا تهلكوهم حتى يشهدَ عليهم لوط أربعَ شهادات، فلما أَتَوْا إليه، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية، قالوا: وما أمرها؟ قال: أشهدُ بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا منزلَه، ولم يعلم بذلك أحَدٌ. ﴿وَقَالَ﴾ لوط ﴿هَٰذَآ﴾ اليوم ﴿يَوۡمٌ عَصِيبٌ﴾؛ أي: شديد علـيّ، وهو لغة جرهم كما في «ربيع الأبرار»؛ أي: هذا يوم شديد شَرُّه عظيم بلاؤه. ثُم قال لوط لامرأته: ويحك قومِي فاخبِزِي للضيف، ولا تعلِمي أحداً. وكانت امرأته كَافِرَةً منافِقَةً، فانطلقَتْ لطلب بعض حَاجَتِها، فجَعَلَت لا تدخل على أحد إلا أخبرَتْه، وقالت: إنَّ في بيت لوط رجالاً ما رأيت أحسنَ وُجوهاً منهم، ولا أنظَفَ ثياباً، ولا أطيبَ رائحةً. فلمَّا علموا بذلك جاؤوا إلى باب لوط، مُسْرِعين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ﴾؛ أي: وجاءَ لوطاً، وهو في بيته مع أضيافه ﴿قَوۡمُهُۥ﴾، والحال أنهم ﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: يُساقون إليه، ويسرعون إليه، ويَسُوقُ بعضهم بعضاً، كأنما يُدْفَعون دفعاً طلباً للفاحشة من أضيافه، غافلينَ عن حالهم جاهلينَ بمآلهم. والإهراع: الإسراع يقال: أَهْرَعَ القَوْمُ، وهَرَعُوا. وقرأ الجمهور: ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ مبنياً للمفعول مِن أُهْرِعَ، أي: يُهْرِعُهم الطَّمعُ وقرأت فرقة: (يهرعون) بفتح الياء من هرع الثلاثي. وجملة قوله: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ حال أيضاً من ﴿قومه﴾؛ أي: جاؤوا مسرعين، والحال أنهم كانوا من قبل هذا الوقت، وهو وقت مجيئهم إلى لوط منهمكين في عمل الفواحش واللواطِ، فتمرَّنوا بها؛ أي: تَعَوَّدوا، واستمروا عليها حتى لم تُعَبْ عندهم قباحتها، ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرِعينَ مجاهرينَ. وقيل: ومن قبل لوط كانوا يعملونَ السيئات.

وفي «التأويلات النجمية» كانوا يعملون السيئات الموجبةَ للهلاك والعذابِ فجاؤوا مسرعينَ مستقبلي العذابِ، وطلبوا من بيت النبوة من أهل الطهارة معاملةَ ساءتهم بخيانة نفوسهم، ليستحقوا بذلك كمالَ الشقاوة، وسرعةَ العذاب، انتهى.

ودلَّ ما ذكر على أنَّ جِهارَ الفسق فوقَ إخفائِه، ولذا رد شهادة الفاسق المعلن. وفي الحديث: «كل أمتي معافى إلا المجاهرون»، أي: لكن المجاهرون بالمعاصي لا يعافَون، بل يؤخذون في الدنيا إن كانت مما يتعلَّق بالحدود، وأما في الآخرة فمطلقاً.

فلما جاؤوا إلى لوط، وقصدوا أضيافَهُ لذلك العمل، قام إليهم لوط مدافعاً و ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ خبره ﴿بَنَاتِي﴾ الصلبية، فتزوجوهن[1]، وكانوا يطلبونهن من قبلُ، ولا يجيبهم لخبثهم، وعدم كفاءتهم، لا لعدم مشروعيته، فإنَّ تزويجَ المسلمات من الكفار كان جائزاً في شريعته، وهكذا كان في أول الإسلام بدليل أنه ﷺ زوج ابنتيه من أبي العاص بن وائل، وعتبة بن أبي لهب، قبل الوحي، وهما كافران، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾. وقيل: كان لهم سيدان مُطَاعَان، فأراد أن يُزَوّجَهما ابنتيه، وأيّا ما كَانَ فقد أراد به وقاية ضيفه، وذلك غايةٌ في الكرم. ﴿هُنَّ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾؛ أي: أحسن لكم فتزوجوهن، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي. وقد كان له ثلاث بَنَاتٍ. وقيل: اثنتان. وقيل: أراد بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ النساءُ جملةً، لأنَّ نَبِيَّ القوم أبٌ لهم، كما قال ابن عباس: «ويدخل فيهن نساؤهم المدخول بهن وغيرهن من المعدات للزواج» ومراده أن الاستماع بهن بالزواج أطهر من التلوث برجس اللواط فإنه يَكْبَحُ جماح الشهوة مع الأمن من الفساد. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: أراد نساءَ قومه، وأضافهن إلى نفسه، لأن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة، والتربيةُ، وهذا القول أولى، لأن إقدامَ الإنسان على عَرْضِ بناته على الأوباش، والفجار مستبعد لا يليق بأهل المروءة، فكيف بالأنبياء وأيضاً فبناته لا تكفي الجمع العظيم، أمَّا بنات أمته، ففيهن كفاية للكل، اهـ «كرخي». والتطهر التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة ﴿أَطۡهَرُ﴾ دلالةَ على التفضيل بل هي مثل: «الله أكبر» فلا يدل على أن إتيان الذكور كان طاهراً كما لا يدل قولك النكاح أطهر من الزنى على كون الزنا طاهراً؛ لأنه خبث ليس فيه شيء

---

(١) روح المعاني.

من الطهارة. لكن هؤلاء القوم اعتقدوا ذلك طهارة، فبنى ذلك على زعمهم الفاسد واعتقادهم الباطل. وهو مثل ما قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: «الله أجلّ وأعلى» جواباً لأبي سفيان حيث قال: «أعلُ هُبَل» اعْتَقَد علوَّ صنمه، وذلك اعتقاد فاسد لا شبهةَ فيه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، أو بإيثارهن عليهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾؛ أي: ولا تذلوني، وتجلبوا عليَّ العارَ ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾، والضيف يطلق على الواحد، والاثنين، والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، ومعنى: ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾؛ أي: في حقهم وشأنهم، فإن إخزاءَ ضيف الرجل إخزاؤه، كما أن إكرامَ من يتصل به إكرامُهُ. والمعنى[1]: أي: فاخشوا الله، واحذروا عقابَهُ في إتيانكم الفاحشةَ التي تطلبونها، ولا تذِلوني وتمتهنوني بفضيحتي في ضيفي، فإن إهانة الضيوف إهانة للمضيف، وفضيحة له، والاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ للتوبيخ والتقريع أي أليس منكم ﴿رَجُلٌ﴾ واحد ﴿رَّشِيدٌ﴾؛ أي: ذو رشد، وحكمة يَهْتَدِي إلى الحق، ويَرْعَوِي عن القبيح، وينهى من أراد ركوب الفاحشة مِن ضيوفي، ويرد هؤلاء الأوباشَ عنهم ما يريدون، وفي ذلك توبيخٌ عظيم لهم حيث لم يكن منهم رشيد ألبتةَ يرشدهم إلى ترك هذا العمل القبيح، ويمنعهم منه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿أَطْهَرُ﴾ بالرفع والأحسن في الإعراب أن يكون جملتين كل منهما مبتدأ وخبر، وجوِّز في بناتي أن يكونَ بدلاً، أو عطفَ بيان، وهُنَّ فصل وأطهر الخبر. وقرأ الحسنُ وزيد بن علي، وعيسى بن عمر، وسعيد بن جبير، ومحمد بن مروان السدي: (أطهرَ) بالنصب. وقال سيبويه: هو لَحْنٌ. وقال أبو عمرو بن العلاء: احْتَبَى فيه ابن مروان في لَحْنه، يعني تَرَبَّعَ. ورويت هذه القراءة عن مروان بن الحكم، وخُرّجت هذه القراءة على أن نصبَ (أطهر) على الحال. فقيل: (هؤلاء) مبتدأ، و (بناتي هن) مبتدأ وخبر في موضع خبر (هؤلاء) وروي هذا عن المبرد.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال قوم لوط مجيبينَ عليه معرضينَ عمَّا نَصَحَهم به، وأرشدهم إليه، والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا لوط من قبل ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ أي: علمت[1] من قبل أنه ليس لنا في بناتك من حق؛ أي: من رغبة في تزوجهن، فَتَصْرَفُنا بعرضهن علينا عما نريده، وقد يكون المعنى: لقد علمت الذي لنا في نسائنا اللواتي تسميهن بناتكَ من حق الاستمتاع، وما نحن عليه معهن، فلا ينبغي عَرْضُك إياهن علينا لتصرفنا عَمَّا نريده؛ أي: ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة، لأنَّ من احتاج إلى شيء، فكأنه حصل له فيه نوعُ حق، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم، أنه قد عَلِمَ منهم المكالَبَة على إتيان الذكور، وشدة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حَاجةَ لهم إلى النساء، ويُمكِن أن يريدوا أنه لا حَقَّ لنا في نكاحهن؛ لأنه لا ينكحهن، ولا يتزوج بهن إلا مؤمن، ونحن لا نؤمن أبداً. ومقصودُهم أنَّ نكاح الإناث ليس من عادتنا ومذهبِنا، ولذا قالوا: (علمْتَ) فإنَّ لوطاً كان يعلم ذلك، ولا يعلم عدمَ رغبتهم في بناته بخصوصهن، ويؤيده قوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا لوط ﴿لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾؛ أي: لتعرف حقَّ المعرفة ما نريد من الاستمتاع بالذُّكران، وإننا لا نؤثر عليه شيئاً.

والخلاصة: أنهم أجمعوا أمرهم على فعل ما يريدون، وهو في الحقيقة طلب ما أعد الله لهم في الأزل من قهره، يعني الهلاكَ بالعذاب. ولما يئس من ارعوائهم عَمَّا هم عليه من الغيِّ ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه: حينَ أَبَوا إلا المُضِيَّ لما قد جاؤوا له من طلب الفاحشة، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم. ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: لو ثَبَتَ كون قوة لي بكم، وقدرة عليكم، ومنعة منكم بأنصار ينصرونني، وأعوان يعينونني عليكم ﴿أو﴾ أنني ﴿ءَاوِيَ﴾، وأنضمُّ ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: عشيرة قويَّة؛ أي: أَوَ ثبَتَ لي كون عشيرة قوية تجيرني منكم لحلت بينكم وبين ما جئتم له، تريدونه مني في أضيافي، ولدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم. وجواب لو محذوف كما قدرنا، والأنسب بمثل هذا المقام أن تكون (لو) للتمني. فكأنه قال: لو قَوِيَتْ على دَفْعكم، ومقاومتكم بنفسي، أو

---

(١) المراغي.

التجأت إلى ناصرٍ عزيز قويٍّ أَسْتَنِد إليه، وأتَمَنَّعُ به، فيحميني منكم. شبَّه بِرُكْن الجبل في الشدة والمَنعة. والرُّكْنُ بسكون الكاف، وضمِّها في الأصل: الناحية من الجبل، وغيره، ومرادُه بالركن الشديد العشيرةُ، والأقاربُ، وما يمتنعُ به عنهم هو ومَنْ معه. وقيل: أراد بالقوة الولد، وبالركن الشديد من ينصره من غير ولده. وقيل: أراد بالقوة قوته في نفسه. وكان لوط رجلاً غريباً فيهم ليس له عشيرة وقبيلة يلتجيء إليهم في الأمور الملمة والغريب لا يعينه أحد غالباً في أكثر البلدان، خُصُوصاً في هذا الزمان، لأنه كَانَ أوّلاً بالعراق مع إبراهيم، فلمَّا هاجر إلى الشام، أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، وهي قرية عند حِمْصَ. وفي «الخطيب» في سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾؛ أي: في البلد لا في الدين، ولا في النسب، لأنه ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، وهما من بلاد المشرق من أرض بابل، وقومُ لوط ـ أهلَ سدوم ـ من أرض الشام، وكأنه عبر بالأخوّة لاختياره لمجاورتهم، ومناسبتهم بمصاهرتهم، وإقامته بينهم في مدينتهم مدة مديدةً، وسنينَ عديدةً، وإتيانه بالأولاد من نسائهم. قال أبو هريرة: ما بعث الله نبيّاً بعده إلا في مَنَعةٍ من عشيرته. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لَبِثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجبتُه». متفق عليه. قال النواوي رحمه الله: المرادُ بالركن الشديد، هو الله عز وجل، فإنه أشد الأركان، وأقواها وأمنعها. ومعنى الحديث: أنَّ لوطاً عليه السلام لما خَاف على أضيافه، ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمينَ ضاق ذَرْعُه، واشتدَّ حزنه عليهم، فغَلَب ذلك عليه، فقال في تلك الحال: لو أنَّ لي بكم قوة في الدفع بنفسي، أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم، وقَصَدَ لوط إظهارَ العذرِ عند أضيافه، وأنه لو استطاع. . لَدَفع المكروهَ عنهم. وقرأ شيبة، وأبو جعفر[1]: (أو آوِيَ) بنصب الياءِ بإضمار أنْ بعد أو، فتقدر بالمصدر عطفاً على قوله: ﴿قوة﴾ والتقدير: لو أنَّ لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد.

---

(١) البحر المحيط.

قال ابن عباس وأهل التفسير[1]: أغلَق لوط بابَه، والملائكة معه في الدار، وجَعَلَ يناظر قَوْمَه ويناشدهم من وراء الباب، وقومه يعالجون سُوَر الدار، فلما رأت الملائكة ما لقي لوط بسببهم من الكرب ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قالت الملائكة للوط بعد أَنْ رأوا شديدَ الكرب الذي لحقه بسببهم، وتمنِّيهِ أن يَجِدَ قُوَّةً تدفعهم عن أضيافه ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أرسلنا لإهلاكهم، وتنجيتك من شَرِّهم ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ وإلى من معك بضرر، ولا مكروه، ولن يخزوك فينا، وإنَّ ركنَك شديد، فهَوِّن عليك الأمر، وافتح الباب، ودَعْنا وإياهم. ففتح البابَ فدخلوا، فاستأذن جبريل ربَّه تعالى في عقوبتهم، فأَذِنَ له فتحول إلى صورته التي يكون فيها، ونشر جَنَاحَيْه وعليه وشاح من در منظوم، وهو براق الثَّنَايا أجلى الجبين، ورَأْسُه حبك مثل المرجان، كأنه الثلج بياضاً، وقدَماه إلى الحضرة، فضَرَبَ بجناحيه وجوههم، فطَمَسَ أعيُنَهم، وأعماهم فَصاروا لا يعرفون الطريقَ، ولا يهتدون إلى بيوتهم، وانصرفوا، وهم يقولون: النجاءَ، النَّجاءَ في بيتِ لوط أَسْحَرُ قوم في الأرض، قد سَحَرونا، وجَعَلُوا يقولون يا لوط كما أنت حتى تصبحَ، وسترى ما تلقى مِنَّا غداً، يوعدونه بذلك، ولكنه من الإسرائيليات لا أصلَ لها.

﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾؛ أي: فاخْرُج من هذه القرى أنت مع أهلك، يعني: بنتيه ريْثا وزَعُورا ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: في طائفةٍ وبقيةٍ من الليلِ تكفي لتجاوز حدودها؛ أي: أُخرُجوا ليلاً لتستبقوا نُزولَ العذاب الذي موعده الصبح. وجاء في سورة الذاريات: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾. وفي «القرطبي»: فخرج لوط، وطَوَى الله له الأرض في وَقْتِهِ حتى نجا ووَصَلَ إلى إبراهيمَ، اهـ. وقرأ[2] الحرميان نافع، وابن كثير: ﴿فاسر بأهلك﴾ هنا، وفي الحجر، وفي الدخان: ﴿فاسر بعبادي﴾. وقوله: ﴿أن اسر﴾ في طه والشعراء قرأا جميع ذلك بهمزة الوصل تَسْقُط درجاً، وتثبت مكسورة ابتداءً. وقرأ الباقون: ﴿فأَسْر﴾ بهمزة القطع، تثبت مفتوحةً دَرَجاً وابتداءً.

---

(١) الخازن.

(٢) الفتوحات.

والقراءتان مأخوذتان من معنى هذا الفعل، فإنه يقال: سَرَى. ومنه: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ وأسرى. ومنه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾. وهل هما بمعنى واحد؛ أو بينهما فرق؟ خلاف مشهور. فقيل: هما بمعنى واحد، وهو قول أبي عبيد. وقيل: بل (أسرى) لأول الليل، وسَرَى لآخره، وهو قول الليث. وأمَّا سار فمختص بالنهار، وليس مقلوباً مِنْ سرى، اهـ «سمين».

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾؛ أي: لا تلتفت أنت، ولا تترك إحدى بِنْتَيْكَ، تلتفت؛ لئلا يَرَى عظيمَ ما يَنْزِلُ بهم فيحصل له كرب ربما لا يطيقه. وفي «المراح»: وإنما نُهوا عن الالتفات[1] ليسرعوا في السير، فإنَّ مَنْ يَلْتَفِتُ إلى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وَقْفَةٍ. وقوله: ﴿إلاَّ امرأتُك﴾ قرأه ابن كثير، وأبو عمرو بالرفع؛ أي: لا يتأخر منكم أحدُ إلا امرأتك واعلة المنافقةُ. وعلى هذه القراءة يقتضي كونَ لوطٍ مأموراً بالإسراء بها، وقرأ الباقون بالنصب، والمعنى: ولا ينظر أحد إلى وراءه منك، ومن أهلك إلا امرأتك. وهذه القراءة تقتضي كونَ لوط غير مأمور بالإسراء بها.

أي[2]: ولا ينظر أحدٌ إلى ما وراءه ليجدوا في السَّيْرِ، أو لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب، فيرقوا لهم. وجاء في سورة الحجر: ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ فقد كان ضَلَعُها مع القوم، وكانت كافرةً خائنةً. ﴿إِنَّهُ﴾؛ أي: إنَّ الشأن ﴿مُصِيبُهَا﴾؛ أي: امرأتك ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب؛ أي: إنه مصيبها ذلك العذاب الذي أصابهم، ومقضي عليها بذلك فهو واقع لا بُدَّ منه.

يعني[3]: وَقَعَتْ أهل بيتِ نُبُوَّتِه في الضلالة فهَلَكَتْ، فإنها مع تشرفها بالإضافة إلى بيت النبوة لِمَّا اتَّصَلَتْ بأهل الضلالة صارت ضالَّةً، وأدَّى ضلالها،

(١) المراح.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

وكفرها إلى الهلاك معهم. ففيه تنبيه إلى أنَّ لصحبة الأغيار ضرراً عظيماً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إلا امرأتُك﴾ بالرفع، وباقي السبعة بالنصب. فوجه النصب على أنه استثناء من قوله: ﴿بِأَهْلِكَ﴾ إذ قبله أمر، والأمر عندهم كالواجب، ويتعيَّن النصبُ على الاستثناء من أهلكَ في قراءة عبد الله إذ سقط في قراءته وفي مصحفه: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ ووجه الرفع على أنه بدل من أحد، وهو استثناء متصل.

ثم علَّل الإسراءَ ببقية من الليل، فقال﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ﴾؛ أي: موعدَ عذابهم ﴿ٱلصُّبْحُۚ﴾ ابتداءً من طلوع الفجر إلى الشروق، كما جاء في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿الصبُحُ﴾ بضم الباء. قيل: وهي لغةٌ فلا يكون ذلك اتباعاً، وإنما جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم؛ لأن النفوسَ فيه أودع، والراحةُ فيه أَجْمَعُ فيكون حُلولُ العذاب حينئذ أَفْظَعَ؛ ولأنه أنسبُ بكونِ ذلك عبرةً للناظرين. رُوي أنَّ لوطاً قال للملائكة متى موعدهم؟ قالوا: الصبحُ، فقال: أُريد أسرعَ من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ أي: أليس موعد الصبح بموعد قريبٍ؟ لم يَبْقَ له إلا ليلة واحدةٌ فَانْجُ فيها بأهلك. والاستفهامُ فيه تقريري. وفيه إشارة إلى أنَّ صبحَ يومِ الوفاة، قريبٌ لكل أحد، فإذا أدركَه فكأنَّه لم يَلْبَثْ في الدنيا إلا ساعةً من نهار. وفي «المراغي»: وحكمة تخصيص هذا الوقت أنهم يكونونَ مجتمعينَ في مساكِنهم، فلا يفلت منهم أحدٌ، اهـ.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: وقت أمرنا بالعذاب، وقضائنا فيهم بالهلاك، وهو الصبح ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا الكاملة ﴿عَٰلِيَهَا﴾؛ أي: عاليَ قرى قوم لوط، وهي التي عبر عنها بالمؤتفكات، وهي أربعُ مدائنَ فيها أربع مئة ألف، وأربعة آلاف، وهي سدوم، وعامورا، وكَادُوما، ومذاويم. كانت على مسيرة ثلاثةِ أيام من بيت المقدس. ﴿سَافِلَهَا﴾؛ أي: قلبناها على تلك الهيئات؛ أي: قَلَبْنَا قُراهم كُلَّها، وخَسَفْنا بها الأرض. روي أنَّ جبريلَ جعل جَنَاحَه في أسْفَلِها فاقتلعها من الماء الأسود، ثمَّ رَفَعَها إلى السماء حتى سمِعَ أهل السماء نباح الكلاب، وصياح الدِّيكة لم يكفأ إناء، ولم يَنْتَبِه نائم، ثم قلبها عليهم، فأقبلت تَهْوي من السماء

إلى الأرض، ولكنَّه من الإسرائيليات التي لا مستندَ لها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾؛ أي: على أهل المدائن من فوقهم، قبل القلب، أو في أثنائه ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من طين متحجِّرٍ كما جاء في سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾. ومثل هذا المطر يَحْدث بإرسال الله تعالى ريحاً شديدةً تحمل بعضَ الأحجار من المستنقعات أو الأنهار فتلقيها حيث يشاء الله تعالى، وكان حقَّ العبارة، وجعلوا عاليا، وأمطروا؛ أي: الملائكة المأمورونَ بذلك، فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبِّبُ تعظيماً للأمر، وتهويلاً للخطب؛ أي: وأمطرنا على أهل تلك القرى الخارجين عنها في الأسفار وغيرها، حجارةً من سجيل. ﴿مَّنضُودٍ﴾؛ أي: متتابع بعضه بعضاً في الإرسال، والنزول كقطار الأمطار، والنَّضَد: وضع الشيء بعضِه على بعضٍ، وهو نعتٌ لسجيل. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ نعت حجارة؛ أي: معلمة تلك الحجارة لا تُشْبِهُ حجارة الدنيا، أو باسم صاحبها الذي تصيبه وَيُرْمىٰ بها ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا محمد؛ أي: كائنة في خزائنه التي لا يتصرف فيها أحد إلا الله. والمعنى: جاءت من عند ربك. وفي ذلك دليل على أنها ليسَتْ من حجارة الأرض، قاله الحسن، اهـ «قرطبي». وفي إمطار الحجارة قولانَ.

أحدهما: أنها أمطرَتْ على المدن حينَ رفعها جبريل، أو بعد القلب.

والثاني: أنها أمطرت على مَنْ لَمْ يكن في المُدُن من أهلها، وكان خارجاً عنها. رَوي أنَّ الحجر اتبع شذاذهم أينما كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرمَ، وكان الحجر معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خَرَج فأصابه فأهلكه. ولعل الإمطارَ على تلك القرى بعد القلب إنما هو لتكميل العقوبة، كالرجفة الواقعة بعد الصيحة لقوم صالح، ولتحصيل الهلاك لمسافريهم الخارجين من بلادهم لمصالحهم، وهو الظاهر، والله أعلم. والسجيل: الطين المتحجر بطبخ أو غيره. وقيل: هو الشديدُ الصلب من الحجارة. وقيل: السجيل: الكثير. وقيل غير ذلك. وهذا السجيل قد نضدَ، وتراكب بعضه في إثر بعضٍ بحيث يقع طائفة بعد طائفة، وقد وضع على تلك الأحجار سومة، أي: علامة خاصة في علم ربك، بحيث لا تصيب غير أهلها. وقد يكون المعنى: أنه سخَّرها عليهم،

وحكمها في إهلاكهم بحيث لا يمنعها شيء، من قولهم سَوَّمْتُ فلاناً في الأمر، إذا حكمته فيه، وخَلَّيْتَه وما يُريد لا تثني له يد في تصرفه.

ويَرى بَعْضُ المفسرينَ أنَّ التسْوِيم كانَ حِسياً بخطوط في ألوانها أو بأمثال الخواتيم عليها، أو بأسماء أهلها، وكل ذلك من أمور الغيب التي لا تثبت إلا بسلطان، ونص من خاتم الرسل، وأنَّى هو. ﴿وَمَا هِىَ﴾؛ أي: وما هذه القرى التي حَلَّ بها العذابُ ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: منكم أيها المشركون من أهل مكة، الظالمون لأنفسهم بتكذيبك، والمماراة فيما تُنذرهم به ﴿بِبَعِيدٍ﴾؛ أي: بمكان بعيد عنكم، بل هي قريبة منكم على طريقكم في رحلة الصيف إلى الشام، كما قال في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾؛ أي: وإنكم لتمرون على آثارهم، ومنازلهم في أسفاركم وَقْتَ النهار، وبالليل أفلا تعتبرون بما حَلَّ بهم.

وفي هذه عبرة للظالمين في كل زمان، وإن اختلفَ العذابُ باختلاف الأحوال وأنواع الظلم كثرةً وقلةً، ومقدار أثره في الأمة من إفسادٍ عامٍّ أو خاصٍّ.

وقيل المعنى: ﴿وَمَا هِىَ﴾؛ أي: وما هذه الحجارة الموصوفة من كل ظالم ببعيد، فإنهم بسبب ظلمهم مستحقونَ لها؛ أي: فإن الظالمينَ حقيق بأن تمطر عليهم، ومنهم كفار قريش، ومن عاضَدَهم على الكفر بمحمد ﷺ أو من الظالمينَ من قوم لوط، وتذكيرُ البعيد على تأويل الحجارة بالحجر، أو إجراء له على موصوف مذكر؛ أي: شيء بعيد، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدراً كالزفير، والصهيل، والمصادرُ يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث. وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ معطوف كسابقه على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ وهو اسم ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثمَّ صَارَ اسماً للقبيلة، أو اسْمُ مدينة بناها مَدْيَنَ، فسُمِّيت باسمه؛ أي: وأرسلنا إلى قبيلة مَدْيَنَ أو ساكني بلدةِ مدين ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ أي: واحداً منهم في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ عطف بيان له، وهو ابن مكيلِ بن يشجر بن مدين ﴿قَالَ﴾ استئناف بيانيٌّ ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: فلمَّا أتاهم قال: يا قوم اعبدوا الله،

وحده، ولا تشركوا به شيئاً من الأصنام فـ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ أي: لأنه ليس لكم إلّه سوى اللّه تعالى، وقد جرَتْ سنة الأنبياءِ أن يَبْدؤوا بالدعوةِ إلى التوحيد؛ لأنه جِذْرُ شجرة الإيمان. ثمَّ يَتْبِعُونَه بالأهمِّ فالأهمِّ فيما يرون لدى أقوامهم، ومن ثم ثنى بالنهي عن نقص الكيل والميزان؛ لأنَّ أَهْلَ مَدْينَ اعتادوا ذلك فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ﴾؛ أي: آلة[1] الوزن والكيل، وكان لهم مكيالان، وميزانان: أحدُهما أكبَرُ من الآخر، فإذا اكتالوا على الناس يستوفون بالأكبر، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرونَ بالأصغر، والمراد لا تنقصوا حَجْمَ المكيال عن المعهود، وكذا الصنجات كي تتوسلوا بذلك إلى بخس حقوق الناس. ويجوز أن يكونَ من ذكر المحل، وإرادة الحال، فإذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائدٍ، وكذلك إذا وصل إليهم الموزونُ، أخذوا بوزن زائد، وإذا باعوا.. باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص، وكل من البَخْسَين شائع في هذا الزمان أيضاً كأنه ميراث من الكفرة الخائنين. وجملة قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ تعليل للنهي؛ أي[2]: لا تنقصوا المكيالَ، والميزان لأني أراكم بخير؛ أي: متلبسين بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن التطفيف، فلا تغيروا نعمةَ الله عليكم بمعصيته، والإضرار بعباده. ففي هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها مما تنقصون لهم من المبيع في مكيل أو موزون، وكانوا تُجَّاراً مطففينَ إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم ينقصونَ المكيالَ والميزان. ألاَ إنَّ في هذا كفراناً لنعمة الله عليكم، إذ كان يجب عليكم شكرانها بالزيادة على سبيل الصدقة والإحسان.

ثمَّ ذكَرَ بعد هذه العلة، علَّةً أُخرى، فقال: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وأخشى ﴿عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾؛ أي: يوماً يُحيط بكم عذابه، لا يشُذ منه أحدٌ منكم، إذا أنتم أصررتم على شرككم بالله بعبادة غيره، وكفرتم بنعمه بنقص المكيال والميزان. وهذا العذاب إما في الدنيا بعذاب الاستئصال، وإمَّا في يوم

---

(١) روح المعاني.

(٢) الشوكاني.

القيامة، ففي هذه العلة تذكير لهم بعذاب الآخرة، كما أنَّ العلة الأُولى فيها تذكير لهم بنعيم الدنيا، ووصف اليوم بالإحاطة، والمراد العذاب: لأنَّ العذابَ واقعٌ في اليوم ففيه إسناد مجازيٌّ. ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم أنه لا يُشُذُّ منهم أحد عنه، ولا يجدون منه مَلجأً ولا مهرباً. واليومُ هو يوم القيامة. وقيل: هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة. وأصل[1] العذاب في كلام العرب من العذب، وهو: المَنْعُ، وسمِّي الماء عذباً؛ لأنه يمنع العطشَ. والعذابُ عذاباً؛ لأنه يمنع المعاقب عن معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره عن مثل فعله.

ثم أكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ﴾ وأتموا ﴿ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ أي: بالعدل بلا زيادة، ولا نقصان. ومعنى[2]: إيفاء الحق إعطاؤُه تاماً كاملاً؛ أي اسْعوا في إعطاء الحق على وَجه التمام والكمال، بحيث يحصل لكم اليقينُ بالخروج عن العهدة وقوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ حال من فاعل ﴿أَوۡفُواْ﴾ أي متلبسين بالعدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان، فإنَّ الزيادةَ في الكيل والوزن وإن كانت تفضلاً مندوباً إليه، لكنها في الآلة محظورة كالنقص، فلعل الزائدَ للاستعمال عند الاكتيال، والناقص للاستعمال وقتَ الكيل، كذا في «الإرشاد». وصرَّح بالإيفاء بعد النهي عن ضده؛ لأن النهيَ عن نقص حَجْم المكيال، وصنجات الميزان، والأمر بإيفاء المكيال والميزان حقهما بأن لا ينقص في الكيل والوزن، وهذا الأمر بعد مساواة المكيال، والميزان للمعهود، فلا تكرار في الآية كما في «حواشي سعدي المفتي».

ثمَّ زاد ذلك تأكيداً، فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: ولا تنقصوا النَّاسَ ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾؛ أي: حُقُوقَهم مطلقاً، ولا تأخذوها منهم ظلماً؛ أي: سواء كانت من الموزونات أو المكيلات، أو المذروعات، أو المحدودات بحدود حسية، وسواء كانت من حقوق ماديَّةٍ أو معنوية، وسواءٌ كانت للأفراد، أو الجماعات، وسواءٌ كانت جليلةً أو حقيرةً.

وفي هذا النهي عن البخس على العموم والأشياء أعمُّ مما يكال أو يوزن،

---

(١) روح المعاني.

(٢) روح المعاني.

فيَدْخُل فيه البَخْسُ بتطفيف الكيل والوزن دخولاً أوَّلياً، وكانوا يأخذونَ من كلِّ شيء يباعُ شيئاً كما يفعل السماسرة، ويمكنون الناس وينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياءِ، وقيل: البخس المكس خاصة. ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثي: أشدُّ الفساد؛ أي: ولا تفسدوا في الأرض؛ أي: ولا تفعلوا في الأرض ما ظاهِرُهُ الإِفْسَادُ حالةَ كونكم مفسدين؛ أي: قاصدينَ به الإفسادَ لا الإصلاحَ.

الإفساد: تعطيل يشمل مصالحَ الدنيا، وأمور الدين، وأخلاقَ النفس وصفاتها، وكلُّ ذلك فاش في عَصْرِنا، ومن الفساد: نقص الحُقُوق في المكيال والميزان. ومن الإفساد: قَصُّ الدراهم والدنانير، وترويج الزيوف ببعض الأسباب، وغير ذلك؛ أي: لا تفسِدوا في الأرض، وأنتم تتعمدون الإفسادَ، وإنما اشترط في النهي تعمد الإفسادِ؛ ليخرج بعضُ ما هو إفسادٌ في الظاهر، ويرادُ به الإصلاحُ، أو فعلُ أخفِّ الضرَرَين لدفع أثقلهما كما وقع من الخضر في السفينة، التي كانت لمساكين يعملون في البحر، لأجل منع الملك الظالم الذي وراءَهم من أخذها إذا أعجبته، وكما يقع في الحرب من قطع الأشجار، أو فَتحِ سُدَدِ الأنهار، أو إحراق بعض الغابات، أو قتل دواب أهل الحرب.

وهذا نَهْيٌ عام يشمل غير ما سَبَقَ كقطع الطرق، وتهديد الأمن، وقطع الشجر، وقَتل الحيوان، ونحو ذلك ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما أبقاه الله تعالى لكم بعد إيفاء الكيل والميزان، وترك الحرام من الربح الحلال فهي فعيلة بمعنى المفعول، وإضافتها للتشريف كما في بيت الله، وناقة الله، فإنَّ ما بقي بعد إيفاء الكيل، والوزن من الرزق الحلال يستحق التشريفَ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: أَكْثَرُ لكم بركةً، وأحمدُ عاقبةً مما تأخذونه بالتطفيف، وتجمعونه بالبخس من الحرام، فإن ذَلِكَ هبَاءٌ منثور، بل شر محض، وإن زعمتم أنَّ فيه خَيْراً كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾. قال في «شرح الشرعة»: ولا يَخون أحد في مبايعته بالحِيَل والتلبيس، فإنَّ الرزق لا يزيد بذلك، بل تزول بركته فمَنْ جمع المال بالحِيل حَبَّةً حَبَّةً يهلكه الله جملة قبة قبة، ويبقَى عليه وزره ذرة ذرة، كرجل

كان يخلط اللبنَ بالماء ليُرَى كثيراً، فجاء السيل، وقَتَلَ بقَرَهُ، فقالَت صِبيته: يا أبت قد اجتمعت المياه الَّتي خلطتها في اللبن، وقتلتْ البقرَ. وقرأ[1] إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة: ﴿بقِيَة﴾ بتخفيفِ الياء. قال ابن عطية: هي لغةٌ، انتهى. وذلك أنَّ قِياسَ فَعِلَ اللازم أن يكون على وزن فعِلٍ نحو: سَجِيَتِ المرأة فهي سَجِيَة، فإذا شدِّدت الياءَ.. كان على وزن فعيل للمبالغة. وقرأ الحسن: ﴿تَقِيَّة﴾ بالتاء، وهي تقواه، ومراقبته الصارفة عن المعاصي فقوله: ﴿بقيت الله﴾ يُرْسَم بالتاء المجرورة، وإذا وقفت عليه اضطراراً يصح الوقف بالمجرورة، والمربوطة، وليس في القرآن غيرها، اهـ «فتوحات»؛ أي: المال الحلال الذي يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق التطفيف ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾؛ أي: مصدقين لي في مقالتي لكم، أو إن كنتم مؤمنين به تعالى حقَّ الإيمان، فالإيمان يطهِّر النفسَ من رَذيلةِ الطمع، ويحلِّيها بفضيلة السَّخاءِ والكرم، وإنما شرط[2] الإيمان في خيريَّة ما بقي بعد الإيفاءِ، لأنَّ فَائِدَتَهُ وهي حصول الثوابِ، والنجاةُ من العقاب إنما تَظْهَرُ مع الإيمان، فإنَّ الكَافِرَ مخلد في عذاب النيران، ومحروم مِن رضوانِ الله تعالى، وثواب الرحمنِ، سواء أوفى الكيلَ والميزانَ أو سلَكَ سبيل الخوان.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾؛ أي: برقيب[3] أرقبُكم عند كيلكم، ووَزْنِكم؛ أي: لا يُمْكِنُني شهودُ كُلَّ معاملة تصدرُ منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق، وقيل: أي: لا يتهيَّأ لي أن أحْفَظَكم من إزالة نعم الله عليكم بمعاصيكم، اهـ «قرطبي». وقيل[4]: أي: وما أنا بالذي أستطيع أن أحْفَظَكم من القبائِح، وإنَّما أنا ناصحٌ مبلِّغ، وقد أعْذَرَتُ إذ أنْذَرْتُ، ولم آل جهداً في ذلك.

فائدة: واعلم[5] أنَّ العدلَ ميزان الله في الأرض، سواء كان في الأحكام، أو في المعاملات، والعدول عنه يؤدِّي إلى مؤاخذة العباد، فينبغي أن يتجنَّب الظلم، والمرادُ بالظلم أن يتضرَّرَ به الغير، والعدل أن لا يتضرَّرَ منه أحدٌ بشيء ما. قال

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح المعاني.
(٣) قرطبي.
(٤) المراغي.
(٥) روح البيان.

عكرمة: أشهدُ أنَّ كُلَّ كيَّالَ، ووزان في النار. قيل له: فَمَنْ أوفى الكيلَ والميزانَ؟ قال: ليس رجل في المدينة يكيل كما يكتال، ويَزِن كما يَتَّزِنُ، والله تعالى يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾. وقال سعيد بن المسيب: إذا أتيت أرضاً يوفون المكيالَ والميزانَ.. فأطل المقامَ فيها، وإذا أتيتَ أرضاً ينقصون المكيالَ والميزانَ.. فأقِلَّ المقامَ فيها. وفي الحديث: «ما ظهر الغُلولُ في قوم، إلا أَلْقَى اللَّهُ في قلوبِهِم الرعب، ولا فشا الزنى في قوم، إلا كثر فيهم الموت، ولا نَقَصَ في قوم المكيالُ والميزان إلا قَطَعَ الله عنهم الرزقَ، ولا حَكَم قومٌ بغير حق إلا فشا فيهم الدَّمُ، ولا خَتَرَ قومٌ بالعهد إلاَّ سَلَّطَ الله عليهم العدو». قوله: ولا ختر؛ أي: غَدَر، ونقض العهد، كما في «الترغيب».

الإعراب

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ (الواو) استئنافية. (اللام) موطئة للقسم. (قد) حرف تحقيق. ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جوابُ القسم لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ جار ومجرور حال من ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: حالةَ كونهم متلبسينَ بالبشرى. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سَلَٰمًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: نسلم عليك سلاماً، أو: سلمنا عليك سلاماً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره عليكم، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: أمري؛ أو قولي: ﴿سلام﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَمَا﴾ (الفاء) حرف عطف وتعقيب. (ما) نافية. ﴿لَبِثَ﴾ فعل ماض. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿جَآءَ﴾ فعل ماض في محل النصب بـ (أن) وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿بِعِجْلٍ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿جَآءَ﴾. ﴿حَنِيذٍ﴾ صفة لعجل، وجملة ﴿جَآءَ﴾ صلة (أن) المصدرية، (أن) مع صلتها في تأويل

مصدر مرفوع على الفاعلية، تقديره: فما تأخَّر مجيؤه بعجل حنيذ، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾. وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب ضَرَبْنا عنها صَفْحاً خَوفَ الإطالة.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة. (لما) حرف شرط. ﴿رَءَآ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ مفعول به؛ لأن رأى بصرية، والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿لَا﴾ نافية. ﴿تَصِلُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الأيدي. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب حال من الأيدي. ﴿نَكِرَهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على إبراهيم، والجملة الفعلية جواب (لمَّا)، وجملة (لمَّا) معطوفة على محذوف تقديره: فقرَّبه إليهم، فقال: ألا تأكلون، فلمَّا رأى أيديهم إلخ، كما سيأتي التصريح بهذا المقدر في الذاريات. ﴿وَأَوْجَسَ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿نَكِرَهُمْ﴾ وفاعله ضمير يعود على إبراهيم. ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خِيفَةً﴾. ﴿خِيفَةً﴾ مفعول ﴿أوجس﴾. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا﴾ ناهية. ﴿تَخَفْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على ﴿إبراهيم﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه. ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن) وجملة (إن) مسوقة لتعليل النهي قبلها على كونها مقولَ القول.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾؛ أي: ﴿قَالُوا۟﴾ ذلك في حال قيام امرأته. ﴿فَضَحِكَتْ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿ضحكت﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرأته، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَوْجَسَ﴾. ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿ضحكت﴾. ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾ متعلق به. ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ جار ومجرور،

ومضاف إليه متعلق بمحذوف تقديره: ووهبناها من وراء إسحاق. ﴿يَعْقُوبَ﴾ مفعول ثان لذلك المحذوف، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿بشرناها﴾ ويجوز أن يكون ﴿من وراء إسحاق﴾ خبراً مقدماً، و﴿يعقوب﴾ بالرفع مبتدأ مؤخراً، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿إسحاق﴾.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿قَالَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿امرأته﴾ والجملة مستأنفة. ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: (يا) حرف نداء. ﴿ويلتا﴾ منادى منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف بعد قلب الكسرة فتحةً لمناسبة الألف، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ لأن ما قبل الياءِ لا يكون إلا مكسوراً، ﴿ويلة﴾ مضاف. وياء المتكلم المنقلبة ألفاً في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول قال. وقد بيَّنّا إعراب هذه الكلمة في ضمن نظائرها كـ (يا) (حسرتا) مع مسائلَ نفيسةٍ فيها في رسالتنا «هَدِية أولى الإنصاف في إعراب المنادى المضاف» فراجعها، وهي مطبوعة منتشرة. ﴿ءَأَلِدُ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري. ﴿ألد﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على سارة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوَاب النداء. ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿ألد﴾. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها حالاً من فاعل ﴿ألد﴾. ﴿شَيْخًا﴾ بالنصب حال من بعلي، والعامل فيه اسم الإشارة، لما فيه من معنى الفعل، وبالرفع بدل من بعلي أو عطفُ بيان له. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَشَىْءٌ﴾ خبره، واللام للابتداء. ﴿عَجِيبٌ﴾ صفة له، وجملة: إنَّ في محل النصب مقول (قال) على كونها مستأنفة.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ إلى آخر الآية مقول

محكي، وإن شئت قلت: (الهمزة) للاستفهام الإنكاري. ﴿تعجبين﴾ فعل مضارع مرفوع بالنون، و(الياء) فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به. ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ. ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ معطوف عليه. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ منادى مضاف، حذف منه حرف النداءِ، أو منصوب على الاختصاص، وجملة النداء، أو الاختصاص في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿حَمِيدٞ﴾ خبر أول له. ﴿مَّجِيدٞ﴾ خبر ثان، وجملة (إنَّ) في محل النصب مقول قال.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) استئنافية. (لما) حرف شرط. ﴿ذَهَبَ﴾ فعل ماض. ﴿عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ متعلق به. ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ فاعل، والجملة فعل شرط لـ(لَمَّا). ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿ذَهَبَ﴾. ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ فعل ومفعول. ﴿فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾، والجملة جواب (لما) لأنه بمعنى جَادَلَنا عَبَّرَ عنه بالمضارع حكايةً للحال الماضية. ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَحَلِيمٌ﴾ خبر أول له. ﴿أَوَّٰهٞ﴾ خبر ثان. ﴿مُّنِيبٞ﴾ خبر ثالث، وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لقول محذوف، تقديره: قالوا: يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال إلخ. وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب، مقول لذلك القول المحذوف. ﴿أَعۡرِضۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. ﴿عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لذلك القول، على كونها جوابَ النداء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر (إنَّ) مستأنفة مسوقة لتعليل ما

قبلها على كونها مقولَ القول. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ خبر (إنّ) ومضاف إليه. ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل ﴿آتي﴾. ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ صفة عذاب، وجملة إن معطوفة على جملة (إن) الأولى على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ (الواو) استئنافية. ﴿لما﴾ حرف شرط. ﴿جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿سِيٓءَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على (لوط). ﴿بِهِم﴾ متعلق به، والجملة جواب لمَّا، وجملة (لما) مستأنفة. ﴿وَضَاقَ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿سِيٓءَ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿لوط﴾. ﴿بِهِم﴾ متعلق به. ﴿ذَرْعًا﴾ تمييز محول عن الفاعل. ﴿وَقَالَ﴾ معطوف على ﴿سِيٓءَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿لوط﴾. ﴿هَٰذَا يَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿عَصِيبٌ﴾ صفة ﴿يَوْمٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ﴾ فعل ومفعول. ﴿قَوْمُهُۥ﴾ فاعل والجملة مستأنفة. ﴿يُهْرَعُونَ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿قَوْمُهُۥ﴾. ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب خبر (كان) وجملة (كان) في محل النصب على الحال معطوفة على جملة ﴿يُهْرَعُونَ﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿هُنَّ أَطْهَرُ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَطْهَرُ﴾ والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدرٍ، تقديره: إذا عرفتموهن أطهر وأردتُم بيانَ ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم. ﴿اتقوا اللّه﴾

فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا﴾ (الواو) عاطفة. (لا) ناهية جازمة. ﴿تُخْزُونِ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذفُ النون، و (النونُ) للوقاية و (ياء) المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة في محل النصب مفعول به، ﴿فِي ضَيْفِيٓ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. ﴿أَلَيْسَ﴾ (الهمزة) للاستفهام التوبيخي. ﴿ليس﴾ فعل ماض ناقص. ﴿مِنكُمْ﴾ خبر ﴿ليس﴾ مقدم. ﴿رَجُلٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿رَّشِيدٌ﴾ صفة لـ﴿رجل﴾، وجملة ﴿ليس﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿علمت﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جوابُ القسم، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور خبر مقدم للمبتدأ، أو لـ (ما) الحجازية. ﴿فِي بَنَاتِكَ﴾ متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ مبتدأ مؤخر، أو اسم (ما) الحجازية و (من) زائدة، والجملة الاسمية سادة مسد مفعولي ﴿علم﴾. ﴿وَإِنَّكَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَتَعْلَمُ﴾ اللام حرف ابتداء، ﴿تعلم﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿لوط﴾. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، أو مصدرية، أو استفهامية معلقة ما قبلها في محل النصب مفعول (تعلم)، لأنه بمعنى عرف. ﴿نُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على قوم لوط، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما نريده، أو لتعرف إرادتنا، وجملة ﴿تعلم﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب معطوفة على جملة القسم، على كونها مقول ﴿قَالُوا﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على لوط، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْ أَنَّ لِي﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَوْ﴾ حرف تمن أو شرط.

﴿أَنَّ﴾ حرف نصب. ﴿لِي﴾ خبر مقدم، لأن ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿قُوَّةً﴾ لأنه صفة نكرة قُدِّمت عليها. ﴿قُوَّةً﴾ اسم (أن) مؤخر، وجملة (أن) في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لفعل محذوف تقديره: لو ثبت كون قوة بكم لي.. لبطشت بكم أو أتمنى ثبوتَ قوة بكم لي، وجملة ﴿لو﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿ءَاوِيٓ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على لوط. ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ﴾ متعلق به. ﴿شَدِيدٍ﴾ صفة ﴿رُكْنٍ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر، لأن المحذوفة، تقديره: أو أني مؤوٍ إلى ركن شديد، وجملة أن المقدرة في محل الرفع معطوفة على جملة (أن) الأولى على كونها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، والتقديرُ: لو ثبَتَ كون قوة بكم لي، أو إيوائي إلى ركن شديد.. لبطشتُ بكم.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰلُوطُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰلُوطُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب، مقول القول. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿رُسُلُ رَبِّكَ﴾ خبره، ومضاف إليه، وجملة (إنَّ) في محل النصب مقولَ القول على كونها جوابَ النداء. ﴿لَن يَصِلُوٓاْ﴾ ناصب وفعل وفاعل. ﴿إِلَيۡكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مفسرة للجملة التي قبلها على كونها مقول القول. وقال أبو حيان: والجملة من قوله: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ موضحة للذي قبلها، لأنهم إذا كانوا رسل الله، لن يصلوا إليه، ولم يقدروا على ضرره، ثم أمروه بأنْ يَسْرِيَ بأهله، انتهى. ﴿فَأَسۡرِ﴾ (الفاء) عاطفة. (أسر) فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير يعود على لوط. ﴿بِأَهۡلِكَ﴾ جار ومجرور حال من فاعل (أسْر)؛ أي: متلبساً بأهلك، والجملة في محل النصب بالقول معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿بِقِطۡعٖ﴾ (الباء) حرف جر بمعنى (في). (قطع) مجرور به، الجار والمجرور متعلق (بأسر). ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ صفة لـ (قطع).

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ جازم ومجزوم. ﴿مِنكُمْ﴾ حال من ﴿أَحَدٌ﴾. ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَأَسْرِ﴾. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب على الاستثناء من الأهل، أو من ﴿أَحَدٌ﴾ أو بالرفع على البدلية من ﴿أَحَدٌ﴾. ﴿إنه﴾ ناصب واسمه. ﴿مُصِيبُهَا﴾ خبره، وجملة (إن) مسوقة لتعليل الاستثناء على كونها مقولَ القول. ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ (ما) موصولة، أو موصوفة في حل الرفع فاعل لـ (مصيب). ﴿أَصَابَهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على (ما)، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها. وعبارة أبي حيان هنا: والضمير في ﴿إنه﴾ ضمير الشأن، و ﴿مُصِيبُهَا﴾ مبتدأ و ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ الخبر. ويجوز على مذهب الكوفيينَ أن يكونَ ﴿مُصِيبُها﴾ خبر (إن) و ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ فاعل به، لأنهم يجيزون إنه قائم أخواك. ومذهب البصريين أن ضميرَ الشأن لا يكون خبره إلا جملة مصرحاً بجزئيها، فلا يجوز هذا الإعراب عندهم، انتهت. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ ناصب واسمه، وخبره، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿أَلَيْسَ﴾ (الهمزة) للاستفهام التقريري. ﴿ليس الصبح﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿بِقَرِيبٍ﴾ خبره و (الباء) زائدة، والجملة في محل النصب مقول القول.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصَحَتْ عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفْتَ ما قالوا له، وأردتَ بيانَ عَاقِبَةِ أمرهم.. فأقول لك. ﴿لما جاء أمرنا﴾ ﴿لَمَّا﴾ حرف شرط. ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فعل وفاعل، ومفعولان، والجملة جواب (لما) وجملة (لما) في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به. ﴿حِجَارَةً﴾ مفعول ﴿أمطرنا﴾. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿حِجَارَةً﴾. ﴿مَّنضُودٍ﴾ صفة لـ ﴿سِجِّيلٍ﴾. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ حال من ﴿حِجَارَةً﴾. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلق بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾. ﴿وَمَا﴾

(الواو) عاطفة، أو حالية، أو استئنافية. (ما) حجازية، أو تميمية. ﴿هِيَ﴾ اسمها، أو مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ متعلق ﴿بِبَعِيدٍ﴾. ﴿بِبَعِيدٍ﴾ خبر (ما) أو خبر المبتدأ و (الباء) زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أمطرنا﴾ أو حال من ﴿حِجَارَةً﴾ أو مستأنفة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره، ولقد أرسلنا إلى مدين، وعلامة جره الفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والعجمة، والجملة المحذوفة، معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المحذوف. ﴿شُعَيْبًا ۚ﴾ عطف بيان منه. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على شعيب والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ﴾ مقول محكي، وإن شئت.. قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿لَكُم﴾ خبر مقدم. ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿غَيْرُهُۥ﴾ صفة ﴿إِلَٰهٍ﴾، والجملة الاسمية مسوقة لتعليل ما قَبلَها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ على كونها مَقُولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّىٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰكُم﴾ فعل ومفعول به؛ لأنَّ رأى بصرية. ﴿بِخَيْرٍ﴾ حال من ضمير المخاطبين؛ أي: متلبسين ﴿بِخَيْرٍ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿شعيب﴾، وجملة ﴿أرى﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة إنَّ مسوقة لتعليل ما قبلها على كونهَا مقولَ القول. ﴿وَإِنِّىٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَخَافُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على شعيب. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿مُّحِيطٍ﴾ صفة مجازية لـ ﴿يَوْمٍ﴾ وجملة ﴿أَخَافُ﴾ في محل

الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها عِلَّةً ثانية لما قبلها.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ منادى مضاف معطوف على المنادى الأول. ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ معطوف عليه. ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ حال من (واو) ﴿أَوۡفُواْ﴾؛ أي: متلبسين ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ وجملة ﴿أَوۡفُواْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعولان مجزوم بـ (لا) الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَوۡفُواْ﴾. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ (لا) الناهية. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق به. ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لفاعل ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَوۡفُواْ﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَّكُمۡ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ (إن) على كونه فِعلَ شرط لها. ﴿مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ خبره، وجواب (إن) معلوم مما قبلها تقديره: فهي خير لكم، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة. (ما) نافية أو حجازية. ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ أو اسمها. ﴿عَلَيۡكُم﴾ متعلق ﴿بِحَفِيظٖ﴾. ﴿حفيظ﴾ خبر المبتدأ أو خبر (ما) و (الباء) زائدة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَمَا لَبِثَ﴾؛ أي: فما تأخر، وأبْطأ مجيؤه. ﴿بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ والعجل، ولدُ البقر، والحنيذُ المشوي على الحجارة المحماة في حفرة في الأرض من غير تنور. وفي «المختار»: حَنَذَ الشاة شَوَاها، وجعل فَوْقَها حجارة محماة لينضجها، فهو حنيذ، وبابه ضرب، اهـ. وقيل: هو المشويُّ بحر الحجارة من غير أن تمسَّه

النار، وهو فعيل بمعنى مفعول كما مر. ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا تمتد للتناول. ﴿نَكِرَهُمْ﴾، وفي «المختار» نكره بالكسر نكراً بضم النون، وأنكره واستنكره كله بمعنى، اهـ. ويقال: نكرته، وأنكرته، واستنكرته إذا وجدتَه على غير ما تعهَد، ومنه قول الشاعر:

فَأَنْكَرَتْنِي ومَا كَانَ ٱلَّذِيْ نَكَرَتْ ... مِنَ ٱلْحَوَادِثِ إِلاَّ ٱلشَّيْبَ وَٱلصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر:

إِذَا أَنْكَرَتْنِيْ بَلْدَةٌ أَوْ نَكِرْتُهَا ... خَرَجْتُ مَعَ ٱلْبَازِيْ عَلَيَّ سَوَادُ

وقيل: يقال: أنكرت لما تراه بعينك، ونَكِرْتَ لما تراه بقلبك. قيل: وإنما استنكر منهم ذلك؛ لأنَّ عادتهم أن الضيفَ إذا نزل بهم، ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بِشَر. ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وأوجس القلبُ فَزَعاً إذا أحسَّ به. وفي «البيضاوي»: الإيجاسُ: الإدراك. وقيل: الإضمار، اهـ. وفي «السمين»: الإيجاس: حديث النفس، وأصله: من الدخول، كأنه دَاخله، والوجيس ما يَعْتَرِي النفسَ أوانَ الفزع، ووَجَسَ في نفسه كذا، أي: خَطَرَ بها يَجِسُ وَجْساً، ووجُوساً ووَجِيساً، اهـ.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ أصل الضحك: انبساط الوجه مِن سرُورَ يحصل للنفس، ولِظُهُور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك، ويستعمل في السُّرور المجرد، وفي التعجب المجرد أيضاً. ثُم للعلماء في تفسير هذا الضحك قولان: **أحدهما**: أنه الضحك المعروف، وعليه أكثر المفسرين. **والقول الثاني**: أنه بمعنى حاضت في الوقت، كما قاله مجاهد، وعكرمة، وأنكر بعض أهل اللغة ذلك. قال الراغب: وقول مَنْ قال: حاضت، فليس ذلك تفسيراً لقوله: فضحكت، كما تصوره بعض المفسرين، اهـ «خازن» بتصرف. ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ الوَراءُ فعالٌ، ولامه همزة عند سيبويه، وأبي علي الفارسي، وياء عند العامة، وهو من ظروف المكان بمعنى خلف، وقدام، فهو من الأضداد، وقد يستعار للزمان كما في هذا المكان، اهـ «روح المعاني». ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ﴾ أصلها: يا ويلي وهي كلمة تُقَال حين يَفْجَأُ الإنسان أمر مهم من بلية، أو فَجِيعَة، أو فضيحة على جهة التعجب منه، أو

الاستنكار له، أو الشكوى، وإيضاحُه أنه أضاف الويلَ إلى ياء النفس، فاستثقلت الياءِ على هذه الصورة، وقبلَها كسرة ففُتِحَ ما قَبلَها، فانقلبت الياءُ ألفاً؛ لأنها أخف من الياء، والكسرة، ورسمت بالياء، اهـ «كرخي».

وفي «السمين» الظاهر كون الألفِ بدلاً من ياء المتكلم، ولذلك أمالَها أبو عمرو، وعاصم في رواية، وبها قرأ الحسن: (يا ويلتي) بصريح الياء. وقيل: هي ألف الندبة، ويوقف عليها بهاء السكت، اهـ. ﴿بَعْلِي﴾ البعل: الزوج، وجمعه بعولة، ومعناه في الأصل، المستعلي على غيره كما مر في مبحث التفسير. ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من قدرته وحكمته. ﴿حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ الحميدُ: هو الذي يُحْمَد على كل أفعاله، وهو المستحق؛ لأن يحمد في السراء والضراء، والشدة والرخاء. والمجيد: الواسع الكريم، وأصل المجد في كلامهم: السعة، اهـ «خازن». وفي «القاموس»: ومجد كنصر، وكرم، مجداً، ومجادةً فهو ماجد، ومجيد، وأمجده، ومجده، وعظَّمه، وأثنى عليه، اهـ. وقال الغزالي، رحمه الله: المجيد الشريف ذَاتُهُ، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه ونواله، فكانَ شريفَ الذات إذا قارنه حُسْن الفعالِ يسمَّى مَجِيداً.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الروع بالفتح الخوف، والفزع، يقال: ارتاع من كذا إذا خاف منه، وبضم الراء القلبَ لكن القراءة بالفتح. ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ الحليمُ الذي لا يُحِبُّ المعاجلة بعقاب، والـ﴿أَوَّاهٌ﴾ الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم. والمنيب الذي يرجع إلى الله في كل أمر. ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾؛ أي: وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم. ﴿ذَرْعًا﴾ الذرعُ، والذراع: منتهى الطاقَة، يقال: ما لي به ذرع، ولا ذراع؛ أي: ما لي به طاقة، ويقال: ضقت بالأمر ذرعاً، إذا صَعُبَ عليك احتماله. قال الأزهري: الذرعُ يوضع موضعَ الطاقة، والأصل فيه: أنَّ البعير يَذْرَعُ بيديه في سيره ذرعاً على قَدْرِ سعةِ خطوه، فإذا حُمِلَ عليه أكثر من طَوْقِه، ضاق ذرعه عن ذلك، وضَعُف، ومدَّ عُنُقَه، فجُعِلَ ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع، والطاقة، فمعنى: وضاق بهم ذرعاً؛ أي: لم يجد من ذلك المكروه مَخْلَصاً. وقال غيره: معناه: وضَاقَ بهم قَلْباً، وصدراً، ولا يعرف أصله إلاَّ أن يقال: إنّ الذرع كنايةٌ عن الوُسْعِ، والعرب تقول: ليس هذا في يدي يعنون ليس

هذا في وسعي، لأن الذِّرَاعَ من اليد، ويقال: ضَاق فلان ذرعاً بكذا، إذا وقع في مكروه، ولا يطيق الخروجَ منه، وذلك أن لوطاً عليه السلام، لمَّا نَظَرَ إلى حُسْنِ وجوههم، وطيب رائحتهم، أشفَقَ عليهم من قومه، وخَافَ أن يَقْصِدُوهم بمكروه، أو فاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم، اهـ «خازن». والـ﴿عَصِيبٌ﴾ الشديد، الأذى، كأنه قد عُصِبَ به الشرُّ، والبلاء؛ أي: شُدَّ به مأخوذ من العصابة التي يشد بها الرأس، اهـ «خازن».

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يقال: هرع وأُهرع بالبناء للمفعول إذا حمل على الإسراع، وأعجل، فمعنى: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ المبني للمفعول يساقون، ويُدْفَعون. وقال الكسائي: لا يكون الإهراعُ إلا إسراعاً مع رِعْدةٍ مِنْ بَرْدٍ، أو غَضَبٍ، أو حمًّى أو شهوةً. وفي «القاموس» والهَرَعُ محَرَّكٌ، وكغراب، والإهراع مشي في اضطراب وسرعة، وأقْبَلَ يُهْرَعُ بالضم، وأُهرع بالبناء للمجهول، فهو مُهْرَعٌ مَن غَضَبٍ، أو خوف، وقد هَرِعَ كفرح، ورجل هَرِعٌ سريع البكاء، اهـ. ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ في الآية سؤال كما مرَّ، وهو أن يقال: إن قولَه: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أفعَل تفضيلٍ فيقتضي أن يكونَ الذي يطلبونه من الرجال طاهراً، ومعلوم أنه محرَّمٌ فاسدٌ نَجِسٌ لا طهارةَ فيه ألبتةَ، فكيف قال هن أطهر لكم؟. والجواب عن هذا السؤال أنَّ هذا جارٍ مجرى قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾، ومعلوم أن شجرةَ الزقوم لا خَيْرَ فيها، اهـ «خازن».

﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾؛ أي: لا تخجلوني في شأن ضيفي، فإنه إذا خُزي ضَيفَ الرجل، أو جَارُه، فقد خزِيَ الرجُلُ، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة، اهـ «كرخي». والضيفُ في الأصل: مصدر، ثم أطلق على الطارق لَيْلاً إلى المضيف، ولذلك يَقَعُ على المفرد، والمذكر، وضِدَّيْهِما بلفظ واحد، وقد يثنَّى فيقال: ضيفان، ويجمع فيقال: أضياف، وضيوف، كأبيات، وبيوت، وضيفان كحوض وحيضان، اهـ «سمين». والـ﴿رَشِيدٌ﴾ ذو الرُّشد والعقل. ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: على الدفع بنفسي. ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ من أرباب العصبيات القوية الذين يَحْمُونَ اللاجئين، ويُجيرون المستجيرينَ. والـ﴿رُكْنٍ﴾ بسكون الكاف وضمها: الناحيةُ مِن جبل وغيره، ويُجْمَعُ على أركان وأَرْكُن.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ السري، بالضم، والإسراء في الليل كالسير في النهار. ﴿بِأَهْلِكَ﴾ وهم بنتاه فلم يخرج من القرية إلا هو وبنتاه فقط. والقطع من الليل الطائفة منه، والقطع هنا: نصف الليل؛ لأنه قطعة منه مساوية لباقيه. والسِّجِّيلُ الطين المتحجّر كما جاء في الآية الأخرى.

﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ قال الراغبُ: هو حجر وطين مختلط، أصله فارسي فعرب. ﴿مَّنضُودٍ﴾ صفة لـ﴿سِجِّيلٍ﴾ أي وضع بعضه على بعض، وأُعِدَّ لعذابهم. والنضد جعل الشيء بعضه فوق بعض، ومنه: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾ أي متراكب، والمرادُ: وصف الحجارة بالكثرة. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: لها سومة بالضم، أي علامة خاصَّة من التسويم، وهو العلامة. وفي «البيضاوي»: مُسَوَّمة؛ أي: عليها اسم من يُرْمَى بها. وقيل: مُعَلَّمَة للعذاب. وقيل: مُعَلَّمة ببياض، أو حمرة، أو بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: في علم ربك. ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ و (نقص) يتعدى لاثنين إلى أولهما بنفسه، وإلى ثانيهما بحرف الجر، وقد يحذف تقول: نقصت زيداً حقه، ومن حقه، وهو هنا كذلك إذ المراد، ولا تنقصوا الناسَ من المكيال والميزان. ويجوز أن يكونَ متعدياً لواحد على معنَى لا تَقَالُّوا، وتطففوا، ويجوز أن يكونَ مفعولاً أول، والثاني: محذوف، وفي ذلك مبالغة، والتقديرُ: ولا تنقصوا المكيالَ والميزانَ حَقَّهما الذي وجب لهما، وهو أبلغ في الأمر بوفائهما، اهـ «سمين». والمكيال، والميزان: الآلة التي يوزن، أو يكال بهما، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ مِنْ عَثِيَ كفرح، فمصدره عِثي كعصي، وهو القياسي أو عثو كسمو، وهو سماعيٌّ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وفي قوله: ﴿لَشَىْءٌ عَجِيبٌ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ﴾.

ومنها: نداء غير العاقل في قوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ تنزيلاً لها منزلةَ العاقل.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾.

ومنها: الطباق بين الروع والبشرى في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ إلخ، لبيان الحامل له على المجادلة، وهو رِقَّةُ قَلْبِه وفَرْطُ رحمته.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ لأنه كنايةٌ عن العذاب الذي قضاه الله عليهم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ لأنه كناية عن ضيق الوسع، والطاقة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شبه اليوم الذي اشتمل على الشر، والأذى بالرأس الذي عُصِب بالعصابة، بجامع الاشتمال في كل.

ومنها: الاستفهام التوبيخي التعجبي في قوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

قال الشريف الرضي: وهذه استعارة، والمراد به قومه، وعشيرته، جعلهم ركناً له؛ لأنَّ الإنسان يلجأ إلى قبيلته، ويَستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرَّصين، وجاء جواب لو محذوفاً تقديره: لَحُلْتُ بينكم وبين ما هممتم به من الفساد، والحذفُ ههنا أبلغ؛ لأنه يوهم بعظيم الجزاء، وغليظ النكال.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ وحقُّ العبارة أن يقال: جَادَلنا.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أُسند الإحاطةَ لليوم مع أنَّ اليَوْمَ ليس بِجِسْمٍ باعتبار أنَّ العذَابَ يكون فيه فهو من إسناد ما للحال إلى المحل: كنهاره صائم.

ومنها: الإضافة[1] للتشريف في قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ كما في بيتِ الله، و ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ ما بقي بعد إيفاء الكيل، والوزن من الرزق الحلال، يستحق التشريفَ، كما ذكره في «روح البيان».

ومنها: ذِكْرُ الخاصِّ ثم العام، ثم الأعَمَّ مبالغةً في النصح، ولطفاً في استدراجهم إلى طاعة الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ، إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ إلى آخر الآية الثانية: حَيْثُ نُهوا[2] أولاً عن القبيح الذي كانوا يتعاطونه، وهو نقص المكيال، والميزان، وفي التصريح بالنهي نعي على المنهي، وتعيير له، وأمروا ثانياً بإيفائهما مصرَّحاً بلفظهما، ترغيباً في الإيفاء، وبَعْثاً عليه، وجيء بالقسط، ليكون الإيفاء على جهة العدل والتسوية، وهو الواجب؛ لأنَّ ما جاوزَ العَدْلَ فضل، وأمر مندوب إليه، ونهوا ثَالِثاً عن نقص الناس أشياءهم، وهو عام في الناس، وفيما بأيديهم من الأشياء كانَتْ مما تكال وتوزن، أو غير ذلك، ونهوا رابعاً عن الفساد في الأرض، وهو أعم من أن يكون نقصاً، أو غيره فبَدَأهم أولاً بالمعصية الشنيعة التي كانوا عليها بعد الأمر بعبادة الله تعالى، ثُمَّ ارتقى إلى عام، ثم إلى أعم منه، وذلك مبالغة في النصح لهم، ولُطْفٌ في استدراجهم إلى طاعة الله تعالى.

ومنها: الزيادة والحَذْفُ في عِدّةِ مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها؛ أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أمر شعيب لقومه بعبادة الله

---

(١) المراغي.

وحدَه، وعدم النقص في الكيل والوزن.. ذكر هنا رَدَّهم على كلا الأمرين، فردوا على الأول، بأنهم إنما ساروا على منهج آبائهم، وأسلافهم، في التدين، والإيمان، ورَدُّوا على الثاني بأنهم أحرارٌ في أموالهم يتصرفون فيها بما يجلب لهم المصلحةَ فيها.

ثم أعاد النصحَ لهم بأنه لا يريد لهم إلا الإصلاح، وأنه يخشى أن يصيبَهم مثل ما أصابَ الأمم قبلَهم، كقوم نوح أو قوم هود، وما الأحداث التي اجتاحَتْ قوم لوط ببعيدَة عنكم، فعليكم أن تتوبوا إلى ربكم، عَلَّه أن يَرْحَمَكم فهو واسع الرحمة، محب لمن تَابَ وأناب إليه.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبتُها لما قَبْلَها: أنه لما أمرهم[1] شعيب بعبادة الله، وترك عبادة أوثانهم، وبإيفاء المكيال والميزان، رَدُّوا عليه على سبيل الاستهزاءِ والهُزْءِ بقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾، وكانَ كثيرَ الصلاة، وكان إذَا صلى تغامزوا، وتضاحكوا، ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ مقابلُ لقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ أوِ أنْ نفعلَ في أموالنا ما نشاء مقابلٌ لقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنهم[2] لما جادلوه أولاً بالتي هي أحسن، وعميَت عليهم العلل، وضاقَت بهم الحِيل، ولم يجدوا للمحاورة ثمرةً، تحولوا إلى الإهانة، والتهديد، وجعلوا كَلامَهُ من الهذيان، والتخليط الذي لا يفهم معناه، ولا تُدْرَكُ فحواه، فقابلهم بالإنذار بقرب الوعيد، ونزول العذاب الشديد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها، أن الله سبحانه وتعالى، لمّا فرغ من ذكر قصة شعيب، صهر موسى، مع قومه.. أرْدفَ بذكر قصص موسى مع فرعون، وملأه، للإعلام بأنَّ عاقبةَ فرعون وأشراف قومه اللعنةُ والهلاك، ككفار أولئك الأمم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الظالمين، وإن كان عذابُ الخزي وهو الغرق في البحر.. لم يعم جَمِيعَ قومه، بل لَحِقَ من اتبع موسى، وسار أثره للأسباب التي سلف ذكرها في سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ...﴾ الآيات، مناسبةُ هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] قصص الأمم الماضية، والقرون السالفة مع الرسل الذين أُرسِلوا إليهم.. نَبَّه إلى ما في ذكرها من عظة واعتبار بقوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ فالسامعُ لها، والقارىء يلين قلبه، وتخضع نفسه، فيحمله ذلك على النظر فيها، والاعتبار بها، إلى ما في إخباره ﷺ بها من غير مطالعة كتب، ولا مُدَارَسَة مع معلم من عظيم الدلالة على نبوته ﷺ؛ إذ أنَّ هذا لا يكونُ إلا بوحي من العليّ الأعلى، أتاه به روح القدس الأمين.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ إلخ، مستأنفة[2] واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالوا لشعيب حين قال لهم ما قال؟ والاستفهام فيه للإنكار عليه، والاستهزاء؛ أي: قالوا: يا شعيب أصلاتك التي هي من نتاج الوسوسة، وفعل المجانين تأمرك بـ ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؛ أي: بأن نترك ما سارَ عليه آباؤنا جيلاً إثْرَ جيل من عبادة الأوثان والأصنام، وإنما جعلوه مأموراً مع أن الصَّادِرَ عنه إنما هو الأمر بعبادة الله، وغيرها من الشرائع؛ لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه، بل بوحي من ربه، ويبلِّغهم أنه مأمور بذلك، وإسنادُ الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات؛ لأنه كانَ كثيرَ الصلاة معروفاً بذلك، حتى إنهم كانوا إذا رأوه يُصلِّي تغامزوا، وتضاحكوا، فكانت هي من بين الشعائر ضُحْكة لهم. فقوله: ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ فيه أنَّ الترك فعلهم، لا فعل شعيب، وهو المأمور، والإنسان يؤمر بفعل نفسه، أجيب عنه: بأنَّ الكلامَ على حذف مضاف، تقديره: هل هي تأمرك بتكليفك إيانا تَرْك عبادة ما يعبد آباؤنا، إلخ، والتكليف إذاً من فعله، ذكره في «الجمل». أجابوا بذلك أمره عليه

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.

السلام إيَّاهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الأوثان، وقوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ جواب عن أمره بإيفاء الحقوق، ونهيه عن البخس والنقص والعثي، معطوف على (ما) في قوله: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ و (أو) بمعنى (الواو) لأنَّ ما كَلَّفهم به شعيب، هو مجموع الأمرين: لا أحَدَهما. والمعنى: أي[1]: أو أن نترك فِعلَنا ما نشاء في أموالِنا من التصرفات من التطفيف، وغيره من التنمية، والاستغلال، والتصرف في الكسب بما نستطيع من الحذق، والاحتيال، والخديعة، فما ذاك إلا حَجْرٌ على حريتنا، وتَحَكُّمٌ في إرادتنا، وذكائنا.

والخلاصة: أنهم رَدُّوا عليه الناحِيَتَيْنِ الدينية، والدنيوية بما رأوا مِنْ شُبَهٍ مزيفة، وحجج عفنةٍ، والمعنى: أصلاتك تَأْمُرَكَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا، وتأمرك أن نترُكَ فِعْلَنَا فِي أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاء والنقص والزيادة. وقال بعضهم: كان[2] يَنْهَاهم عن تقطيع أطراف الدراهم والدنانير، وقصها فأرادوا به ذلك، والمعنى ما نشاءُ من تقطيعها.

فائدة: واعلم أنَّ أوَّلَ من استخرج الحديد، والفضة، والذهب من الأرض (هَوشنَكُ) في عصر إدريس عليه السلام، وكان ملكاً صالحاً داعياً إلى الإسلام وأول مَنْ وضع السكَّةَ على النقدين. (الضحاك). وإفسادُ السكة بأيِّ وجهٍ كان إفساداً في الأرض، وسئل الحجاج عما يرجو به النجاةَ فذكر أشياء، منها: ما أفسدت النقود على الناس.

وقرأ الجمهور: أصلواتك بالجمع. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص، وابن وثاب[3]: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ على التوحيد. وقرأ[4] الجمهور: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ بالنون فيهما كما فسرناه سابقاً. وقرأ الضحاك بن قيس

---

(1) المراغي.
(2) روح المعاني.
(3) البحر المحيط وزاد المسير.
(4) البحر المحيط.

الفهري، وابن أبي عبلة، وزيد بن علي بالتاء فيهما على الخطاب. ورُويت عن أبي عبد الرحمن والمعنى: أصلاتك تأمرك أن تَفْعَلَ أنت في أموالنا ما تشاء. وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة: ﴿نفعل﴾ بالنون، ﴿ما تشاء﴾ بالتاء على الخطاب. ورُويت عن ابن عباسٍ، والمعنى: أصلاتك تأمرك أن نَفْعَلَ نحن في أموالنا ما تشاؤه أنت، وندع ما نشاؤه نحن، وما يجري به التراضي بيننا. والحاصل: أنَّ مَنْ قرأ بالنون فيهما فقَوْله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ﴾؛ أي: أن نتركَ ما يعبد آباؤنا وفعْلنا في أموالنا ما نشاء. ومن قرأ بالتاء فيهما أو بالنون فيهما، فمعطوفٌ على ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾؛ أي: تأمرك بترك ما يعبد آباؤنا، وفعلِك في أموالنا ما تشاء أو فعلِنا في أموالنا ما نشاء، و(أو) للتنويع، أي: تأمرك مرَّةً بهذا، ومرَّةً بهذا. وقيل: بمعنى الواو كما مر، والظاهر أن الذي كانوا يفعلونه في أموالهم هو بخس الكيل والوزن المقدم ذكره، ذكره أبو حيان في «البحر». ثم أتبعوا ذَلِك بما يدلُّ على السخرية، والهَزْءِ به فقالوا: ﴿إِنَّكَ﴾ يا شعيب ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ﴾؛ أي: الأحمق ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾؛ أي: السفيه بلغة مدين كما في «ربيع الأبرار»؛ أي: أنت ذُو الجهالة والسفاهة في الرأي والغواية في الفعل، بهوس الصلاة، لكنهم عكسوا القضية، تهكماً واستهزاءً، كما يقال للبخيل: لو رآك حاتم، لاقتدى بك حاتم في سخائك، وللمستجهل، والمستخف فيقال: يا عالم، يا حليم، فهو إذاً[1] من قبيل الاستعارة التبعية، نزلوا التضادَ منزلةَ التناسب على سبيل الهزء، فاستعاروا الحِلم والرشد للسفه والغواية، ثُمَّ سَرَتِ الاستعارة منهما إلى الحليم الرشيد. وقيل: إنهم قالوا ذلك، لا على طريقة الاستهزاء، بل هو عندهم كذلك، وأنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم؛ أي: كنتُ عندنا مشهوراً بأنك حليم رشيد، فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا.

﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ إيرادُ حرف الشك باعتبار حال المخاطبينَ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؛ أي: حجة واضحة، وبرهان نير من

---

(١) روح المعاني.

مالك أمري، عَبَّر بها عما أتاه الله تعالى من النبوة والحكمة، ردًّا على مقالتهم الشنعاء في جعلهم أمرَهُ ونهيَه غير مستند إلى سند؛ أي: قال[1]: يا قوم أخبروني عن شأني، وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربي، ومالك أمري فيما دعوتكم إليه، وما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، فكان وحياً منه لا رأياً مني. ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾؛ أي: من لدنه، ومن عنده تعالى، وبإعانته بلا كدّ مني، ولا تعب في تحصيله، اهـ «بيضاوي». ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: كثيراً، واسعاً، حلالاً، طيباً، وقد كان ذلك بالحلال بلا تطفيف مكيال، ولا ميزان، ولا بخس لِحقٍّ أحد من الناس فما أَقُولُه لكم صادِرٌ عن تَجْرِبةٍ في الكسب الطيب، وما فيه من خير وبركة لا عَنْ آراء نظرية ممن ليسَتْ له خبرة، فماذا أقول لكم غير الذي قلت عن وحي من ربي، وعن تجربة في مالي؟ هل يسعني بعد هذا التقصير في التبليغ والكتمان لأوامر الله تعالى، وقيل: أراد[2] بالرزق النبوةَ والحكمةَ عَبَّر عنهما بذلك تنبيهاً على أنهما مع كونهما بينة، رزق حسن، كيف لا. وذلك مناط الحياة الأبدية له، ولأمته، وجوابُ الشرط محذوف لأنَّ إثباته في قصة نوح ولوط دَلَّ على مكانه، ومعنى الكلام ينادي عليه.

والمعنى: أخبروني إن كنت على حجة واضحة، ويقين من ربي، وكنت نبياً على الحقيقة.. فهل يصح لي أن أتبعَكم، وأشوبَ الحلال بالحرام، ولا آمركم بتوحيد الله، وتركِ عِبَادَةِ الأصنام، والكفِّ عن المعاصي، والقيام بالقسط، والأنبياء لا يبعثونَ إلاَّ لذلك؟.

﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بنهيي إياكم عن التطفيف ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾؛ أي: مخالفتكم حال كوني مائلاً ﴿إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يقال[3]: خالَفْتُ زيداً إلى كذا، إذا قصدته، وهو مول عنك، وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس؛ أي: لا أنهى عن شيء وأرتكبه من نقصان الكيل، والوزن؛ أي: أختارُ لكم ما أختارَ لنفسي، فإنه ليس

---

(١) المراغي.
(٢) روح المعاني.
(٣) روح المعاني.

بواعظ يعظ الناسَ بلسانه دون عمله. قال في «الإحياء»: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا ابن مريم عِظْ نَفْسَك، فإن اتعظَتْ.. فعظ الناس، وإلا فاستحيي مني.

والمعنى: أي وما أريد بنهيي إياكم عما أنهاكم عنه من البَخْس والتطفيف أنْ أقصده بعد ما ولَّيْتم عنه فأستبدَّ به دونكم، مؤثراً لنفسي عليكم، بل أنا مُسْتَمْسِكٌ به قبلكم.

﴿إِنْ أُرِيدُ﴾؛ أي: ما أريد بما أباشره من الأمر والنهي ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾؛ أي: إلاّ أنْ أصلحكم بالنصيحة والموعظة ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾؛ أي: مِقْدَارَ ما استطعته من الإصلاح. قال في «بحر العلوم»: (ما) مصدرية، واقعة موقع الظرف؛ أي: ما أريد بالأمر والنهي إلا الإصلاح لكم، ودَفْعُ الفساد في دينكم، ومعاملاتكم مدةَ استطاعتي الإصلاحَ، وما دمت متمكناً منه لا أترك جهدي في بيان ما فيه مصلحة لكم. وفي ذلك[1] إيماءٌ إلى إثبات عقله، ورشده، وحكمته، وإبطال لتهكمهم، واستهزائهم بتلقيبهم إياه بـ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾؛ أي: وما كوني موفَّقاً هادياً نبياً مُرْشِداً ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: إلاّ بتأييد الله سبحانه، وإقداري عليه، ومنَحي إياه، وهو مصدر من المبني للمفعول؛ أي: وما كوني موفَّقاً لتحقيق ما أقصده من إصلاحكم. ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: إلا بتأييده ومعونته، بل الإصلاحُ من حيث الخلق مستندٌ إليه، وإنما أنا من مباديه الظاهرة، والتوفيق[2] يتعدَّى بنفسه، وباللام وبالباء، وهو تسهيل سبل الخير، وأصله موافقةُ فعل الإنسان القدرَ في الخير، والاتفاق هو: موافقةُ فعل الإنسان خيراً كان أو شراً القَدَر. وقال في «التأويلات النجمية»: التوفيقُ: اختصاص العبد بعناية أزلية، ورعاية أبدية، انتهى.

والخلاصة[3]: وما توفيقي لإصابة الحق والصواب في كل ما آتي، وما أذَرُ

---

(١) المراغي.
(٢) روح المعاني.
(٣) المراغي.

إلاّ بهداية الله تعالى ومعونته.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري التي منها أمركم ونهيكم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع في كل ما نابني من الأمور، وأفوض جميعَ أموري إلى ما يختاره لي من قضائه وقدره. والمعنى عليه توكلت في أداء ما كلفني به من تبليغكم ما أرسلت به إليكم، لا على حولي ولا قوتي؟ وإليه أرجع في كل ما أهمَّني في الدنيا، وهو الذي يُجازيني على أعمالي في الآخرة.

والخلاصة: أنه لا يرجو منهم أجراً، ولا يَخْشَى منهم ضيراً. وقيل: المعنى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت في ذلك معرضاً عما عداه، فإنه القادر على كل مقدور، وما عداه عاجزٌ محض في حد ذاته، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، بمعزل عن رتبة الاستمداد به في الاستظهار ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ وأرجع فيما أنا بصدده، في جميع أموري. فقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارةٌ إلى معرفة المعاد.

فعلى(1) العاقل أن يجتهدَ في طريق الحق بالأذكار النافعة، والأعمال الصالحة، إلى أن يصلَ إلى مقام التوحيد الحقيقي، ثم إذا وصل إليه اقتفى بأثر الأنبياء، وكمل الأولياء في طريق النصح، والدعوة، ولم يرد إلا الإصلاح، تكثيراً للأتباع المحمدية، وتقويماً لأركان العالَم بالعدل، ونَظْماً للناس في سلك الرشاد، والله ولي الإرشاد، وهو المبدء، وإليه الرجوع والمعاد.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لا يكسبنكم، ولا يحملنكم. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿يُجرمنكم﴾ بضم الياء من أجرم الرباعي، اهـ «قرطبي». ﴿شِقَاقِيٓ﴾؛ أي: شقاقكم وعداوتكم وبُغضكم إياي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾؛ أي: على أن ينالكم عذاب ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من الصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم أُهلكوا بسبب الكفر، والمعاصي في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب الهالكين منكم، فإن لم تعتبروا

---

(1) روح المعاني.

بمَنْ قبلهم من الأمم المعدودة، فاعتبروا بهم، ولا تكونوا مِثلَهم كَيْلا يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب.

والمعنى: أي[1] لا تحملنكم عداوتي وبغضي وفراق الدين الذي أنا عليه على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله، وعبادة الأوثان، وبَخْس الناس في المكيال والميزان، فيصِيبَكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، أو قوم هود من الصرصر، أو قوم صالح من الرجفة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ زماناً، ولا مكاناً؛ أي: إن لم تعتبروا بمن ذكرنَا قبلُ لقدم عهد، أو بُعْدِ مكان، فاعتبروا بهؤلاء فإنهم بمرأىً منكم، ومسمع، وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاكهم، وأنهم كانوا جيرانَ قوم لوط، وبلادهم قريبة من بلادهم، فإنَّ بلادَهم قريبة من مَدْيَن، وإهلاكهم أقربُ الإهلاكات التي عَرَفها الناس في زمان شعيب، وقد يكون المعنى: ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوي فاحذروا أن يَحلَّ بكم مثل ما حَلَّ بهم من العذاب؛ أي: وما معاملة قوم لوط من معاملتكم، وذنوبهم من ذنوبكم ببعيد؛ لأن الكفرَ كله من جنس واحد، وصفات الكفر قريب بعضها من بعض، قال الجوهري: القومُ يذكَّر ويؤنث، والبعيد من المصادر التي يستوي فيها المذكر، والمؤنث، والجمع، والمفرد، كالزفير، والصهيل، ولذلك أخبرَ عنه ببعيد، ثمَّ بعدَ ترهيبهم بالعذاب، أمَرَهُم بالاستغفار، والتوبة فَقَال:

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من عبادة الأوثان، والأصنام ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من البخس، والنقصان في الكيل، والوزن، أو استغفروا بالإيمان، ثمَّ ارجعوا إليه بالطاعة ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى ﴿رَحِيمٌ﴾؛ أي: كثير الرحمة للتائبين، والمستغفرين ﴿وَدُودٌ﴾؛ أي: محب لهم؛ أي: فاعل بهم من اللطف، والإحسان كما يفعل البليغُ المودة بمن يوده. قال في «المفاتيح»: الودود مبالغة الوَادّ، ومعناه: الذي يُحِبُّ الخيرَ لجميع الخلائِق، ويحسن إليهم في الأحوال كلها، وقيل: المحبُّ لأوليائه.

---

(١) المراغي.

والمعنى[1]: واطلبوا من ربكم المغفرة مما أنتم عليه من عبادة الأوثان، وبَخْسِ الناسِ حُقُوقَهم في المكيال والميزان، ثم ارجعوا إلى طاعته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار، والتوبة؛ أي: إن ربّي رحيم بمَنْ تَابَ، وأناب إليه لا يعذّبه بعد التوبة، كثيرَ الود والمحبة، فيحب من يتوب ويرجع إليه. وفي الآية إرشاد إلى أنَّ النَّدَمَ على فعل الفساد والظلم بالتوبة، واستغفار الرب سبحانه وتعالى من أسباب خير الدنيا وخَير الآخرة. وقوله: ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال قوم شعيب استئناف بياني ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ الفقه: معرفةُ غرضِ المتكلم من كلامه؛ أي: لا نعرفُ ولا نَفْهَمُ ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ أي: كُلّ ما تقول من التوحيد، ومن إيفاء الكيل والوزن، وغير ذلك؛ قالوا ذلك استهانةً بكلامه، واحتقاراً به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يَعْبَأ بحديثه: ما ندري ما تقول، وإلا فشعيب كان يخاطبهم بلسانهم، وهم يَفْهَمُون كلامَهُ، لكن لمَّا كان دعاؤه إلى شيءٍ خلاف ما كانوا عليه وآباءهم قالوا ما قالوا.

والمعنى: أي ما نعلم[2] حقيقة كثير مما تقول لنا وتخبرنا به من بطلان عبادة آلهتنا، وقبح حرية التصرف في أموالنا، ومجيء عذابٍ يحيط بنا، وإصابتنا بمثل الأحداث التي أصابَتْ مَنْ قَبْلَنَا كأن أمرها بيدك يصيب بها ربك من يشاء لأجلك.

وقيل المعنى[3]: أنك تأتينا بما لا عَهْدَ لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية، كالبعث والنشور، ولا نَفقه ذلك؛ أي: لا نَفْهَمُه، كما نفهم الأمور الحَاضِرَةَ المشاهدةَ فيكون نفي الفقه على هذا حقيقةً لا مجازاً، وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقاراً لكلامه مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم، فلا يكون نفي الفقه حقيقةً بل مجازاً كما مر.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ يا شعيب ﴿فِينَا﴾؛ أي: فيما بيننا ﴿ضَعِيفًا﴾؛ أي: لا قوةَ لكَ ولا قدرةَ على شيء من الضر والنفع، تقدر بها على أن تمنع نَفْسَكَ منا، وتتمكن بها من مخالفتنا، ولا تستطيع أن تمتنع منا، إن أردنا أن نَبْطِشَ بك،

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح المعاني.

ومعنى ذلك أنه ليست لك قوَّةُ جسمانية، أو المعنى: كنتَ مَهِيناً ذليلاً فينا لا عِز لك، ولا شرفَ عندَنا، وهذا لا يتعلق بالقوة الجسمانية، فإن ضعيفَ الجسم قد يكون وافرَ الحرمة بين الناس، وهو الظاهر؛ لأنَّ الكفَرَةَ كانوا يزدرون بالأنبياء، وبأتباعهم المؤمنين. وقيل: إنه كان مصاباً ببصره. قال النحاس: وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى: ضعيف؛ أي: قد ضَعف بذهاب بصره، كما يقال له: ضرير، أي: قد ضر بذهاب بصره.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾؛ أي: ولولا حرمة قومك، ومراعاةُ جانبهم، وقالوا: ذلك كرامةً لقومه، لأنهم كانوا على دِينهم لا خوفاً، لأن الرهط من الثلاثة إلى السبعة، أو التسعة، أو العشرة، وهم ألوفٌ فكيف يخافون منْ رهطه؛ أي: ولولا عشيرتك الأقربون ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾؛ أي: لقَتَلْناك برمي الحجارة، حتى تُدْفن فيها، وقد يُوضَع الرجم موضع القتل، وإن لم يكن بالحجارة من حيثُ إنه سببه، ولأنَّ أوَّلَ القتل لبني آدم، وهو قتلُ قابيلَ لهابيل، لمَّا كان بالحجارة سَمَّى كُلَّ قتلٍ رَجَماً، وإن لم يكن بها.

وقال عمر رضي الله عنه[1]: تَعلَّموا أنْسَابَكُم، تعرفوا بها أصولَكم، وتصلوا بها أرحامكم؛ قالوا: ولو لم يكن في معرفة الأنساب إلا الاحترازُ بها من صولة الأعداء ومنازعة الأكفاء.. لكان تَعَلُّمها من أحزم الرأي، وأفضل الصواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب: ولولا رهطك.. لرجمناك فأبْقَوا عليه لرهطه، يقال: أبقيتُ لفلان إذا أرعيت عليه ورحمته.

ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾؛ أي: وما[2] أنت بذي عزة، ومنعة تحول بيننا وبين رجمك، وإنما نعزُّ رَهطَك على قلتهم؛ لأنهم منَّا، وعلى ديننا الذي نبذتَه وَراء ظهرك، وأهَنْته ودعوتنا إلى تركه لبطلانه في زعمك. والمعنى: أي: وما أنت بمكرم محترم حتى تمنعنا عزتك من رجمك، بل رهطُك هم الأعزة علينا، لكونهم من أهل ديننا، فإنما نكف عنك

---

(١) روح المعاني. (٢) المراغي.

للمحافظة على حُرمتهم، وهذا دَيْدَنُ السفيه المحجوج، يقابل الحجج والآيات بالسبِّ والتهديد، وتقديم الفاعل المعنوي لإفادة الحصر والاختصاص، وإن كان الخبر صفةً لا فعلاً، و﴿علينا﴾ متعلق بـ﴿عزيز﴾ وجاز لكون المعمول ظرفاً، والباء مزيدة.

وفي الآية إشارة[1] إلى أنَّ مَنْ كَانَ على الله ﴿بِعَزِيزٍ﴾ فإنه ليس على الجاهل بعزيز، وذلك؛ لأنَّ العزةَ والشرفَ عند الجهلاء خُصوصاً في هذا الزمان الفاسدِ بالجاه والمال، لا بالدين والكمال، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، وأموالكم، بل ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، يعني: إذا كانت لكم قلوب وأعمال صالحةٌ تكونون مقبولينَ مُطْلَقاً سواء كانت لكم صور حسنة، وأموال فاخرةً أم لا؟ وإلا فلا.

فوبَّخهم شعيب على سفاهتهم، كما حكى سبحانه عنه ﴿قَالَ﴾ شعيب في جوابهم، والهمزة في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي ﴿أَعَزُّ عَلَيۡكُم﴾ وأهيب وأكرم عندكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى حتى كَانَ امتناعكم عن رجمي بسبب انتسابي إليهم، وأنهم رهطي لا بسبب انتسابي إلى الله تعالى الذي أدعوكم إليه بأمره، وكان[2] الظاهرُ أن يقالَ مني إلا أنه قيل: من الله للإيذان بأنَّ تَهَاوُنَهُم به وهو نبي الله تهاوُنٌ بالله تعالى، وإنما أَنْكَرَ[3] عليهم أَعَزِّيَّةَ رهطه منه تعالى مع أنَّ ما أثبتوه، إنما هو مطلق عزة رهطه، لا أعزيتهم منه تعالى مع الاشتراك في أصل العزة، لتكرير التوبيخ، حيث أَنْكَرَ عليهم أَوَّلاً بترجيح جانب الله تعالى، وثانياً بنفي العزة بالمرة، والمعنى: أرهطي أعز عليكم من اللَّهِ سبحانه وتعالى، فإنه مما لا يكاد يصح، والحال أنكم لم تجعلوا له حظّاً من العزة أصلاً.

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾؛ أي: وراءَ ظهركم ﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾؛ أي:

---

(1) روح المعاني.

(2) روح المعاني.

(3) روح البيان.

منبوذاً، أي: واستخفَفْتُم بربكم، فجعلتموه تعالى شيئاً منبوذاً وراءَ الظهر، منسيّاً لا يبالىٰ به؛ أي: جعلتموه مِثْلَ الشيء المطروح وراء الظهر بإشراككم به، والإهانة برسوله، لا تأتمرون لأمره، ولا تخافون عِقَابَهُ، ولا تعظِّمُونه حقَّ التعظيم، فلا تُبْقُون على الله، وتبقون على رهطي؛ أي: فلا تحفظونني، ولا ترحمونني لله تعالى، وتُراعُون نسبة قرابتي إلى الرهط، وتضيّعون نسبتي إلى الله بالنبوة، فكأنكم زَعَمْتُم أنَّ القومَ أعزُّ من الله، حيث تزعمون أنكم تركتم قتلي إكراماً لرهطي، والله أَولى بأن يُتَّبَعَ أمره، كأنه يقول: حِفْظكُم إيَّاي في الله أولى منه في رهطي، وقيل: المعنى: واتخذتم أمْرَ الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم، وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم. والعربُ تقول لكل ما لا يُعْبَأُ بأمره: قد جَعَل فلانُ هَذَا الأمرَ بظهره، فالظهري منسوبٌ إلى الظهر، والكسر لتغيير النَّسب كقولهم في النسبة إلى أمس: إمسيٌّ بكسر الهمزة، وإلى الدهر دُهْرِيٌّ بضم الدال. ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه. ﴿مُحِيطٌ﴾ لا يخفىٰ عليه منها خافية، وإن جعلتموه منسياً، فيجازيَكم عليها، والإحاطة: إدراك الشيء بكماله، وإحاطةُ الله تعالى بالأعمال مَجَازٌ عن علمه.

والمعنى[1]: أي إن ربي سبحانه وتعالى محيط علمه بعملكم، فلا يَخْفَى عليه شيء منه، وهو مجازيكم عليه، وأما رهطي فلا يستطيعون لكم ضراً ولا نفعاً، ولا يَخْفى ما في ذلك من التهديد والوعيد. ثم هدَّدهم مرة أخرى فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ﴾ كل ما في وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إلي حالة كونكم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: موصوفين بغاية المكنة، والقدرة، والقوة؛ أي: على نهاية التمكن، وغايته في إيصال الضرر إليَّ، مِنْ مكن مكانةً فهو مكين، إذا تمكَّن من الشيء أبلغ التمكنِ، أو بمعنى المكان، كمقام، ومقامة، والمعنى: إعملوا ما شئتم على ناحيتكم، وجهتكم التي أنتم عليها من الشرك والعداوة لي؛ أي: ويا قوم[2] اعملوا ما استطعتم على منتهى تمكنكم في قوتكم وعَصَبِيتكم.

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

وخلاصة ذلك: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة، وسائر ما لا خَيرَ فيه. وهذا كلامٌ مِن واثقٍ بقوته بربه، وضَعْفِ قومه على كثرتهم، وإدلالهم عليه، وتهديدهم له بقوتهم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي حذف للاختصار، والاكتفاء أي عامل بقدر ما آتاني الله من القدرة، وعلى حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد. فكأنهم قالوا: ماذا يكون إذا عملنا على قوتنا. فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن﴾ إما استفهامية؛ أي: أيُّنا، أو موصولة أيَّ تَعْرِفون الذي ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: يذله ويُهينه أنا أم أنتم ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في قوله، ومن هو صادق مني ومنكم. وفي «الفتوحات» فـ (من) موصولة في محل نصب؛ أي: سوفَ تعلمون الشقيَ الذي يأتيه عذاب يخزيه، والذي هو كاذب، وهذا أحسن من قول الفراء (من) استفهامية في موضع رفع بالابتداءِ على معنى: أيّنا لا يأتيه العذاب، وأيُّنا هو كاذب، وإنما كان أحسن لأنَّ (من) الثانية موصولة أيضاً، ولا توصل بالاستفهام، وعلم عرفانية، انتهى. وهذا تصريح منه بالوعيد بعد التلميح بالأمر بالعمل المستطاع تعجيزاً لهم. ولما أوعدوه[1]، وكذبوه.. أراد أن يَدفَع ذلك عن نفسه، ويَلْحَقه بهم، فسَلَك سبيل إرخاء العنان لهم وقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من المعذب والكاذب مني ومنكم، وأينا الجاني على نفسه، والمخطىءُ في فعله، يريد أنَّ المعذَّب والكاذبَ أنتم لا أنا. قال الفراء: إنما جاء بهو في ﴿من هو كاذب﴾ لأنهم لا يقولون من قائم إنما يقولون: من قام، ومن يقوم، ومن القائم فزَادوا (هو) ليكونَ جملة تقوم مقام فَعَل ويفعلُ، ذكره الشوكاني.

فائدة: قال الزمخشري[2]: فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء في سورة الأنعام في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وحذفها هنا، حيث قال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قلت: إدخال الفاء وَصلٌ ظاهر بحرف موضوع للوصل، وحذفها وصل خفي تقديريٌّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

عَمِلنا نحن على مكانتنا، وعملت أنت على مَكَانَتِكَ. فقال: سوف تعلمون، يوصَل تارةً بالفاء، وتارةً بالاستئناف كما هو عادةُ البلغاء من العرب، وأقوى الوصلَين وأبلغهما الاستئنافُ؛ لأنه أبلغ في باب الفصاحة، والتهويل، وهو بابٌ من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾؛ أي: انتظروا مآلَ ما أقولُ لكم من حلول ما أَعِدُكم به، سيظهر صِدْقُه ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾؛ أي: منتظر لما يقضِي الله به بيننا، وهو فعيل بمعنى الراقب. وعبارة القرطبي: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾؛ أي[1]: انتظروا العذابَ والسخطةَ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾؛ أي: فإني منتظر النصر والرحمةَ. وكان شعيب عليه السلام يسمَّى خطيب الأنبياء، لحسن محاورته مع قومه، وكمال اقتداره في مراجعته جوابَهم، وكان كثيرَ البكاء حتى عَمِيَ ثم رَدَّ الله عليه بصرَهُ، فأوحى إليه يا شعيب: ما هذا البكاءُ أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال: إلٰهي وسيدي إنك تعلم أني ما أبكي شوقاً إلى الجنة، ولا خوفاً من النار، ولكن اعتقدت حبك بقلبي، فإذا نظرت إليك، فما أبالي ما الذي تصنع بي. فأوحى الله تعالى إليه: يا شعيب إن يكن ذلك حقاً.. فهنيئاً لك لقائي، يا شعيب، لذلك أَخْدَمْتُك موسَى ابنَ عِمرانَ كليمي.

وهذه حال المقربين، فإنهم جعلوا الله تعالى بين أعينهم، وجعلوا الخَلْقَ وراءَ ظهورهم، خِلافَ ما عليه أهل الغفلة، فلم يلتفتوا إلى شيء من الكَونين حُبّاً لله تعالى، وقصراً للنظر عليه، وهم العبيد الأحرار، والناس في حَقِّهم على طبقات. فأما أهل الشقاءِ فلم يعرفوهم مَنْ هم، ولم يَرَوْهم أصلاً لانطماس بصيرتهم، وعدم استعدادهم لهذا الانكشاف، ألا ترى إلى قوم شعيب، كيف حَجَبهم كونه أعمى في الصورة عن رؤية جمال نبوته، وظنُّوا أن لهم أبصاراً ولا بصرَ له، ولذا عدوه ضعيفاً، ولم يعرفوا أنهم عميٌ في الحقيقة، وأن أبصارهم الظاهرةَ لا تستجلب لهم شرفاً، وأنَّ الحقَّ مع أهل الحق، سواء ساعدته الأسباب

---

(١) القرطبي.

الصورية، والآلات الظاهرة أوْلا، فإن النَّاسَ مشتركون فيما يجري على ظواهرهم من أنواع الابتلاء، مفترقون فيما يَرِدُ على بواطنهم من أصناف النعماء، والله تعالى أرسلَ الأنبياء عليهم السلام إلى الناس الغافلين، ليفتحوا عيونَ بَوَاطِنَهم من نوم الغفلة، ويَدْعُوهم إلى الله تعالى ووصاله، ولقاءِ جماله، فمَنْ كان له منهم استعداد لهذا الانفتاح.. رضي بالتربيةِ والإرشاد، وقام في طريق الحق بالسعي والاجتهاد، ومَنْ لم يكن له منهم ذلك.. أبى واستكبر عن أخذ التلقين، وامتنع عن الوصول إلى حد اليقين، فبقي في الظلمات كالأعمى لا يَدْري أيْنَ يذهب، فيا أيها الأخوانُ ارجِعوا إلى رَبّكم مع القوافل الروحانية، فمِن قريب ينقطع الطريقُ، ولا يُوجد الرفيق.

ثُمَّ ذَكَرَ أنَّهُ كانَ صادقاً في وعيده لهم فَحَلَّ بهم سوء العذاب فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الذي قَدّرناه في الأزل من العذاب، والهلاك لقوم شعيب، فالأمرُ: واحد الأمور ﴿نَجَّيْنَا﴾ رسولنا ﴿شُعَيْبًا﴾ قدم تنجيتَه إيذاناً بسبق الرحمة التي هي مقتضى الربوبية على الغضب الذي يظهر أثره بموجب الجرائم، ﴿و﴾ نجينا ﴿الذين آمنوا معه﴾، واتبعوا شعيباً في الإيمان، وآمنوا كما آمنَ هو، فصدقوه على ما جاءهم به من عند ربهم، ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ أزلية صَدَرَتْ ﴿مِنَّا﴾ في حقهم، ومجرد فضل خاصٍّ بهم لا بسبب أعمالهم كما هو مَذْهَبُ أهل السنة. وقال بعضهم: هي الإيمان الذي وفقناهم له، يقول الفقيرُ[1]: وجه هذا القول أنَّ العذابَ والهلاكَ الذي هو من باب العدل قد أضيف إلى الكفر والظلم، فاقتضى أن يضافَ الخلاصُ والنجاة الذي هو من باب الفضل إلى الإيمان، ولمَّا كانَ الإيمانُ والعمل الصالح أمراً موقوفاً على التوفيق.. كان مجردَ فضل ورحمة فافهم.

فائدة: قال الزمخشري[2]: فإن قلت: ما الحكمة في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالواو في قصتي عاد ومدين، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالفاء في قصتي لوط وثمود؟

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

قلتُ: قد وقعت جملةُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ في قصة قوم لوط، وقصة قوم ثمود بعد ذكر الوعد، وذلك قوله في الأولى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾، وقوله في الثانية ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، فجِيءَ بالفاء التي للتسبب كما تقول: وعدته، فلما جاء الميعادُ كانَ كَيْتَ وكَيْتَ. وأما قصتا عاد ومدين، فلم تَقَعا بتلك المنزلة؛ وإنما وقَعَتا مبتدأتين، فكان حقهما أن يعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما، كما تعطف قصة على قصة، انتهى.

﴿وَأَخَذَتِ﴾؛ أي: أهلكت ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسَهم بالإباء والاستكبار، عن قبول دعوة شعيب وغيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه حلال ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ فاعل، أخذَت، وأنَّث[1] الفعل هنا على لفظ الصيحة، وقال في قصة صالح: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ فذكّر على معنى الصياح؛ أي: أهلكَتْهم صيحةُ جبريل عليه السلام بقوله: (موتوا جميعاً)، وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضي إليها، وهذا في أهل قرية شعيب، وأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بعذاب الظلة، وهو نارٌ نزلت من السماء أحرقَتْهُم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما أهلك الله أُمَّتَيْن بعذاب واحد، إلا قومَ صالح، وقومَ شعيب أهلكهم الله بالصيحة، غَيْرَ أنَّ قومَ صالح أَخَذَتْهُم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم الصيحةُ من فوقهم.

وذلك أنهم أصابهم حر شديد، فخَرَجُوا إلى غيضة لهم فدخلوا فيها، فظَهَرَتْ لهم سحابة كهيئة الظلة فأحدقَتْ بالأشجار، وأَخذَتْ فيها النار، وصاح بهم جبريل، ورجفَتْ بهم الأرض، فماتوا كلهم، واحترقُوا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾؛ أي: صاروا ﴿فِى دِيَٰرِهِمْ﴾؛ أي في بلادهم أو مساكنهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: ساقطينَ ميتينَ، لازمينَ لأماكنهم لا براحَ لهم منها؛ أي: لا زوالَ حالةَ كونهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾؛ أي: كأنهم لم يقيموا في ديارهم أحياء

---

(١) القرطبي.

متصرفين، في أطرافها مترددينَ متقلبينَ في أكنافها. ثم دعا عليهم فقال: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾؛ أي: هلاكاً لأهل مدين، وبعداً من رحمة الله تعالى ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾؛ أي: كما هلكت من قبلهم ثمود، وبعدت من رحمة الله تعالى بإنزال سَخَطِه بهِم، شَبَّه هلاكهم بهلاكهم، لأنهما أُهلِكَتا بنوع من العذاب وهو الصيحة كما مرَّ آنفاً.

والخلاصة[1]: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى أرسلَ على كل من ثمود ومدين صاعقةً ذاتَ صوت شديد، فرجَفَتْ أرضها، وزلزلت من شدتها، وخروا ميتين، وكانت صاعقتهما أشد من الصاعقة التي أخذَتْ بني إسرائيل حين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾. وقد أحياهم الله تعالى عَقِبَها؛ لأنَّ هذه تربية لقوم بني إسرائيل في حضرته، وتلك صاعقة كانت عذابَ خزي لمشركينَ ظالمينَ معاندِينَ أنجى الله نبِيَّ كل منهما، ومؤمنيهما قبلها. وقرأ أبو[2] عبدالرحمن السلمي، وأبو حيوة: ﴿كما بَعُدت﴾ بضم العين من البعد الذي هو ضد القرب. والجمهور بكسرها. أرادت العرب: التفرقةَ بين البعد من جهة الهلاك، وبين غَيره فغيَّروا البناءَ. وقرأه السلمي جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البُعْدِ من غير تخصيص، كما يقال: ذَهَبَ فلان ومَضَى، في معنى القرب.

وفي الآية[3] إشارة إلى أن الكفرةَ وأهلَ الهوى، أفسدوا الاستعدادَ الروحانيَّ الفطريَّ، في طلب الدنيا، واستيفاء شهواتها، والاستكبار عن قبول الحق والهدى، وأدَّى تمردهم عن الحق، وتماديهم في الباطل إلى الهلاك صورةً ومعنًى. وأما صورة فظاهرٌ. وأما معنى: فلأنهم أبعدوا عن جوار الله وطيب العيش معه إلى أسفلِ سافلي القطيعة فبَقَوا في نار الفرقة، لا يحيون، ولا يموتونَ، وما انتفعوا بحياتهم فَصاروا كالأموات، وكما أنَّ الصيحةَ من جِبْرِيلَ أهلكتهم فكذا النفخة من شعيب أحيَتْ المؤمنينِ لأنَّ أَنْفَاس الأنبياء، والأولياء كنفخ إسرافيل في الأحياء إذا كان المحلُّ صالحاً لطرح الروح فيه كجسد

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

الإكسير. وقد سبق أنَّ قومَ شعيب عدوه ضعيفاً فيما بينهم، وما عرفوا أنَّ اللَّهَ القويَّ معه، فعلى الصالحين أن يَعْتَبِرُوا بأحوال الصالحين، فإنهم قد أخَذُوا الدنيا، وآثَرُوها على الآخرة ثمَّ سلبهم الله أموالَهم، وديارَهم، كأن لم ينتفعوا بشيء، ولم يقيموا في دار. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أرسلنا ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمرانَ حالةَ كونه متلبساً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التسع التي هي العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونقص الأموال والأنفس الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا. وقيل: المراد بالآيات التوراةُ، وبالسلطان، العصا، واليد؛ أي: ولقد أرسلنا موسى بالتوراة مع ما فيها من الأحكام، وأيدْناه بمعجزات قاهرة دالةٍ على صدق نبوته، ورسالته، وهذا القول ليس بسديد؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾، والتوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وملأه، ذكره أبو حيان في «البحر». ﴿و﴾ متلبساً بـ﴿سلطان﴾؛ أي: برهان ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: واضح هو نفس تلك الآيات فهو من قبيل عطف الصفة مع اتحاد الموصوف؛ أي: ولقد أرسلنا موسى بالأمر الجامع بين كونه آياتنا، وبين كونه سلطاناً له على صِدْقِ نبوته واضحاً في نفسه، أو مُوضِّحاً إياها، فإنَّ أبان جاء لازماً ومتعدياً، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾؛ أي: التوراة الجامعةَ بين كونِهَا كِتَاباً وحجةً تفرق بين الحق والباطل، ويجوز أن يرادَ بسلطان مبين الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾. قال بعض المحققين: سميت الحجة سلطاناً؛ لأنَّ صاحب الحجة يَقْهَرُ مَنْ لا حجة معه كالسلطان يَقْهر غيره، اهـ «خازن».

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾؛ أي: أشراف قومه، ورؤسائهم، وتخصيص ملأه بالذكر مع عموم رسالته لقومه كافَّة لأصالتهم في الرأي، وتدابير الأمور، واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور. ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ في كل ما قَرَّره من الكفر بموسى، ورَدِّ ما جاءهم به من عند الله، وتشديد الظلم على بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم، واستحياء نسائهم إلى نحو ذلك مما جاء في السور الأخرى مفصَّلاً؛ أي: فاتبع الملأ أَمْرَ فرعونَ وأطاعوا قولَه، حين قال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وخالفوا أَمْر موسى بالتوحيد، وقبول الحق، وإنما لم يصرِّح بكفر

فرعون بآيات الله تعالى للإيذان بوضوح حاله، فكأنَّ كُفْرَه وأمرُ ملأه بذلك محقق الوجود، غير محتاج إلى الذكر صريحاً، وإنما المحتاج إلى ذلك شأن ملأه المترددين بين هاد إلى الحق، وداعٍ إلى الضلال فقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ معطوف على مقدر؛ أي: فكفَر بها فرعونُ، وأمرهم بالكفر، فاتبعوا أمر فرعون؛ أي: أطاعوه. وإيراد (الفاء) للإشعار بمسارعتهم إلى الاتباع، فكأنه لم يَتَراخَ من الإرسال، والتبليغ بل وَقَعَا في وقت واحد. ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: وما شأنه وتصرفه ﴿بِرَشِيدٖ﴾؛ أي: بصالح حميد العاقبة، بل هو محض غيٍّ وضلالٍ، وظلم، وفساد، لغروره بنفسه، وكفرانه بربه، وطغيانه في حكمه، فإنه كان دهرياً نافياً للصانع والمعاد، وكان يقول: لا إلَه للعالم، وإنما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم، وعبوديته رعايةً لمصلحة العالَم.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾؛ أي: يتقدم فرعون قومه وأتباعه من الأشراف وغيرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ويكونون تَبَعاً له كما كانوا تَابِعينَ له في الدنيا إلا مَنْ آمنَ ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾؛ أي: فيوردهم النارَ معه، ويُدْخِلُهم جَهنَّمَ. وقد وَرَدَ أن آله يعرضون على النار منذ ماتوا صباحاً ومساءً من كل يوم كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ ؛ أي: إن فرعونَ كان قُدوةً لقومه في الضلال، وفي دخول البحر، والغرق في الدنيا، فكذلك يتقدَّمهُم في الآخرة في دخول النار والحرق. وعَبَّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ للدلالة على تحقق الوقوع، لا محالةَ؛ لأنَّ الماضِيَ متيقن الوجود ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾؛ أي: وبئس المَدْخَلُ المدخول فيه، والمَشْرَبُ الذي يشرب منه، والمخصوص بالذمِّ النارُ؛ لأنَّ واردَ الماء إنما يَرِدُه لِتبريد كبدِهِ، وإطفاء غُلَّتِهِ مِنْ حَرِّ الظمأ، ووارد النار يحترق فيها احتراقاً.

واعلم[1]: أن الورودَ عبارة عن المجيء إلى الماء، والإيراد إحضار الغير، والمورود الماء فشبه فرعونَ بالفارط الذي يتقدم الواردَ إلى الماء، وأتباعَه بالواردة،

(١) روح البيان.

والنارَ بالماء الذي يَرِدُونَه. ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾؛ أي: وأتبع الملأ الذين اتبعوا فرعونَ في هذه الدنيا طرداً وبُعْداً عن الرحمة؛ أي: وألحقت بهم في هذه الدنيا لعنة عظيمة مِمَّنْ بَعْدَهم من الأمم ﴿وَ﴾ أتبعوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لعنةً أخرى، أيضاً مع اللعنة التي حَصَلَتْ لهم في الدنيا يَلْعَنُهم أهل الموقف جميعاً، فهي تابعة لهم حيثما سارُوا، ودائرة أينما دَاروا. والآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾. وفي «السمين» قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ معطوف على موضع في هذه، والمعنى: أنهم ألحقوا لعنةً في الدنيا، وفي الآخرة، ويكون الوَقْفُ عليها تامّاً، ويبتدأُ بـ (بئس) اهـ.

أي[1]: فَكَما اتبعوا أَمْرَ فِرْعَونَ،أتبعتهم اللعنة في الدارين جزاءً وفاقاً، أو يُلْعَنُون، ويُطردون من رحمة الله تعالى في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بما فيها من عذاب، فإن كُلَّ معذَّبٍ مَلْعونٌ مطرودٌ من الرحمة، كما أنَّ كلَّ مخذولٍ محرومٌ من التوفيق، والعناية كذلك، واكتفى ببيان حالهم الفظيع عن بيان حال فرعون. إذْ حِينَ كان حالُهم هكذا، فَمَا ظنك بحال من أغواهم، وألقاهم في هذا الضلال البعيد، وحيثُ كانَ شأنُ الأتباعِ أن تكون أعواناً للمتبوع، جُعلت اللعنة رِفداً لهم على طريقة التهكم. فقيل: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ﴾؛ أي[2]: العَونُ، والمرادُ به اللعنةُ الأولى ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾؛ أي: المعانُ باللعنة الثانية؛ أي: بئس اللعنةُ الأولى المُعانُ باللعنة الثانية عونهم، وهي اللعنة في الدارين. فاللعنة الأولى: عَوْنٌ لهم معاونةٌ باللعنة الثانية، وهذا على سبيل التهكم بهم، وإلا فاللعنة إذْلالٌ لهم، وإنزالٌ بهم إلى الحضيض الأسفل. وسمِّيت اللعنة عَوْناً لأنها إذا تَبِعَتْهم في الدنيا أَبْعَدَتْهم عن رحمة الله تعالى، وأعانَتْهم على ما هم فيه من الضلال. وسمِّيت رفداً؛ أي: عوناً لهذا المعنى على سبيل التهكم. وسميت مُعَاناً لأنها أُردفَت في الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هَادِيَيْنِ إلى طريق الجحيم، اهـ «زاده». وقال الزجاج: كلُّ شيء جعلته عَوْناً لشيء، وأسندْتَ به شيئاً، فقد رفدتَه، والمعنى: بئس العونَ المعان

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

رِفْدُهم، وهي اللعنة في الدارين، وذلك أن اللعنة في الدنيا رفدٌ للعذاب، ومددٌ له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة. وفي الآية بيان شقاء فرعون، وأنه لم ينفعه إيمانه حين الغرق، ولو نفَعه لما كان قائدَ قومه إلى النار. وفي الآيات[1] من العبرة أنَّ في البشر فراعنة كثيرينَ يغوون الناس، ويستعبدونهم، فيطيعونهم، ويذلون لهم ذل العبيد، ولا تفيدهم هِدَايةُ القرآن شيئاً، ومنهم من يدعون الإسلام، ولا يفهمون قولَ الله تعالى لرسوله في آية مبايعة النساءِ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، وقوله ﷺ: «لا طاعةَ لأحد في معصية اللّهِ إنما الطاعة في المعروف».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الخبر الذي قصصناه عليك يا محمد ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾، والمدن؛ أي: بعضُ أخبار أهل القرى المهلكة من الأمم الماضية بما جَنَتْ أيدي أهلها من قوم نوح، ومَنْ بعدهم ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ في هذا القرآن، ونخبره لك لتتلوه على الناس فيكون فيه دلائل نبوتك، ويتلوه المؤمنون آناءَ الليل وأطراف النهار، إنذاراً وتبليغاً عَنَّا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك القرى ﴿قَائِمٌ﴾؛ أي: باق أثره وجدرانه كالزرع القائم على ساقه كديار عاد وثمود. ﴿وَ﴾ منها ﴿حصيد﴾؛ أي: عافي الأثر، وذاهبه كالزرع المحصود، كقُرى قوم لوط، وديار قوم نوح، فشَبَّه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه، وما محي منها بالزرع المحصود. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾؛ أي: وما ظلمنا أَهْلَ تلك القرى بإهلاكنا إياهم بغير جُرْمٍ استحقوا به الهلاك، فالضمير عائد إلى الأهل المحذوف المضاف إلى القرى ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما يُوجب الهلاكَ مِنْ شركِهم، وإفسادهم وإصرارهم على ذلك حتى لم يبق فيهم استعداد لقبول الحق، ولو بَقَوا زَماناً ما ازدادوا إلا ظلماً وفجوراً وفساداً في الأرض، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾. فإنهم أكلوا رِزْقَ الله، وعبدوا غَيْرَه وكذبوا رسله. وفيه إشارة إلى أنه تعالى أعطاهم استعداداً روحانياً، وآلةً لتحصيل كمالات لا يدركها الملائكة المقربون، فاستعملوا تلك الآلةَ على وَفْقِ الطبيعة لا على حكم الشريعة، فعبَدُوا طاغوت الهوى، ووثَنَ الدنيا،

---

(١) المراغي.

وأصنامَ شهواتها، فجاءهم الهلاك من أيدي الأسماء الجلالية. وقد بالغ رسلُهم في وعظهم وإرشادهم، فما زادهم ذلك إلا عتوّاً واستكباراً، وأنذروهم بالنذر، فما زادهم ذلك إلاّ إصراراً وعناداً، ثِقَةً منهم بأن آلهتهم تَدْفَعُ عنهم كُلَّ مُخوِّف وَتُبْعِدُ عنهم كل محذور جهلاً منهم بما كانوا يعملون. ومن ثَمَّ قال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فما دَفَعَتْ بأس الله عنهم، ولا نَفَعَتْهُم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ﴾؛ أي: يعبدونها ففيه حكايةُ حال ماضية ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: حالَةَ كونهم متجاوزينَ عبادةَ الله، ويطلبون منها أن تَدْفَعَ عنهم الضرَّ بنفسها، أو بشفاعتها ﴿مِن شَيْءٍ﴾ في موضع المصدر؛ أي: ما أغنت عنهم، ولا نفعَتْهُم شيئاً قليلاً من الإغناء ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ منصوب بـ﴿أغنت﴾؛ أي: ما أغنتهم شيئاً من الإغناء والنفع حين مجيء عذاب ربك، ونقمته، وهي المكافأة بالعقوبة. والمعنى: فما دفعَتْ عنهم أصنامهم التي يعبدونها من دون الله شيئاً من العذاب، حين جاء عذابُ ربك. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ الضمير المرفوع للأصنام، والمنصوب لعبدتها، وعبَّر عن الأصنام بواو العقلاء؛ لأنَّهم نَزَّلُوها مَنْزِلَةَ العقلاء في عبادتهم إياها، واعتقادهم أنها تنفع وتضر؛ أي: وما زادت الأصنام لعابديها ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾؛ أي: غَيْرَ إهلاك وتخسير، فإنهم إنما هلكوا بسبب عبادتهم لها، وكانوا يعتقدون في الأصنام جَلْبَ المنافع، ودَفْعَ المضارِّ فَزَالَ عنهم بسبب ذلك الاعتقاد منافع الدنيا والآخرة، وجَلَب ذلك إليهم مضارَّ الدنيا والآخرة، وذلك من أعظم الهلاك، وأشد الخسران. والمعنى: وما زادَتْهم الأصنامُ التي يعبدونها إلا هَلاكاً، وخسراناً، وقد كانوا يَعْتَقِدُون أنها تُعِينُهم على تحصيل المنافع.

ويقال: تببه تتبيباً إذا أهلكه، وتبَّ فلانُ وتَبَّتْ يده خَسِرَ، أو هلك كما سيأتي في مباحث الصرف إن شاء الله تعالى. وقرىء[1]: ﴿آلهتهم اللاتي﴾ بالجمع ﴿ويدعون﴾ بالبناء للمجهول. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ قرأ[2] أبو رجاء، والجحدري: ﴿وكذلك أخذَ ربُّك إذ أخذ﴾ على أَنَّ أَخَذَ ربك فعل وفاعل، و(إذ) ظرف لما مضى، وهو إخبار عما جرت به عادة الله في إهلاك من تقدم من الأمم.

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ﴾. قال ابن علية: وهي قراءة متمكنة المعنى، ولكن قراءة الجماعة تعطي الوعيد، واستمراره في الزمان، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي. وقرأ غيرهما: ﴿أَخْذ﴾ على المصدر، والكاف في محل رفع على أنها خبر مقدم للمصدر المذكور بعدها؛ أي: ومثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي مر بيانه في الأمم الماضية أخذ ربك، وإهلاكه القرية أي قرية كانت. ﴿إِذَآ أَخَذَ﴾ وأهلك ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: أهلها، وإنما أسندَ الإهلاك إلى القرى لِلأشعار بسريان أثره إليها. ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ جملة حالية من القرى، وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أُقيمت مقامهم في الأخذ أجريت عليها.

وفائدتها: الإشعارُ بأنهم أخذوا بظلمهم وكفرهم ليكونَ ذلك عبرةً لكل ظالم.

والمعنى: أي ومثل ذلك الأخذ المذكور بالعذاب، وعلى نَهجه وطريقِهِ أخذ ربك أهلَ القرى إذا أخَذَهم، وهم ظالمون أنفسَهم بالكفر، والإفساد؛ أي: إنَّ كُلّاً[1] من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي، فلا بد وأن يشاركَهم في ذلك الأخذ، فذلك عقابٌ لا مفرَّ منه، ولا مَهْرَب.

وفي هذا إنذارٌ وتحذير من سوء عاقبة الظلم لكل قرية ظالمة في كل زمان ومكان. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ﴾ سبحانه وتعالى وإهلاكه للأمم ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: وجيع قاسي لا يُرجَى منه الخلاص؛ أي: إنَّ عقوبته سبحانه وتعالى لمن ظلم عقوبة مؤلمة شديدة صعبة على المأخوذ والمعاقَب، لا يُرْجى مِنها الخلاص.

روى البخاري ومسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذَا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾، فليعتبر[2] الظالمون بهذا، ولا يغتروا بالدين الذي ينتسبون إليه دون أن يعملوا ما يرفع عنهم غَضَب ربهم، ونقمتَه، فربما كان ذلك إملاءً منه

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

تعالى، واستدراجاً لهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إنَّ فيما[1] نَزَل بالأمم الهالكة بذنوبهم، أو إنَّ فيما قصه الله سبحانه وتعالى من إهلاك تلك الأمم السبعة، وبيان سنته في عاقبة الظالمين. ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعبرة بينة وموعظةً بالغةً، وحجةً ظاهرة. ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: لمن[2] أقر عذابَ الآخرة، وآمن به، وصدَّقه، وخافَ منه؛ لأنه يعتبر بتلك الأمم حيثُ يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة، وذلك لأنَّ القَصَص المذكورة فيها عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة، وقد حصَلَ الأول فيعلم العاقل أنَّ القادر على إنزال الأول قَادِرٌ على إنزال الثاني. وأمَّا مَنْ أنكر الآخرةَ، وأحال فَنَاءَ العالم، ولم يقل بالفاعل المختار، وجَعَلَ تِلك الوقائعَ لأسباب فَلَكِية اتفقت في تلك الأيام، لا لذنوب المهلكين فهو بمعزل من هذا الاعتبار، تبّاً لهم، ولما لهم من الأفكار. وعبارة أبي حيان هنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فيما[3] قصَّ اللَّهُ سبحانه وتعالى من أخبار الأمم الماضية، وإهلاكهم ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: لعلامة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: أنهم إذا عذبوا في الدنيا لأجل تكذيبهم الأنبياءَ، وإشراكهم بالله، وهي دار العمل، فلأن يعذبوا على ذلك في الآخرة التي هي دار الجزاء أولى، وذلك أنَّ الأنبياء أخبروا باستئصال من كذبهم، وأشركوا بالله، ووقع ما أخبروا به وفق إخبارهم فدلَّ على أنَّ ما أخبروا به من البعث والجزاء صدق لا شكَّ فيه، انتهت.

والماديون في هذا العصر[4]، وفي عصور سابقة كما حكاه البيضاوي عن بعض أهل عصره يقولون: إن الطوفانَ والصاعقةَ وخسفَ الأرض كل أولئك قد حَدَثَ بأسباب طبيعية لا بإرادة الله تعالى واختياره لتربية الأمم. ويكفي في الرد عليهم أن يقال: إنَّ حدوثَ هذه الأشياءِ وغيرها بالأسباب الموافقة لسنن الله في نظام العالم هو المراد بالقضاء والقدر في القرآن الكريم، والله تعالى أحدث هذه الأسبابَ في أوقات معينة بحكمته لعقاب تلك الأمم بها، ولم تكن من قبيل المصادفات.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

والدليل على ذلك أن أولئك الرسلَ أنذروا أقوامَهم بحدوثها قبل أن لم تكن، ومنهم من ذكر وقتها على سبيل التعيين، والتحديد. وهكذا يفعل الله بالظالمين في كل زمان، وإن لم يكن فيهم من ينذرهم بوقوع ما يحل بهم اكتفاء بإنذار القرآن الكريم كما قال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة؛ أي: ذلك اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يوم يجمع فيه الناس كلهم الأولون والآخرون ليحاسبوا على ما عملوا، ثم يوفوا جزاءهم بالعدل والقسطاس ﴿وَذَٰلِكَ﴾ اليوم الذي يجمع فيه الناس الذي هو يوم القيامة؛ لأن اسم الإشارة عائد إلى يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ فيه؛ أي: يشهده الخلائق جميعاً من الإنس والجن، والملائكة، وغيرهم حيث[1] يشهد فيه أهل السموات والأرضين للموقف، لا يغيب عنه أحدٌ، فالمشهود هو الموقف، والشاهدون؛ أي: الحاضرون الخلائق، والمشهود فيه اليوم فاتسع فيه إجراءً للظرف مجْرَى المفعول به، بجعله مشهوداً، وإنما هو مشهود فيه، فاتسع فيه بأن وصل الفعل إلى ضميره، من غير واسطة، كما يصل إلى المفعول به، اهـ «سمين».

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: أيُّ فائدة في أن أوثر اسمُ المفعول على فعله؟

قلت: أوثر اسم المفعول لما فيه من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه لا بدّ أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له، وأنه هو الموصوف بذلك صفة لازمةً، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه، وفيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل. ومعنى: ﴿مَّشْهُودٌ﴾ مشهود فيه، فاتسع في الجار والمجرور ووصل الفعل إلى الضمير إجراءً له مجرى المفعول به على السعة كقوله:

وَيَـوْمَـاً شَـهِـدْنَـاهُ سُـلَـيْـمَـاً وَعَـامِـرَاً

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى: يشهد فيه الخلائق الموقفَ لا يغيب عنه أحد، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور، وإنما لم يجعل اليومَ مشهوداً في نفسه كما قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾ لأن الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعِظم وغيره من بين الأيام، وكونه مشهوداً في نفسه لا يميزه إذ هو موافق لسائر الأيام في كونها مشهودةً، انتهى.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾؛ أي: وما نؤخِّر ذلك اليومَ ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾؛ أي: إلا لأجل انقضاء أجل معلوم عدده. وانتهاء مدة معلومة في علمنا مضروبة بحسب ما تقتضيه الحكمة لا تزيد، ولا تنقض، وهي انتهاء مدة الدنيا، وكل شيء معدود محدود قريب، ولم يطلع الله سبحانه وتعالى أحداً من خلقه على معرفة ذلك اليوم. وفي[1] الآيات تهديد وتخويفٌ من الله تعالى، وحث على تصحيح الحال، وتصفيةِ البال وتزكية الأعمال، ومحاسبة النفوس قبل بلوغ الآجال، فإن العبد لا يحصد إلا ما يزرع، ولا يشرب إلا بالكأس التي يَسْقي، فعلى العاقل أن يتداركَ ما فاتَ ولا يضيع الأوقاتَ.

والظرف في قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ وفاعل (يأت) ضمير يعود على (اليوم) أي: حين يأتي ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله، وهو يوم القيامة، فلا يلزم أن يكونَ للزمان زمانٌ، وذلك لأن الحينَ مشتمل على ذلك اليوم، وغيره من الأوقات، ولا محذور في كون الزمان جزءاً من زمان آخر، ألا ترى أنَّ الساعةَ جزء من اليوم، واليوم من الأسبوع، والأسبوع من الشهر، والشهر من العام.

و﴿يَأۡتِ﴾ بحذف الياء اجتزاءً عنها بالكسرة، كما قالوا: لا أدر ولا أُبال، وهو كثير في لغة هذيل. روي عن عثمانَ رضي الله عنه أنه عرض عليه المصحف، فوجد فيه حروفاً من اللحن، فقال: لو كان الكاتب من ثقيف، والمملي من هذيل.. ما وجد فيه هذه الحروف. فكأنه مَدَح هذيْلاً بالفصاحة.

﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ بحذف إحدى التاءين؛ أي: لا تتكلم ﴿نَفۡسٌ﴾ من الأنفس

---

(١) روح البيان.

الناطقة بما ينفع، ويُنجي من جواب، أو شفاعة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى إذ لا يملك أحد فيه قولاً، ولا فعلاً إلا بإذنه تعالى في التكلم. فالمأذون[1] من الكلام هو الجوابات الصحيحة، والممنوعُ منه هو ذكر الأعذار الباطلة كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، ويوم القيامة يوم مقداره ألف سنة من سني الدنيا. ففيه مواقف، وأزمنة، وأحوال، مختلفة يتكلمون في بعضها، ويتساءلون كما قال: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾. ولا يتكلمون في بعضها لشدة الهول، والفزع، وظهور آثار سطوة القهر، أو لعدم الإذن لهم في الكلام، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ويُختم في بعضها على أفواههم، وتتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم، وبهذا التفصيل يجمع بينَ الآيات المتعارضة ظَواهِرُها.

وقرأ الأعمش[2]: ﴿وما يؤخره﴾ بالياء. وقرأ النحويان أبو عمرو، والكسائي، ونافع: ﴿يأتي﴾ بإثبات الياء وصلاً، وحذفَها وقفاً. وقرأ ابن كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً، وهي ثابتة في مصحف أُبيٍّ. وقرأ باقي السبعة بحذفها وصلاً ووقفاً. وسقطت في مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه. وقرأ الأعمش: ﴿يأتون﴾ وكذا في مصحف عبد الله، وإثباتها وقفاً ووصلاً هو الوجه. ووجه[3] حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائي أن الفعلَ السالمَ يوقف عليه كالمجزوم، فحذفت الياء، كما تحذف الضمة، ووجه قراءة مَنْ قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رَسْمَ المصحف كذلك. وَحَكى الخليل، وسيبويه: أن العرب تقول: لا أدر فتحذف الياء، وتجتزىء بالكسر. وأنشد الفراء في حذف الياء:

كَفَاكَ كَفٌّ مَا تَلِيقُ دِرْهَمَاً ... جُوْدَاً وَأُخْرَىٰ تُعْطِ بِٱلسَّيْفِ ٱلدَّمَا

قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء، انتهى.

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

﴿فَمِنۡهُمۡ﴾؛ أي: فممن يجمع في ذلك اليوم ﴿شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بموجب الوعيد، فهو مستحق للعذاب الأليم، الذي أوعدَ به الكافرون ﴿وَسَعِيدٌ﴾؛ أي: ومنهم سعيد، وجَبَت له الجنة بمقتضى الوعد، فهو مستحق لما وعد به المتقون من الثواب، والنعيم الدائم، وتقديم الشقي على السعيد؛ لأن المقامَ مقام التحذير والإنذار، والأطفال والمجانين لا يدخلون في هذا التقسيم لعدم التكليف، ويدخل فيه من استوت حَسَناتهم وسيئاتهم من المؤمنين، ومن تغلب سيئاتهم، ويعاقبون عليها إلى حين ثم يدخلون الجنةَ؛ لأنهم فريق السعداءِ باعتبار العاقبة، فالسعداء درجات، والأشقياء دركات، وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث، كالأطفال والمجانين.

روى الترمذي وأبو يعلى وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، قلت: يا رسول الله، فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه، قال: «بل على شيء قد فرغ منه، وجَرَتْ به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له». وروي عن علي كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ أنه كان في جنازة فأخَذَ عوداً فجعل يَنْكتُ في الأرض، فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾.

والمراد أن الله يعلم الغيب، وأنه يعلم المستقبل كلَّه بجميع أجزائه، وأطرافه، ومنه عمل العاملين، وما يترتب على كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده في كتابه المنزل، وكتابته للمقادير، والنبي ﷺ، علَّمنا أنَّ الجزاء بالعمل، وأنَّ كُلاً ميسر له، ومسهل عليه ما خلقه الله لأجله من سعادة الجنة، أو شقاوة النار، وأنَّ ما وَهَبه من الاستعداد والعزيمة يكون له تأثير في تربية النفس، وتوجيهها إلى ما تعتقد أنَّ فيه سعادتَها وخَيْرُها.

قال في «التبيان»[1]: علامة الشقاوة خمسة أشياء: قساوة القلب، وجمود العين، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل، وقلة الحياء. وعلامة السعادة خمسة

(١) روح المعاني.

أشياءٍ أيضاً: لين القلب، وكثرة البكاء، والزهد في الدنيا، وقصر الأمل، وكثرة الحياء. وفي «التأويلات النجمية» ﴿شَقِيٌّ﴾ محكوم عليه بالشقاوة في الأزل، ﴿وَسَعِيدٌ﴾ محكوم عليه بالسعادة في الأزل، وعلامة الشقاء الإعراض عن الحق، وطلبه، والإصرار على المعاصي من غير ندم عليها، والحرص على الدنيا، حلالها وحرامها، واتباع الهوى، والتقليد، والبدعة. وعلامة السعادة: الإقبال على الله وطلبه، والاستغفار من المعاصي، والتوبة إلى الله، والقناعة باليسير من الدنيا، وطلب الحلال منها، واتباع السنة، واجتناب البدعة، ومخالفة الهوى، انتهى.

الإعراب

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري الاستهزائي. (صلاتك) مبتدأ. ﴿تَأۡمُرُكَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على (صلاتك) والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿أَن نَّتۡرُكَ﴾ ناصب ومنصوب، وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول الترك، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر، محذوف تقديره: بترك عبادة ما يعبد آباؤنا، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تأمر﴾. ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما يعبد آباؤنا. ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف بمعنى الواو، التي للجمع. ﴿أَن نَّفۡعَلَ﴾ ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب. ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا﴾ متعلق به. ﴿مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ (ما) موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿نفعل﴾ في تأويل مصدر معطوف على ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ تقديره: أصلاتك تأمرك بتركِ عبادة ما يعبد آباؤنا، أو بترك فعلنا في أموالنا ما نشاء. ﴿نَشَٰٓؤُاْ﴾ فعل مضارع،

وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما نشاؤه. ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَأَنتَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء. ﴿أنت﴾ تأكيد للكاف أو ضمير فصل. ﴿ٱلْحَلِيمُ﴾ خبر إن. ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ صفة للحليم، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها معلّلةً لما قبلها.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملةُ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فعل وفاعل، وهي هنا بمعنى: أخبروني فتنصب مفعولين، وقد حذفا معاً من النظم الكريم، وتقدير الأول أخبروني فياء المتكلم هي المفعول الأول، والثاني محذوف أيضاً تقديره: أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، ورزقني منه رزقاً حسناً أفأشوبه بالحرام، فالجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول ثان، وجملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿إِن كُنتُ﴾ جازم، وفعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم بـ (إن) على كونه فعلَ شرط لها. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ صفة لـ﴿بينة﴾. ﴿وَرَزَقَنِي﴾ فعل ومفعول أول و (نون) وقاية، وفاعله ضمير يعود على الرب، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة (كان). ﴿مِنْهُ﴾ جار ومجرور حال من ﴿رزقاً﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول ثان. ﴿حَسَنًا﴾ صفة له، وجواب (إن) الشرطية محذوف، تقديره: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، ورزقني منه الرزقَ الحلالَ، والهداية، والنبوة، والمعرفة فهل يسعني مع هذه النعم العظيمة أن أخون في وجه أو أن أخالف أمره أو أتبع الضلال أو أبخس الناس أشياءَهم، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم، وذلك أنهم قالوا له: إنك لأنت الحليم الرشيد، والمعنى: فكيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه، وله عليه نعم

كثيرة، ذكره في «الخازن» وجملة (إن) الشرطية مَعَ جوابها المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ (الواو) عاطفة. (ما) نافية. ﴿أُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ على كونها مقولَ قال. ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على شعيب. ﴿إِلَىٰ مَآ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: وما أريد مخالفتَكم إلى ما أنهاكم عنه. ﴿أَنْهَىٰكُمْ﴾ فعل ومفعول. ﴿عَنْهُۚ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ (إن) نافية. ﴿أُرِيدُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ مفعول به. ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ ﴿ما﴾ مصدرية ظرفية. ﴿ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه، تقديره: إن أريد إلاَّ الإصلاحَ مدة استطاعتي. ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ (الواو) عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿تَوْفِيقِىٓ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بِٱللَّهِۚ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، تقديره: وما توفيقي إلا كائن بالله، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلَها على كونها مقولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿أُنِيبُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء معطوف على المنادى الأولى على كونها مقولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ فعل ومفعول و (نون) توكيد في محل الجزم بـ﴿لا﴾. ﴿شِقَاقِىٓ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول

﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداءِ. ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ ناصب وفعل ومفعول أول. ﴿مِّثْلُ﴾ فاعل وهو مضاف. ﴿مَآ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لجرم تقديره: ويا قوم لا يكسبنكم عداوتي إصابتكم عَذَاب مثل ما أصاب. ﴿أَصَابَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾. ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة لـ(ما) أو صفة لها. ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ معطوفان على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾. ﴿وَمَا﴾ (الواو) عاطفة. ﴿ما﴾ نافية أو حجازية. ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ مبتدأ أو اسم ﴿ما﴾. ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (الباء) زائدة. ﴿بعيد﴾ خبر المبتدأ، أو خبر لـ(ما) منصوب بفتحة مقدرة، والجملة الاسمية في محل النصب مقولُ ﴿قَالَ﴾. وأتى ﴿بِبَعِيدٍ﴾ مفرداً، وإن كان خبراً عن جمع لأحد أوجه: إما لحذف مضاف تقديره: وما إهلاك قوم لوط، وإما باعتبار زمان؛ أي بزمان بعيد، وإما باعتبار مكان؛ أي: بمكان بعيد، وإما باعتبار موصوف غيرهما؛ أي: بشيء بعيد، كذا قدره الزمخشري، وتبعه الشيخ، وفيه إشكال من حيث إنَّ تقدير زمان يلزم فيه الإخبار بالزمان عن الجثة، وقال الزمخشري أيضاً: ويجوز أن يستوي في بعيد، وقريب، وقليل، وكثير، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي كالصهيل، والنهيق، ونحوهما، اهـ «سمين». ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ على كونه مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾. ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ناصب واسمه. ﴿رَحِيمٌ﴾ خبره. ﴿وَدُودٌ﴾ خبر ثان، وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلتُ: ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿نَفْقَهُ كَثِيرًا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها

جوابَ النداء. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾، وجملة ﴿تَقُولُ﴾ صلة لـ(ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تقوله. ﴿وَإِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فعل ومفعولان. ﴿فِينَا﴾ جار ومجرور حال من ﴿ضَعِيفًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، وفاعله ضمير يعود على قوم شعيب، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَوْلَا﴾ (الواو) عاطفة. ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود. ﴿رَهْطُكَ﴾ مبتدأ والخبر محذوف وجوباً تقديره: ولولا رهطك موجود ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لولا﴾ وجملة ﴿لولا﴾ معطوفة على ما قبلَها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ (ما) حجازية أو تميمية. ﴿أَنتَ﴾ اسمها أو مبتدأ. ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق ﴿بِعَزِيزٍ﴾. ﴿عزيز﴾ خبر (ما) أو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على شعيب، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ مقول محكي، وإن شئت.. قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَرَهْطِيٓ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري المضمن للتوبيخ ﴿رهطي أعزُّ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَعَزُّ﴾. وكذا يتعلق به ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول. ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من ﴿ظِهْرِيًّا﴾. ﴿ظِهْرِيًّا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على الجملة الاسمية على كونها مقولَ ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿مُحِيطٌ﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿مُحِيطٌ﴾ خبر (إن) وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ منادى معطوف على المنادى الأول.

﴿أَعْمَلُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ جار ومجرور حال من (واو) ﴿أَعْمَلُواْ﴾ أي حالةَ كونكم موصوفينَ بغاية إمكاناتكم. ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ ناصب واسمه وخبره والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿سَوْفَ﴾ حرف تنفيس. ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿مَن﴾ اسم موصوف في محل النصب مفعول به، لأن علم هنا بمعنى عرف، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً على كَوْنِها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة (من) الموصولة. وجملة ﴿يُخْزِيهِ﴾ صفة ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿وَمَنْ﴾ معطوف على ﴿مَن﴾ الأولى. وجملة ﴿هُوَ كَٰذِبٌ﴾ صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَعْمَلُواْ﴾. ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿مَعَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿رَقِيبٌ﴾. ﴿رَقِيبٌ﴾ خبر (إن) وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (لما) حرف شرط. ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرطاً لـ(لما). ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب (لمَّا) وجملة (لمَّا) مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿شعيب﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مَعَهُۥ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من (واو) ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿نَجَّيْنَا﴾. ﴿مِّنَّا﴾ صفة لـ﴿رَحْمَةٍ﴾. ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول. ﴿ظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَجَّيْنَا﴾. ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿أصبحوا﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فِي دِيَٰرِهِمْ﴾ متعلق بما بعده. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ خبر ﴿أصبحوا﴾، وجملة ﴿أصبحوا﴾ معطوفة على جملة ﴿أخذت﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف تقديره: كأنهم. ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ (لم). ﴿فِيهَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر

﴿كَأَن﴾ وجملة ﴿كَأَن﴾ في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: أصبحوا جاثمين حالَ كونهم مماثلينَ لِمَنْ لَمْ يوجد، ولم يقم في مكان قط. ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه. ﴿بُعْدًا﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف وجوباً تقديره: بعدت مدين بعداً، والجملة مستأنفة. ﴿لِّمَدْيَنَ﴾ متعلق بـ ﴿بُعْدًا﴾. ﴿كَمَا﴾ (الكاف) حرف جر. (ما) مصدرية. ﴿بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فعل وفاعل صلة (ما) المصدرية (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور (بالكاف) الجار، والمجرور صفة لـ ﴿بُعْدًا﴾ تقديره: ألا بعداً لمدينَ مثلَ بُعد ثمودَ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جار ومجرور حال من ﴿مُوسَىٰ﴾؛ أي: حالَة كونه متَلبِساً ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾. ﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾ معطوف على ﴿آياتنا﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿سلطان﴾. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾. ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على مقدر تقديره: فكَفَر بها فرعون، وأمرهم بالكفر فاتَّبعوا أمر فرعون. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. (ما) حجازية. ﴿أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾ اسمها، ومضاف إليه. ﴿بِرَشِيدٍ﴾ (الباء) زائدة. ﴿رشيد﴾ خبرها، ويصح أن يكونَ مبتدأً، وخبراً على إهمال (ما)، والجملة في محل النصب حال من فرعون، والتقدير: حال كون فرعون غيرَ رشيد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على فرعون، والجملة مستأنفة على كونها معلَّلَةٌ لِما قبلها. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بـ﴿يقدم﴾. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود إلى فرعون، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَقْدُمُ﴾. ﴿وَبِئْسَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿بئس الورد﴾ فعل وفاعل.

﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ صفة لـ(الورد)، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً تقديره: وردهم هذا، وهو مبتدأ خبره جملة ﴿بِئۡسَ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة؛ لأنها إنشائية. ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ فعل، ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿أتبعوا﴾. ﴿لَعۡنَةٗ﴾ مفعول (ثان). ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ ظرف معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ على كونه متعلقاً بـ﴿أتبعوا﴾ مقدراً؛ أي: وأتبعوا يوم القيامة لعنةً ثانيةً. ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ﴾ فعل وفاعل. ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ صفة لـ﴿الرفد﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف وجوباً هو المخصوص بالذم تقديره: رفدهم هذا.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ خبر أول، والجملة مستأنفة. ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ فعل ومفعول. ﴿عَلَيۡكَ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان للمبتدأ. ﴿مِنۡهَا﴾ خبر مقدم. ﴿قَآئِمٞ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لوقوعها في جواب سؤال مقدر تقديره: ما حال هذه القرى أباقية آثارها أم لا؟ فأجاب بقوله: منها: قائم ومنها حصيد. ﴿وَحَصِيدٞ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنها حصيد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾.

﴿وَمَا﴾ (ما) نافية. ﴿ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوفة على جملة ﴿ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾. ﴿فَمَآ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿أَغۡنَتۡ﴾ فعل ماض. ﴿عَنۡهُمۡ﴾ متعلق به. ﴿ءَالِهَتُهُمُ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾. ﴿ٱلَّتِي﴾ صفة لـ ﴿ءَالِهَتُهُمُ﴾. ﴿يَدۡعُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: يدعونها. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور حال من (واو) ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ أي: حالةَ كونهم متجاوزينَ الله إلى غيره. ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ (من) زائدة. ﴿شَيۡءٖ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بـ ﴿أَغۡنَتۡ﴾. ﴿لمّا﴾ حينية في محل النصب

على الظرفية متعلق بـ ﴿أَغْنَتْ﴾. ﴿جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه للمَا الحينية. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾. ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿كذلك﴾ خبر مقدم. ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: ومثل ذلك الإهلاك المذكور في الأمم الماضية أخذ ربك، والجملة مستأنفة. ﴿إِذَآ﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرطية في محل النصب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بالأخذ الذي هو المصدر. ﴿أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف لـ﴿إِذَآ﴾، وكل من المصدر والفعل تنازعا في ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ فأُعمل الفعل، وحذف الضمير من المصدر؛ لأنَّ الضمير هنا فضلة على حد قول ابن مالك:

وَلاَ تَـجِـيءْ مَـعْ أَوَّلٍ قَـدْ أُهْـمِـلاَ بِـمُـضْـمَـرٍ لِـغَـيْـرِ رَفْـعٍ أُوْهِـلاَ

والتقدير: وكذلك أخذ ربك إياها، إذا أخذ القرى، اهـ «جمل». ﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَلِيمٌ﴾ خبره. ﴿شَدِيدٌ﴾ خبر بعد خبر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ خبر مقدم لها. ﴿لَءَايَةً﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿آيَةً﴾ اسمها مؤخر، وجملة (إنَّ) مستأنفة. ﴿لِّمَنْ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في خبر (إنَّ). ﴿خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَنْ﴾ الموصولة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿يَوْمٌ﴾ خبره والجملة مستأنفة. ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ صفة لـ (يوم)، ولكنَّها سببية. ﴿لَّهُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ نائب فاعل لـ ﴿مَّجْمُوعٌ﴾ لأنه اسم مفعول يعمل عملَ الفعل المغير الصيغة. ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿مَّشۡهُودٞ﴾ صفة ﴿يوم﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ مستأنفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿لِأَجَلٖ﴾ متعلق بـ﴿نؤخر﴾. ﴿مَّعۡدُودٖ﴾ صفة ﴿أَجَلٖ﴾. ﴿يَوۡمَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿تكلم﴾ الآتي. ﴿يَأۡتِ﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء المحذوفَةِ للتخفيف في اللفظ، واتباعاً لرسم المصحف العثماني في الخط منع من ظهورها الثقل، لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير يعود على اليوم، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوۡمَ﴾. ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ متعلق بـ ﴿تَكَلَّمُ﴾. ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه لا تكلم نفس في ذلك اليوم، وأردتم بيانَ طبقات الناس، وأحوالهم في ذلك اليوم، فأقول لكم. ﴿مِنۡهُمۡ﴾ خبر مقدم. ﴿شَقِيّٞ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَسَعِيدٞ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، ﴿ٱلۡحَلِيمُ﴾ ذو الأناة، والتروي الذي لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته، و ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ الذي لا يأمر إلا بما استبانَ له من الخير والرشد. ﴿أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾ قال الزمخشري: يقال: خَالَفني فلان إلى كذا إذا قصده، وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولَّى عنه، وأنت قاصده، ويلقاكَ الرجلُ صادراً عن الماء، فتسأله عن صاحبه فيقول لك: خالفني إلى الماء، يريد أنه ذاهِب إليه وارداً، وأنا ذاهب عنه صادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم، اهـ «سمين». والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في قوله، أو فعله، أو حاله.

﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ وهو الإبلاغ والإنذار فقط، وأما إجباركم على الطاعة فلا

أستطيعُه، اهـ «خازن». ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ المصدر هنا من المبني للمفعول؛ أي: وما كوني موفقاً، اهـ شهاب. وأناب إلى الله رَجَعَ إليه. ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بَابه ضرب كما في «المختار»، وينصب مفعولين كما مرَّ في مبحث الإعراب. وجَرمَ الذنبَ، أو المالَ كسبه. وفي «السمين» قوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ العامة على فتح ياء المضارعة من جَرَم ثلاثياً، وقرأ الأعمش بضمها من أجرم، وقد تقدَّم أنَّ جَرم يتعدى لواحد ولاثنين مثل كَسَب، فيقال: جَرَم زيد مالاً مثل كسبه، وجرمته ديناً؛ أي: كسبته إياه فهو مثل كَسَب، فتكون الكاف والميم المفعول الأول، والثاني: هو أن يصيبكم؛ أي: لا يكسبنكم عن عداوتي إصابة العذاب، وقد تقدم أنَّ جرم، وأجرم بمعنًى، أو بينهما فرق. ونسَبَ الزمخشري ضَمَّ الياء من يجرم لابن كثير كما مر في مبحث القراءة، اهـ. ﴿شِقَاقِيٓ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: شقاقكم إيَّايَ. ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: عظيم الرحمة للمستغفرين. ﴿وَدُودٌ﴾؛ أي: كثير اللطف والإحسان إليهم، وهو صيغة مبالغة من ود الشيء يود وداً ووداداً ووداداة إذا أحبه وآثره، والمشهور: وددت بكسر العين، وسمع وددت بفتحها، والودود: بمعنى فاعل؛ أي: يود عبادَه ويَرْحَمُهُم. وقيل: بمعنى مفعول بِمعنى أنَّ عباده يحبونه، ويواددون أولياءه فهم بمنزلة الموادِّ مجازاً، اهـ «سمين».

﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا﴾ الفقهُ: الفهمَ الدقيق المؤثر في النفس الباعث على العمل. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ الرهط: قال ابن عطية: جماعة الرجل. وقيل: الرهط، والراهط: اسم لما دون العشرة من الرجال، ولا يقع الرهط والعصبة والنفر إلا على الرِّجال. وقال الزمخشري: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل: إلى التسعة، ويجمع على أرهط، ويجمع أرهط على أَراهِطَ فهو جمع جمع. قال الرماني: وأصل الرهط الشَّد، ومنه الرهيط شدَّة الأكل، والراهط: اسم لجحر اليربوع؛ لأنه يتوثق به، ويخبأ فيه ولده. اهـ «أبو حيان». ورهط الرجل عَشِيرَته الذين يستند إليهم، ويتقوى بهم. ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾؛ أي لقتلناك بالرمي بالحجارة، وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة، والرَّجم بالحجارة أسوأُ القَتلات، وأشرها. وقيل: معنى لرجمناك: لشَتَمْنَاكَ، وأَغْلَظنَا لك القول. ومنه قول الجعدي:

تَـرَاجَـمْـنَـا بِـمُـرِّ ٱلْـقَـوْلِ حَـتَّـىٰ   نَـصِـيْـرَ كَـأَنَّـنَـا فَـرَسَـا رِهَـانِ

ويطلق الرجم على اللعن، ومنه: الشيطان الرجيم. ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: ذي عزة، ومنعَة، واتخذه ﴿ظِهْرِيًّا﴾ بالكسر والتشديد؛ أي: جعله نسْياً مَنْسِياً لا يذكر كأنه غير موجود. والظهري بكسر الظاء: هو المنسوب إلى الظهر بفتحها، وهو من تغييرات النسب، كما قالوا: في أمس إمسي بكسر الهمزة كما مرَّ. وقيل: الضمير يعود على العصيان؛ أي: واتخذتم العصيانَ عوناً على عداوتي، فالظهريُّ على هذا بمعنى المعين المقوي. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: على غاية تمكنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم، وإمكانكم يقال: مكن مكانة إذا تَمَكن أبلغَ تمكن.

﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾؛ أي: وانتظروا. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ بوزن فعلة المرة؛ أي: صيحة العذاب. ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: باركين على ركبهم منكبين على وجوههم. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾ يقال غنِيَ بالمكان إذا أقام به. ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ واعلم أن بُعَداً وسحقاً، ونحوهما مصادر قد وضعت مواضعَ أَفْعَالِها التي لا يستعمل إظهارها، ومعنى (بُعْداً) بعدوا؛ أي: هلكوا. وقوله: ﴿لِّمَدْيَنَ﴾ بيان لمن نبه عليه بالبعد نحو: هيت لك، اهـ «روح البيان». ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ والجمهور على كسر العين من بعدت على أنها من بعد يبعد، من باب: طرب، بكسر العين، في الماضي وفتحها في المضارع، بمعنى هلك يهلك، أرادَتْ العرب أن تفرق بين البعد بمعنى الهلاك، وبين البعد الذي هو ضدالقرب، ففرقوا بينهما بتغيير البناءِ، فقالوا: بَعُد بالضم من باب كرم، في ضد القرب، وبَعِدَ بالكسر من باب طرب، في ضد السلامة، والبعد بالضم، فالسكون مصدر لهما، والبَعَد بفتحتين، إنما يستعمل في مصدر مكسور العين. قال ابن الأنباري: ومن العرب من يسوي بين الهلاك، والبعد الذي هو ضد القرب فيقول فيهما: بَعِدَ يبعد، وبعد يبعد الأول من باب طرب، والثاني من باب شَرف، اهـ.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ الآيات هي الآيات التسع المعدودة في سورة الإسراء، والمفصلة في سورة الأعراف وغيرها، والسلطان المبين هو ما أتاه الله من الحجة البالغة في محاوراته مع فرعون وملئه. والملأ: أشراف القوم وزعماؤهم. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ما شأنه وتصرفه. ﴿بِرَشِيدٍ﴾؛ أي: بذي رُشد وهدى. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ في «المختار» قدم يقدم كنصر ينصر قُدْماً بوزن قفل،

وقدوماً أيضاً أي: تقدَّم. قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، اهـ. وفي «المصباح»: وقدم الشيء بالضم قَدَماً وزان عنب خلاف حدث فهو قديم، وقدم الرجل البلد يقدمه من باب تعب قدوماً، ومقدماً بفتح الميم والدال، وقدمت القوم قدماً من باب قتل مثل تقدمتهم، اهـ.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾؛ أي: أدخلهم إياها. ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾، والوردُ: بلُوغُ الماء في مورده من نهر وغيره، والمورود الماءِ، والمرادُ به هنا النار. قال ابن السكيت: الوردُ هو ورودُ القوم الماءَ، والورد: الإبلُ الواردة، انتهى فيكون مصدراً بمعنى الورود، واسم مفعول في المعنى كالطِحن بمعنى المطحون.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ وفي «المختار»: الرفد بالكسر العطاء، والصلة، والعونُ، وبفتحها المصدر فيقال: رَفَده إذا أعطاه، ورفده إذا أعانه، وبابهما ضَرَب، والإرفاد أيضاً الإعطاء والإعانة، اهـ. و (المرفود) المعطَى، ويقال: رفد الرجل يرفده رفداً، ورفداً إذا أعطاه، وأعَانه من رَفَد الحائط إذا دَعَمَه. وذكر الماوردي: حكاية عن الأصمعي الرَّفد بالفتح القدح والرِّفْدُ بالكسر ما في القدح من الشراب، فكأنه ذم ما يستقونه في النار، وهذا أنسب بالمقام. وقال الليث: أصل الرِّفد العطاء، والمعونة، ومنه، رفادة قريش. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ والحصيدُ: بمعنى المحصود، وجمعه حصدى وحصاد مثل مريض ومرضى ومراض، اهـ «سمين». ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ وفي «السمين»: التتبيب التخسير، يقال: تببه غيره، وتب هو بنفسه، فيستعمل لاَزِماً ومتعدِّياً، ومنه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، اهـ. وفي «المصباح»: التباب: الخسرانُ، وهو اسم من تببه بالتشديد، وتبَّتْ يده تَتِب بالكسر خَسِرَتْ كناية عن الهلاك، وتبّاً له؛ أي: هَلاَكاً واستتبَّ الأمرُ، إذا تَهَيَّأَ، اهـ. قال لبيد:

وَلَقَدْ بُلِيتُ وَكُلُّ صَاحِبِ جِدَّةٍ ... يُبْلَىٰ بِعَوْدٍ وَذَاكُمُ ٱلتَّتْبِيبُ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: اللف والنشر المرتَّب في قوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾، فقولهم: ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ رد لقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وقولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ إلخ، رد لقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ﴾ إلخ.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ إذا أريد به الأَحْمَقُ السفيه نَزَّلُوا التضاد منزلة التناسب على سبيل الهزء، فاستعاروا الحلم والرشد للسفه، والغواية، ثم سرت الاستعارة منهما إلى الحليم الرشيد، ذكره في «روح البيان».

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَرَجَمْنَٰكَۖ﴾؛ أي: لقتلناك من إطلاق السبب الذي هو الرجم بالحجارة، وإرادةِ المسبب الذي هو القتل، وإن لم يكن بالحجارة.

ومنها: تقديم الفاعل المعنوي لإفادة الحصر، والاختصاص في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ وإن كان الخبر صفةً لا فعلاً.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ﴾ شبَّه الله سبحانه وتعالى بالشيء المرميِّ وراء الظهر، ولا يكترث به بجامع الإعراض في كل، والعرب تقول: لكل ما لا يعبؤُ بأمره، قد جعل فلانٌ هذا الأمر بظهره.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مُحِيطٌ﴾، لأنَّ الإحاطةَ حقيقة في الأجسام كإحاطة الجدران، فإحاطَةُ الله بالأعمال مجاز عن علمها، وإدراكها بكمالها.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾ لأنَّ الأصل عامل على مكانتي فَحَذَفَه للاختصار.

ومنها: ما يسمى بالاستئناف البياني عند البلغاء في قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

لأنه واقع في جواب سؤال مقدر كما قررناه في مبحث الإعراب.

ومنها: إيراد المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ مبالغة في تحققه. وفيه أيضاً: الاستعارة المكنية؛ لأن الورودَ في الأصل يقال: للمرور على الماء للاستقاء منه، فشبه النارَ بماء يورد، وترك ذكر المشبه به، ورمَزَ إليه بشيء من لوازمه، وهو الورود، وإثبات الورود لها تخييلٌ، وشبه فرعون في تقدمه على قومه إلى النار بـ (من) يتقدم على الواردين إلى الماء لِيَكْسِرَ العطش، فقَالَ في حق فرعونَ وأتباعه ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ على سبيل التهكم. وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ تأكيد له لأن الوِرْدَ إنما يُورَدُ لتسكين العطش، وتبريد الأكباد، وفي النار إلهاب للعطش، وتقطيعٌ للأكباد.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾؛ أي: كالزرع القائم على ساقه، وكالزرع المحصود بالمناجل، فشبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه، وشبه ما عفى منها بالحصيد، اهـ «زاده» و«شهاب».

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

ومنها: حكاية حال ماضية في قوله: ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾؛ أي: عبدوها، لأن المرادَ بالدعاء العبادة.

ومنها: المجاز المرسلُ ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: أخذَ أهلَ القرى.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الجمع في قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، والتفريق في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ والتقسيم في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ إلخ، وهذه الثلاثة أيضاً من المحسنات البديعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر العبرة في إهلاك الأمم الظالمة في الدنيا.. ذكر هنا العبرةَ بجزاءِ الآخرة للأشقياءِ والسعداء، فالأولون يصلون النار التي لهم فيها

---

(١) المراغي.

شهيق وزفير، والآخرون يمتعون بالجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر قصص عبدة الأوثان من الأمم السالفة، وأتبع ذلك بذكر أحوال الأشقياء والسعداء، شرح للرسول ﷺ أحوالَ الكفار من قومه، وأنَّهُمْ مُتَّبِعُوا آبائهم كحال من تقدَّم من الأمم في اتباع آبائهم في الضلال والفساد، تسليةً له ﷺ في ضمن النهي له عن الامتراء في أنَّ ما يعبدونه غير نافع ولا ضار، ولا تأثيرَ له في شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآيتين، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] ذكر مشركي مكة بأقوام غلب عليهم الكفرُ والجحود، ولم يؤمن إلا القليل منهم، فوفَّاهم جَزَاءَ أعمالهم في الدنيا، وسيوفيهم جزاءهم في الآخرة، ذكرهم في هاتين الآيتين بقوم موسى الذين آتاهم الكتابَ فاختلفوا فيه، وأن مثل الذين يختلفون من أمته في الكتاب مثل هؤلاء.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لما بين إصرارَ كفارِ مكةَ على إنكار التوحيد ونبوة الرسول ﷺ والقرآن الذي أتى به، بيَّن أنَّ الكفار من الأمم السابقة كانوا على هذه السيرة الفاجرة مع أنبيائهم؛ فليس ذلك ببدع ممن عاصرَ الرسولَ ﷺ، وضَرَب لذلك مثلاً، وهو إنزال التوراة على موسى فاختلفوا فيها، والكتاب هنا هو: التوراة، فقبله بعض، وأنكره بعض كما اختلف هؤلاء في القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بيَّنَ أمرَ المختلفينَ في التوحيد، والنبوة وأطنبَ في وعدهم، ووعيدهم.. أمرَ رسولَه ﷺ، ومَنْ تاب معه بالاستقامة، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعِلْم والعمل والأخلاق الفاضلة.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أَمَر رسوله بالاستقامة، وعدم تجاوز ما رسمه الدين، وعدم الركون إلى أولي الظلم، أمره هنا بأفضلِ العبادات، وأجلِّ الفضائل التي يستعان بها على ما سلف.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ. . .﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالَى لما[1] ذكر عاقبةَ الأمم المكذبةِ لرسلها في الدنيا والآخرة، وإنذارَ قومه ﷺ بهم، وبين ما يجب عليه، وعلى مَن آمن به، وتاب معه من الاستقامة والصلاح، واجتنابِ أهل الظلم والفساد. . ذكر هنا بيانَ السنن العامة في إهلاك الأمم الذين قص الله قصصهم، وأمثالهم ممن عصوا رسلَ ربهم، أن أنذَروهم عقابَه، ووَعَدهم إذا أطاعوهم ثوابَه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما[2] قص قصص أشهر الأنبياء مع أممهم الماضين. . بيَّن هنا ما لذلك من فائدة لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وهي تثْبِيت الفؤادِ، والعظةُ، والاعتبار ثم أمَرَ رسولَه بالعبادة، والتوكل عليه، وعدم المبالاة بعداوة المشركينَ، والكيدِ له.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ . . .﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه البخاري ومسلم، وأحمد، والترمذي، وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أنَّ رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذه؟ قال ﷺ: «لجميع أمتي كلهم».

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

وأخرج الترمذي وغيره عن أبي اليسر قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً، فقلت: إن في البيت أطيبَ منه، فدَخلت معي البيت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت رسولَ الله ﷺ، فذكرتُ ذلك له، فقال: أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟! وأطرق طويلاً حتى أوحى الله إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾. ووَرَد نحوه من حديث أبي أمامة، ومعاذ بن جبل، وابن عباس، وبريدة، وغيرهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾؛ أي: سَبقتَ لهم الشقاوة، وقُضِيَ لهم بالنار. وقرىء: ﴿شَقُوا﴾ بفتح الشين باتِّفاق السبعة بالبناء للفاعل. وقرأ الحسنُ بضم الشين بالبناء للمفعول. ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: فمستقرون في نار جهنم، وكأن سائلاً قال: ما شأنهم فيها؛ فقيل: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في نار جهنم ﴿زَفِيرٌ﴾؛ أي: صوت شديد ﴿وَشَهِيقٌ﴾؛ أي: صوت ضعيف، فالجملة إما مستأنفة استئنافاً بيانياً كما قررنا، أو في محل النصب على الحال. قال الزجاج: الزفير من شدة الأنين، وهو المرتفع جداً قال: وزَعَم أهل اللغة من البصريين والكوفيينَ: أن الزفيرَ بمنزلة ابتداءِ صوت الحمير، والشهيقَ بمنزلة آخِره. وفيه[1]: استعارة تصريحية كما سيأتي في مبحث البلاغة، فإن المرادَ تشبيه صراخهم بأصوات الحمير، فكما أنَّ الحميرَ لها أصوات منكرة، كذلك لهم أصوات منكرة في جهنم، كما يشاهد ذلك في الابتلاء في الدنيا، لا سِيّما عند الصلب أو الخنق أو ضرب العنق، أو قطع اليد، أو نحوها، فإن لبعض المجْرِمينَ حينئذ خوار كخوار البقر يتغير صوته، كما يتغير لونه، وحال الآخرة أشد من حال الدنيا ألْفَ مرَّةٍ. وقيل: الزفير إخراج النفس، والشهيق رَدُّ النفس. وقيل: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق. وقيل غير ذلك مما لا طائلَ تحته.

والمعنى[2]: أي فأما الذينَ شقوا في الدنيا بما كانوا يعملون من أعمال

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

الأشقياء، لفساد عقيدتهم الموروثة، وسوء القدوة في العمل حتّى أحاطت بهم خطيئاتُهم، وانطَفأ نور الفطرة مِن أنفسهم، فلهم في النار التي هي مستقرهم، ومثواهم زفير، وشهيق من حَرَج صدورهم، وضيق أنفاسهم، وشدة كروبهم. ويكون الذين شَقُوا شاملاً للكفار، وعصاة المسلمين. وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في النار حال من الضمير المستكن في الظرف أعني قوله: ﴿في النار﴾؛ أي: فأما الذين شقوا فمستقرون في النار، حالةَ كونهم ماكثينَ فيها مكث خلود، ودوام، ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: مُدةَ دوام السموات التي تظلهم، ودوام الأرض التي تقلهم. فالمراد[1] سمواتُ الآخرة، وأرضها، وهي دائمة مخلدة، ويَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾. وأن أهل الآخرة لا بد لهم من مظل ومقلٍّ، إما سماء يخلقها الله فتظلهم، أو يظلهم العرش، وكل ما علاك فأظلك فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض، ولا فسادَ في التشبيه بما لا يعرِف أكثر الخلق وجودَه، ولا مانع، ونظيره تشبيه الشيء بالكيمياء، أو بمدينة إرَم وغير ذلك.

أو عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع كقول العرب: لا أفعلُه ما بدا كوكب، وما أضاءَ الفجر، وما تغنت حمامةٌ، والنصوص متظاهرة على تأبيدِ قرارهم فيها. وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هو[2] استثناء من الخلود في عذاب النار، وذلك لأن أهل النار لا يخلدونَ في عذاب النار وحده، بل يعذَّبون بالزمهرير، وأنواع من العذاب سوى عذاب النار. والمعنى: خَالِدينَ فيها مدة دوام السموات والأرض، إلا الزمان الذي شاء ربك خروجهم فيه من النار إلى الزمهرير ونحوه، أو ما شاءَ بمعنى إلا من شاء ربك خروجهم من النار بعدما دخلوا، وهم قوم يخرجون من النار، ويدخلون الجنَّةَ فيقال لهم الجهنميون، وهو المستثنون من أهل الجنة أيضاً، لمفارقتهم إيَّاهَا بكونهم في النار أيّاماً فهؤلاء لم يشقوا شقاوةَ مَنْ يدخل النار على التأبيد، ولا سَعِدُوا سعادةَ مَنْ لا تمسه النار، وهو مروي عن ابن

---

(١) روح البيان. (٢) النسفي.

عباس، والضحاك، وقتادةَ وغيرهم رضي الله عنهم. فعلى[١] هذا القول يكون معنى الآية: فأمّا الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدينَ فيها ما دامتِ السموات والأرض إلا من شاء ربك أن يخرجهم منها، فيدخلهم الجنةَ فـ (ما) بمعنى مَنْ.

وقيل: إلا[٢] ههنا بمعنى سوى كقولك: عليَّ ألف إلا الألفان القديمان، والمعنى حينئذ خالدينَ فيها؛ أي: دائمين في النار، كدوام السموات والأرض، منذ خلقت إلى أن تفنَى سوى ما شاء ربك من الزيادةِ التي لا آخرَ لها على مدة بقاء السموات والأرض.

وحاصلُ هذا القول: أن إلاّ في المعنى، بمعنى حرف العطف، والاستثناء فكأنه قيل: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، وزيادة على هذه المدة لا منتهى لها، اهـ «جمل». وقيل[٣]: هو استثناء من قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. وقيل: (إلا) بمعنى الواو؛ أي: وقد شاء ربك خلودَ هؤلاء في النار، وخلود هؤلاء في الجنة فهو كقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: ولا للذين ظلموا. وقيل معناه: ولو شاء ربك لأخرجهم منها، ولكنه لم يشأْ لأنه حَكَم لهم بالخلود فيها، قاله الفراء. فهذه الأقوال في معنى الاستثناء ترجعُ إلى الفريقين، والصحيح هو القول الثاني الذي عليه ابن عباس رضي الله عنه، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ ويشاء من إخراج من أراد من النار، وإدخالِهم الجنة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ومشيئته تعالى إنما تتعلق بما سبق به علمه، واقتضته حكمتُه، وما كان كذلك لم يكن إخلافاً لشيء مِنْ وعده، ولا من وعيده لخلود أهل النار فيها.

فهذا على الإجمال في الفريقين[٤]، فأما على التفصيل فقوله: إلا ما شاء

---

(١) الخازن.

(٢) البيضاوي.

(٣) الخازن.

(٤) الخازن.

ربك في جانب الأشقياء، يرجع إلى الزفير والشهيق، وتقريره: أن يفيدَ حصول الزفير والشهيق مع خلود؛ لأنه إذا دَخَل الاستثناء عليه، وجب أن يحصلَ فيه هذا المجموع، والاستثناء في جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعني إلا ما شاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود. وقيل: إن الاستثناء الأول في جانب الأشقياء، معناه إلا ما شاء ربك من أن يخرجهم من حر النار إلى البرد والزمهرير، وفي جانب السعداء معناه إلا ما شاء ربك أن يرفَعَ بعضَهم إلى منازلِ أعلَى منازلِ الجنان، ودرجاتها. والقول الثاني هو المختار.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ قرأ ابن[1] مسعود، وطلحة بن مصرف، وابن وثاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وحفص: ﴿سُعدوا﴾ بضم السين وباقي السبعة، والجمهور بفتحها. فالضم من قولهم: سعده الله أي: أسعده فهو حينئذ متعدّ، والفتح من قولهم: سعد الرجل بمعنى قامت به السعادة، فهو حينئذ لازم.

والمعنى[2]: إنَّ الذينَ سبقت لهم السعادة من الله بموتهم على الإيمانِ، وإن سبقَ منهم الكفر في الدنيا، والمراد بالسعادة رضا الله تعالى عن العبدِ.

وعلامة ذلك أن يكون العبد محبّاً لربه ساعياً في مرضاته دائمَ الإقبال على طاعته راضياً بأحكامه. ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: فمستقرون في الجنة حالةَ كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثينَ في الجنة مكث خلود ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: مدة دوام السموات التي تظلهم والأرض التي تقلهم يعني سموات الجنة وأرضها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من مقدار موقفهم للحساب، أو مفارقتهم للجنة أيّامَ عذابهم، فإن التأبيدَ من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداءِ، كما ينتقض باعتبار الانتهاء، أو المعنى خالدِينَ فيها مدةَ دوام السموات والأرض في الدنيا.

والمعنى: قدر مكث السموات والأرض من أول الدنيا إلى آخرها. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: غير ما شاء ربك من الزيادة التي لا منتهى لَها، فالمعنى خالدينَ

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) الصاوي.

فيها أبداً. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾. فالزيادة التي شاءها الله تعالى فسرت في آيات أخر بالخلود المؤبد. وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره: يعطيهم الله ذلك الجزاء عطاء غير مقطوع ولا ممنوع، والمعنى أنه ممتد إلى غير نهاية. مأخوذ من جذَّ إذا قطعه أو كسره، وهو كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: إن[1] هذا الجزاءَ هبة منه، وإحسانٌ دائم غَير مقطوع. وقد كثر وعد الله تعالى للمؤمنينَ المحسنينَ بأنه يزيدهم من فضله، وبأنه يُضاعِفُ لهم الحسنة بعشرة أمثالها، وبأكثر إلى سبع مئة ضعف، وبأنه يجزيهم بالحسنى، وبأحسنَ مما عملوا، ولم يُوعد بزيادة جزاء الكافرين والمجرمين على ما يستحقون، بل أوعدهم بأنه يجزيهم بما عملوا، وبأنَّ السيئة بمثلها، وهم لا يُظلمون، وبأنه لا يَظْلِم أحداً، وهذا الجزاء، وهو الخلود في النار أثر طبيعي لتدسية النفس بالكفر والظلم والفساد.

وبعد أن شرحَ سبحانه أقاصيصَ عَبدةِ الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء والسعداء أَنْذرَ أعداء النبي ﷺ والمشركين من قومه، بما حَلَّ بالأمم المهلكة من العذاب فقال: ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمد أصله: لا تكنْ، حذفت النون لكثرة الاستعمال؛ أي: إذا تبين عندك يا محمد ما قصصت عليك من قَصَصِ المتقدمينَ وسوءِ عاقبتهم فلا تكن ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾؛ أي: في شك ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون من أهل مكةَ من الأصنام؛ أي: لا تكن في شك في أن ما يعبدونه من الأصنام غير نافع ولا ضار، ولا تأثير له في شيء أو لا تكن في شك في بطلان عبادتهم لها، أو لا تكن في شك من سوء عاقبتهم، وكن على يقين في أنها ضلال سيء العاقبة. وهذا النهي له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك، فإنه ﷺ لا يشك في ذلك أبداً. وكأنه قيل: لم لا أكون في شك؛ فأُجيب لأنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا﴾ كان ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: إن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم من قبل، في أنها لا تنفع ولا تضر، أو إن عبادتَهم لها كعبادةِ آبائهم من قبل في أنها ضلال باطلٌ؛ أي: فحالهم كحال آبائهم من غير تفاوت،

---

(١) المراغي.

فهم على الباطل، والتقليد لا على الحق والتحقيق.

وفيه[1]: إشارةٌ على أنَّ أهلَ الفترة الذينَ عَبَدوا الأصنامَ من أهل النار، فإن الذَّم ينادي على ذلك. والمعنى[2]: أنهم سواء في الشرك بالله، وعبادة غيره، فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك، وجاء بالمضارع في ﴿كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ لحكاية الحال الماضية.

والخلاصة[3]: أي إذا كَانَ أمر الأمم المشركة الظالمة في الدنيا ثم في الآخرة كما قصصناه عليك، فلا تكن في أدنى ريب مما يعبد قومك هؤلاء في عاقبته بمقتضى تلك السنن التي لا تبديلَ لها. وفي ذلك تسلية له ﷺ، ووعيد لقومه كما لا يخفى. ثم بيَّن حالَهم في عبادتهم وجزاءهم عليها فقال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: لأنهم أشبهوا آباءَهم في الجهل والتقليد، فهم مقلدون لهم ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، وتوفية الشيءِ تأديته، وإعطاؤه على وجه التمام والضمير لهؤلاء الكفرة؛ أي: لمعطوهم حظهم المتعين لهم من العذاب الدنيوي والأخروي كما وفينا آباءهم أنصباءَهم المقدرةَ لهم حسب جرائمهم، فسيلحقهم مثل ما لَحَقَ بآبائهم، فإن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات، فإن قيل: لا سبب عندنا إلا الله. قلنا: يكفينا السببية العادية، وهو ما يفضي إلى الشيء بحسب جريان العادة. وقوله: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مؤكدة من النصيب؛ لأنَّ التوفية تَقتضِي التكميلَ كقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾. وفائدته مع دفع توهم التجوز: تقرير ذي الحال؛ أي: جعله مقرراً ثَابِتاً لا يظن أنه غيره؛ لأن التوفيةَ لا تستلزم عدمَ النقص، فقد يجوز أن يُوفَّى، وهو ناقص، كما يجوز أن يوفَّى وهو كامل. وفي الآية ذَمٌّ للتقليد، وهو قبولُ قول الغير بلا دليل. وقيل: المعنى[4]: وإنا لمعطوهم نصيبَهم من جزاءِ أعمالهم في الدنيا وافياً تامّاً لا ينقص منه شيء، كما وفينا آباءهم الأولين من قبل، فأعمال الخير التي

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

(٤) المراغي.

يعملونها في الدنيا كبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف يوفون جزاءَهم عليها بسعة الرزق، وكشف الضر جزاءً تاماً وافياً، ولا يجزون عليها في الآخرة، ومثل هذا الجزاء متاعٌ عاجل لا يلبث أن يزولَ. وقرأ[1] الجمهور: ﴿لموفُّوهم﴾ مشدداً من وفى، وقرأ ابن محيصن مخففاً من (أوفى).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد آتينا وأعطينا موسى بن عمرانَ التوراة، وهو أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع، وأما ما قبله من الكتب، فإنما كانت مشتملةً على الإيمان بالله وتوحيده، ومن ثم قيل لها: صحف، وإطلاق الكتاب عليها مجاز. ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾؛ أي: في شأن ذلك الكتاب، وكونه من عند الله، فآمن به قوم من بني إسرائيل، وكفَرَ آخرون، كما اختلف قومكَ في القرآن، فلا تبال يا محمد باختلافهم فيما آتيناك من القرآن، ولا تحزَنَ عليه، واصبر على تكذيبهم كما صَبَر موسى على تكذيب قومه، فإنَّ ما وقع لك فقد وقع لمن قبلك، ففيه تسلية له ﷺ. ولمَّا قَسَم النبي ﷺ غَنَائم حنين، وأطال بعض المنافقين الكلامَ في أنه لم يعدل في القسمة، قال النبي ﷺ: «من يَعْدِل إذَا لم يَعْدِل الله ورسولُه، رحمة الله على أخي موسى، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»، يعني أنَّ موسَى أصابه الأذى الكثير من جهة قومه، فصَبَر على أذاهم، فلم يجزَع فأنا أحق بالصبر منه؛ لأنَّ الجمعية الكمالية في ذاته ﷺ أتم فحَظُّه من النفحات الإلَهية والأخلاق الحميدة الربانية أكثرُ وأوفرُ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ولولا الحكم الأزليُّ بتأخير العذاب عن أمتك، أو عن قوم موسى إلى يوم القيامَةِ. قال بعضهم: الأظهر أن لا[2] تقيد بيوم القيامة، فإن أكْثَرَ طغاتهم نَزَلَ بهم العذاب يوم بدر، وفي غيره. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بإنزال العذابِ الذي يستحقه المبطلونَ ليتميزوا به عن المحقينَ.

والكلمة هي كلمة القضاءِ بتأخير العذاب إلى الأجل المسمى، بحسب

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

الحكمة الداعية إلى ذلك؛ أي: ولولا ما تقدم من قضاءِ الله سبحانه وتعالى بتأخير إهلاك البغاة المثيرين للاختلاف فيه بأهوائهم، وإبقاءِ المعتصمينَ بالوحدةَ والاتفاق على هِدَايَتِه لأهلكهم كَما أَهْلَكَ الذينَ ردوا دعوة الرسل جحوداً وعناداً، وهذا من جملة التسلية له ﷺ. ثُمَّ وَصَفَهم بأنهم في شك من الكتاب فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: وإنَّ المكذبينَ بالكتاب من كفار قومك، أو من قوم موسى ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من القرآن إن حمل على قوم محمد ﷺ، أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: موقع في الريب، والاضطراب، فلا يدرون أحقٌّ هو أم باطلٌ؛ لأنهم[1] إذا نظروا لآبائهم، وما كانوا عليه قالوا: لو كانَ ما هم عليه ضلالاً ما اجتَمَعوا عليه، وإذا نظروا إلى النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة؛ قالوا: إنه لحق، وما جاء به صدق، فهم في شك، ولا شك أنه كفر، وكل هذا ناشئٌ من الطبع على قلوبهم، وإلا فالحق ظاهرٌ لمن تدبَّره، اهـ «صاوي». وجاء في معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾. والذين أورثوا الكتاب بعد مَنْ تَقدَّم ذكرهم من الأنبياء هم اليهود والنصارى، وقد عَرَض لهم من الشك والرَّيب في كتبهم ما لم يكُن في عهد سَلَفِهم؛ إذ أنَّ التوراةَ التي كتبها موسى عليه السلام، قد فقدت في إحراق البابليين لهيكل سليمان، والنصارى كانوا أشدَّ اختلافاً في كتبهم ومذاهبهم.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ من المختلفينَ في الكتاب المؤمنينَ منهم، والكافرين ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ﴾ (اللام)[2] الأولى موطئة للقسم، والثانية للتأكيد أو بالعكس، و(ما) مزيدة للفصل بين اللامين؛ أي: وإن[3] كلاً من المختلفين فيه، والله ليعطينَهم ويؤدِّينَّهم ربك يا محمد أَجْزِيَة أعمالهم تاماً وافياً كاملاً إن خَيراً فخَيْرٌ، وإن شرّاً فشر إذ لا يَخْفَى عليه شيء منها. أو المعنى: وإنَّ جميعَهم، والله ليوفينهم ربك جزاءَ أعمالهم، قالوا: وأحسن ما قيل: إن أصلَ لمَّا لماً بالتنوين

---

(١) صاوي.

(٢) البيضاوي.

(٣) المراح.

بمعنى جميعاً، نظير قوله تعالى: ﴿أَكِلَا لَّمًّا﴾ فيكون توكيداً لـ (كُلاًّ)؛ أي: وإن كلاً جميعاً من الخلائق، والله ليعطينَّهم ربك جزاء أعمالهم، ﴿إنه﴾؛ أي: إن ربك سبحانه وتعالى ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بما يعمل كل فرد من المختلفين من الخير أو الشر ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بحيث لا يخفى عليه شيء من جلائله ودقائقه، فيجازي كلاًّ بحسب عمله، وتوفية جزاءِ الطاعاتِ وعدٌ عظيمٌ، وتوفيةُ جزاء المعاصي وعَيدٍ عظيمٌ، والجملة تعليل لما قبلها، فعلى العاقلِ أن ينتبهَ من الغفلة، ويجانبَ ما يخالفَ أمر الله تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى لا يفوته منه شيء. وقرأ[1] الحرمِيَّان نافع وابن كثير، وأبو بكر: ﴿وإنْ كُلاًّ﴾ بتخفيف النون ساكنة. وقرأ الباقون بتشديد: (إنَّ). وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد هنا وفي يسَ والطارق. وأجمعت السبعة على نصب (كُلاًّ). فَتُصوَّر في قراءتهم أربع قراءات:

إحداها: تخفيفُ (إنْ) وتخفيف (لمَا) وهي قراءة الحرميان.

والثانية: تشديدهما، وهي قراءة ابن عامر وحمزة وحفص.

والثالثة: تخفيف (إن) وتشديد لمَّا، وهي قراءة أبي بكر.

والرابعة: تشديد (إنَّ) وتخفيف لما، وهي قراءة الكسائي وأبي عمرو.

وقرأ أبيٌّ والحسن بخلاف عنه، وأبان بن تغلب، و﴿إنْ﴾ بالتخفيف ﴿كل﴾ بالرفع ﴿لمَّا﴾ مشدداً. وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم: ﴿وإن كلاً لمًّا﴾ بتشديد الميم وتنوينها ولم يتعرضوا لتخفيف (إنْ) ولا تشديدها. وقال أبو حاتم الذي في مصحف أبي: ﴿وإن مِنْ كُلٍّ إلاَّ لَيُوفِيَّنَهم﴾. وقرأ الأعمش: ﴿وإنْ كلُّ إلا﴾ وهو حرف ابن مسعود. فهذه أربعة وجوه في الشاذ.

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾؛ أي: مثل الاستقامة التي أمرت بها في العقائد والأعمال

---

(١) البحر المحيط.

والأخلاق، فإنَّ الاستقامةَ في العقائد اجتناب التشبيه، والتعطيل، وفي الأعمال الاحتراز عن الزيادة، والنقصان، وفي الأخلاق التباعد عن طرفي الإفراط والتفريط، وهذا في غاية العسر؛ أي: إذا تبين عندك يا محمد أحوال القرون الأولى، وأن إخوانَك الأَنبياء، ومؤمنيهم تحملوا من قومهم الأذى، وصبروا، واستقاموا على طريقتهم المثلى إلى أن يأتِيَ أمر الله تعالى، فأقولُ لك دُم أنت أيضاً على الاستقامة على التوحيد، والدعوة إليه كما أمركَ اللَّهُ تعالى فيَدْخُلْ في ذلك جميع ما أمره به، وجميع ما نهاه عنه؛ لأنه قد أَمَره بِتَجَنُّبِ ما نهاه عنه كما أَمَره بفعل ما تعبّده بفعله، وأمته أسوة في ذلك. ولهذا قال: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾؛ أي: رَجَعَ من الكفر إلى الإسلام، وشاركَكَ في الإيمان، وهو معطوف على الضمير في ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ لأنَّ الفَصَل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقامَ التأكيد؛ أي: وليستَقِمْ مَنْ تاب معك. ومَا أعظمَ مَوْقِعَ هذه الآية، وأشدَّ أمرها، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهَّرةُ والذواتُ المقَدَّسة. ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «شيبتنِي هود»؛ أي[1]: ومَنْ تاب من الشرك، والكفر، وشارَكَك في الإيمان، هو المعني بالمعية، وإلا فليس لهم مصاحبة له في التوبة عما ذكر؛ إذ الأنبياء مَعْصُومون عن الكفر، وكذا عن تعمد الكبائر قبل الوحي، وبعده بالإجماع. ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾؛ أي: ولا تَنْحَرِفوا عما حدَّ لكم بإفراط، وتفريط، فإنَّ كِلاَ طرفي قصد الأمور ذميم، وإنما سمِّي ذلك طغياناً، وهو تجاوز الحد، تغليظاً أو تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله ﷺ. والطغيان[2] مجاوزة الحد. ولَمَّا أَمَرَ الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بَيَّن أن الغلوَّ في العبادة، والإفراطَ في الطاعة، على وجه تخْرج به عن الحد الذي حدَّه، والمقدار الذي قدَّره ممنوع منه منهي عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلالَ الذي أَذِنَ الله به، ورغَّب فيه. ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: «أمَّا أَنَا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساءَ فمَن رَغِبَ عن سنتي فليس مني». والخطاب للنبيّ ﷺ، ولأمته تغليباً لحالهم على

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

حاله، أو النهي عن الطغيان خاص بالأمة. ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: عالم بأعمالكم لا يخفَى عليه شيء منها، فيجازِيكم على ذلك، فاتقوه في المحافظة على حدوده، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي السابقين في الآية. وقرأ الحسن والأعمش: ﴿بما يعملون﴾ بالياء على الغيبة، ورُويت عن عيسى الثقفي.

وحاصل معنى الآية[1]: أي فالزم الصراطَ المستقيمَ الذي لا عوج فيه، واثبت عليه، وكذلك فليستقم من تاب من الشرك وآمن معك، ولا تنحرفوا عما رُسِمَ لكم بتجاوز حدوده غلواً في الدين، فإن الإفراط فيه كالتفريط، كلاهما زيغ عن الصراط المستقيم.

وفي هذا إيماء إلى وجوب اتباع النصوص في الأمور الدينية من عقائد، وعبادات، واجتناب الرأي، وبطلان التقليد فيها، وإيضاح هذا أنَّ تحكيمَ العقل البشري في الخوض في ذات الله وصفاته، وفيما دون ذَلك من عَالَم الغيب كالملائكة، والعرش، والجنة، والنار تجاوز لحدوده، فإن أكبرَ العلماء والفلاسفة عقولاً عجزوا إلى اليوم عن معرفة كنه أنفسهم، وأنفس ما دونَهم من المخلوقات صغيرها وكبيرها، حتى الحشرات منها كالنحل والنمل، فأنَّى لهم أن يعرفوا كنهَ ذات الله تعالى وصفاته، أو معرفة حقيقة ملائكته وغيرهم من جند الله تعالى.

ولما خرج متأخروا الأمة عن هدي سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زَاغُوا فكانوا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾. فسَقَطَ بعضهم في خيال التشبيه، وبعضهم في خيال التعطيل، ولو كانوا قد نهجوا نهج السابقين، لتجنبوا أسباب الخلاف والتفرق في الدين الذي أوعد الله أهله بالعذاب العظيم، وبرأ رسولَه منهم.

والواجب التزام كتاب الله تعالى، وما فسرته به سنة رسوله ﷺ من

---

(١) المراغي.

العباداتِ العمليةِ والمعاملات على النحو الذي بينه الكتاب، والسنة على السنن القويم، دونَ تأويل، ولا تخريجٍ لهما على غير ما يفْهَم مِن ظاهرهما. أما الاختلاف فيما عدا ذلك من أمور القضاء والسياسة، وأمور المعاش من زراعات وتجارات، فهو أمر طبيعي لا يمكن الغنَى عنه، فلولاه لما تقدمت شؤون الحياة، ولَمَا حصل التنافس لدى أرباب المهن، والصناعاتِ، ولما جد كل يوم بدع جديد، ولكان الناس دائماً على الفطرة الأولى، وأنّى لعقل الإنسان أن يستمرَّ على حال واحدة، وقد أُوتيَ الخلافَةَ في الأرض، وحسْنَ استعمارها، وبهذا وحدَه فَضَلَ الملائكة، ولله في خلقه شؤون.

وقد بيَّن سبحانه لنا المخرجَ إذا حَدث بيننا الخلاف في الدين فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآيةَ. وقد فسر ذلك النبي ﷺ بقوله لمعاذ بن جبل حين ولاه القضاء في اليمن: «بمَ تقضي؟» قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: فبسنة رسوله، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: أجتهد رأيي، فأقره على ذلك. وهذا هو الاستقامة في الدين التي بها يرقى المرء إلى أعلى عليين. وقد حث الله رسوله عليها في هذه الآية وحَث موسَى وهارونَ عليها، فقال: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾. ومَدَح من اتَّصَفوا بها، ووعدهم بالخير والفلاح في الآخرة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾. وروى مسلم عن سفيان الثقفي قال: قلتُ: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم».

﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ أي: بصير بعملكم، ومحيط به، فيجزيكم به، فاتقوه أن يَطَّلع عليكم، وأنتم عاملون بخلاف أمره. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾؛ أي: ولا تميلوا أدنى ميل؛ لأن الركونَ هو الميل اليسير،

والخطاب لرسول الله ﷺ ومَنْ مَعه ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: إلى الذين وُجد منهم الظلم بالجملة ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱلنَّارُ﴾ الأخروية، وإذا كان الركونُ إلى من صدر منهم ظلم مرة في الإفضاء إلى مساس النار هكذا فما ظنك بالركون إلى من صدر منهم الظلم مراراً، ورسخوا فيه، ثمَّ بالميل إليهم كلَّ الميل ﴿وَمَا لَكُم﴾، والحال: أن ما لكم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: من أنصار ينقذونكم من النار، على أن يكونَ مقابلة الجمع بالجمع بطريق انقسام الآحاد على الآحاد، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: وأنتم على هذه الحالة، وهي انتفاء ناصركم. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ جملة فعلية معطوفة على الاسمية قبلها، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد نصرة الله تعالى إياهم مع استحقاقهم العذابَ بسبب ركونهم؛ أي: ثم لا ينصركم الله، ولا ينقذكم منها إذ سَبَقَ في حكمه أن يُعَذِّبكم، ولا يُبقي عليكم. وقرأ الجمهور: ﴿تركنوا﴾ بفتح الكاف، والماضي رَكِنَ بكسرها، وهي لغة قريش.

وقال الأزهري: هي اللغة الفصحى. وعن أبي عَمرو بكسر التاء على لغة تميم في مضارع علم غير الياء. وقرأ قتادة، وطلحة، والأشهب، ورويت عن أبي عمرو: ﴿تَرْكُنوا﴾ بضم الكاف مضارع رَكَن بفتحها، وهي لغة قيس، وتميم. وقال الكسائي: وأهلُ نجد، وشذَّ «يَرْكَنُ» بفتح الكاف مضارع، رَكَن بفتحها. وقرأ ابن أبي عَبْلَة: ﴿ولا تُرْكَنوا﴾ مبنياً للمفعول من أركنه إذا أمالَه. وقرأ ابن وثاب، وعلقمة والأعمش، وابن مصرف، وحمزة، فيما روي عنه: ﴿فتمسَّكم﴾ بكسر التاء على لغة تميم، ذكره أبو حيان. وقرأت العامة: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بإثبات نون الرفع. وقرأ زيد بن علي، وعائشة بحذف نون الرفع عطفاً على (تمسكم) ذكره في «الجمل»؛ ومعنى الآية: أي: لا تستندوا إلى الذين ظلموا من قومكم المشركين، ولا من غَيرهم فَتَجْعَلُوهم رُكناً لكم تعتمدون عليه، فتقروهم على ظلمهم، وتوالوهم في شؤونكم الحربية، وأعمالكم الدينية، فإن الظالمينَ بعضهم أولياء بعض.

وخلاصة ذلك: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم رضيتم عن أعمالهم، فإن فَعَلتم ذلك أصابتكم النار، التي هي جزاء الظالمين بسبب ركونكم إليهم، والاعتزاز بهم، والاعتماد عليهم، والركون إلى الظلم وأهله ظلم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وليس لكم في هذه الحال التي تركنون فيها إليهم غير الله وليّاً ينقذكم، ويخلصكم من عذابه، ثم لا تنصرون؛ أي: لا ينصركم الله؛ لأن الذينَ يركنون إلى الظالمينَ يكونون منهم، وهو لا ينصر الظالمين، كما قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ بل تكون عاقبتكم الحرمانَ مما وعد الله رسله، ومن ينصره من المؤمنين.

والخلاصة: أن الركونَ إلى الظالمينَ المنهي عنه، هو: الاعتماد على أعداء المؤمنين الذين يفتنونهم، ويصدونهم عن دينهم، ويؤيده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه فسر الظلمَ هنا بالشرك، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بالمشركين. وقيل: إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، ولو فرضنا أن سَبَبَ النزول هم المشركون، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومن ابتلي بمخالطة الظلمة فليزن أَقْوالَهم وأفعالهم بميزان الشرع، فإنْ زاغوا عن ذلك فعلى أنفسهم قد جنوا، وطاعتهم واجبة على كل مَنْ دَخَل تحت أمرهم، ونهيهم في كل ما يأمرون به ما لم يكن في معصية الله. فمن أمروه أن يدخُل في شيء من الأعمال التي وَلَّوْهُ كالمناصب الدينية ونحوها فَلْيَدْخُل فيه إذا وثق من نفسه القدرةَ على القيام به، إلى أنه يجب الأخذ على أيدي الظالمين عامةً، وعلى أئمة الجَور والأمراء خاصةً، ويجب تغيير المنكر أولاً باليد، فإن لم يستطع ذلك فباللسان، وإلا فبالقلب وذلك أضعف الإيمان.

روى الإمام أحمد، وأصحاب السنن، عن أبي بكر رضي الله عنه، أنه قَامَ فحمد الله، وأثنى عليه ثمَّ قال: أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ حتى أتى على آخر الآية، ألا وإن الناسَ إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك الله أن يعمهم بعقابه، أَلاَ وإني سمعت رَسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكَر بينهم، فلم ينكروه يوشِكَ أن

يعمَّهم اللَّهُ بعقابه».

وفي الآية[1] أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه، والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها، ثم لا يرتَدِعُونَ عن الظلم والميل إلى أهله، ولا يتدبرون أنهم مؤاخَذون غير منصورين.

وفي الحديث: «إياكم والظلمَ فإنه يخرِّب قلوبَكم». وفي تخريب القلب تخريب سائر الجسد، فالظالم يظلم على نفسه، حيث يخرب أعضاءه الظاهرة، والباطنة، وعلى الله حيث يخرب بنيانَ الله، ويغيِّرُه ويفسده، ولأنه إذا ظَلَمَ غيره، وآذاه، فقد ظَلَمَ على الله ورسوله وآذاه. والدليل عليه قوله ﷺ: «أنا من الله، والمؤمنون مِنّي، فَمَنْ آذى مؤمناً، فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد أَذَى الله تعالى».

ودَخَل في الركون إلى الظالمينَ المداهنة والرضى بأقوالهم، وأعمالهم، ومحبة مصاحبتهم، ومعاشرتهم، ومد العَين إلى زهرتهم الفانية، وغبطتهم فيما أوتوا من القطوف الدانية، والدعاءِ لهم بالبقاء، وتعظيمُ ذِكرهم، وإصلاح دواتهم، وقلمهم، ودفعُ القلم أو الكاغد إلى أيديهم، والمشي خلفَهم، والتزيي بزيهم، والتَّشبهُ بهم وخياطة ثيابهم وحَلق رؤوسهم.

وقد امتنع بعض السلف عن رَدِّ جواب الظلمة في السلام، وقد سئل سفيان الثوري عن ظالم أَشْرَفَ على الهلاك في بريه، هل يُسقَى شربةَ ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموتُ، فقال: دعه فإنه إعانة للظالم. وقال غيره: يسقى إلى أنْ يثوبَ إلى نفسه، ثم يعرِض عنه.

وفي الحديث: «العلماء أُمناء الرسل على عباد الله، مَا لَمْ يُخَالِطُوا السلطانَ، فإذا فعلوا ذَلك فقد خانوا الرسل، فاحذروهم، واعتزلوهم». فإذا علمتَ هذا، فاعلم أنَّ الواجب عليك: أن تَعْتَزِلَ عنهم بحيث لا تراهم، ولا يرونك إذ لا سلامة إلا فيه، وأن لا تفتشَ عن أمورهم، ولا تتقرب إلى من هو

---

(١) روح البيان.

من حاشيتهم، ومتصل بهم من إمامهم، ومؤذنهم فضلاً عن غيرهم، من عمالهم وخدمهم، ولا تتأسفَ على ما يفوتُ بسبب مفارقتهم، وترك مصاحبتهم، واذكر كثيراً قولَ رسول الله ﷺ: «إذَا قرأ الرجل القرآنَ، وتفقه في الدين، ثم أتى بابَ السلطان تملقاً إليه، وطمعاً لما في يديه خَاضَ بقدرِ خطاه في نار جهنم». والحديث كأنه مأخوذ من الآية، فهما متطابقان معنًى كما لا يخفَى.

ورُوي: أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى يوشع بن نون أني مهلِك من قومك أربعينَ ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شرارهم، فقال: ما بال الأخيار؟ فقال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، فكانوا يؤاكلونهم، ويشاربونهم. وبهذا تبيَّن أن بُغْضَ الظَّلمةِ والغضبَ عليهم لله واجب، وإنما ظَهَرَ الفساد في الرعايا، وجميع أقطار الأرض، برّاً وبحراً بفساد الملوك، وذلك بفساد العلماء أوَّلاً إذ لولا قُضاةُ السوء وعُلماءُ السوءِ لقل فساد الملوك، بل لو اتفقَ العلماء في كل عصر على الحق، ومنع الظلم، مجتهدينَ في ذلك، مستفرغين مجهودَهم، لما اجترأ الملوك على الفسادِ، ولاضمحل الظلم من بينهم رأساً وبالكلية.

ومن ثَمَّ قال النبي ﷺ: «لا تزالُ هذه الأمة تحت يد الله وكنفه، ما لم يمالِىء قراؤها أمراءها».

وإنما ذَكَر القراء، لأنهم كانُوا هم العلماء، ومَا كَانَ علمهم إلا بالقرآن، ومعانيهم إلا بالسنة، وما وراء ذلك من العلوم، إنما أحدثت بعدهم كذا في «بحر العلوم» للشيخ عليٍّ السمرقندي رحمه الله تعالى.

وذكَرَ في «الإحياء»: أنَّ من دخلَ على السلطان بلا دعوة، كان جاهلاً، ومن دعِيَ فلم يجِبْ كَانَ أَهْلَ بدعة.

وتحقيق المقام: أنَّ الركونَ في الآية أسند إلى المخاطبين، والمخالطة، وإتيان الباب، والممالأة إلى العلماء والقراء، فكل منها إنما يكون مذموماً إذا كان من قبل العلماء، وأمَّا إذا كان من جانب السلاطين والأمراء بِأنْ يكونوا مجبورينَ في ذلك مطالَبينَ بالاختلاط لأجل الانتفاع الديني.. فلا بأسَ حينئذٍ بالمخالطة، لأنَّ المجبورَ المطالبَ مؤيد من عند الله تعالى، خَال عن الأغراض

النفسانية بِخِلافِ ما إذا كان مقارناً بالأغراض النفسانية، فيكون موكولاً إلى نفسه فتختطفه الشياطين، نعوذ بالله سبحانه وتعالى من سخطه وغضبه.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الاستقامةَ خَصَّ من أنواعها: إقامَةَ الصلاة لكونها رَأْسَ الإيمان وعمادَه، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يا محمد أنت وأمتك؛ أي: أدِّها على الوجه القويم، وأدِمْها ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: في طرفي النهار من كل يوم؛ أي: غدوة وعشية، فالصبح في الغدوة، والظهر والعصر في العشية، وانتصابه على الظرفية، لكونه مضافاً إلى الوقت، فيعْطَى حكم المضاف إليه، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾؛ أي: وفي ساعات من الليل قريبة من النهار، وهي المغرب والعشاء، وانتصابه أيضاً على الظرفية، لعطفه على طرفي النهار، وهيَ الساعات القريبة من النهار، من أزلفه إذا قربه، جمع زلفة كغرف جمع غرفة.

والمراد بصلاة الغدوة، صلاة الصبح، وبصلاة العشية الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي، وبصلاة الزلف المغرب والعشاء.

وفيه دلالة بينة على إطلاق لفظ الجمع، وهو الزلف على الاثنين. فالآية مشتملة على الصلوات الخمس، ونظيرها قوله تعالى في سورة قٓ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي بصلاة الصبح. ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾؛ أي: بصلاة العصر، والظهر، فالعصر أصل في ذلك الوقت، والظهر تَبَعٌ لها. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: في بعض أوقاته ﴿فَسَبِّحْهُ﴾؛ أي: بصلاتي المغرب والعشاء.

وفسَّر بعضُهم طرفي النهار بالصبح والمغرب، ورجَّحه ابن جرير، وزُلَفَ الليل بالعشاء والتهجد. فإنه كان واجباً عليه ﷺ فيوافق قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾.

ثم بيَّن فائدةَ الأمر السابق وحكمتَه فقال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾؛ أي: إنَّ الأعمالَ الحسنة على الإطلاق، لا سيما الصلوات الخمس ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾؛ أي: يكفِّرن الصغائر، ويذهبن المؤاخذة بها، لِمَا فيها من تزكية النفس وإصلاحها، فتمحو منها تأثير الأعمال السيئة في النفس، وإفْسَادَها لها، لا أنها تذهب السيئات نفسها؛ إذ هي قد وجدت بل مَا كانَ يترتب عليها من المؤاخذة

والمعاتبة.

والمراد بالحسنات[1]: ما يعم الأعمالَ الصالحة جميعاً، حتى ما كان منها تركاً لسيئة كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾. وجاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، وقوله: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكَفِّراتٌ لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». والمراد بالسيئات الصغائر، لأنَّ الكبائرَ لا يكفرها إلا التوبة، بدليل ما رواه مسلم: «الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر». وقرأ[2] الجمهور: ﴿وزلَفاً﴾ بفتح اللام جمع زلفة كغرفة وغرف. وقرأ طلحة، وعيسى البصرة، وابن أبي إسحاق، وأبو جعفر، وابن القعقاع: ﴿زُلُفاً﴾ بضمها جمع زليف، أو كأنه اسم مفرد. وقرأ ابن محيصن، ومجاهد بإسكان اللام، وروي عنهما: (زَلْفَى) على وزن فعلى على صفة الواحد من المؤنث.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور[3] من الوصايَا السابقة من الاستقامة والنهي عن الطغيان، والركون إلى الذين ظلموا، وإقامة الصلاة في تلك الأوقات ﴿ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: عِظة واعتبار ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: للمتعظين بأوامر الله ونواهيه، فمن امتثلَ إلى أوامر الله تعالى، فاستقامَ وأقامَ. . فقد تحقَّقَ بحقيقة الحال والمقام؛ أي: ذلكَ المذكور موعظة للمتعظين الذين يراقبون الله، ولا ينسونَه، وخصهم بالذكر، لأنهم هم الذين ينتفعونَ بِها.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد أنت وأمتك على تحمل مشاق التكاليف أمراً أو نهياً من الاستقامة وعدم الطغيان وغيرهما، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: أجر المخلصينَ في أعمالهم الصالحة، فعلاً أو تركاً؛ أي: يوفيهم أجورَهم، ولا يضيع منها شيئاً، فلا يهمله، ولا يبخَسُه بنقص، وإنما عبَّر

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

عن ذلك بنفي الإضاعة، مع أنَّ عَدَمَ إعطاء الأجر ليس بإضاعة، حقيقة كيف لا والأعمال غيرُ موجبة للثواب، حتى يلزمَ من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره منه سبحانه من القبائح، وإبرازاً للإثابة في معرض الأمور الواجبة، وهو تعليل للأمر بالصبر.

وعن أبي بكر الوراق قال: طلبنا أربعةَ أشياءَ سنينَ، فوجدناها في أربعة؛ طلبنا رضَى الله تعالى فوجدْنَاه في طاعته، وطلبنا السعة في المعيشة فوجدناها في صلاة الضحى، وطلبنا سلامة الدين فوجدناها في حفظ اللسان، وطلبنا نور القبر فوجدناه في صلاة الليل، فعلى العاقل السعي في طريق الطاعات، وتنوير القلب بنور العبادات، ذكره صاحبُ «الروح». والمعنى؛ أي[1]: ووطن نفسَك على احتمال المشقة في سبيل ما أمرت به وما نهيتَ عنه في هذه الوصايا وفي غيرها، فإن الله لا يضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عملاً، بل يوفيه ثوابَ عمله من غير بَخْسٍ له. وفي الآية إيماء إلى أنَّ الصبرَ من باب الإحسان.

فائدة: وقد كانت[2] عادة القرآن على إجراء أكثر خطابات الأوامر على النبي ﷺ، فلذلك قالَ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ وأكثر خطابات النهي على الأمة، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾، ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ اعتباراً للأصالة في الاتصاف، والتنزه والاجتناب فافهم.

ولما بيَّن[3] سبحانه وتعالى ما حلَّ بالأمم الماضية من عذاب الاستئصالَ بيَّن هنا أن السَّبَب في ذلك أمران: **الأول**: عدم وجود مَنْ ينهى عن الفساد، **الثاني**: عدم رجوعهم عَمَّا هم فيه فقال: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ﴾ لولا تحضيضية مضمنة معنى النفي، وكان بمعنى وجد؛ أي: فهلا وجد ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾؛ أي: من الأمم المهلكة الكائنة ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ قال في «القاموس»: القرون جمع قرن، والقرنُ مئة

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الصاوي.

سنة، وهو أصح الأقوال الجارية في معنى القرن، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم؛ لأنهم يتقدمونهم، وكلُّ أمة هَلَكَتْ، فلَم يبق منها أحد تُسمَّى قرناء. ﴿أُوْلُوا بَقِيَّةٍ﴾؛ أي: أصحاب عقل ورأي ودين وفضل. وسُمِّي الفضل والجودةُ بقيةً على أن يكون الهاء للنقل كالذبيحة؛ لأنَّ الرجلَ إنَّما يستبقي مما يكسبه عادة أجودَه، وأفضلَه، فصار مثلاً في الجوْدَةَ والفضل، يقال: فلان من بقية القوم؛ أي: من خيارهم، ومنه ما قيل في المَثل: في الزوايا خبايَا، وفي الرجال بقايَا؛ وإنما قيل: بقية، لأنَّ الشرائعَ والدولَ، ونحوَها، قوتها في أولهَا، ثم لا تزالُ تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف.. فهو بقية الصدر الأول. ﴿يَنْهَوْنَ﴾ نعت لأُولي؛ أي: ينهون قومهم المفسدين ﴿عَنِ الْفَسَادِ﴾ الواقع منهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، ويمنعونهم من ذلكَ لكونهم ممن جمع الله فيهم بينَ جودة العقل وقوة الدين. وفي قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ حكاية الحال الماضية، والمراد بالتحضيض في لولا: النفيُ، والاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ منقطع، والمعنى: ما كانَ من القرون المهلكة من قبلكم أُولو فضل ودين ينهون عن الفساد في الأرض إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم؛ أي: من القرون المهلكة نَهَوا عن الفساد، فنجَوا، وهم أتباع الرسل، وسائرهم تركوا النهيَ، فهلكوا، و (من) في ﴿ممن أنجينا﴾ للبيان لا للتبعيض؛ لأنَّ جميعَ الناجينَ ناهُونَ.

قيل: هؤلاء القليلُ: هم قوم يونس لقوله فيما مر: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾. والراجح أنهم أتباع الرسل، وأهل الحق من الأمم على العموم.

والمعنى: فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم في الأرض جماعة أولو عقل ورأي وصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض، باتباع الهوى، والشهوات التي تفسد عليهم أنفسَهم، ومصالِحَهم، فيحولون بينهم، وبين الفساد، ومن سنة اللّهِ أن لا يهلك قوماً إلا إذا عَمَّ الفساد والظلم أكثرهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: ولكنْ كَانَ هناك قليل من الذين أنجيناهم مع رسلهم، منبوذينَ لا يقبل نهيهم وأمرهم مهددينَ مع رسلهم بالإبعاد والأذى. وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه

الكلام تقديره: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد فَنَجَوا، واتبعَ الذين ظلموا أنفسَهم وغيرهم بسبب مباشرتهم الفسادَ، وتركهم النهي عنه، فيكونُ العدول إلى المظهر لإدراج المباشرين معهم في الحكم، والتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بعلية ذلك، لِمَا حَاقَ بهم من العذاب؛ أي: واتّبَعَ الذين تركوا النهيَ عن المنكرات، ما أنعموا فيه، واستدرجوا به من الشهوات، واشْتَغَلوا بتحصيل الرياسات، وأعرضوا عما وَرَاء ذلك من أمور الآخرة. ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: كافرينَ، فإن سبب استئصال الأمم المهلكة، فشو الظلم، وشُيوعُ ترك النهي عن المنكرات مع الكفر.

والمعنى: أي صاروا تابعينَ للنعم التي صاروا بها مترفينَ منعمين من خصب العيش، ورفاهية الحال، وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة، واستغرقوا أعمارَهم في الشهوات النفسانية.

وجملة: ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ معطوفة على: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: اتبعوا شهواتِهم، وكانوا بذلك الاتباعِ مجرمين، وهذا بيان لسبب استئصال الأمم المهلكة، وهو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتباع الشهوات.

وخلاصة ذلك[1]: أنَّ العقولَ السليمةَ كافية لفهم ما في دعوة الرسل من الخير والصلاح، لو لم يمنع استعمال هِدَايَتِها الافتتانُ بالترف، والنعيم، بَدَلاً من القصد والاعتدال فيه، وشكر المنعم عليه، وقد هَدَتْ التجارب إلى أنَّ التّرَفَ هو الباعث على الفسوق والعصيانِ، والظلم والإجرام، ويظهر ذلك بديئاً في الرؤساء والسادة، ومنهم ينتقل إلى الدهماء، والعامَّةِ، فيكون ذلك سبباً في الهلاك بالاستئصال، أو في فقد العزة والاستقلال، وتلك هي سنة الله في خلقه، كما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾. وفي الحديث[2]: «إن الله لا يعذب العامةَ بعمل الخاصة، حتى يروا المنكرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروا، فلا ينكرون، فإذا فعلوا ذلك

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

عذَّب الله العامَّةَ والخاصة»، فكل قوم لم يكن فيهم آمر بالمعروف، وناه عن المنكر، من أرباب الصدق، وهم مجتمعون على الفساد، أو لا يأتمرون بالأمر بالمعروف، ولا ينتهون بالنهي عن المنكر، فإنهم هالكون.

وقرأت فرقة[1]: ﴿بَقِية﴾ بتخفيف الياء اسم فاعل من بقي نحو: شجيت فهي شجية. وقرأ أبو جعفر وشيبة: ﴿بُقْية﴾ بضم الباء وسكون القاف، بوزن فعلة. وقرىء: (بَقْيَة) بوزن فَعْلَة للمرة من بقاه يبقيه، إذا رقبه وانتظره. وقرأ زيد بن علي: ﴿إلا قليل﴾ بالرفع لحظ أن التحضيض تضمن النفْيَ فأبدل كما يبدل في صريح النفي. وقرأ جعفر بن محمد، والعلاء بن سيابة كذا في كتاب «اللوامح»، وأبو عمرو في رواية الجعفي، ﴿وأتبعوا﴾ ساكنة التاء مبنيةً للمفعول على حذف مضاف؛ لأنه مما يتعدَّى إلى مفعولين؛ أي: جزاء ما أترفوا فيه. ثم بَيَّن سبحانه وتعالى ما يحول بين الأمم وإهلاكها فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ (اللام) لام الجحود عند البصريين، وينتصب الفعل بَعْدَهَا بإضمار أن، وهي متعلقة بخبر كانَ المحذوف؛ أي: مريداً لإهلاك أهل القرى. وقال الكوفيون: ﴿يهلك﴾ خبرُ كَانَ زيدت اللام دلالةً على التأكيد. ﴿بِظُلْمٍ﴾ حال من الفاعل؛ أي: ظالماً لها بغير ذنب، واستحقاق للهلاك، بل استحَالَ ذلك في الحكمة. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾؛ أي: غير ظالمينَ، حال من المفعول، والمراد تنزيه الله تعالى عن الظلم بالكلية، بتصويره بصورة مَا يستحيل صدوره عنه تعالى، وإلا فلا ظُلْمَ فيما فَعَلَ الله بعباده، كائناً مَا كَانَ.

والمعنى: وما كان الله سبحانَه وتعالى مريداً لإهلاك أهل القرى حالةَ كونه ظَالِماً لها بغير ذنب، ولا استحقاق إهلاك، حَالَةَ كون أهلها غيرَ ظالمين. وقيل قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ متعلق بالفعل المتقدم، والمراد به الشرك.

والمعنى: أي ما صح[2]، ولا استقام أن يهلك الله سبحانه وتعالى أَهلَ القرى بظلم وشرك يتلبسون به، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

الحقوق، لا يظلمون الناسَ شيئاً، والمعنى: أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده، حتى ينضم إليه الفساد في الأرض كما أهلكَ قوم شعيب بنقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، وأهلك قَوْم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء، وإنما لم يهلكهم بشركهم؛ لأن مكافَأَةَ الشرك النار لا ما دونَها.

قال بعضهم: الملك يبقى مع الشرك، ولا يبقَى مع الظلم. وقيل: المعنى: وما كان ليهلكهم بِذُنُوبِهم، وهم مصلحون؛ أي: مخلصون في الإيمان.

وحاصل معنى الآية: أي[1] أنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ما داموا مصلحينَ في أعمالهم الاجتماعية، والعمرانية، والمدنية، فلا يبخسون النَّاسَ حقوقهم، كما فعل قوم شعيب، ولا يَبْطِشُون بالناس بطشَ الجبارين، كقوم هود، ولا يذلون لمتكبر جبار، كقوم فرعون، ولا يرتكبون الفواحشَ، ويقطعونَ السبيلَ، ويأتون في ناديهم المنكرَ، كقوم لوط بل لا بد أن يضموا إلى الشرك الإفسادَ في الأعمال، والأحكام، ويفعلوا الظلمَ المدمر للعمران، ومن ثَمَّ قالوا: الأمم تبقَى مع الكفر، ولا تبقَى مع الظلم والجَور. ويؤيد هذا ما أخرجه الطبراني، والديلميُّ، وابن مردويه عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عن تفسير هذه الآية فقال: «وأهلها ينصف بعضهم بَعْضاً».

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد، جعلَ الناس أمةً واحدةً ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: أهل[2] دين واحد، إما أهلَ ضلالة، أو أهل هُدًى. وقيل معناه: جَعَلَهم مجتمعينَ على الحق، غير مختلفينَ فيه، أو مجتمعينَ على دينِ الإسلام دونَ سائرِ الأديان، بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد كما كانوا قبل الاختلاف. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ ولكنه لم يَشَأْ ذَلِكَ.

أي: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ أيها الرسول[3] الكريم الشديد الحرص على إيمان

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

قومك، الحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابة دَعوتك، واتباع هديك ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: على دين واحد، بمقتضَى الغريزة والفطرة، لا اختيار لهم فيما يفعلون، فكانوا في حياتهم الاجتماعية، أشبَه بالنمل والنحل، وفي حياتهم الروحية أشبَه بالملائكة، مفطورينَ على طاعة الله، واعتقاد الحق، وعدم الميل إلى الزيغ والجور، لكنه تعالى خلَقهم كاسبِين، لا ملهمين، وعاملين بالاختيار لا مَجْبورين، ولا مضطرينَ وجعلهم متفاوتين في الاستعداد، وكسب العلم، وكانوا في أطْوَارِهم الأولى لا اختلافَ بينهم. ثم لما كثرت وتنوعت حَاجَاتهم، وكثرت مطالبهم، ظَهَرَ فيهم الاستعدادُ للاختلاف، ولكنه لم يشأْ ذلك، ولذلك قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في ذات بينهم على أديان شتَّى أو لا يزالونَ مختلفينَ في الحق، أو دين الإسلام.

فقد اختلف أهله فيه اختلافاً كثيراً. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنين وسبعينَ فرقةً، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة». المراد بهذه الفرق، أهل البدع، والأهواء كالخوارج، والقدرية، والرافضةِ والمعتزلة، والمرادُ بالفرقة الواحدة: أهل السنة والجماعة، اهـ «خازن». أو لا يزالونَ مُخْتَلِفينَ في الرزق، فهذا غني، وهذا فقير، أو لا يزالون مختلفينَ في شؤونهم الدنيوية، والدينية بحسب استعدادهم الفطري، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ بالهداية إلى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا، أو إلا مَنْ رحم ربك من المختلفين في الحق، أو دين الإسلام بهدايته إلى الصواب الذي هو حكم الله تعالى، وهو الحق الذي لا حقَّ غيره، أو إلا مَنْ رحم ربك بالقناعة. والأولى تفسير: ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالمجتمعةِ على الحق، وحكم كتابه فيهم، وهو الذي عليه مدار جمع كلمة الأمة، ووحدتها، حتى يكون معنى الاستثناء في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ واضحاً غير محتاج إلى تَكَلُّفٍ.

﴿وَلِذَٰلِكَ﴾؛ أي: ولمشيئته تعالى فيهم الاختلافَ والتفرقَ في علومهم، ومعارفهم، وآرائهم، وما يتبع ذلك من الإرادة والاختيار في الأعمال ﴿خَلَقَهُمْ﴾؛ أي: خَلَقَ الناسَ كافَّةً، وبهذا كانوا خلفاء في الأرض، ومن ذلك اختلافهم في

الدين والإيمان، والطاعة والعصيان، وبذا كانوا مَظْهراً لأسرار خلقه الروحية، والجسدية، أو المادية، والمعنوية، فإنه جعل مصيرَ أهل الباطل إلى النار، ومصيرَ أهل الحق إلى الجنَّة. وقال ابن عباس: خَلَقهم في فَرِيقَيْنِ فريق يرحم فلا يختلف، وفريق لا يرحم فيختلفُ، فذلك قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

والخلاصة[1]: أن الناس فريقان: فريق اتفقوا في الدين، فجعلوا كتابَ الله حَكَماً بينهم فيما اختلفوا فيه، فاجتمعت كلمتهم، وكانت أمة وَاحِدَةً فرحمهم الله تعالى، ووقاهم شرَّ الاختلاف في الدنيا، وعذابَ الآخرة. وفريق اختلفوا في الدين كما اختلفوا في منافع الدنيا، فكان بأسهم بَيْنَهم شديداً، فذاقوا عقابَ الاختلاف في الدنيا، وأعقبه جزاؤهم في الآخرة، فحُرموا من رحمة الله بظلمهم لأنفسهم لا بظلم منه تعالى لهم.

فإن قلت: يعارض ما هنا أعني قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قولَه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

قلت: لا معارضة بينَهما، لأنَّ ما هنا خَلَقهم ليصير أمرهم إلى الاختلاف، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ معناه: ما خلقتهم إلا للأمر بالعبادة، وبهذا يزول الإشكال، تأمل.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ثبت[2] قول ربك يا محمد للملائكة: وعزتي وجلالي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: لأجعلنها ملأى حتى تقول قط قط بمعنى يكفي يكفي كما في الحديث. وذلك بعد أن تمد أعناقَهَا، وتطلب الزيادة ليتجلى عليها بصفة الجلال، فتخضع وتذل وتقول: قَطْ قَطْ. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من عصاتهما ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لتأكيد العموم للنوعين، وإذا تمت وثَبَتَتْ امتنعَت من التغيير والتبديل؛ أي: قد سبق في قضائه وقَدَرِه وحكمته النافذة أن من خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النارَ، وأنَّ النارَ لا بد أن تملأَ من عالمي الجن

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

والإنس، الذين لا يهتدون بما أرسلَ به رسلَه، وبما أنزلَ عَلِيهم من كتبه لهداية المكلفين، والحكم بين المُخْتَلِفِينَ. ولما ذكر[1] الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة قَصَصَ الأمم الماضية، والقرُونَ الخالية، وما جرَى لهم مع أنبيائهم.. خاطب نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: وكل نبإٍ وخبر من أنباءِ الرسل المتقدمين من قبلك، وأخبارِهم مع قومهم، مما يحتاج إليه، وما جرى لهم من المحاجات، والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب، والأذى، وكيف نَصَر الله حِزبَهُ المؤمنين، وخذل أعداءَه الكافرين، نقصه عليك، ونخبره لك لفوائدَ، منها: ما ذكره بقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ حتى يكون كالجبل لتقومَ بأعباء الرسالة، ونشر الدعوة لما لك من الأسوة بإخوانك المرسلين. وهو بدل من ﴿كلاًّ﴾؛ أي: نقص عليك من تلك الأنباء ما نقوي ونشد به قلبكَ، حتى يَزيدَ يقينك، وتطيبَ به نفسك، وتعلم أن الذي فعل بك قد فعل بالأنبياء قبلك، والإنسان إذا ابتليَ بمحنة وبلية، فرأى جماعةً يشاركونه فيها خف على قلبه بَلِيَّته كما يقال: البلية إذا عمت خفت وطابَتْ. وتثبيت[2] الفؤاد هو بما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولأتباعهم المؤمنين، وما لقوا من مكذبيهم من الأذى. ففي هذا كله أسوة بهم؛ إذ المشاركة في الأمور الصَّعْبة تهوِّن ما يلقَى الإنسانُ من الأذى، ثم الإعلام بما جرَى على مكذبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع من العذاب، من غرق، وريح، ورجفة، وخسف، وغيرِ ذلك فيه طمأنينة للنفس، وتأنيس بأن يُصِيبَ الله من كذَّب الرسولَ ﷺ بالعذاب كَمَا جَرَى لمكذبي الرسل، وإنباء له عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة له، ولأتباعه، كما اتفقَ للرسل وأتباعِهم. ومنها: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَآءَكَ﴾ يا محمد ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ الأنْبَاء المقصوصة عليك، أو في هذه السورة، ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: البراهين الدالةَ على التوحيد، والنبوة ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾؛ أي: تنفير للمؤمنين من الاغترار بالدنيا.

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إرشاد لهم إلى الاستعداد للآخرة؛ أي: وجاءك

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

في هذه السورة النبأ الحق، والخبرُ الصدق الذي هو مطابق لِمَا جرَى للأمم السابقة، ليسَ فيه تغيير، ولا تحريفٌ، كما يَنْقل شيئاً من ذلك المؤرخُون. فإن قلت[1]: قد جاءه الحق في سور القرآن كُلِّها، فلِم خص هذه السورة بالذكر؟

قلت: لا يلزَمُ من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يَكُون قد جاءه الحق في غيرها من السور، بل القرآن كلُّه، حق يَحِقُّ تَدَبُّره، وصدقٌ يجب تصديقه، ولكن إنما خصَّها بالذكر، تشريفاً لها، ورفعاً لمنزلتها لكونها جمعت من قصص الأمم الماضية، ما لم يَكُن في غَيْرِها، وإنما عرفه، ونكر تَالِيَيهِ تفخيماً له، لكونه يُطْلَقُ على الله تعالى بخلاف تاليه، اهـ «كرخي».

قال في «الإرشاد»[2]: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الأمر الجامع بين كونه حقّاً في نفسه، وكونهِ موعظةً، وذِكرَى للمؤمنينَ، ولكون الوصف الأول حالاً له في نفسه، حلّي باللام دون ما هو وصف له بالقياس إلى غيره، وتقديم الظرف أعني (في هذه) على الفاعل، أعني الحقَّ، لأنَّ المقصود بيان منافع السورة، لا بيان ذلك فيها، لا في غيرها؛ أي: لأن المقصودَ بيان اشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾؛ أي: ونصيحة عظيمة للمؤمنين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وتذكرة لهم خَصَّهم بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بالموعظة، والتذكير بأيام الله، وعقوبته، والفرق بين الموعظة والتذكير: أنَّ المَوْعِظَةَ هي ما ينزجر به السامِعُ، ويمتنع من الاغترار بزخارف الدنيا، ولذاتها لأنه إذا رَأَى إهلاك الأمم السابقة مع قوتهم، وجلادتهم وسعةِ رزقهم أعرضَ عن الدنيا، والتذكير: ما يقبل السامع بالتدبر فيه إلى أمور الآخرة، والتزود لها؛ لأنه إذَا رأى نَصرَ المؤمنين، وكَوْنَ الدولة لهم، ونَجَاتهم مع الرسل، أقْبَل إلى أمور الآخرة، والتزود لها. وقيل: هما مرادفان.

﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحق، ولا يتعظون به، ولا

---

(١) الخازن. (٢) روح البيان.

يتذكرون من أهل مكة، وغيرهم. ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على حَالَتِكم وجهتكم التي هي عدم الإيمان ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على حالنا، وهو الإيمان به، والاتعاظ والتذكير به ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بنا الدوائرَ والنوائبَ على ما يعدكم الشيطان ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم ما نَزَلَ بأمثالكم من الكفرة على ما وعد الرحمن. فهذا تهديد لهم؛ لأن الآيَةَ منسوخة بآية السيف.

والمعنى[1]: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بنا ما تتمنونه من انتهاء أمرنا إما بموت أو غيره، مما تحدِّثون به أنفسَكم، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ۝٣٠﴾.

﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزلَ بكم مثل ما نزلَ بأمثالكم من عقابه تعالى، بعذاب من عنده، أو بأيدي المؤمنين، وأن يكفل لنا النصرَ والغلبة، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم. وقد أنجزَ وَعْدَه، ونصَرَ رسوله، وأيَّدَهُ، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

و(اللام) في قوله[2]: ﴿ولِلَّه﴾ للاختصاص ﴿غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الغيب في الأصل مصدر، وإضافة المصدر يفيد العموم، والإضافة فيه بمعنى في؛ أي: وعلم جميع ما غاب عنك يا محمد، وعن سائر الخلائق في السموات والأرض مختص بالله سبحانه وتعالى، فكيف يخفَى عليه أعمالكم؛ وهو المالك لجميع ما في السموات والأرض، المتصرف فيه كيف شاء، العالم بكل ما سيقع فيهما، والعالم بوقته الذي يقع فيه.

وخص[3] ذكرَ الغيب مع كونه يعلم بما هو شاهد فيهما، لكونه من العلم الذي لا يُشَارِكهُ فيه غيره، وخص ذكرَ السموات والأرض مع كونه يعلم ما غاب في غيرهما من العرش والكرسي وغيرهما، لكونهما محسوسين للمخاطبين.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

وقيل: إنَّ غيبَ السموات والأرض نزول العذاب من السماء، وطلوعه من الأرض، والأول أولى، وبه قال أبو علي الفارسي وغيره.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ بضم الياء، وفتح الجيم، أي يرد، وبفتح الياء، وكسر الجيم بمعنى يَعُود، ويصير أمور الخلائق كلها يوم القيامة، فيجازى كُلاً بعمله خيراً، أو شراً، فيرجع أمرك يا محمد، وأمُر الكفار إليه، فينتَقِم لَكَ منهم؛ أي: فأمركَ وأمرهم لا مَحَالةَ راجع إليه تعالى، ومَا شَاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكن. وقرأ[1] نافع وحفص: ﴿يُرْجَع﴾ على البناء للمفعول. وقرأ الباقون على البناء للفاعل. ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾؛ أي: وإذا[2] كان أمر كل شيء يرجع إليه، فاعبده سبحانه وتعالى بإخلاص الدين له وحدَه، وادعُ إلى طاعته، واتباع أمره بالحكمة، والموعظة الحسنة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ تعالى فيما لا يدخلُ في مكنتك، واستطاعتك مما ليس لك سبيل إلى الحصول عليه، لكونه لا يدخلُ تحتَ كسبك، ولا تنالُه يدك، والتوكل لا يجدي نفعاً بغير العبادة، والأخذ بالأسباب المستطاعة، وبدون ذلك يكون من التمني الكاذب، والعبادة لا تكمل إلاّ بالتوكل، إذ به يكمل التوحيد والإخلاص له تعالى.

روى أحمد، والترمذي، وابن ماجه، أن النبي ﷺ قال: «الكيس مَنْ دان نفسه، وعمل لما بعدَ الموت، والعاجز من أتبع نفسَه هواها، وتمنَّى على الله الأماني».

وخلاصة ذلك: امتَثِلْ ما أمرت به، وداوم على التبليغ والدعوة، وتوكل عليه في سائر أمورك، ولا تبال بالذين لا يؤمنون، ولا يضيق صدرك بهم.

وقيل: معنى قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾؛ أي[3]: أطعه، واستقم على التوحيد أنت وأمتك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: فوض إليه جميعَ أمورك، فإنه كافيك وعاصمك من

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

شرهم، فعليك تبليغ ما أوحينا إليك، بقلب فسيح غير مبال بعداوتهم، وعتوهم وسفههم، وفي تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعارٌ بأنه لا ينفَعُ بدونها.

﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بساه[1] عما تعمل أنت أيها النبي ﷺ ومن اتبعك من المؤمنين من عبادته، والتوكل عليه، والصبر على أذى المشركين، فيوفيكم جزاءكم في الدنيا والآخرة، ولا بغافل عما يعمل المشركون من الكيد لَكُمْ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وسيجزيهم على أعمالِهم يوم تجْزَى كل نفس بما كسبَتْ، وقد صدق وعدَه، ونَصَرَ عبده، وأظهر دِينَه على الدين كلِّه، أي: فالله تعالى عالم به غير غافل عنه؛ لأنَّ الغفلةَ والسهوَ لا يجوزان على مَنْ لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، فيجازي كلاًّ منك ومنهم بِمُوجَب الاستحقاق.

والجملة الأولى من هذه الآية[2]: دلت على أن عِلْمَه تعالى محيط بجميع الكائنات، كلِّيها وجُزّئِيِّها حاضرها وغائبها؛ لأنه إذا أحاط علمه بما غاب، فهو بما حضر محيط؛ إذ علمه تعالى لا يتفاوت.

والجملة الثانية: دلَّت على القدرة النافذة، والمشيئة.

والجملة الثالثة: دلَّت على الأمر بإفراد مَنْ هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية، والعبادة أولى الرتب التي يتحلَّى بها العبدُ.

والجملة الرابعة: دلَّتْ على أنَّ الأمر بالتوكل، وهِيَ آخرة الرُّتَبِ، لأنه بنور العبادة أبصرَ أنَّ جميعَ الكائنات معذوقة بالله تعالى، وأنه هو المتصرف وحده في جَمِيعِها، لا يشركه في شيء منها.

والجملة الخامسة: تضمنت التنبيه على المُجَازَاةِ، فلا يضيع طاعةَ مطيع، ولا يهمل حالَ متمرد؛ أي: فإنه تعالى[3] لا يُضَيِّعُ طاعات المطيعينَ، ولا يهمل

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراح.

أحوالَ المتمردين الجاحدين، وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة، ويحاسبوا على النقير والقطمير، ويعاتبوا في الصغير والكبير ثم يحصل عاقبة الأمر فريق في الجنة وفريق في السعير.

وعن كعب الأحبار[١]: إنَّ فَاتِحَةَ التوراةِ، فاتحةُ سورة الأنعام، وخاتمتها خاتمةُ سورة هود، هذه الآية يعني: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

واعلم: أنَّ علم الغيوب بالذات مختص بالله تعالى، وأما إخبار الأنبياءِ والأولياء صلوات الله عليهم أجمعين،عن بعض المغيبات، فبواسطة الوحي، والإلهام، وتعليم الله تعالى، ومن هذا القبيل: إخباره ﷺ عن حال العشرة المبشرة، وكذا عن حال بعض الناس.

ثم إن[٢] التوكّل عبارة عن الاعتصام به تعالى في جميع الأمور، ومحله القلبُ، وحركة الظاهِرِ لا تنافي تَوَكُّلَ القلب بعدما تحقق عند العبد أنَّ التقدير من قبل الله تعالى، فإن تَعَسَّرَ شيءٌ، فبتقديره، فالواجب على كافَّةِ العباد أن يعبدوا اللَّهَ تعالى، ويعتمدوا عليه كل الاعتماد، لا عَلى الجاه والعقل، والأموال، والأولاد فإنَّ اللَّهَ تعالى خالق كل مخلوق، ورازق كلٌّ مرزوق.

وفي الحديث: «ما من زرع على الأرض، ولا ثمر على الأشجار، إلا وعليه مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم هذا رزقُ فلان بن فلان». وفي الحديث: «خَلَقَ الله الأرزاقَ قبل الأجسادِ بألف عام، فبسطها بين السماء والأرض، فضربتها الرياحُ، فوقعت في مشارق الأرض ومغاربها، فمنهم من وَقَعَ رزقه في ألف موضع، ومنهم من وقع في مئة، ومنهم من وقع على باب داره، يَغْدُو ويَرُوحُ حتَّى يَأتِيه».

وقرأ الصاحبان[٣] ـ نافع وابن عامر ـ وحفص، وقتادة، والأعرجُ، وشيبة

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وأبو جعفر، والجحدري: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، لأنَّ قَبْلَه ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾. وقرأ باقي السبعة بالياء على الغيبة. واختلف عن الحسن، وعيسى بن عمر.

وعن رسول الله ﷺ[1]: «من قرأ سورةَ هود أعطي من الأجر عَشْرَ حسنات بعدد من صَدَّق بنوح، ومَنْ كذَّب به، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وكان يومَ القيامة من السعداء» إن شاء الله تعالى.

خاتمة في بيان المقاصد الدينية التي اشتملت عليها هذه السورة

قد اشتملت هذه السورة على ما اشتملت عليه سابقتها من أصول الدين، ومبادئِهِ العامة التي لا يكون المؤمن مؤمناً حقّاً إلا إذا سلك سبيلها، ونهج نهجَها، ومن ذلك:

١ - التوحيد وهو ضربان:

أ - توحيد الأُلوهية، وهو أولُ ما دعا إليه محمدٌ ﷺ، ودعا إليه كل رسول قَبْلَه، وهو عبادته تعالى وحده، وعدم عبادة أحد معه، كما قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فعبادة غيره من الأصنام كحجر وشجر وكوكب أو بشر ولي أو نبيَّ أو شيطان أو ملك، إذا توجه العبد إليها توجهاً تعبديّاً ابتغاء النفع أو كشف الضر في غير الأسباب التي سخرها الله لجميع الناس، كل ذلك كفر لا فرق بينه وبين عبادة الأصنام، أو الأوثان، إذ جميع ما عَدَا الله تعالى فهو عَبْدٌ، وملك له لا يتوجه بالعبادة إليه.

ب - توحيد الربوبية؛ أي: اعتقاد أنَّ اللَّهَ وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون، والمتصرف فيه على مُقْتَضَى حكمته، ونظام سنَّته، وتسخيره الأسباب لمن شاء بما شاء، وكان أكثر المشركينَ من العرب ومن قبلهم يؤمنون بأنَّ الربَّ الخالقَ المدبّر واحِدٌ، ولكن يقولون بتعدد الآلهة التي يتقرب بها إليه توسلاً، وطلباً للشفاعة عنده.

---

(١) البيضاوي.

٢ ـ إثبات رسالته ﷺ بالقرآن بتحدّيهم بالإتيان بعشر سور مثله مفتريات، ودعوة مَن استطاعوا من دون الله لمظاهرتهم، وإعانتهم على الإتيان بها، إن كانوا صادقين، وقوله بعد ذلك: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ وما جاء في قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾.

٣ ـ جاءت آيات البعث والجزاء في القرآن لدعوة المشركين إلى الإيمان، والاستدلال بها على قدرة الخالق، ولتذكير المؤمنين به للترغيب والترهيب، والموعظة والجزاء، كما جاء في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾، وقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٤ ـ إهلاكُ الأمم بالظلم كما جاء في قوله لخاتم رسله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾، وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

٥ ـ سنته تعالى في ضلال الناس وغوايتهم بأن يكونوا بارتكاب أسبابهما من الأعمال الاختيارية، والإصرار عليها إلى أن تتمكنَ من صاحبها، وتحيطَ به خطيئته حتى يفقد الاستعدادَ للهُدَى والرشاد.

٦ ـ من طباع البشر العجل والاستعجالُ لِمَا يَطْلُبُ من النفع والخير، وما ينذر به من الشرِّ كما قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

٧ ـ سنته تعالى في تكوين الخلق، وأنه كَانَ أطواراً في أزمنة مختلفة، بنظام مُحْكَمٍ، ولم يكن شيء منه فجائياً بلا تقدير، ولا ترتيب كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فكلمة الخلق معناها: التقدير المحكم الذي تكون فيه الأشياء على مقاديرَ متناسبة، ثم أريد بها الإيجاد التقديريُّ؛ فالسموات السبع المرئية للناظرين، والأجرام السماوية قائمة بسنن دقيقة النظام، وما فيها من البسائط، والمركبات الغازية، والسائلة، والجامدة، كذلك والكون في جملته قائم بسنة عامة في ربط بعضه ببعض، وحفظِ نظامِهِ بأنْ يبنَى بعضه على

بعض، وهو ما يسمِّيه العلماء: الجاذبِيَّة العامةَ، والجاذبية الخاصَّةَ.

٨ ـ أنَّ الطغيانَ والركونَ إلى الظالمين من أمهات الرذائل، كما قال: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

٩ ـ الاختلاف في طبائع البشر: فيه فوائد، ومنافع علمية وعملية لا تظهر مَزَايَاهُ بدونها، وفيه مضار وشرور أكبرها التفرق، والتعادي به، وقد شرع الله لهم الدينَ لتكميل فطرتهم، والحكمِ بينهم فيما اختلفوا فيه بكتابه الذي لا مَجَالَ فيه للاختلاف، فاستحق الذين يحكمونه فيما يتنازعون فيه رحمتَه وثوابَه، والذِينَ يختلفون فيه سخْطَهُ وعِقَابَه.

١٠ ـ إتباع الإتراف، وما فيه من الفساد، والإجرام، ذلك أن مثار الظلم والإجرام الموجِبَ لهلاك الأمم، هو اتباع أكثرها، لِما أترِفُوا فيه من أسباب النعيم، والشهوات، واللذَّات، والمترفون هم مفسدوا الأمم، ومُهلكوها، وقد علم هذا المهتدون الأولون بالقرآن، من الخلفاء الراشدين، والسلف الصالحين، فكانوا مَثَلاً صالحاً في الاعتدال في المعيشة، أو تغليب جانب الخشونة والشدة على الأتراف والنعمة، ففَتحوا الأمْصَارَ، وأقاموا دَوْلةً عزَّ على التاريخ أن يقيمَ مِثْلَها باتباع هدي القرآن، وبيان السنة له، وبذلك خرجوا من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، والعرفان، ثم أضَاعَها من خلف من بعدهم من متبعي الإتراف، وكيف ضلوا بعد أن استفادوا الفنونَ والعلومَ، والملكَ والسلطان، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

١١ ـ إقامة الصلاة في أوقاتها من الليل والنهار؛ لأنَّ الحسناتِ يذهبن السيئات، وأعظم الحسناتِ الروحيةِ الصلاة لما فيها من تطهير النفس وتزكية الروح.

١٢ ـ النهي عن الفساد في الأرض، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهما سياج الدين والأخلاق والآداب.

١٣ ـ سننه تعالى في اختبار البشر؛ لإحسان أعمالهم كما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

١٤ ـ أول اتباع الرسل والمصلحين الفقراءُ كما حكى عن قوم نوح ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾.

١٥ ـ التنازع بين رجال المال، ورجال الإصلاح في حرية الكسب المطلقة أو تقييد الكسب بالحلال ومراعاة الفضيلة.

١٦ ـ منْ سُنَنِهِ تعالى جعل العاقبة للمتقين، وذلك هو الأساس الأعظم في فوز الجماعات الدينية، والسياسية، والأمم والشعوب في مقاصدها، وغلبها لخصومها ومناوئيها.

١٧ ـ بيان أنَّ الاختلافَ في الدين ضروري كما قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

١٨ ـ بيان أنَّ نَهْيَ أولي الأحلام عن الفساد، يَحْفَظُ الأمة مِنَ الهلاك كما قال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الإعراب

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتَ أنَّ مراتب الناس اثنان إما شقي أو سعيد، وأردتَ بيانَ مآلهما.. فأقول لك. ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿شَقُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فَفِى﴾ (الفاء) رابطة لجواب أمَّا واقعة في غير موضعها؛ لأنَّ موضعها موضع (أما). ﴿في النارِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب (أما) لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة أما من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الاستقرار الذي تعلق به الخبرُ. ﴿زَفِيرٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿وَشَهِيقٌ﴾ معطوف عليه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير

المستكن في الجار والمجرور قبله أعني قولَه: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ أو حال من ﴿النار﴾ أو مستأنفة استئنافاً بيانياً، كَأن سائلاً سأَلَ حينَ أخبر أنهم في النار ماذا يكون لهم؟ فقيل: لهم كذا وكذا، كذا في «الفتوحات».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور، أعني قَولَه: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿مَا﴾ مصدرية ظرفية. ﴿دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فعل وفاعل؛ لأنَّ دام هنا تامة بمعنى بقِيَتْ. ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ معطوف عليه، والجملة صلة (ما) المصدرية. ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه، تقديره: مدة دوام السموات والأرض، والظرف المقدر متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء بمعنى غير. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء. ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: إلا ما شاءه ربك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه. ﴿فَعَّالٌ﴾ خبره، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿لِّمَا﴾ جار ومجرور متعلق بفعال، وقيل: (اللام) زائدة في مفعول الصفة تقويةً للعامل. ﴿يُرِيدُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره لما يريده.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (أما) حرف شرط. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿سُعِدُواْ﴾ فعل ونائب فاعل أو فعل وفاعل على اختلاف القراءتين، والجملة صلة الموصول. ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب (أما)، وجملة (أما) معطوفة على جملة (أمّا) الأولى. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿ما﴾ مصدرية ظرفية. ﴿دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فعل وفاعل صلة (ما) المصدرية. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء بمعنى غير. ﴿ما﴾

في محل النصب على الاستثناء. ﴿شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ فعل وفاعل صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿عَطَآءً﴾ مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف وجوباً تقديره، يعطيهم الله عطاءً؛ أي: إعطاءً؛ لأنه اسم مصدر لأعطى، ويصح كونه مفعولاً به إذا كان بمعنى معطىٰ، ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ صفة لـ ﴿عَطَآءً﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتَ يا محمد ما قصصنا لك من قصص المتقدمين، وسوء عاقبتهم، وأردتَ بيانَ ما هو اللازم لك.. فأقول لك: لا تك في مرية ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَكُ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمِه سكون النون المحذوفة للتخفيفِ لكثرة استعمالِها؛ لأن أصلَه تكون، حذفت حركة النون للجازم، فالتقى ساكنان، ثمَّ حذفت الواو؛ لالتقاء الساكنين، ثم حذفت النون للتخفيف، واسمها ضمير يعود على محمد. ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ خبرها، وجملة تكون في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿مِرْيَةٍ﴾؛ أي: فلا تك في مرية ناشئة مما يعبد هؤلاء، أو في ما يعبد هؤلاء فمن بمعنى في. ﴿يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره مما يعبده هؤلاء من الأصنام. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿يَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي قبلها. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿كَمَا﴾ (الكاف) حرف جر. (ما) مصدرية. ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ فعل وفاعل. ﴿مِّن قَبْلُۚ﴾ جار مجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية، (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور، بالكاف تقديره: كعبادة آبائهم، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره، ما يعبدون إلا عبادة كائنة كعبادة آبائهم، من قبل في كونها ضلالاً، وتقليداً لا أصلَ لها. ﴿وَإِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾ خبره مرفوع (بالواو) لأنه ملحق بجمع المذكر السالم؛ لأنَّ مفردَه ليس بعلم ولا صفة، وإنما جمع للتعظيم والنون حذفت للإضافة، و (اللام) حرف ابتداء، وهو مضاف

إلى المفعول الأول. ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ مفعول ثان له، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾. ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مبينةٌ للنصيب الموفى، أو مؤكّدةٌ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل، ومفعولان، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿فَٱخْتُلِفَ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿اختلف﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَا﴾. ﴿وَلَوْلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود. ﴿كَلِمَةٌ﴾ مبتدأٌ سوغَ الابتداء بالنكرة وقوعُهُ بعد ﴿لولا﴾ أو وصفه بما بعده. ﴿سَبَقَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على كلمة. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صفة ﴿كَلِمَةٌ﴾، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك موجودة. ﴿لَقُضِىَ﴾ (اللام) رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿قضي﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه، والظرف في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قضي﴾، وجملةُ ﴿قُضِي﴾ جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ مع جوابها معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَا﴾ على كَوْنِهَا جَوابَ القسم. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿في شك﴾ جار ومجرور خبر (إن). ﴿مِّنْهُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿شك﴾. ﴿مُرِيبٍ﴾ صفة ﴿شَكٍّ﴾ وجملة (إن) معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَا﴾.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

وحاصلُ ما في كلمتي (إن) و (لما) من القراءات السبعة أربع: تخفيفها، وتشديدهما، وتخفيف (إن) مع تشديد (لمَّا)، وتخفيف (لمَّا) مع تشديد (إنَّ).

فعلى القراءة الأولى: تقول في إعراب الآية (إن) مخففة من الثقيلة. ﴿كُلًّا﴾ اسمها منصوب بها. ﴿لما﴾ (اللام) حرف ابتداء، (ما) اسم موصول بمعنى الذين

في محل الرفع خبر (إن) المخففة. ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ (اللام) موطئة للقسم. (يوفين) فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محلٌّ لها من الإعراب. و (الهاء) ضمير لجماعة الذكور الغائبين في محل النصب مفعولٌ أول. ﴿رَبُّكَ﴾ فاعل. ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ مفعول ثان، والجملة جوابُ للقسم المحذوف لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه صلة (ما) الموصولة، والعائد ضمير المفعول الأول، والموصول مع صلته خبر (إن) وجملة (إن) مستأنفة، والتقدير: وإن كلاً من الخلائق للذين والله ليوفينهم ربك أعمالهم. ويجوز أن تكونَ (ما) نكرة موصوفة، والجملة القسمية مع جوابها صفة لـ (ما) الموصوفة، والتقدير: وإن كلا لخلق أو لفريق موصوفون بكون الله تعالى، وافياً لهم أعمالهم والموصوف، وصفته خبر إن.

وعلى القراءة الثانية: أعني تشديدهما (إن) حرف نصب. ﴿كُلًّا﴾ اسمها. ﴿لما﴾ أصله: لمن ما بدخول لام الابتداءِ على من الجارة، دخَلت على ما الموصولة، أو الموصوفة؛ أي: لمن الذين، والله ليوفينهم، أو لمن خلق، والله ليوفينهم، فَلَمَّا اجتمعت النون ساكنة قبل ميم ما، وجب إدغامها فيه، فقلبت ميماً، وأدْغمت الميمُ في الميم، فصارَ في اللفظ ثلاثَ ميمات، فخفف اللفظ بحذف إحداها، فقلبت كسرة ميم من الجارة فتحةً لوقوعها بين فتحتين، فصار اللفظ لما: فيقال في إعرابه (اللام) حرف ابتداء. (من) حرف جر. (ما) موصولة، أو موصوفة في محل الجر بـ (من). ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ (اللام) موطئة للقسم. ﴿يوفينهم ربك أعمالهم﴾ فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مع جوابه صلة لـ (ما) إنْ قلنا: موصولةً، أو صفة لها؛ إن قلنا: موصوفةً، والعائد، أو الرابط ضمير المفعول الأول، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر إن، تقديره: وإن كُلاً من الخلائق لكائنون من الذين، والله ليوفينهم ربك أعمالهم، أو لكائنون من مخلوق، أو فريق وَافٍ لهم ربك أعمالَهم، وجملة إن مستأنفة.

وعلى القراءة الثالثة: أعني تخفيفَ (إنْ) مع تشديد (لَمَّا)، فإن المخففة

عاملة، وأصل: لما لمن. (ما) فعل به ما تقدم.

وعلى القراءة الرابعة: أعني تخفيف (لَمَا) مع تشديد (إنَّ). (إنَّ) المشددة عاملة. و (اللام) للابتداء. و (ما) اسم موصول في محل الرفع خبرها. ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ جملةٌ قسميةٌ صلة الموصول فتحصَّل مما ذكر أنَّ (إن) عاملة. (وما) موصولة، أو موصوفة في جميع الأوجه كلها. و (اللام) الثانية موطئة للقسم، والأولى لام الابتداء. فتأمل، وما قررناه زبدة كلام طويل في هذا المقام فليحفظ.

﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بخبير. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ صلة لما أو صفة لها. ﴿خَبِيرٌ﴾ خبر إن، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿فَاسْتَقِمْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عَرَفْتَ يا محمد أحوالَ القرونَ الأولى مع أنبيائهم، وأن إخْوانَك المرسلين تحملوا الأذى من قومهم، فصبروا، واستقاموا على الطريقة المثلى، وأردت بيانَ ما هو اللازم لك؛ فأقول لكَ: ﴿استقم﴾. ﴿استقم﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿كَمَا﴾ (الكاف) حرف جر. (ما) موصولة في محل الجر بالكاف. ﴿أُمِرْتَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة صلة لـ (ما) الموصولة، والعائد محذوف تقديره: كالاستقامة التي أمرت بها، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: فاستقم استقامة مثلَ الاستقامة التي أمرت بها. ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (من) اسم موصول في محل الرفع معطوف عل الضمير المستتر في ﴿استقم﴾ لوجود الفاصل. ﴿تَابَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على (من)، والجملة صلة الموصول. ﴿مَعَكَ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من الضمير المستتر في ﴿تَابَ﴾. ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ جازم وفعل، وفاعل معطوف على ﴿استقم﴾. ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾

وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿بَصِيرٌ﴾ خبر إن مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر، والنهي السابقين.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ جازم وفعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَرْكَنُوٓاْ﴾. ﴿ظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ (الفاء) عاطفة سببية. ﴿تمسكم النار﴾ فعل، ومفعول، وفاعل منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، والجملة الفعلية صلة أن، المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك، لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن منكم ركون إلى الذين ظلموا، فمس النار إياكم. ﴿وَمَا﴾ الواو حالية أو استئنافية. (ما) نافية. ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ مبتدأ مؤخر، و (من) زائدة، والتقدير: وما أولياء كائنون لكم حالَةَ كونهم من دون الله تعالى، والجملة الاسمية في محل النصب حال من (كاف) المخاطبين في ﴿تمسكم﴾؛ أي: فتمسكم النار حالَ انتفاء ناصركم، أو الجملة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ، أتى بثم تنبيهاً على تباعد الرتبة، اهـ «سمين». ﴿لا﴾ نافية. ﴿تُنصَرُونَ﴾ فعل، ونائب فاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، عطفَ جملة فعلية على جملة اسمية.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَأَقِمِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أقم الصلاة﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾. ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ ظرف، ومضاف إليه منصوب بالياء متعلق بـ﴿أقم﴾. ﴿وَزُلَفًا﴾ منصوب على الظرفية معطوف على ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾. ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صفة له. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ ناصب

واسمه. ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إنَّ) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ متعلق بـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱصْبِرْ﴾ فعل أمر معطوف على ﴿أقم﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فَإِنَّ﴾ (الفاء) تعليلية. ﴿إن اللَّه﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة إنَّ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية؛ لأنها مسوقة لتعليل المذكور قبلها.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا﴾ (الفاء) استئنافية. ﴿لولا﴾ حرف تحضيض مضمن معنى النفي، لأنه لا يمكن تحضيضهم وتخويفهم بعد انقراضهم. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض تام بمعنى وجد. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ متعلق بـ ﴿كَانَ﴾. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جار ومجرور صفة للقرون، لأنه اسم جنس محلى بأل، فهو بمنزلة النكرة. ﴿أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ فاعل، ومضاف إليه. ﴿يَنْهَوْنَ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ متعلق به. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بالفساد؛ لأنَّ المصدرَ المقترن بأل يعمل في المفاعيل الصريحة، فيكون في الظرف أولى، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوف على أنه حال من الفساد ذكره في «الفتوحات». والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لفاعل ﴿كَانَ﴾. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مستثنىً من الفاعل بملاحظة صفته. والمعنى[1]: فما كان من القرون الماضية المهلَكة بالعذاب، جماعة أصحاب دين ينهون عن الفساد إلا قليلاً، وهم من أنجيناهم من العذاب، نَهَوْا عن الفساد، فالمستثنى منه القرونُ المهلكة بالعذاب، كما هو مقتضَى السياق، والمستثنى مَنْ أنجاه الله من العذاب، فاختلفَ الجِنسَ باعتبار الوصف المذكور. ﴿مِّمَّنْ﴾ جارومجرور صفة لـ ﴿قَلِيلًا﴾. ﴿أَنجَيْنَا﴾ فعل وفاعل،

---

(١) الفتوحات.

والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ممن أنجيناه. ﴿مِنۡهُمۡ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المحذوف. ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على مقدر تقديره: فلم يَنْهَوْا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا. ﴿ظَلَمُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مَآ﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿اتبع﴾. ﴿أُتۡرِفُواْ﴾ فعل ونائب فاعل صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضمير. ﴿فِيهِ﴾ وهو متعلق بـ ﴿أُتۡرِفُواْ﴾. ﴿وَكَانُواْ﴾ فعل ناقص، واسمه. ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (ما) نافية. ﴿كَانَ رَبُّكَ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لِيُهۡلِكَ﴾ (اللام) حرف جر وجحود لسبقها بـ (كان) المنفية بـ (ما). ﴿يهلك القرى﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِظُلۡمٖ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يهلك﴾ أي حالَةَ كونه متلبساً بظلم، أو متعلق بـ﴿يهلك﴾؛ أي: ما كان يهلك أهلَ القرى بظلم منهم؛ أي: بشرك، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإهلاك القرى الجار والمجرور، متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً لـ﴿كان﴾ تقديره: وما كان ربك مريداً لإهلاك القرى. ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال ﴿من القرى﴾.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾.

﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (لو) حرف شرط. ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ (لو). ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ﴾ فعل ومفعولان، و (اللام) رابطة لجواب (لو). ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ صفة لـ (أمة) وفاعل (جعل) ضمير يعود على الله، وجملة جعل جواب (لو)، وجملة (لو) مستأنفة. ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ فعل مضارع ناقص واسمه. ﴿مُخۡتَلِفِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة (لو). ﴿إِلَّا﴾ أداة

استثناء. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من (واو) ﴿يَزَالُونَ﴾. ﴿رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: منْ رحمه ربك.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور، متعلق بما بعده. ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة (خلق). ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ (اللام) موطئة للقسم. ﴿أملأن﴾ فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب، والجازم مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿جَهَنَّمَ﴾ مفعول به. ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ متعلق بـ (أملأن). ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ معطوف على الجنة. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيدٌ لِمَا قبله، والجملة الفعلية جوابٌ لقسم محذوف تقديره: وعزتي وجلالي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وجملة القسم المحذوف في محل الرفع بدل من ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَكُلًّا﴾ مفعول مقدم لـ﴿نَّقُصُّ﴾. ﴿نَّقُصُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿نقص﴾. ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿كلا﴾. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب بدل من ﴿كُلًّا﴾. ﴿نُثَبِّتُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿نُثَبِّتُ﴾. ﴿فُؤَادَكَ﴾ مفعول به، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿وَجَآءَكَ﴾ فعل ومفعول. ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ متعلق به. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فاعل. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ﴾ معطوفان على ﴿ٱلْحَقُّ﴾. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تنازع فيه كل من ﴿موعظة﴾ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾، وجملة ﴿جاءك﴾ معطوفة على جملة ﴿نَّقُصُّ﴾.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَقُل﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿قل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قل﴾. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿أَعْمَلُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلتَ: ﴿أَعْمَلُواْ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ متعلق بمحذوف حال من (واو) ﴿أَعْمَلُواْ﴾؛ أي: حالةَ كونكم قارينَ وثابتين على حالتكم، وكفركم، والجملة في في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿إنا﴾ ناصب واسمه. ﴿عَٰمِلُونَ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ فعل، وفاعل معطوف على ﴿أَعْمَلُواْ﴾. ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ناصب، واسمه وخبره معطوف على ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَإِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُرْجَعُ﴾ الآتي. ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ﴾ فعل، ونائب فاعل. ﴿كُلُّهُۥ﴾ توكيد للأمر، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية. ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع. ﴿اعبده﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرْجَعُ﴾. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ فعل أمر معطوف على قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ حجازية أو تميمية. ﴿رَبُّكَ﴾ اسمها، أو مبتدأ. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ خبر المبتدأ، أو خبر (ما) و (الباء) زائدة. ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِغَٰفِلٍ﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ (ما) أو صفة لها، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وفي «السمين»: الزفير: أول صوت الحمار والشهيق أخره. وقال ابن فارس: الزفير: ضد الشهيق؛ لأن الشهيقَ رد النَّفَسِ، والزفير إخراج النفس من شدة الحزن، مأخوذ من الزَّفر، وهو الحمل على الظهر

لشدته. وقيل: الشهيق: النَّفَسُ الممتد مأخوذ من قولهم: جبل شاهِق؛ أي: عَالٍ. وقال الليث: الزفيرُ أن يملأَ الرجل صَدْرَهُ حَالَ كونِهِ في الغم الشديد من النفس ويُخْرِجُه، والشهيق: أن يَخْرِجَ ذلِكَ النَّفَسَ، وهو قريب من قولهم: تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءِ. وقال أبو العالية، والربيعَ بن أنس: في الحلق، والشهيق في الصدر. وقيل: الزفير للحمار، والشهيق للبغل، اهـ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ عبارة «السمين»: قَرأَ الأَخوانِ وحفص: ﴿سُعِدوا﴾ بضم السين والباقونَ بفتحها، فالأُولَى من قولهم: سَعِدَهُ الله؛ أي: أَسْعَدَه. حكى الفراء عن هذيل، أنها تقول: سعده الله بمعنى أسعده. قال الأزهري: سَعِدَ فهو سعيد، كسَلِم فهو سليم، وسَعِد فهو مسعود. قال أبو عمرو بن العلاء: يقال: سَعُدَ الرجل كما يقال: حَسُنَ. وقيل: سعده لغة مهجورة، وقد ضَعَّف جماعةٌ قراءةَ الأخوين، اهـ.

وفي «المصباح»: سَعِدَ فلانٌ يسعدمن باب تعب، في دين أو دنيا سَعْداً، وبالمصدرِ سُمِّيَ، والفاعل سعيد، والجمع سعداء، ويُعَدَّى بالحركة في لغة، فيقال: سَعِدَه الله يَسْعَده بفتحتين فهو مسعود، وقرِىء في السبعة بهذه اللغة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ بالبناء للمفعول، والأكثر أن يتعدَّى بالهمزة، فيقال: أسعده الله، وسَعُدَ بالضم خلافُ شَقِيَ، اهـ.

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، ﴿عَطَآءً﴾ اسم مصدر بمعنى إعطاء، والفعل أعطوا؛ أي: أَعطاهم الله سبحانه وتعالى إعطاء. وفي «السمين»: عَطاءً نصب على المصدر المؤكد من معنى الجملة قَبْلَهُ؛ لأنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ﴾ يقتضي إعطاءً وإنعاماً، فَكَأَنَّه قيل: يُعْطِيهم عَطَاءً، وعطاء اسم مصدر، والمصدر في الحقيقة: الإعطاء على وزن الإفعال، أو يكون مصدراً على حذف الزوائد، كقوله: أنبُتَكُم من الأرض نباتاً، أو منصوب بمقدار موافق له؛ أي: فنبتم نباتاً، وكذلك هنا يقال: عَطَوْتَ بمعنى نَاوَلْتَ، اهـ. ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ في «المختار»: جذه كَسَرَهُ وقَطَعَهُ، وبابه رَدَّ، والجذاذ بضم الجيم وكسرها ما تكسَّر منه، والضم أفْصَحُ، و﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، والجذاذات القراضات. ﴿فَلَا

تَكُ﴾ وحذفت النون من ﴿تَكُ﴾ لكثرة الاستعمال، ولأنَّ النونَ إذا وقعت طرفَ الكلام، لم يَبْقَ عند التلفظِ بها إلا مجردَ الغنَّةِ، فلا جَرَمَ أسْقَطُوها، اهـ «كرخي». ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، ﴿مُرِيبٍ﴾ اسم فاعل من أراب إذا حَصَل الريب لغيره، أو صار هو في نفسه ذا ريب، وقد تقدَّم نظيره.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ من ركن يركن من باب علم يعلم. وفي «المصباح»: ركنت إلى زيدٍ اعتمدتُ عليه، وفيه لغات:

إحداها: من باب تَعِبَ، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

والثانية: ورَكَنَ رَكُوناً من باب قَعَدَ. قال الأزهري: وليست بالفصيحة.

الثالثة: رَكَنَ يَرْكَنُ بفتحتين، وليست بالأصل بل من تداخل اللغتين، لأنَّ باب فعل يفعل بفتحتين شَرْطُه أن يكونَ حلقيّ العين أو اللام، اهـ. وفي «السمين»: وقَالَ الراغب: والصحيح أنه يقال: ركن يركن بالفتح فيهما، ورَكِنَ يَرْكن بالكسر في الماضي، والفتح في المضارع، وبالفتح في الماضي، والضم في المضارع، اهـ. والركون إلى الشيءِ الاعتماد عليه ورُكْنُ الشيء جانِبُه الأَقْوى، وما تَتَقوّى به من مُلْك وجُنْدٍ وغيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾.

﴿طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ طرف الشيء الطائفة منه والنهايةُ، فَطَرَفَا النهار الغدوُّ والعشي. والزلَف واحدها زُلْفَة، وهي الطائفة من أول الليل لقربها من النهار. وقرأ العامة: زُلَفاً بضم الزاي، وفتح اللام، وهي جَمْعُ زلفة بسكون اللام نحو غرف في جمع غرفة، وظلم في جمع ظُلْمَةٍ. وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق بضم اللام للإتباع كما قالوا: بُسُر في بسْر بضم السين إتباعاً لضَمَّة الباء. وفي «القاموس»: الزلفة الطائفة من الليل، والجمع زُلُف وزلفات كغرف وغرفات. والزلَفُ: ساعاتُ الليل الآخذةُ من النهار، وساعات النهار الآخذة من الليل، اهـ.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾، ﴿لَوْلَآ﴾ كلمةٌ تفيد التحضيضَ والحثَّ على الفعل. و ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ واحدهم قرن، وهو الجيل من الناس، قيل: هو ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وشاع تقديره بمئة سنة كما مر. ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ وقرأ العامة (بقِيَّة) بفتح

الباء، وتشديد الياء، وفيها وجهان:

أحدهما: أنها صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة، ولذلك دخلت التاء فيها، والمراد بها حينئذ: جيد الشيء وخياره، وإنما قيل لجيده وخياره بَقِيةٌ من قولهم: فلان بقيةُ الناس، وبقية الكرام، لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجودَه وأفضله.

والثاني: أنها مصدر بمعنى القويّ. قال الزمخشري: ويجوز أن تكون البَقِيَّة بمعنى البَقْوَى كالتقية بمعنى التقوى؛ أي: فَهَلاً كَانَ منهم ذوو بقاء على أنفسهم، وصيانة لها من سَخَطِ الله وعقابه. وقرأت فرقة (بقية) بتخفيف الياء، وهي اسم فاعل من بَقِيَ كشجية من شجِيَ، والتقدير: أولو طائفة بقية، أي باقية. وقيل: البقية ما يبقَى من الشيء بعد ذهاب أكثره، واستعمل كثيراً في الأنفع والأصلح؛ لأنَّ العادَةَ قد جَرَتْ بأنَّ الناسَ ينفقون أرْدَأَ ما عندهم، ويستبقون الأجودَ.

﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ يقال: أترفَتْهُ النِّعْمَة؛ أي: أبْطَرْتُهُ وأفسدَتْه. وفي «القاموس»: الترفة بالضم: النعمة، والطعامُ الطَّيِّب، والشيء الظريفُ تَخُصُّ به صاحبَكَ، وَتَرِفَ كَفَرِحَ تنعَّم وأترفته النعمة أطغَتْه، أو نعمته كترفته تَتْرِيفاً وأترف فلانٌ أصَرَّ على المكر، والمُتْرَفُ كمُكْرَمِ المتروك يَصْنَعُ ما يشاء، ولا يمنَع، والمتنعمُ لا يَمْنَعُ من تنعمه، اهـ.

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ والجنة والجن بمعنى واحد. وقال ابن عطية: والهاء فيه للمبالغة؛ وإن كَانَ الجِنُّ يقع على الواحد، فالجِنَّة جَمْعُه، انتهى. فيكون مما يكونُ فيه الواحد بغير هاءٍ، وجَمْعُهُ بالهاء لقول بعض العرب كمء للواحد وكمأة للجمع. ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ القص تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١١﴾. والأنباء جمع نبأ كأسباب جمع سبب. والنَّبَأُ: الخَبَرُ الهَامُّ. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ﴾؛ أي: نُقَوّي به، ونجعل. ﴿فُؤَادَكَ﴾ رَاسِخاً كالجبل. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على تَمكنِكم، واستطاعتكم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: اللف والنشرُ المرتَّب في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحيةُ الأصلية في قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ شبَّه صراخَ أهل النار، وأنينَهم بأصوات الحمير بجامع الارتفاع، والشناعة، وعدم الفائدة في كلٍّ، فاستعار له اسمَ المشبه به على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية، كما في «روح البيان».

ومنها: المبالغةُ في صيغةِ فعَّال في قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

ومنها: الإظهارُ في مقام الإضمار في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً﴾ فحقُّ العبارة أن يقال: ما دامتا إلا ما شاء.

ومنها: حكايةُ الحال الماضية في قوله: ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾.

ومنها: التأكيد لدفع توهم المجاز في قوله: ﴿نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أتى بغير منقوص لدفع توهم إرادة بعض النصيب.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لأنها كناية عن القضاء والقدر.

ومنها: الإسناد المجازيُّ في قوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ كما مرَّ.

ومنها: جناسُ الاشتقاق في قوله: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، وفي قوله: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ومنها: التهديدُ والوعيدُ في قوله: و﴿ٱعۡمَلُوا۟﴾ ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾.

ومنها: القَصْرُ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تَمَّ ما يَسَّره الله سبحانه وتعالى لنا من تفسير سورة هود في أوائل ليلة الإثنين المباركة السابعة من شهر صفر المبارك من شهور سنة ألف وأربع مئة وإحدى عشرة، سنة ٧/ ٢/ ١٤١١ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله سبحانه وتعالى. وأشكره سبحانه وتعالى شكراً بلا انصرام على ما وَفَّقني بابتداءِ هذا التفسير، وأسأله تعالى الإعانةَ لي على كماله وتمامه، والحمدُ لله أولاً وآخراً. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

فاتحة في سورة يوسف عليه السلام
وتقدمةٌ لتفسيرها

رَأينا أَنْ نقدِّم لك أيها القارىءُ صورةً موجزةً تبيِّنُ لكَ حَالَ هذا النبي الكريم، والعِبرة من ذكْرِ قصته في القرآن العظيم لتكون ذِكرى للذاكرين، وسلْوةً للقارئين والسامعين.

يوسف الصدِّيق مثلٌ كاملٌ في عِفَّتِهِ

يوسف عليه السلام آيةٌ خالدةٌ على وَجْه الدهر تُتْلى في صحائفِ الكون بكرةً، وعشياً، تفسر طيبَ نِجَاره، وطَهَارَة إزاره، وعفَّتِه في شبابه، وقوته في دِينه، وإيثارَه لآخرته على دنياه، وأَفْضَلُ هداية تمثِّلُ للنساء والرجال المثل العليا، والعفةَ والصيانةَ التي لا تتِم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله، ومراقبته له في السر والعَلَنِ، وسورته منقبة عظمى له، وآيةٌ بينة في إثبات عصمته، وأفضل مَثَلٍ عَمَليٍّ يقتدي به النساء، والرجال، فبتلاوتها يشعر القارىء بما للشهوة الخسِيسَة على النفس من سلطان، ويسمع بأذنه تغلبَ الفضيلة في المؤمن على كلِّ رذيلة، بقوة الإرادة، ووازع الشرف، والعصمة، ففيها أحسنُ الأُسوة للمؤمنين من الرجال والنساء، فيها قصة شابٍّ كان من أجمل الناس صورةً وأكملهم بنيةً يخلُو بامرأةٍ ذات منصب وسلطان، وهي سَيِّدةٌ له، وهو عَبْدُها يحملها الافتتان بجماله على أن تذل نَفْسَهَا له، وتَخُونَ بَعْلَها، فتراوده عن نفسه، وقد جرت العادة أن تَكُونَ النِّسَاء مطلوبات لا طالبات، فيسمعها من حكمته، ويُريها من كماله وعفَّتِه ما هو أفضل درس في الإيمان بالله، والاعتصام بحبله المتين، وفي حفظه أَمَانَة سيِّده الذي أحسنَ مثواه فيقول: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فتشعر حينئذ بالذلِّ والمهانة، والتفريط في الشرف، والصيانة وتحقير مقام السيادة والكرامة.

إلا أنَّ فيها أعظمَ دليل على صبره وحِلمِهِ وأمانته، وعَدْلِهِ وحكمته، وعلمه، وعفوه، وإحسانه فَكَفَى شَاهِداً على صبره أنَّ أَخْوَتَهُ حَسَدُوه فَأَلْقَوه في غيابة الجبِّ، وأخرجَتْه السيارة، وباعوه بَيْع العبيد، وكادَتْ له امرأة العزيز، فزج في السجن، فصَبَرَ على أذى الأخوة، وكيد امرأة العزيز، ومكر النسوة إذْ عَلِمَ ما في الفاحشة من مفاسدَ، وما في العدل والإحسان من منافع، ومصالَحَ، فآثر الأعلى على الأَدْنَى، فاختار الدنيا في السجن على ارتكاب الإثم، وكانت العاقبة أنْ نَجَّاه اللَّهُ ورفع قَدَرَهُ وأذل العزيزَ، وامرأتَه، وأقرَّتِ المرأة والنسوة ببراءته، ومكن له في الأرض، وكانت عاقبتُه النصر، والملك والحكم، والعاقبةُ للمتقين قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته: فقد ظهرت جليّاً حين تولَّى الحكم في مصر أيامَ السبع السنين العِجافِ التي أكلت الحَرْثَ والنسلَ، وكادَتْ توقع البلادَ في المجاعات، ثمَّ الهلاك المحقق لولا حكمته، وعدله بين الناس، والسَّيْرُ بينهم بالسويَّةِ، وعلى الصراط المستقيم بلا جَنَفٍ، ولا مَيْلٍ مع الهَوى.

ما في قصص يوسف من عبرة

إن في هذه القصة لعبرةً أيما عبرة لعلية القوم، وساداتهم رجالهم، ونسائهم، مجانهم وأعفائهم، من نساء ورجال، فإنَّ امرأةَ العزيز لَمْ تكن من قبل غويَّةً، ولا كانَتْ في سِيرَتها غَيْرَ عادية، لكنها ابتُلِيَتْ بحب هذا الشاب الفاتن، الذي وضعه عزيز مصر في قصره، وخلى بَيْنَه وبَيْنَ أهلِه، فأذلَّت نَفْسَها له بمراودته عن نفسه، فاستعصم، وأبَى، وآثر مرضاةَ ربِّه، فَشَاعَ في مصر ودورها، وقصورها، ذلها له وإباؤه عليها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وقد ذكرنها بالوصف «امرأة العزيز» دُونَ الاسم الصريحِ استعظاماً لهذا الأمر منها، ولا سيما، وزوجها عزيزُ مصر، أو رئيس حُكُومَتِها، وقد طَلَبت الفَاحِشَة من مَمْلُوكِها، وفتاها الذي هو في بَيْتها، وتحت كنفها، وذلك أقبح

لوقوعها منها، وهيَ السَّيِّدة، وهو المملوك، وهو التابع، وهي المَتْبُوعَةُ، وقد جَرَتِ العادة بأنَّ نفوس النِّسْوَةِ تعزف عن مثل هذه الدناءة ولا ترضى لنفسها هذه الذلة التي تشعر بالمُساواة لا بالسيادة، وبالضَّعةِ لا بالعظمة، ولله في خلقه شؤُونٌ.

أما الأول: فقولهنَّ فيها: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: قد وَصَلَ حبه إلى شِغَافِ قلبها «الغشاء المحيط به» وغَاصَ في سويدائه كما قال شاعرهم:

اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّكِ مِنِّيْ   فِيْ سَوَادِ الْفُؤَادِ وَسْطَ الشِّغَافْ

وأما الثاني: فقولهن: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فلمَّا سمعت بهذا المكر القوليّ قابلَتْهُنَّ عليه بمكر فعلي، فقد جمعتهن، وأخرجته عليهن فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة، فَراعَهن ذلك الحسن الفتان، وفي أيديهن مدى يقطعنَ بها مما يأكلنه، فقطعن أَيْدِيَهُن، وهُنَّ لا يشعرن بما فعلن مأخوذات بذلك الحسن كما جاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هُتِكَ سِتْرُهَا، وكاشفت النسوة في أمرها، وتواطأن معها على كيدها، آثر عليه السلام الاعتقالَ في السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخنا ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

وإنه ليستبين من هذا القَصص أنَّ امرأةَ العزيز كَانَتْ مالكة لقيادة زوجها الوزير الكبير، تصرفه كيفَ شَاءَت وشاء لها الهوى، إذ كان فاقداً للغَيْرة كأمثاله من كبراء الدنيا، صغار الأنفُس عبيد الشهوات. قال في «الكشاف» عند ذكر ما رأوا من الشواهد الدالة على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وفَتْلها منه في الذروة والغارب وكان مِطْواعةً لها، وَجَملاً ذَلُولاً زمامه في يدها،

حتى أنساه ذلك ما عايَنَ من الآياتِ، وعَمِلَ برأيها في سجنه، لإلحاق الصغار به، كما أوعدته، وذلك لما أيِسَتْ من طاعته، وطَمِعَتْ في أن يذللَهُ السِّجْنُ ويسخره لها، اهـ.

وإنا لنستخلصُ من هذه القصة الأمورَ التَّالِيَةَ[1]:

١ ـ أن النِّقَم قد تكون ذَرِيعةً لكثير من النعم، ففي بدء القصة أحداث كلها أتراح أعقبتها نتائج كلها أفراحٌ.

٢ ـ أنَّ الأخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن، وأحقادٌ ربما تصل إلى تمنِّي الموت، أو الهلاك، أو الجوائح التي تكون مصدر النَّكَبات، والمصَائِبِ.

٣ ـ أنَّ العفةَ والأمانةَ والاستقامةَ تكون مَصْدرَ الخير والبركة لمن تحلى بها، والشواهد فيها واضحة، والعبرة منها ماثلة لمن اعتبرَ وتدبَّرَ، ونظَرَ بعين الناقد البصير.

٤ ـ أن أُسها، ودعامَتَها هو خلوة الرجل بالمرأة فهي التي أثَارت طبيعتها، وأفضتْ بِها إلى إشباع أنوثتها، والرجوع إلى هواها، وغريزتها، ومن أجل هذا حرم الدِّينُ خلْوةَ الرجلِ بالمرأة وسفَرَها بغير محرم. وفي الحديث: «ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما».

وإنا لنَرَى في العصر الحاضِرِ أَنَّ الدَاءِ الدَّوِيَّ والفسادَ الخُلقِيَّ الذي وصل إلى الغاية، وكلنا نلمس آثارَهُ ونشاهد بَلْواه، ما بلغ إلى ما نرى إلا باختلاط الرجال بالنساء في المَراقصِ، والملاهِي، والاشتراك معهم في المفاسد، والمعاصي كمعاقرة الخمور، ولعبِ القمارِ في أنديةِ الخزيِ والعارِ، وسباحة النساء مع الرجال في الحمامات المشتركة.

وبَعْدُ، فهل لهذه البلوى مَنْ يُفَرِّج كُرْبَتَها، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامَه، وهل لهذه الجراح مِن آس، وهل لهذه الفوضى من علاج، وهل لهذه الطامة من يقوم بِحَمْلِ عَبْئِهَا عن الأمة، ويكون فيه من الشجاعة ما يجعله يرفع الصوت

---

(١) المراغي.

عالياً بالنزوع عن تلك الغواية، ويَرُدُّ أَمْرَ المجتمع، والحرص على آدابه إلى ما قرَّرهُ الدينُ، وسار عليه سَلَفُ المسلمين المتقين، فيصلح أَمْرَهُ، وتزهو الفضيلة وتنشأ نابتة جديدة، تقوم على حِرَاسَةِ الدين في بلاد المسلمين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

سورة يوسف عليه السلام مَكّية كلها، قيل[1]: إلاّ ثَلاثَ آيات من أولها، وقيل: نزلت ما بين مكة والمدينة، وقْتَ الهجرة.

وهي مئة وإحدى عشرة آيةً وألف وتسع مئة وست وتسعون كلمةً، وسبعة آلاف، ومئة وستة وسبعون حرفاً.

المناسبة: والمناسبة بينها وبين سورة هود[2]: أنها متممة لِما فيها مِنْ قصص الرسل عليهم السلام، والاستدلال بذلك على كون القرآن وحياً من عند الله تعالى، دالاً على رسالة محمد ﷺ، خاتم النبيين، والفرق بين القصص فيها وفيما قبلَها: أنَّ السَّابِقَ كَانَ قصص الرسل مع أقوامهم في تبليغ الدعوةَ والمحاجة فيها، وعاقبة مَن آمن مِنهُم، ومن كَذَّبوهم لإنذار مشركي مكة، ومَنْ تبعهم من العرب.

وأمَّا هذه السورة فهي قصة نبيٍّ رُبِّـيَ في غير قومه قبل النبوة، وهو صغيرُ السنِّ حتى بلغ أشده، واكْتَهَل فنبىء، وأُرسل ودعا إلى دينه، ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم، فأحسنَ الإدارَةَ والسِّياسَةَ فيه، وكان خير قدوةٍ للناس في رسالته، وفي جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة، وتصريف أمورها على أحسن ما يَصِلُ إليه العقل البشري، ومن أعظم ذلك شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة، وكانَ مِنْ حكمة الله أن يَجْمَعها في سورة واحدة، ومن ثَمَّ كَانَتْ أطْوَلَ قِصَّةٍ في القرآن الكريم.

والله أعلم

* * *

(١) البيضاوي.

(٢) المراغي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾.

المناسبة

مناسبة هذه السورة لسورة هود من حيث البدايةُ أنه جاءت فاتحةُ هذه السورة كفاتحة سورة هود، أعني كلمة: ﴿الٓرۚ﴾ إلخ خلا أنَّ القرآن وُصف هنا بالمبين، وفي هود بإحكام آياته، وتفصيلها: ذاك أنّ موضوعَ هذه السورة قصص

نبي، تقلَّبَتْ عليه صروف الزمان، بَيْنَ نحوس وسُعود، كان في جميعها خير أسوة، وموضوعُ سورة هود أصول الدين، وإثباتُ الوحي والرسالة والبعث والجزاء، وقَصَص الأنبياء المختلفة، فناسبها الوصف بالحِكْمةِ. ومن حيث النهاية أنَّ سُورةَ هود خُتِمَت بقوله﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ وهذه بُدِئَتْ بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

وعبارة الشهاب هنا: لَما خُتِمت[1] سورة هود بقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ إلخ.. ذُكِرت هذه السورة بعدها؛ لأنها من أنباءِ الرسل، وقد ذَكَر أوَّلاً ما لقي الأنبياء من قومهم، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته، لِيَعْلَمَ ما قاسوه من أذى الأجانب، والأقارب، فبينهما أتم المناسبة، والمقصود تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى الأقارب والأباعد، اهـ.

وعبارة أبي حيان: ووجه مناسبتها لما قبلها وارتباطها به أنَّ في آخر السورة التي قبلَها[2]: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾، وكان في تلك الأنباء المقصوصة فيها ما لاقَى الأنبياء من قومهم، فأتبعَ ذلك بقصة يوسف، وما لاقاه من إخوته، وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة، ليحصلَ للرسول ﷺ التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب، وجاءَتْ هذه مطولة مستوفاةً فلذلك لم يتكرَّرْ في القرآن إلا ما أخبر بِهِ مُؤْمِنُ آل فرعون في سورة غافر.

وحكمة قَصِّ القصص عليه ﷺ ليتأسَّى[3] بهم، ويتخلَّق بأخلاقهم، فيكون جامعاً لكمالات الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لما بين أنَّ أخوة يُوسُفَ أجمعوا أَمرَهم على إلقائه في غيابة الجُبِّ، ونَفَّذُوا ذلك.. ذَكَر هنا طريقَ خَلاصِه من تلك المِحْنَةِ بمجيء قافلةٍ من التجار ذاهبة إلى مصر، فأخرجوه من البئر، وباعوه في مصر بثمنٍ بَخْسٍ.

---

(١) الشهاب.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الصاوي.

أسباب النزول

وسبب نزول هذه السورة[1]: أنَّ كفار مَكَّةَ أمرَتْهم اليهودُ أن يسألوا رسولَ الله ﷺ عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر، فنَزَلَت هذه السورة. وقيل: سببه تسليةُ الرسول ﷺ عما كَانَ يفعلُ به قومُهُ بما فعل أخوة يوسف به، وقيل: سألت اليهودُ رسولَ الله ﷺ أنْ يحدِّثَهم أمْرَ يعقوب، وولده وشَأْنَ يوسف.

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في سبب نزول هذه السورة قولان:

أحدهما: ما روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لمَّا أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدَّثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، فقالوا: لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾.

القول الثاني: ما رواه الضحاك عن ابن عباس قال: سألت اليهودُ النبيَّ ﷺ فقالوا: حَدِّثْنَا عن أمر يعقوب وولده، وشأنِ يوسف، فأنزل الله عز وجل: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾﴾ الآيات الكريمة.

الناسخ والمنسوخ: قال ابن حزم رحمه الله: أمَّا سورةُ يوسف، فليس فيها ناسخ ولا منسوخ. ومن فضائلها: ما رُوي[2] عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَلِّمُوا أَرِقَّائِكم سورة يوسف، فإنه أيُّما مسلم أَمْلاها، وعَلَّمها أَهْله، وما مَلَكَتْ يمينه هون اللَّهُ عليه سكرات الموت، وأعطاه القُوَّة، وأن لا يَحْسُدَ مُسْلِماً». كذا في «تفسير البيان»، وذلك أنَّ يوسُفَ عليه السلام ابتُلِي بحسد الإخوة، وشدائد البئر، والسجن، فأرسل اللَّهُ تعالى جبريل فسلاه، وهون عليه تلك الشدائِدَ بإيصاله إلى مقام الأُنس، والحضورِ، ثم أعطاه القوةَ، والعزةَ،

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) روح البيان.

والسلطنةَ، فآل أمره إلى الصفاء بعد أنواع الجفاءِ، فمنْ حَافَظَ على تلاوة سورة يوسف، وتدبَّر في معانيها.. وَصَلَ إلى ما وصل يوسف إليه من أنواع السرور، كما قال عطاء رحمه الله تعالى: لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلاَّ استراحَ، كما في «تفسير الكواشي»: نسأل الله الراحةَ من جميع الحواشي. وقال خالد بن مَعْدان: سورةُ يوسفَ، وسورةُ مريم تَتَفكَّهُ بهما أَهْلُ الجنةِ في الجنة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓر﴾؛ أي: أنا الله أرى، وأسمع سؤالَهُم إيَّاك يا محمدُ عن هذه القصة، ويقال: أنَا الله أرى صنيعَ إخوة يوسف، ومعاملتهم معه، ويقال: أنا الله أرى ما يَرَى الخَلْقُ، وما لا يَرى الخَلْقُ، ويقال: ﴿الٓر﴾ تعديد للحروف على سبيل التحدي، فلا محل له من الإعراب، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه السورة ﴿الٓر﴾؛ أي: مسماة بهذا الاسم. والقول بأنَّ هذه الحروف المقطعة في أوائل السور من المتشابهات القرآنية التي لا يعلم معانِيهَا إلا الله تعالى، هو الطريق الأَسْلَمُ. والقول الأعلم لما فيه من تفويض الأمر إلى أهله. ﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسمَّاة ﴿الٓر﴾ أشار إليها بإشارة البعيد تنزيلاً للبعد الرتبيَّ، منزلةَ البعد الحِسِّيِّ، وهو مبتدأ خبره ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: آياتٌ من القرآن الكريم ﴿ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: المظهر للحق من الباطل، فهو منْ أَبَانَ المتعدي. وَفِي «الخازن» المبين: أي: البين حلاله وحرامُه، وحدودُه وأحكامُه. وقال الزجَّاجُ: المبين للحق من الباطل، والحلال من الحرام، فهو من أبان بمعنى أظهر. وفي «بحر العلوم»: الكتاب المبين هو اللوحُ المحفوظ، وإبانَتهُ أنه قد كتب وبيِّنَ فيه كل ما هو كائن. والمعنى: أيْ آيات هذه السورة هي آيات الكتاب البين الظاهر بنفسه، والمظهر لما شاء الله تعالى من حقائق الدين، وأحكام التشريع، وخَفَايَا المُلْك، والملكوت، وأسرار النشأتين، والمرشد إلى مصالح الدنيا، وسبيل الوُصُولِ إلى سعادة الآخرة.

﴿إِنَّآ﴾ نحن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ بعظمتنا وجلالتنا؛ أي: إنَّا أنزلنا هذا الكتاب المتضمِّنَ قِصَّةَ يُوسُفَ وغَيْرِهَا على هذا النبي العربي الأمي حالةَ كونه ﴿قُرْءَٰنًا﴾؛

أي: مجموعاً، أو مقروءاً ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ أي: منسوباً إلى العرب لكونه نزل بلغتهم. والمعنى: أنَّ القرآن نَزَل بلغة العرب، فليس فيه شيء غير عربيّ. فإن قلت: قد ورد في القرآن شيء غير عربي كسجيل، ومشكاة، وإستبرق، وغير ذلك.

أجيب[1]: بأنَّ هذا مما توافقت فيه اللغات، والمراد: أنَّ تراكيبه، وأسالِيبَه عربية، وإن وَرَدَ فيه غير عربي، فهو على أسلوب العرب، والمرادُ أنَّ هذه الألفاظ لما تكلمت بها العربُ، ودارَتْ على ألسنتهم.. صارت عربية، فصيحة، وإن كانت غير عربية في الأصل لكنهم لما تكلموا بها.. نسبت إليهم، فصارت لهم لغة؛ وإنما كان القرآن عربيّاً؛ لأنَّ تِلكَ اللُّغَةَ أفصح اللغات، ولأنها لُغَةُ أهل الجنة في الجنة.

فَعَربِيّاً[2] نعت لِقرآناً نعت نسبة لا نعت لزوم، لأنه كان قرآناً قبل لزومه، فلَمَّا نزل بلغة العرب نسب إليها كما في «الكواشي». و ﴿قُرْءَانًا﴾ حال موطئة؛ أي: توطئةً للحالِ التي هي عربيّاً؛ لأنه في نفسه لا يبين الهيئة، وإنما بينها ما بعده من الصفة، فإنَّ الحالَ الموطئة اسم جامد موصوف بصفة هي الحال في الحقيقة، فكأنَّ الاسمَ الجامد، وطأ الطريقَ لما هو حال في الحقيقة بمجيئه قبلها موصوفاً بها كما في «شرح الكافية». وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ علة لكونه عربيّاً؛ أي: لكي تفهموا معانيه وتحيطوا بما فيه، وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر، مُنَزَّلٌ من عند خالق القُوَى والقدر. وقال في «بحر العلوم»: (لعلَّ) مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ العرب معناه أو معنى الترجي؛ أي أنزلنا قرآناً عربياً إرادة أن تعقله العرب، ويفهموا منه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله، ولا يقولوا لنبيهم ما خُوطبنا به كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ﴾ انتهى.

والمعنى[3]: أي إنا أنزلنا هذا الكتابَ على النبي العربي، ليبيِّنَ لكم بلغتكم العربية، مَا لَمْ تكونوا تعلمونه من أحكام الدين، وأنباءِ الرسل، والحكمة،

---

(١) الصاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وشؤون الاجتماع، وأصول العُمْرَانِ وأدَب السِّيَاسَةِ لتعقلوا معانِيه، وتَفْهَموا ما ترشد إليه من مطالب الروح، ومداركِ العقل وتزكيةِ النفس، وإصلاح حَالِ الجماعات والأفراد بما فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد؛ أي: نخبرك ونحدثك ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ أي: أحسن ما يقص به، ويتحدث عنه من الأنباء والأحاديث موضوعاً، وفائدةً لما يتضمنه من العبر والحكم.

والمعنى: نحن نبين لك أخبارَ الأُممِ السالفة أحسنَ البيان. وقيل: المراد خصوص قصة يوسف. ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ﴾؛ أي: بسبب إيحائنا وإنزالنا إليك هذه السورةَ من القرآن الكريم؛ إذ هي الغاية في بلاغتها، وتأثيرها في النفس، وحسْنِ موضوعها، ﴿وَإِن﴾ أي والحال أن الشأن قد ﴿كُنتَ﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلِهِ﴾؛ أي: من قبل إيحائنا هذا القرآن إليك ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾؛ أي: لمن زمرة الغافلين عن هذا القصص؛ أي: من قومك الأميينَ الذينَ لا يَخْطُرُ في بالهم التحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم، وبيان ما كانوا عليه من دين وشرع، كيعقوب وأولاده، وهم في بَداوتِهِم، ولا ما كان فيه المصريون الذين جاءَ إليهم يوسف مِنْ حضارة وترف، ولا ما حدث له في بعض بيوتات الطبقة الراقية، ولا حاله في سياسة الملك، وإدارة شؤون الدَّوْلَةِ وحُسْنِ تنظيمها. وقيل[1]: كانت هذه السورة أحسن القصص لانفرادها عن سائرها بما فيها مِنْ ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والجن، والإنس، والأنعام، والطَّيْر، وسير الملوك، والممالك والتجار، والعلماء، والرجال، والنساء وكيدهن، ومكرهن، مع ما فيها من ذِكْر التوحيد، والفقه، والسِّير، والسياسة، وحسن المَلَكَة، والعفو عند المقدرة، وحسن المعاشرة، والحِيل، وتدبير المعاشِ والمعاد، وحسن العاقبة في العفة، والجهاد، والخلاص من المرهوب إلى المرغوب، وذكر الحبيب، والمحبوب، ومَرأى السنينَ وتعبيرِ الرؤيا والعجائبِ التي تصلح للدين والدنيا.

---

(١) البحر المحيط.

وقيل: كانت أحسنَ القصص؛ لأنَّ كُلَّ من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة، انظر إلى يوسف، وأبيه، وإخوته، وامرأة العزيز، والمَلِك أسلم بِيُوسُفَ وحسن إسلامه، ومعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال. وقال بعضهم[1]: لأنَّ يوسفَ عليه السلام، كان أحسنَ أبناءِ بني إسرائيل، ونسبه أحسن الأنساب، كما قال ﷺ: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام». والكرم اسم جامع لكل ما يحمد به، واجتمع في يوسف مع كونه ابنَ ثلاثة أنبياء متراسلينَ شرف النبوة، وحسن الصورة، وعلم الرؤيا، ورياسةَ الدنيا، وحِياطةَ الرَّعايا في القحط، والبلايا، فأي رجل أكْرَمَ مِنْ هذا. وقال بعضهم: لأنَّ دُعاءه كان أحْسنَ الأدعية ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ﴾، وهو أول من تمنى لقاء الله تعالى بالموت.

وقيل[2]: ﴿أحسَنَ﴾ هنا ليست أفعلَ التفضيل بل هي بمعنى حَسَنَ كأنه قيل: حَسَنَ القصص من باب إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: القصص الحسن ومعنى: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ لم يكن لك شعور بهذه القصة، ولا سبق لك علم فيها، ولا طَرَق سَمْعَكَ طرف منها. وقيل: إن بمعنى قَدْ، والمعنى، قد كنْتَ مِنْ قبلِ وحينا إليك من الغافلين عن هذه القصة. والغفلة عن الشيء هي: أن لا يخطر ذلك ببالِهِ؛ أي: لمن الغافلين عن هذه القصة، لم تُخْطُر ببالك، ولم تَقْرَعْ سمعك قطُّ، وهو تعليل لِكَوْنِهِ موحًى، والتَّعْبِيرُ عن عدم العِلْم بالغفلةِ لإجلالِ شأنه ﷺ كما في «الإرشاد» فليسَتْ هي الغفلة المتعارفَةُ بين الناس، ولله تعالى أَنْ يُخَاطِب حَبِيبَه بما شاء ألاَ تَرى إلى قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾، وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ ونحوهما، فإنَّ مثلَ هذا التعبير إنما هو بالنسبة إلى الله تعالى، وقد تعارَفَهُ العربُ من غير أن يخطر ببالهم نقص، ويجب علينا حسن الأداء في مثل هذا المقام، رعاية للأدب في التعبير، وتقرير الكلام مع أنَّ الزمانَ وأَهْلَه قد مضى، وانقضَتِ الأيام والأنامُ، اللهم اجعلني فيمن هديتهم إلى لطائف البيان،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

ووفقتهم لما هو الأدب في كل أمر وشأن إنك أنت المنان.

واذكر يا محمد لقومك قِصَّةَ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ويوسُف اسم عِبْرِيٌّ، ولذلك لا يجري فيه الصرف للعجمة والعلمية. وقيل: هو عَرَبِيٌّ، والأول أصحُّ، بدليل عدم صرفه. وسئل[1] أبو الحسن الأقطع عن يوسف، فقال: الأسَفُ أشدُّ الحزن، والأَسِيفُ: العَبْدُ، واجتمع في يوسف فسُمِّي به. والعبرِيُّ والعَبْرَانِيُّ: لغة إبراهيم عليه السلام، كما أنَّ السِّرْيَانِيَّ هي اللغة التي تَكَلَّمَ بها آدم عليه السلام. قال السيوطي: السِّريانيُّ منسوب إلى سُريانة، وهي أرض الجزيرة التي كان نُوحٌ وقَوْمُه قبل الغرق فيها، وكان لسانُهم سريانياً إلا رجلاً واحداً يقال له: جُرْهم وكان لسانُه عَرَبِيّاً. وقرأ الجمهور[2]: ﴿يوسُفُ﴾ بضم السين. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف بكسرها مع الهمز مَكَانَ الواو، وحكى ابن زيد الهمز وفتح السين. ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ أي: يا أبي بكسر التاءِ في قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، ونافع، وابن كثير، وهي عند البصريين، علامة التأنيث، ولَحِقَتْ في لفظ أب في النداء خَاصَّةً بدلاً من الياءِ، وأصْلُه: يا أبي، وكَسْرُها للدلالة على أنها عوض عن حرف يُناسِبُ الكسرَ. وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر، والأعرجُ بفتحها؛ لأنَّ الأصْلَ عندهم: يا أَبَتَا، ولا يجمع بين العوض والمعوَّض فيقال: يا أبتي. وأجاز الفراء: يا أبت بضم التاء. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في منامي في[3] النهار؛ لأنها منْ رَأى الحُلمية لا مِن رأى البصرية كما يدل عليه قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾، ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾؛ أي: نَجْماً. وقرأ الحسنُ، وأبو جعفر، وطلحةُ بن سليمان: (أَحَدَ عْشَرَ) بسكون العين لتوالي الحركات ولِيَظْهَرَ جعل الاسمين اسماً واحداً. وقرأ الجمهور بفتحها على الأصل. ﴿وَ﴾ رأيتُ ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ إنما أَخَّرَهما عن الكواكب لإظهار مِزيتِهما وشرفهما كما في عطف جبريل، وميكائيل على الملائكة. وقيل: إنَّ الواوَ بمعنى مع، والكواكبُ تُفسَّر بإخوته، والشَّمْسُ بأمه والقَمَرُ بأبيه. وجملةُ

---

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾؛ أي: رأيت هؤلاء المذكورين سجَّداً لي في المنام، جملةٌ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها. كأنَّ سَائِلاً قال: كيف رأيتَ؟ وأجريت مُجْرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصفِ العقلاء، وهو كونُها ساجدةً كذا قال الخليلُ، وسيبويه، والعربُ تَجْمَع ما لا يعقل جَمْعَ مَنْ يعقل، إذا نزلوه مَنْزِلَتَهُ. قال في «الكواشي»: الرؤيا في المنام، والرؤية في العين، والرأي في القلب. قال وَهْبٌ: رأى يُوسُفُ عليه السلام، وهو ابن سبع سنينَ أنَّ إحدَى عَشَرَةَ عصاً طِوالاً، كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عَصاً صغيرة وثَبَتْ عليها حتى ابْتَلَعَتْها، فذكر ذلك لأبيه، فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثُمَّ رَأَى وهو ابن ثنتي عشرة، أو سبع عشرة سنةً ليلة الجمعةِ، الشمسَ والقمرَ، والكواكبَ، تسجد له، فقصها على أبيه فقال: لا تَذْكُرْها لهم فيبغوا لك الغَوَائِلَ.

رُوِيَ عن جابر رضي الله عنه: أنَّ يهودِيّاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! أخبرني عن النجوم التي رآهن يوسفُ عليه السلام، فسَكَتَ النبيُّ ﷺ، فَنَزَلَ جِبْرِيل عليه السلام، فأَخْبَرَهُ بذلك، فقال ﷺ لليهوديّ إذَا أخبرتك بذلك هل تُسْلِمُ؟ فقال: نعم. قال: جريانُ[1] والطارقُ، والذَيَّالُ وقابسُ، وعَمُودان، والفَلِيقُ، والمُصبِّحُ، والضَّرُوخُ، والفَرْغُ، ووثَّابُ، وذو الكَتِفَيْنِ رآها يوسفُ عليه السلام، والشمسَ والقمرَ، نزَلْنَ من السماء، وسَجَدْنَ له، فقال اليهوديُّ: إي والله إنها لأسمَاؤها، اهـ «بيضاوي».

(جَريان) بفتح الجيم وكسر الراء المهملة، وتشديد الياء التحتية منقول من اسم (طوق القميص). (وقابس) بقاف، وموحدة وسين مقتبسُ النار (وعمودان) تثنية عمود (والفليق) نجم منفرد (والمصبح) ما يَطْلَعُ قبل الفجر، (والفرغ) بفاء وراء مهملة ساكنة، وغين معجمة، نجمٌ عند الدلو، و (وثاب) بتشديد المثلثة، سريعُ الحركة، و (ذُو الكتفين) تثنية كتف: نجم كبير، وهذه نجومٌ غير مرصودة،

---

(١) البيضاوي.

خصَّتْ بالرؤيا لغيبتهم عنه، اهـ «شهاب».

والمراد بالسجود هنا: سَجْدَة تحية، لا سجدة عبادة. وقال بعضهم: لفظ السجود: يُطْلَقُ على وضع الجبهة على الأرض، سواء كان على وجه التعظيم، والإكرام، أو على وَجْهِ العبادة، ويُطلق أيضاً على التواضع، والخضوع، وإنما أُجْرِيَتْ مُجْرَى العقلاء في الضمير لوصفها بوصف العقلاء، وهو السجود، كما مرَّ.

وأبو يوسف هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. قال بَعْضُ مَنْ مال إلى الاشتقاق في هذه الأسماء: إنما سمِّيَ يعقوبُ لأنَّ يعقوبَ وعيصاً كانا تَوْأَمَيْنِ فاقتتلا في بطن أمهما حيث أراد يعقوب أن يَخْرُجَ فَمَنَعَه عَيْصٌ وقال: لئن خَرجت قبلي لأعترض في بطن أمي، فلأقتلنَّها فتأخَّر يعقوب، فخرج عيص فأَخَذَ يعقوب بعقب عيص، فخَرَجَ بَعْدَهُ فلهذا سمي به، وسمي الآخر عَيْصاً لمَّا عَصَى وخَرَجَ قبل يعقوب، وكان عيص رجلاً أشعر، وكان يعقوبُ أجْرَد، وكان عيص أحبَّهما إلى أبيه، وكان يعقوبُ أحبَّهما إلى أمه، وكان عَيْصٌ صاحبَ صيد، وكان يعقوبُ صَاحِبَ غنم، فلما كَبرَ إسحاق، وعَمِي قال لعيص يوماً: يا بنيَّ أطْعِمْني لَحْمَ صيد، واقْتَرِبْ مني أدع لك بدعاءٍ دعا لي به أبي هو دعاء النبوة، وكان لكل نبي دعوة مستجابة، وأخَّر رسولنا ﷺ دُعاءَه للشفاعة العظمى يوم القيامة، فخرج عَيْصٌ لطلب صيد، فقَالَتْ أمُّهُ ليعقوب: يا بنيَّ اذهب إلى الغنم فاذبح منها شَاةً ثم اشوها، والْبِسْ جِلْدَهَا، وقدِّمها إلى أبيك، قبل أخيك، وقُلْ له: أنا ابنك عيص لعله يدعو لك ما وَعَدَه لأخيك، فلما جَاءَ يعقوب بالشواء قال: يا أبت كُلْ، قال: مَنْ أنت؟ قال: أنا ابنك عيص؛ فمسَّه فقال: المس مَسُّ عَيْص والريحُ ريح يعقوب. قال بعضهم: والأسلم أن يقال: إنَّ أمه أحْضَرَتْ الشواء بين يدي إسحاق، وقالت: إنَّ ابْنَكَ جاءك بشواء، فادع له، فظَنَّ إسحاق أنه عيص، فأكل منه، ثم دَعَا لِمَنْ جاء به، أن يجعل الله في ذريته الأنبياءَ، والملوكَ فذهب يعقوب، وَلَما جاء عيصٌ قال: يا أبت قد جئتك بالصيد الذي أردتَ، فعلم إسحاق الحالَ، وقال: يا بنيَّ قد سبقك أخوك، ولكن بَقِيَتْ لك دعوة فهلم أدعو لك بها، فدعا أن يكون ذرِّيَتُه عَدَدَ التراب، فأعطى الله تعالى له نَسْلاً كثيراً،

وجملة الروم منْ ولده، رُوم، وكان إسحاق متوطّناً في كَنْعَان، وإسماعيل مقيماً في مكة، فلما بَلَغَ إسحاق إلى مئة وثمانين من العمر، وحضرته الوفاة وصّى سِرّاً بأن يخرج يعقوب إلى خاله في جانب الشام حذراً من أن يقتله أخوه عَيْصٌ حسداً، لأنه أقْسَمَ بالله في قصة الشواء أن يقتل يَعْقُوب فانطلق إلى خاله ليا بن ناهزَ، وأقام عنده وكان لخاله بنتان إحداهما لَيَّا، وهي كبراهما، والأُخرى راحيل، وهي صغراهما فخَطَبَ يعقوب إلى خاله بأن يزوجه إحداهما فقال له: هل لك مالٌ؟ قال: لا، ولكن أَعْمَلُ لك، فقال: نعم، صداقها أن تخدمني سبع سنين، فقال يعقوب: أَخْدُمُكَ سبع سنين على أن تزوجني راحيل، قال: ذلك بيني وبينك، فرعَى له يعقوب سبع سنين، فزوجه الكبرى، وهي لَيَّا، قال له يعقوب: إنك خَدَعْتَني، إنما أردتُ راحيل، فقال له خاله: إنّا لا ننكح الصغيرةَ قبل الكبيرة، فهلم فاعمل سبع سنين، فأزوجك أختها ـ وكان الناس يجمعون بين الأختَين إلى أنْ بعَثَ الله موسى عليه السلام ـ فرَعَى له سبع سنين، أُخْرى فزوجه راحيل، فجمَعَ بينهما، وكان خاله حين جهَّزَهما دفع إلى كل واحدة منهما أَمَةً تخدمُها، اسمُ إحداهما، زلفة، والأخرى بَلْهَة، فوهبتا الأمتَين ليعقوب، فولدت ليا ستة بنين وبنتاً واحدة، رُوبِيلَ، شمعون، يهوذا، لاوي، يَسْجُر، زيالون، دنية. وولدت زلفة ابنَينِ دان، يغثالى، وولدت بُلْهَةُ أيضاً ابنين جاد، آشر. وبقيت راحيل عاقراً سنينَ ثمَّ حملَتْ، وولدت يوسف. وليعقوب من العمر إحدى وتسعون سنةً، وأراد يعقوب أن يُهاجِر إلى موطن أبيه إسحاق بكل الحواشي. وفي سنة الهجرة حَمَلَتْ راحيل ببنيامين، وماتت في نفاسها، ويوسف ابن سنتين، وكان أحبَّ الأولاد إلى يعقوب، وحين صار ابنَ سبع سنين، رَأَى المنام المذكور سابقاً فيما حكى الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

واعلم: أنَّ يوسف رأى إخْوَته في صورة الكواكب، لأنه يُسْتَضاءُ بالأخوة، ويهدى بهم كما يهتدىٰ بالكواكب، ورأى أباه وخَالَته ليا في صورة الشمس والقمر، وإنما قُلْنا خالته لأنه ماتت أمه في نفاس بنيامين كما مَرَّ. وسجودُهم له دخولهم تحت سلطنته، وانقيادهم له كما سيأتي في آخر القصة.

قال في «الإرشاد»: ولا يَبْعُدْ أن يكونَ تأخيرُ الشمس والقمر إشارة إلى تأخُّرِ ملاقاتِه لهما عن ملاقاته لإخوته، ذَكَرَ هذه القصةَ صاحبُ «روح البيان».

فائدة: والرؤيا ثلاثة أقسام:

أَحدُها: حديث النفس كَمَنْ يكون في أمْرٍ أو حِرْفة يرى نَفْسَهُ في ذلك الأمر، وكالعاشق يرى مَعْشُوقَه ونحو ذلك.

وثانيها: تخويف الشيطان بأن يَلْعَبَ بالإنسان فيريه ما يحزِنه، ومَنْ لعبه به الاحتلامُ الموجبُ للغسل، وهذان لا تأويلَ لهما.

وثالثهما: بشرى من الله تعالى بأن يَأتِيَك ملك الرؤيا من نسخة أم الكتاب يعني من اللوح المحفوظ، وهو الصحيحُ، وما سوى ذلك أضغاثُ أحلام.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ليوسف في السرِّ، وهذا كلام مستأنف مبنيٌّ على سؤالِ مَنْ قال: فماذا قال يعقوبُ بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة؟ فقيل: قال يعقوب: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ تصغيرُ ابن صغره للشفقة والمحبَّة وصِغر السن، فإنه كان ابن ثنتي عشرة سنة كما مَرَّ. وأصله يا بُنَيًّا الذي أصله: «يا بُنَيِّـي» فأُبدلت ياء الإضافةِ أَلِفاً، كما قيل في يا غلامي، يا غلاما بناء على أنَّ الألِفَ، والفتحةَ أخفُّ من الياء والكسرة. وقرأ حفصٌ هنا، وفي لقمان، وفي الصافات: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياء. وابن كثير في لقمان: (يا بني لا تشرك). وقيل: (يا بني أقم) بإسكانها. وباقي السبعة بالكسر. وقرأ زيد بن علي: (لا تَقُصُّ) مدغماً وهي لغة تميم، والجمهور بالفك، وهي لغةُ الحجاز. وقرأ الجمهور: ﴿رُءْيَاكَ﴾ والرؤيا حيثُ وقعت بالهمز من غير إمالة. وقرأ الكسائي بالإمالة، وبغير الهمز، وهي لغة أهل الحجاز ذكره أبو حيان في «البحر».

قال في «الإرشاد»: ولمَّا عرف يعقوبُ من هذه الرؤيا، أنَّ يوسف يبلِّغه تعالى مَبْلَغاً جَلِيلاً من الحكمة، ويَصْطَفِيهِ للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فَعَلَ بآبائه الكرام.. خَافَ عليه حسدَ الإخوة وبغيَهم فقال صيانة لهم من ذلك وله

من معاناة المشاقّ، ومقاساة الأحزان، وإن كانَ واثقاً من الله تعالى بأن سيحقق ذلك لا مَحَالَةَ وطَمَعاً في حصوله بلا مشقَّة: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾؛ أي: لا تُخْبِرَ مَنَامَكَ كُلاً، أو بعضاً، ولا تطلعها ﴿عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾، وهم بَنُو علاته العشرة، كما هو المشهور، وأما شقيقه بنيامين فهو حادي الأحد عشر في الرؤيا، وإن لم يكن ممن تخشى مَضرَّتهُ، وكيدُه ليوسف ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ﴾؛ أي: فيفعلوا لأجلك، ولإهلاكك ﴿كَيۡدًاۖ﴾ خَفِيّاً عن فهمك لا تقدر على مدافعته، وهذا أوفق بمقام التحذير، وإن كانَ يعقوبُ يعلم أنهم ليسوا بقادرينَ على تحويلِ ما دلت الرؤيا على وقوعه. والكيد: الاحتيال للاغتيال، أو طَلَبُ إيصال الشر بالغير وهو غَيْرُ عالم به.

وحاصل المعنى: أي قال يوسف لأبيه يعقوب: إنّي رأيت في منامي أحَدَ عَشَرَ كَوْكباً، والشَّمْسَ والقَمَرَ لي سجَّداً، وقد علم أبوه أن هذه رؤيا إلهام، لا أضغاث أحلام تثِيرُها في النوم الهواجسُ والأفكار، وأنَّ يوسُفَ سَيَكُون له شأن عظيم، وسلطان يسود به أهلَه حتى أباه وأمه، وإخوته، وخَافَ أن يَسْمَعَ إخْوَتُهُ ما سمعه، ويفهموا ما فَهِمَه فيحسدوه، ويكيدوا لإهلاكه، ومن ثَمَّ نَهاه أن يقصَّ عليهم رؤياه، كما دل على ذلك قوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾؛ أي: لا تخبر إخوتَك بما رأيتَ في منامك، خِيفَة أن يحسدوك فيحتالوا للإيقاع بك بتدبير، يحكمونه بالتفكير، والرؤية، ثم بَيَّن السببَ النفسيَّ لهذا الكيد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: إنَّ الشيطانَ عدو لآدم وبنيه، قد أظهرَ لهم عداوتَه، فاحذَر، أن يُغريَ إخوتك بك بحسدهم لَكَ، إن أنْتَ قصصت عليهم رؤياك، إذ من دأبه أن ينزغَ بَيْنَ الناس حين تعرض له داعية من هوى النفس، ولا سِيّما الحسد الغريزي في فطرة البشر، وقد أرْشَدَ إلى هذا يوسف بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾.

وهذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنَّ يوسفَ قال: كيف يصدر ذلك عن إخوتي الناشئين في بيت النبوة. فقيل: إنَّ الشَّيْطَانَ ظاهر العداوة للإنسان أو مظهرها قد بانت عداوته لك، ولأبناءِ جنسك إذ أخرج أبويكم آدم وحواء من

الجنة، ونزع عنهما لباسَ النور، وحلف أنه ليعملن في نوع الإنسان كل حيلة، وليأتينهم من كل جهة وجانب، فلا يزال مجتهَداً في إغواء إخوتك وإضلالهم، وحملهم على الإضرار بك، فَبِه عُلِمَ أنهم يَعْلَمُونَ تَأْويلَهَا فقال ما قال. قال بعض العارفين: بَرَّأ أبناءه من ذلك الكيد، فألحقه بالشيطان لِعِلْمه أن الأفعال كلَّها من الله تعالى، ولمَّا كان الشيطان مظهراً لاسم المُضِلِّ أضَافَ الفعل السَّببيَّ إليه، وهذه الإضافة أيضاً كيد ومكر، فإن الله تعالى هو الفاعل في الحقيقة لا المظهر الشيطاني.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما اجتباك لهذه الرؤية الدالة على عُلُوِّ شأنك ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ ويصطفيك ﴿رَبُّكَ﴾ بالنبوة والرسالة والملك؛ أي[1]: مثل اجتبائك واختيارك من بين إخوتك، لمثل هذه الرؤيا العظيمة، الدالةِ على شرفٍ وعز وكبرياء شأنك، فالكاف في محل النصب على أنه صفة لمصدر محذوف، كما سيأتي في مبحث الإعراب.

﴿يَجْتَبِيكَ﴾: أي: يَخْتَارُكَ، ويصطفيك لما هو أعظم منها، كالنبوة ويبرزُ مِصْداقُ تلكَ الرُّؤيَا في عالم الشهادة إذ لا بُدَّ لكل صورة مرئية في عالم المثال حقيقة واقعة في عالم الشهادة، وإن كانت الدنيا كلها خَيَالاً. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مستأنف غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل: وهو تعالى يعلمك، لأنَّ الظاهر أن يشبَّهَ الاجتباءُ بالاجتباءِ والتعليم غَيْرُ الاجتباء؛ أي: ويُعَلِّمُكَ ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: تعبير الرؤيا وتفسيرها، والأحاديث[2] جمع تكسير لحديث على غير قياس، وإنما سميت الرؤيا أحاديث؛ لأنها إما أحاديث الملك إن كانت صادقةً أو أحاديث النفس والشيطان إن لم تكن كذلك، وتسميتها تَأويلاً، لأنه يَؤُول أمرها إليه؛ أي: يرجع إلى ما يذكره المعبِّر من حقيقتها.

وحاصل المعنى: أي وكما أراك[3] ربك الكواكبَ والشمس والقمرَ سجَّداً

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

لك، يَجْتبيك ربك لنفسه، ويصطفيك على آلك وغيرهم بفيض إلّهي يكملك به بأنواع من المكرمات بلا سعيٍ منك، فتكون من المخلصين من عباده، ويعلمك من علمه اللدني تأويل الرؤيا وتعبيرها؛ أي: تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تؤول إليه في الوجود كما حكى الله قول يوسف لأبيه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

وتعليم الله تعالى يوسفَ التأويلَ إعطاؤه إلهاماً، وكشفاً لما يُرادُ أو فِراسَةً خاصة فيها، أو علماً أعمَّ من ذلك كما يدل عليه قوله لصاحبي السجن: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يا يوسف يجوز[١] أن يتعلّق بقوله: ﴿يتم﴾ وأن يتعلّق بـ﴿نِعْمَتَهُۥ﴾؛ أي: بأن يضمَّ إلى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك، ويَجْعَلُه تَتِمَّةً لها، وتوسيط التعليم لرعاية الوجود الخارجِيّ ﴿وَعَلَىٰٓ﴾ كرر على ليمكن العطفُ على الضمير المجرور ﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ الآل[٢] وإن كان أصله: الأهل إلاَّ أنه لا يستعمل إلا في الأشراف بخلاف الأهل، وهم أهله من بيته، وغيرهم، فإن رؤيةَ يوسف إخوته كواكب يُهتدى بأنوارها من نعم الله عليهم لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوة، فيقع كل ما يخرج من القوة إلى الفعل، إتماماً لتِلْكَ النعمة؛ أي: ويتم[٣] نعمته عليك باجتبائه إياكَ، واصطفائك بالنبوة والرسالة والملك، وعلى أبيك، وإخوتك وذريتهم بإخراجهم من البَدْوِ وتبوئهم مقاماً كريماً في مصر، ثم تسَلْسَل النبوة في أسباطهم حيناً من الدهر. وقوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره أي: ويتم نعمته عليك إتماماً كائناً كإتمام نعمته على أبويك وهي نعمة الرسالة والنبوة، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا الوقت أو من قبلك. وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لأبويك، والتعبير[٤] عنهما بالأب مع كونهما أبا جَدِّهِ، وأبا أبيه للإشعار بكمال ارتباطِه بالأنبياء الكرام. قال في «الكواشي»: الجدُّ أب في الأصالة، يقال: فلان ابن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

(٤) روح البيان.

فلان، وبينهما عِدَّةُ آباء، انتهى. أما إتمامها على إبراهيم فباتخاذه خليلاً، وبإنجائه من النار، ومنْ ذبح الولد. وأما على إسحاق فبإخراج يعقوب، والأسباط من صلبه، وكُلُّ ذلك نعم جليلة، وقعت تتمةً لنعمة النبوة، ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبَّهِ مِثل ما وقع في جانب المشبه به من كل وجه؛ أي: كما أتمَّ النِّعْمَة من قبل هذا العهد على جدك وجد أبيك. وقَدَّم إبراهيم لأنه الأشرفُ منهما. وقد قال يعقوب ذلك لما كان يَعْلَمه من وَعدِ اللَّهِ لإبراهيم باصطفاء آله، وجعل النبوة، والكتاب في ذريته، وما عَلِمه من رُؤْيَا يوسف، وأنَّهُ الحَلَقَةُ الأولى في السلسلة النبوية التي ستكون من بعده من أبنائه. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا يوسف ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَنْ يستحق الاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضعُ الأشياءَ مواضعَها، والجملة مستأنفة[1] مقررة لمضمون ما قبلَها تَعْلِيلاً له؛ أي: فَعَلَ ذلك؛ لأنه عليم حكيم. وهذا كلام من يعقوب مع ولده يُوسُفَ تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال، أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة، وما تقضيه المخايِلُ اليوسفيةُ.

والمعنى: أي إن رَبَّك[2] يا يوسف عليم بمن يصطفيه، ومَن هو أهل للفضل، والنعمة فيُسَخِّر له الأسبابَ التي تبلغ به الغاية إلى ما يريده له، حكيم في تدبيره، فيفعل ما يشاء جرياً على سنن علمه وحكمته.

وخلاصة ما تقدم: أنَّ يعقوبَ عليه السلام فَهِمَ من هذه الرؤيا فَهْماً جُمَلِيّاً كُلَّ ما بُشِّر به ابنه يوسف الرائي، وأمَّا كيدُ إخوته به إذا قصَّها عليهم فقد استنبطه منْ طبع وعداوة الشيطان له، ثُمَّ قَفَّى على ذلك ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه، ومن تأويل الأحاديث، وهو الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس في رفعة قدره، وعلو مقامه وإتمام نعمته عليه بالنبوة والرسالة كما كان ذلك لأبويه من قبل.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

وعزتي وجلالي ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي﴾ قصة ﴿يُوسُفَ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿وَ﴾ حكاية ﴿إخوته﴾ الأحد عشر ﴿آيَاتٌ﴾؛ أي: علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله سبحانه وتعالى القاهرة، وحكمته الباهرة ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾؛ أي[1]: لكل مَنْ سأل عن قصتهم، وعَرَفها، فإنَّ كِبَار أولاده يعقوب بعدما اتفقوا على إذْلال أصغر أولاده يوسف، وفعلوا به ما فَعَلُوا قد اصطفاه الله للنبوة والملك وجعلهم خَاضِعين له منقادينَ لحكمه، وأنَّ وبَالَ حسدهم قد انقلب عليهم، وهذا مِنْ أَجَلِّ الدلائل على قدرة الله القاهرة، وحِكمتِهِ الباهرة.

والمعنى: والله[2] لقد كان في قصة يوسفَ وإخوته لأبيه عِبَرٌ أيُّما عِبر دالةٌ على قدرة الله، وعظيم حكمته، وتوفيق أقداره، ولطفه بِمَنِ اصطفى من عباده، وتربيته لهم وللسائلين عنها الراغبينَ في معرفة الحقائق، والاعتبار بها فإنهم هم الذين يعقلون الآيات، ويستفيدُون منها.

تأمَّل يا أخي: تَرَ أنَّ إخوةَ يُوسُفَ لو لم يحسدوه لما ألقوه في غَيَابَةِ الجُبِّ، ولوْ لَم يلقوه فيها: لما وَصَلَ إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيزُ بصادق فراسته أَمَانَتَهُ وصِدْقَه لما أمنه على بيته، ورزقه، وأهله، ولو لم تُراوده امرأة العزيز عن نفسه، ويستعصم منها لما ظهرَتْ نزاهته، ولو لم تَفْشَلْ في كيدها وكيد صُويْحِبَاتِهَا لَمَا ألقي في السجن، ولو لم يُسْجَن ما عرَفه ساقي مَلِك مصر، وعَرَف صدقَه، في تعبير الرؤيا، وإرشادِ مَلكِ مصر إليه، فآمَنَ به، وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يَتَبوَّأْ هذا المَنْصِبَ ما أمكنه أن ينقذ أبَوَيْهِ وإخوتَه وأهله أجمعين من الجوع والمخمصة، ويأتي بهم إلى مصر، فيشاركوه فيما ناله من عِزٍّ وبَذخٍ ورَخَاءِ عيشٍ، ونعيم عظيم، وما من مبدأ من هذه المبادىء إلاَّ كان ظاهره شرّاً مستطيراً، ثم انْتَهَى إلى عاقبة كانت خيراً وفوزاً مبيناً.

فتلك ضروب من آيات الله في القصة لمن يريد أن يَسْأَلَ عن أحداثها

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الحسية الظاهرة، وعلومها الباطنة، كعلم يعقوب بتأويل رُؤْيَا يُوسُفَ وعِلْمِهِ بكذبهم في دعوى أكل الذئب له، ومن شَمِّهِ لريحِ يُوسُفَ منذ فصلت العير من أرض مصر ذاهبةً إلى أرض كَنْعَانَ، ومن رؤيةِ برهان رَبِّهِ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك، ومن عِلْمِهِ بأنَّ إلْقَاءَ قميصه على أبيه يُعيده بصيراً بعد عَمى بَقِيَ كثيراً من السنين.

وقرأ مجاهد، وشِبْلٌ وأهلُ مكة، وابن كثير[1]: ﴿آيةٌ﴾ على الإفراد. وقرأ الجمهور: ﴿آياتٌ﴾. وفي مصحف أُبي: ﴿عبرةٌ للسائلين﴾ مكانَ آية.

﴿إِذْ قَالُوا۟﴾؛ أي: إن في شأن يوسف وإخوته لعبرة حين قالوا؛ أي: حِينَ قال بعض العشرة لبعضهم والله ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ الشقيقُ بِنْيَامِينُ بكسر الباء وفتحها فاللام في ﴿لَيُوسُفُ﴾ موطئة[2] للقسم كما قدرنا، أو لام الابتداء[3]، وفيها تأكيد، وتحقيقٌ لمضمون الجملة، أرادوا أنَّ زيادة مَحَبَّتِهِ لهما أمر ثابت لا شبهة فيه، وإنما قالوا هو وأخوه، وهم إخوته أيضاً؛ لأنَّ أُمَّهُمَا كانت واحدةً اسمها راحيلُ كما مرَّ فهو شَقِيقُه. والشقيق: الأخُ من الأب والأم. وقد يقال: للأخ من الأب، لأنَّه شَقَّ مَعَكَ ظهْرَ أبيك، وللأخ من الأم لأنه شق معك بطن أمك. وفي «القاموس»: الشقيق كأمير الأخِ كأنه شقَّ نسَبُه من نسبه، انتهى. وإنما لم يذكر[4] باسمه تلويحاً بأنَّ مدار المحبة إخوته ليوسف من الطرفين، الأب، والأم، فالمآل إلى زيادة الحُبِّ ليُوسُفَ ولذلك تعرضوا لقتله، وطرحه، ولم يتعرضوا لبنيامين. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾؛ أي: أكْثرَ وأزيدُ مَحَبَّةً مِنَّا عند أبينا، وإنما قالوا هذه المقالَةَ: لأنه بلَغَتْهُم خَبر الرؤية، فأجمع رأيهُم على كيده. ﴿و﴾ الحال ﴿نحن عصبة﴾؛ أي: والحال أنَّا جماعةٌ قادرون على الحل والعقد قائمون بدفع المفاسد، والآفات مشتغلون بتحصيل المنافع، والخيرات، وقائمون بمصالح

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) النسفي وغيره.

(٤) روح البيان.

الأب، فنحن أحِقَّاءِ بزيادةِ المحبة منهما، لفضلنا بذلك، وبكوننا أَكْبَرَ سِنّاً، وما معنى اختيار صغيرين ضعيفين على العشرة الأقوياءِ. والعصبة والعصابة: العشرة من الرجال فصاعداً كما سيأتي في مَبْحَثِ مفردات اللغة. وإنما قيل[1]: أحبُّ بالإفراد في الاثنين؛ لأن أفعلَ منْ لا يُفرَّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بَيْنَ المذكر والمؤنث، ولا بُدَّ من الفرق مع لام التعريف، وإذا أُضِيفَ جَازَ الأمران كما يُعرف من محله.

والمعنى[2]: أي إنَّ في شأنهم لعبرةً حين قالوا: ليوسُف وأخوه الشقيقُ بنيامينُ أحَبُّ إِلَى أَبِينَا منا فهو يفضلهما علينا بمزيد محبة على صغرهما، وقليل نفعهما، ونحن رجال أشداء أقوياء، نَقُوم بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والكفاية.

﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما، وكونهما بمعزل من الكفاية، بالصغر، والقِلَّة ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لفي خطإٍ بين ظاهر الحال بالنسبة إلى مصالح الدنيا، لا في الدين، وإلا لكفروا بذلك، نظروا إلى صورة يُوسُفَ، ولم يحيطوا علماً بمعناه، فقالوا ما قالوا، ولم يعرفوا أنَّ يوسف أكبرُ منهم بحسب الحقيقة والمعنى؛ أي: إنَّ أبانا لقد أخطأ في إيثاره يوسفَ، وأخاه من أمه علينا بالمحبة، وهو قد ضَلَّ طريق العدل والمساواة ضلالاً بيناً لا يَخْفَى على أحد، فكيف يفضل غُلامَيْنِ ضعيفين لا يقومان له بخدمة نافعة على العصبة أولى القوة، والكسب، والحماية عن الذمار.

وفي الآية[3]: من العبرة وجوبُ عِناية الوَالِدَين بمداراة الأولاد، وتربيتهم على المحبة، واتقاءِ وقوع التحاسد والتباغض بينهم، واجتناب تفضيل بعضهم على بعض، بما يعده المفضول إهانةً له، ومحاباة لأخيه بِالهَوى. قال بعض[4]

---

(١) النسفي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

(٤) روح البيان.

العارفين: مَالَ يعقوبُ إلى يوسفَ لظهور كمال استعداده الكليِّ في رؤياه حين رَأى أحد عشرَ كَوْكباً والشَّمْسَ والقمرَ له ساجدين، فَعَلِمَ أبوه من رؤياه أنه يَرِثُ أباه وجده، ويجمعُ استعداداتِ إخْوتِهِ، فكان يضمه كل ساعة إلى صدره، ولا يَصْبِرُ عنه فتَبالَغَ حَسَدُهم حتى حَمَلَهم على التعرُّض له.

وقيل: لأنَّ اللَّهَ تعالى أرادَ ابتِلاَءَهُ بمحبته إليه في قلبه، ثمَّ غيَّبَهُ عنه ليكون البلاء أشدَّ عليه، لغيرة المحبة الإلَهية، إذ سلطان المحبة لا يقبل الشركة في ملكه، والجمالُ والكمال في الحقيقة لله تعالى، فلا يَحْتَجِبُ أحدٌ بما سواه، ولا كيد أشدَّ من كيد الولد. ألا ترى أنَّ نوحاً عليه السلام دَعَا على الكفار فأغْرَقهم الله تعالى، فلَم يَحْترق قَلْبُه، فلما بلغَ وَلدُه الغرقَ صاح ولم يصبر وقال: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾. قيل: وإنما خَصَّ[1] يعقوبُ يُوسُفَ بمزيد المحبة والشفقة؛ لأنَّ أُمهُ ماتَتْ وهو صغير، أو لأنه رَأى فيه من آيات الرشد، والنجابة ما لم يره في سائر إخوته، أو لأنه وإن كانَ صغيراً كان يخدم أباه بأنواع من الخدمة، أعلى مما كان يَصْدُر عن سائر الأولاد.

وكان[2] بنيامين أصْغَرَ من يُوسُفَ فكان يعقوب يحبهما بسبب صغرهما، وموتِ أمهما، وحُبُّ الصغير، والشفقةُ عليه مركوز في فطرة البشر. وقيل لابنةِ الحسن: أي ابنيك أحبُّ إليك؟ قالت: الصغيرُ حتى يَكْبَرُ، والغائبُ حتى يَقدم، والمريضُ حتى يُفِيقَ. وقد نظم الشعراء في محبة الولد الصغير قديماً وحديثاً، ومِنْ ذلك ما قاله الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري في قصيدته التي بَعَثَ بها إلى أولاده وهو في السجن:

وَصَغِيْرُكُمْ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ فَإِنَّنِيْ ... أَطْوِيْ لِفُرْقَتِهِ جَوَى لَمْ يَصْغُرِ

ذَاكَ المُقَدَّمُ فِيْ ٱلْفُؤَادِ وَإِنْ غَدَا ... كُفُؤَاً لَكُمْ فِيْ ٱلْمُنْتَمَىٰ وَٱلْعُنْصُرِ

إِنَّ ٱلْبَنَانَ ٱلْخَمْسَ أَكْفَاءٌ مَعَاً ... وَٱلْحِلْيُ دُوْنَ جَمِيْعِهَا لِلْخِنْصَرِ

وَإِذَا ٱلْفَتَىٰ بَعْدَ ٱلشَّبَابِ سَمَا لَهُ ... حُبُّ ٱلْبَنِيْنِ وَلاَ كَحُبِّ ٱلأَصْغَرِ

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

فإن قلت[1]: والذي فَعَلَه إخوة يوسُفَ بيُوسُفَ هو محض الحسد، والحسدُ من أمهات الكبائر، وكذلك نسبةُ أبيهم إلى الضلال، هو مَحْضُ العقوق، وهو من الكبائر أيضاً، وكُلُّ ذلك قادحٌ في عصمة الأنبياء، فما الجواب عنه؟

قلت: هذه الأفعالُ إنَّمَا صدرت من إخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم، والمعتبر في عصمة الأنبياء هو وَقْتُ حصول النبوة لا قبلها. وقيل: كانوا وَقْتَ هذه الأفعال مُراهِقينَ غَيْرَ بالغين، ولا تكليفَ عليهم قبل البلوغ، فعلى هذا لم تكن هذه الأفعالُ قادحةً في عصمة الأنبياء، ولكنَّ هذا القول ليسَ بصحيح بدليل قولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾. قال في «الكـواشي»[2]: لا وَقْفَ من السائلين إلى صالحينَ، لأن الكلامَ جملة محكية عنهم، انتهى؛ أي: للتعلق المعنويِّ بَيْنَ مقدم الكلام، ومؤخره إلاَّ أن يكونَ مضطراً بأن يَنْقَطِعَ نَفَسُهُ، فحينئذ يجب عليه أن يَرجع إلى ما قبله، ويوصل الكلامَ بعضَه ببعض، فإن لم يفعل أَثِمَ كما في بعض شروح الجزري، وقرىء: (مبين) ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ بكسر وضم، والمشهورُ: الكسر وَجْهُ الضم التبعية لعين الكلمة، وهي مضمومة؛ أي: قال إخوة يوسف بعضهم لبعض اقتلوا يوسف حتى لا يَكُونَ لأبيه أمَلٌ في لقائه ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾؛ أي: أو انْبُذُوه في أرض منكورة[3] مجهولة بعيدة عن العمران، لِيَهْلِكَ فيها أو يأكله السباع، وهو معنى تنكيرها وإبهامها لا أنَّ معناه أيُّ أرض كانت، ولذلك نُصِبَتْ نَصْبَ الظروف المبهمة، وهي ما لَيْسَ له حدود تحصره، ولا أقطارٌ تُحْوِيه. وفيه إشارة إِلَى أنَّ التَّغْرِيبَ يُسَاوِي القَتْلَ كمَا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: اطرحوه في أرض بعيدة عن العمران بحيث لا يهتدي إلى العودة إلى أبيه، إنْ هو سَلِمَ من الهلاك. ﴿يَخْلُ﴾ على الجزم في جواب الأمر؛ أي: يَخْلُص ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ من شغله بيوسف، فيقبل عليكم بكليته، ولا يَلْتَفِتْ عنكم إلى غيركم، وتتوفر محَبَّتُه فيكم، فَذِكْرُ الوجه لتصوير معنى إقبالِه عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه؛ ويجوز أن يُرادَ

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

بالوجه الذات؛ أي: يَخْلُ[1] لكم وجه أبيكم من شغله بيُوسُفَ، فيكن كل توجهه إليكم، وكُل إقباله عليكم بعد أن تخلو الديار ممن يَشْغَلُهُ عنكم ويشارككم في عطفه وحبه، ﴿وَتَكُونُواْ﴾ بالجزم عطفاً على يخل ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي من بعد الفراغ من أمره؛ أي: وتكونوا من بعد قتله أو تغريبه في أرض بعيدة ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ صَلُحَتْ حالكم عند أبيكم، أو تائبين إلى الله مما جئتم به، مُصْلِحِين لأعمالكم، بما يكفر إثمها مع عدم التصدِّي لمثلها، وبذا يَرْضَى عنكم أبوكم، ويرضى عنكم ربكم.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾؛ أي: من إخوة يوسف، وهو يهوذا. وقال قتادة: هو روبيل، وهو ابن خالته، وكَانَ أكْبَرُهُم سِنّاً، وأحسنهم رَأْياً فيه. ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ نهاهم عن قتله، وقال: القتل كبيرة عظيمة، والأصح أنَّ قائلَ هذه المقالة هو: يهوذا؛ لأنه كان أقربهم إليه سِنّاً. ﴿وَأَلۡقُوهُ﴾؛ أي: اطرحوا يُوسُفَ ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾؛ أي: في أسفل الجب، والبئر، وقعرها، وظلمتها، والغَيَابَةُ: كل موضع سَتَرَ شَيْئاً، وغَيَّبَهُ عن النظر، والجُبُّ: البئرُ الكبيرة غير مطوية بالحجارة. سُمِّيَ بذلك، لأنه جُبَّ: أي: قطع، ولم يطه، وغيابته: ما يغيب عن رؤية البصر من قعره. وأفاد ذكر الغيابةَ مع ذكر الجب أنّ المشيرَ أشار بطرحه في موضع من الجبِّ مظلم لا يراه أحد. وقرأ[2] الجمهور: ﴿غيابة﴾ على الإفراد، ونافع: ﴿غيابات﴾ على الجمع، وابن هرمز: ﴿غَيَّابَاتِ﴾ بالتشديد والجمع؛ وقرأ الحسن: ﴿في غَيبَةِ) على صيغة المصدر. واختلفوا[3] في مكان ذلك الجب. فقال قتادة هو: بئرُ بيت المقدس، وقال وهب: هو في أرض الأُردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وقيل: بين مدين، ومصر، وإنما عَيَّنوا ذلك الجُبِّ للعلةِ التي ذكروها، وهي قولهم: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ﴾. وقرأ الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبو رجاء: ﴿تلتقطه﴾ بتاء التأنيث أنث على المعنى؛ أي: تأخذه على وجه الصيانة من الضياع والتلف. فإن الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع. ﴿بَعۡضُ

---

(١) المراغي. (٣) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾؛ أي: بعض طائفة تسير في الأرض. والسيارة جماعة المسافرين الذين يسيرون في الأرض من مكان إلى آخر للتجارة أو غيرها، وذلك أنَّ هذا الجبَّ كَانَ مَعروفاً يرد عليه كثير من المسافرين؛ أي: يأخذه بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى، فتستريحون منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ بمشورتي، ولم يقطع القول عليهم، بل إنما عَرَضَ عليهم ذلِكَ تَأْلِيفاً لقلبهم، وحذراً من نسبتهم له إلى الافتيات؛ أي: الاستبداد، والتفرد به. وفيه[١]: إشارة إلى ترك الفعل، فكَأنَّه قال: لا تَفْعَلُوا شيئاً من ذلك، وإن عزمتم على إزالتِهِ من عند أبيه ولا بُدَّ فَافْعَلُوا هذا القدرَ؛ أي: إلقاءَه في البئر، والأولى أن لا تفعلوا شيئاً من القتل والتغريب.

وحاصل المعنى[٢]: أي: قال قائل منهم: وهو رُوبيل، أو يهوذا، لا تقتلوا يوسفَ، وألقوه في قعر البئر، حيث يَغِيبُ خبره، فيلتقطه بعض المسافرين، ويأخذوه إلى حيث ساروا في الأقطار البعيدة، وبذا يَتِمُّ لكم ما تريدون، وهو إبعاده عن أبيه، إن كنتم فاعلينَ ما هو المقصدُ لكم بالذات إذ لا شكَّ أن قَتْلَهُ لا يَغْنيكم لذاته، فَعَلام تُسْخِطُون خَالِقَكُم باقتراف جريمة القتل، والغرض يَتِمُّ بدونها.

قال محمد بن إسحاق[٣]: اشتمل فِعْلُهُم هذا على جرائمَ كثيرةً من قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد، والكذب مع أبيهم، وعفا الله عن ذلك كُلِّه، حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله تعالى. وقال بعض أهل العلم: عَزَمُوا على قتله، وعَصَمَهُم الله تعالى رحمةً بهم، ولو فعلوا ذلك لَهَلَكُوا جميعاً، وكل ذلك كَانَ قَبْلَ أنْ نَبَّأهم اللَّهُ تعالى كما مر. فانظر إلى هؤلاء الإخوان الذين أَرْحَمُهُم له لا يَرْضى إلا بإلقاء يوسف في أسفل الجب، وهكذا إخوانُ الزمان، وأبناؤه، فإنَّ ألسنتهم دائرة بكل شر، ساكتةٌ عن كل خير.

فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف، وبين والده بضرب من الحِيَل،

---

(١) المراح.
(٢) المراغي.
(٣) الخازن.

﴿قَالُوا﴾؛ أي: قال إِخْوَةُ يُوسُفَ لأبيهم يعقوب ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ خاطبوه بذلك تحريكاً لسلسلة النسب بينه وبينهم، وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف، ليتَسَبَّبُوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه في حفظه منهم، لما أحسَّ منهم بأمارات الحسد والبَغْيِ، فكأنهم قالوا: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾؛ أي: أي عُذْر لك في ترك الأمن؛ أي: في الخوف ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع أنك أبونا، ونحن بنوك، وهو أخونا. وجملة قوله: ﴿لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾ حال من معنى الفعل في ﴿مَا لَكَ﴾ كما تقول: ما لك قائماً بمعنى: ما تصنع قائماً. والاستفهام فيه للاستخبار والتقرير.

وهذا الكلام مبني على مقدمات محذوفةٍ، وذلك أنهم قالوا أوَّلاً لِيُوسُفَ اخْرُج معنا إلى الصحراءِ إلى مواشينا، فنستبق ونَصيدُ، وقالوا له: سَلْ أباك أن يُرْسِلَكَ معنا، فسأله فتوقف يعقوبُ فقالوا له: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ أي: أي شيء ثَبَتَ لكَ لا تَجْعَلُنا أُمَنَاءَ عليه مع أنه أخونا، وأنك أبونا، ونحن بَنُوكَ ﴿و﴾ الحال ﴿إنا له لناصحون﴾؛ أي: لعاطفون عليه، قائمون بمصلحته، وبحفظه؛ أي: هم أظهروا عند أبيهم، أنهم في غاية المحبة ليوسف، وفي غاية الشفقة عليه، والجملة حال من مفعول ﴿لَا تَأۡمَ۬نَّا﴾؛ أي: والحال إنَّا لمريدون له الخير، ومشفقون عليه، ليس فينا ما يخلُّ بالنصيحة والمِقَةِ. وقرأ[1] زيد بن علي، وأبو جعفر، والزهري وعمرو بن عبيد، بإدغام نون (تأمن) في نون الضمير من غير إشمام. وقرأ الجمهور بالإدغام والإشمام للضم، وعنهم إخفاء الحركة فلا يَكُونُ إدغاماً مَحْضاً. وقرأ ابن هرمز بضم الميم فتكون الضمة منقولَةً إلى الميم من النون الأولى بعد سلب الميم حركتَها، وإدغام النون في النون. وقرأ أُبي والحسنُ وطلحةُ بن مصرف، والأعمش: (لا تأمننا) بالإظهار، وضم النون على الأصل، وخط المصحف بنون واحدة. وقرأ ابن وثاب، وأبو رَزين شذوذاً: (لا تِيْمُنَّا) على لغة تميم، وسَهَّل الهمزةَ بعد الكسرة ابن وثاب.

وفي قوله: ﴿أَرۡسِلۡهُ﴾ دليل على أنه كان يمسكه ويصحبه دائماً؛ أي: أرسله ﴿مَعَنَا غَدٗا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرۡتَعۡ﴾؛ أي: نتسع في أكل الفواكه، ونحوها؛ فإنَّ

---

(١) البحر المحيط.

الرَّتْع هو الاتساع في الملاذ ﴿وَنَلْعَبْ﴾ بالاستباق، والانتضال تمريناً لقتال الأعداءِ وبالإقدام على المباحات، لأجل انشراح الصدر لا للهو، وإنما سموه لعباً لكونه على صُورته. قال[1] أبو الليث: لم يريدوا به اللعبَ الذي هو منهي عنه، وإنما أرادوا به المطايبة في المزاح في غير مأثم. وفيه دليل على أنه لا بأس بالمطايبة والتفرج. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أَنْ يَنالَهُ مكروه؛ أي: نجتهد في حفظه غَايَةَ الاجتهاد حَتَّى نرده إليك سالماً.

والمعنى[2]: أي أرسله مَعَنَا غَدَاةَ غدٍ حين نخرج كعادتنا إلى المَرْعَى في الصحراء، يشاركنا في الرياضة والأنس والسرور، وأكل الفواكه، والبقول، وغيرهما مما يَطِيبُ، وقد كان أكثر لعب أهل البادية السباقَ، والصراعَ والرَّمْيَ بالعصا، والسهام إن وجدت، وإنا لحافظوه من كل أذًى يُصيبه. وقرأ[3] الجمهور: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياء والجزم. وابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو بالنون، والجزم وكسر العين الحرميان، نافع وابن كثير. واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحَذْفِها. وروي عن ابن كثير: ﴿ويلعب﴾ بالياء وهي قراءةُ جعفر بن محمد. وقرأ العلاء بن سيابة: ﴿يرتع﴾ بالياء، وكسر العين مجزوماً محذوفَ اللام ﴿ويَلْعَبُ﴾ بالياء، وضمّ الباء خَبرَ مبتدأ محذوف؛ أي: وهو يلعبُ. وقرأ مجاهد، وقتادة، وابنُ مُحَيْصِن بنون مضمومة مأخوذ من أرتعنا، ﴿ونَلْعَب﴾ بالنون وكذلك أبو رجاء إلا أنه بالياء فيهما ﴿يرتع ويلعب﴾ والقراءتان على حذف المفعول أي يرتع المواشي شيء أو غيرها، وقرأ النخعي ﴿نرتع﴾ بنون ﴿ويلعب﴾. بياء بإسنادِ اللعب إلى يوسف وحدَه لصباه، وكذلك جاء عن أبي إسحاق ويعقوب. وكل هذه القراءات الفعلان فِيهَا مبنيان للفاعل. وقرأ زيد بن علي: ﴿يُرْتَع ويُلْعَب﴾ بضم الياءين مبنياً للمفعول، ويخرِّجها على أنه أضمر المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وهو ضمير غَدٍ، وكان أصله يرتع فيه، ويلْعَبُ فيه، ثم حذفَ واتسعَ فعُدِّيَ الفِعْلُ للضمير، فكان التقدير: يرتَعُهُ ويلعَبُهُ، ثمّ بَنَاهُ للمفعول فاستكن الضمير الذي كَانَ

---

(1) روح البيان.

(2) المراغي.

(3) البحر المحيط.

منصوباً لكونه ناب عن الفاعل.

﴿قَالَ﴾؛ أي: قالَ يَعْقُوبُ مُجِيباً لهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ﴾؛ أي: لَيُؤْلِمُ قَلْبي ذَهابُكُم به؛ لأني لا أصْبِرُ عنه ساعة ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لكثرة الذئب في تلك الأرض ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالاتساع في الملاذ وبنحو التناضل.

واللام[1] في قوله: ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ لام الابتداء، فإن قيل: لام الابتداء تُخَلِّصُ المضارعَ للحال عند جمهور النحاة، والذهابُ ههنا مستقبل، فيلزم تقدم الفعل على فاعله، مع أنه أَثَرُه.. قلنا: إنَّ التَّقْدِيرَ قصد أن تذهبوا به، والقصد حال، أو تصورُ ذَهابكم، وتوقعه، والتصور موجود في الحال، كما في العِلَّةِ الغائية، والحزن ألم القلب بفوت المحبوب، والخوف انزعاجُ النفس لنزول المكروه، ولذلك أسند الأولَ إلى الذهاب به المفوِّت لاستمرار مصاحبته، ومُوَاصلته ليوسف. والثاني: إلى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب.

ورُوِي أنَّه رأى في المنام كأنه على رأس جبل، ويوسف في صحراء فَهَجَمَ عليه أحد عَشَرَ ذِئْباً، فغاب يُوسُفُ بينهن، ولذا حَذَّرَهم من أكل الذئب، ومَع ذلك فَقد دَفَعَهُ إلى إخوته؛ لأنه إذا جاء القَدَرُ عَمِيَ البَصَرُ.

والحاصل[2]: أن يعقوبَ اعتذرَ لهم بشيئين:

أحدهما: عاجل في الحال، وهو ما يَلْحَقه من الحزن لمفارقته، وكان لا يصبر عَنْهُ.

والثاني: خوفه عليه من الذئب إنْ غفلوا عنه برعيهم ولعبهم، أو بقلَّةِ اهتمامهم بحفظه، وعنايتهم، فيأكله ويَحْزُن عليه الحُزْنَ المؤبَّد. وخصَّ الذِّئبَ لأنه كان السَّبُع الغالب على قطره، أو لصِغَر يُوسُفَ، فخافَ عليه هذا السَّبعَ الحقير، وكان تنبيهاً على خوفه عليه، ما هو أعظم افتراساً ولحقارة الذئب، خصَّهُ الربيع بن ضبع الفزاري في كونه يَخْشَاهُ لَمَّا بَلَغَ مِنَ السِّنِّ:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وَٱلـذِّئْـبُ أَخْـشَـاهُ إِنْ مَـرَرْتُ بِـهِ   وَحْـدِيْ وَأَخْـشَـىٰ ٱلـرِّيَـاحَ وَٱلْـمَـطَـرَا

وكأنَّ يعقوبَ بقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لقنهم ما يقولونَ من العذر إذا جاؤُوا، وليس معهم يوسف فلقنوا ذلك، وجعلوه عُدَّةً للجواب. وقرأ زيد بن علي: ﴿تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ من أذهبَ الرباعي وخرِّج على زيادة باء به كما خرَّج بعضهم ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ في قراءة مَنْ ضَمَّ التاء وكَسر الباءِ؛ أي: تنبت الدهنَ وتذهبوه. وقرأ الجمهور: ﴿ٱلذِّئْبُ﴾ بالهمز، وهي لغة الحجاز. وقرأ الكسائي وورش، وحمزة إذا وَقف بغير همز. وقَالَ نصرُ: سمعت أبا عَمرو لا يُهْمِزُ.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال إخوة يوسف لأبيهم، والله ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾؛ أي: لئن أكَلَ يوسفَ الذئب، واختَطَفَهُ من بيننا في الصحراء ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أي: والحال إنَّا جماعة شديدةُ البأس، عشرة رجال تُكْفى بنا الخطوب، وتُدْفَع بنا مهمات الأمور ﴿إِنَّآ إِذًا﴾؛ أي: إذ عَجَزْنَا عن حفظ أخينا ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لهالكون[1] ضَعْفاً، وخوراً، وعجزاً، ولا غناءَ عندنا، ولا نَفْعَ ولا ينبغي أن يعتدَّ بِنَا، ويُرْكَنَ إلينا. وفي «الكواشي»: مغبونون بترك حرمة الوالد، والأخ، وإنما اقتصروا على جواب خوفه على يوسف من أكل الذئب، ولم يجيبوا عن الاعتذار الأول الذي هو الحُزْنُ لأنه السبب القوي في المنع دونَ الحُزْنِ لِقِصَرِ مدَّته، بناء على أنهم يأتون به عن قَرِيب.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: لا ينبغي للرجل أن يلقن الخصم الحجةَ؛ لأنَّ إخوةَ يُوسُفَ كَانُوا لا يعلمونَ أنَّ الذِّئْبَ يأكل الناسَ، إلى أن قالَ ذلك يعقوب، ولقنهم العلة في كيد يوسف. وفي الحديث: «البلاء مُوكَّلٌ بالمنطق، ما قال عبد لشيءٍ والله لا أفعله، إلاَّ تَرَكَ للشيطان كل شيء فَولِعَ حتى يُوشِمَه». يُحْكَى أنَّ ابنَ السِّكِّيت من أئمة اللغة جَلَس مع المتوكل يوماً فجاء المعتزُّ والمؤيد ابنا المتوكل، فقال: أيهما أحبُّ إليك ابناي أم الحَسَنُ والحُسَيْنُ؟ قال: والله إنَّ قنبر خَادِمَ عليٍّ رضي الله عنه خَيرٌ منك، ومن ابنَيْك، فقال: سلوا

---

(١) روح البيان.

لِسَانه منْ قفاه، ففَعَلوا، فمات في تلك الليلة. ومِنَ العَجَبِ أنه أنشد قَبْلَ ذلك إلى المعتزِّ والمؤيد، وكان يعلِّمُهما فقال:

يُصَابُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ وَلَيْسَ يُصَابُ ٱلْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ ٱلرِّجْلِ
فَعَثْرَتُهُ فِيْ ٱلْقَوْلِ تَذْهَبُ عَثْرَتُهْ وَعَثْرَتُهُ فِيْ ٱلرِّجْلِ تَبْرَأُ عَلَىٰ مَهْلِ

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ﴾ مرتب على محذوف تقديره: ولما رَأى يعقوب إلحاحَ إخوة يوسف في خروجه معهم إلى الصحراء، ومبالغتهم في العهد، واليمين، ورَأى أيضاً ميل يوسف إلى التفرج، والتنزه معهم رضِيَ بالقضاء، فأرسله معهم. وهذا[1] المقدر معطوف على قوله سابقاً: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾ إلخ. قال الحسن: كان بين خروج يُوسُفَ من حجر أبيه إلى يوم التلاقي ثَمانُون سنة، لم تجفَّ فيها عَيْنا يعقوب، وما على الأرض أكْرَمُ على الله منه، اهـ خازن؛ أي: فلمَّا ذهبوا به من عند يعقوب ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ﴾؛ أي: عَزَمُوا، واتفقوا على أن يلقوه ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾؛ أي: في قَعْرِ البئر، وأسفلِه، وظلمته. وكان[2] على ثلاثة فراسخَ من منزل يعقوب بكنعان، التي هي من نواحي الأردن، حَفَره شداد حين عَمَر بلاد الأردن، وكَانَ أعلاه ضَيِّقاً، وأسفله وَاسِعاً. وجواب (لمَّا) محذوف تقديره: فعلوا به ما فعلوا من الإذاية. وقيل: جوابه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾. وقيل: يكون تقدير الجواب جَعَلُوه فيها. وقيل: الجوابُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ و ﴿الواو﴾ مقحمة ومثله قَوْلُه: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾؛ أي: ناديناه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: وأوحينا إلى يوسف في الجب إزالةً لوحشته عن قلبه، وتبشيراً له بما يؤول إليه أمره، وكَانَ ابنَ سبع سنين أو دونها. فاجتمع[3] مع كونه صغيراً على إنزال الضرر به، عشرة رجال من إخوته بقلوب غليظة، قد نُزِعَتْ عنها الرحمة، وسلِبَتْ منها الرأفة، فإنَّ الطبعَ البشريَّ ـ دَعْ عنْكَ الدِّينَ ـ يتجاوز عن ذنب الصغير، ويغتفره لضعفه عن الدفع، وعَجْزِه عن أيسر شيء يُرادُ

---

(١) الفتوحات.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

منه، فكَيْفَ بِصغيرٍ لا ذنبَ له، بل كيف بصغير هو أخٌ وله ولهم أب مثل يعقوب. فلقد أبعد مَن قال: إنهم كانوا أنبياءَ في ذلك الوقت فما هكذا عَملُ الأنبياءِ ولا فعل الصالحين.

وفي هذا[1] دليل على أنه يجوز أن يوحِي الله إلى مَنْ كانَ صغِيراً ويعطيه النبوةَ حينئذ كما وَقَع في عيسى، ويحيى بن زَكَرِيا.

وقد قيل: إنه كان في ذلك الوقت قد بَلَغَ مبالغ الرجال، وهو بعيد جداً، فإن من كان قد بَلَغَ مبالِغَ الرجال لا يُخَاف عليه أن يَأْكُلَه الذِّئْبُ.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لتخبرن يا يوسف إِخْوَتَك بصنيعهم هذا الذي فعلوه بك، بعد خُلُوصِكَ مما أرادوه بك من الكيد، وأنزلوه عليك من الضَّرَر. وجملة قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل النصب على الحال من ضمير الغائبين في ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾؛ أي: والحال أنهم لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف، لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجب، ولبعد عهدهم بِك، ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه أولاً، وخلاف ما عهدوه منك. وسيأتي ما قاله لهم عند دُخولِهم عليه بَعْدَ أنْ صَارَ إليه ملك مِصْرَ. والمقصود مِن هذا الإيحاء تقويةُ قَلْبِهِ بأنه سَيَحْصُل له الخَلاص عن هذه المحنة، ويَصِيرُونَ تَحْتَ قهره وقدرَتِهِ.

والمعنى[2]: أي فلما ذَهَبَ به إخوته من عند أبيه بعد مُرَاجعتهم له، وقد عَزَموا عَزْماً إجماعِياً، لا تردُّدَ فيه على إلقائه في غيابة الجب، نفَّذُوا ذلِكَ، وحينئذ أوحينا إليه، وحياً إلهاميّاً تطييباً لقلبه، وتثبيتاً لنفسه، لا تَحْزَنْ مِمَّا أنتَ فيه، فإنَّ لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويرفع درجَتك، وستخبرهم بما صنعوا وهم لا يشعرونَ بأنك يوسف. وقرأ[3] الجمهور: ﴿لتنبئنهم﴾ بتاء الخطاب. وابن عمر بياء الغيبة. وكذا في بعض مصاحفِ

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

البصرة. وقرأ سَلاَّم بالنون.

فصل في ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه السلام[1]

قال وهبٌ وغيرَهُ من أهل السيَرِ والأخبار: إنَّ إخْوَةَ يُوسُفَ قالوا له: أما تشتاقُ أن تخرج معنا إلى مواشينا، فنَصِيد، ونستبقَ؟ قال: بلى، قالوا له: أنسأل أبَاكَ أن يرسلكَ معنا؟ قال يوسف: افعلوا، فدخلوا بجماعتهم على يعقوب، فقالوا: يا أبانا إنَّ يُوسُفَ قد أحبَّ أن يخرج معنا إلى مَوَاشِينا، فقال يعقوب: ما تقول يا بنيَّ؟ قال: نعم يا أبت إني أرى من إخْوَتي اللِّين، واللُّطْفَ، فأحب أن تأذن لي، وكان يَعْقُوبُ يكره مُفَارَقتَهُ، ويحب مرضاتَهُ فأَذِنَ له، وأرْسَلَهُ معهم.

فلمّا خَرَجُوا من عند يَعْقُوب، جعلوا يَحْمِلُونَه على رقابهم، ويَعْقُوبُ ينظر إليهم، فلما بعدوا عنه، وصَارُوا إلى الصحراء أَلْقَوْهُ على الأرض، وأظهروا له ما في أنْفُسِهم من العداوة، وأَغْلَظوا له القَوْل، وجعلوا يضربونه. فجَعَل كلَّما جاء إلى واحد منهم، واستغاث به ضَرَبه. فلمَّا فَطِنَ لما عزموا عليه من قتله جعل يُنادِي يا أبتَاه يا يعقوبُ، لو رأيتَ يُوسُفَ، وما نزل من إخوته، لأحْزَنَكَ ذلك، وأبكاك يا أبتاه ما أسْرَعَ ما نسُوا عَهْدَك، وضيَّعوا وصيَّتَك، وجعل يبكي بُكاءً شديداً. فأَخَذَهُ روبيل وجَلَد به الأرضَ، ثم جَثَمَ على صدره، وأراد قَتْلَه فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تَقْتُلني. فقال له: يا ابنَ راحيل أنت صاحبُ الأحلام، قل لرؤياك تخلِّصُك من أيدينا، ولَوَى عنقه، فاستغاث يوسف بيهوذا، وقال له: اتق الله فِيَّ وحل بيني وبينَ مَنْ يريد قتلي. فأدركته رحمة الأخوة ورَقَّ له، فقال يهوذا: يا إخوتي ما على هذا عاهدتموني ألا أدلكم على ما هو أَهونُ لكم وأرفقُ به؟ فقالوا: وما هو؟ قال: تلقونه في هذا الجبِّ إمَّا أنْ يَمُوتَ أو يلتقِطه بَعْضُ السيارة، فانطلقوا به إلى بئر هناك على غير الطريق، واسع الأسفل ضيق الرأس، فجعلوا يدلونه في البئر فتعَلَّقَ بشفيرها، فرَبطُوا يديه، ونَزعوا قَمِيصَهُ. فقال: يا إخوتاه ردوا عليَّ قميصي لأستتر به في الجبِّ، فقالوا: أُدْعُ الشمسَ والقمرَ

---

(١) الخازن.

والكواكبَ تخلصكَ، وتؤنِسُك. فقال: إني لم أرَ شيئاً، فألقوه فيها، ثُمَّ قال: يا إخوتاه أتدعوني فيها فريداً وحيداً. وقيل: جعلوه في دلو ثمَّ أرسلوه فيها. فلمَّا بَلَغَ نصفَها ألقوه إرادةَ أن يموت، وكان في البئر ماءٌ فسَقَطَ فيه، ثم آوى إلى صخرة كانت في البئر، فقام عليها. وقيل: نزل عليه مَلَكٌ فحَلَّ يديه، وأَخْرَجَ له صخرةً من البئر فأجلسه عليها. وقيل: إنهم لما ألقوه في الجبِّ جَعَل يبكي فَنَادَوْهُ، فظن أنَّها رحمة أدركتهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمَنَعهم يهوذا من ذلك، وقيل: إنَّ يعقوبَ لما بعثه مع إخوته أَخْرَجَ له قميص إبراهيم، الذي كساه الله إياه من الجنة، حين أُلقِيَ في النار، فجعله يعقوب في قصبة فضةٍ، وجعَلَها في عنق يوسف، فألبسه الملك إياه حينَ ألقِي في الجُبِّ فأضاءَ له الجُبَّ. وقال الحَسنُ: لمَّا ألقِيَ يُوسَفُ في الجب عذبَ ماؤُه، فكان يكفيه عن الطعام والشراب، ودَخَلَ عليه جبريل فأَنِسَ بِهِ. فلمَّا أمسى نهض جبريلُ ليذهب، فقال له: إذا خَرَجْتَ استَوْحَشْتُ. فقال له: إذا رهبتَ شيئاً فقل: يا صريخ المستصرخِين، ويا غَوثَ المستغيثين، ويا مفرِّج كرب المكروبين، قد ترى مكاني، وتعلم حالي، ولا يخفى عليك شيءٌ من أمري. فلما قالها يوسف حفَّته الملائكة، واستأنس في الجُبِّ.

وقال محمد بن مسلم الطائِفيّ: لما ألقي يوسف في الجُب قال: يا شاهداً غَيْرَ غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالِباً غير مغلوب، اجعل لي فرجاً مما أنا فيه، فما بات فيه. وقيل: مكث في الجبِّ ثلاثَةَ أيَّامٍ، وكان إخْوَتُه يَرْعَوْنَ حَوْلَهُ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام. وقيل[1]: عَلَّم جبريلُ يوسفَ هذا الدعاء، أي في البئر: «اللهم يا كاشفَ كل كربة، ويا مجيبَ كل دعوة، ويا جابرَ كل كسير، ويا ميسرَ كل عسير، ويا صاحِبَ كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، يا من لا إلَه إلا أنت سبحانَكَ، أسألك أن تجعل لي فرجاً ومخرجاً، وأن تَقْذِفَ حُبَّكَ في قلبي حتى لا يكون لي هم ولا ذكر غيرك، وأن تَحْفَظني وترحمني يا أرحم الراحمين».

(١) روح البيان.

وقال بعضهم: سَبَبُ ابتلاء يعقوبَ بفراق يوسف ما روي في الخبر أنه ذَبَح جَدْياً بَيْنَ يدي أُمِّهِ فلم يَرْضَ اللَّهُ تعالى ذلك منه، وأَرَى دماً بدم، وفرقةً بفرقة، لعظمةِ احترام شأن النبوة، ومن ذلك المقام: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين.

وقال بعضهم[1]: لما وُلِدَ يوسُفُ اشترى يعقوب له ظئراً، وكان لها ابن رضيع، فباع ابْنَها تكثيراً لِلَّبَنِ على يوسف، فبكَتْ وتضرَّعَت، وقالت: يا رب إنَّ يعقوبَ فَرَّق بيني وبين ولدي، ففرق بينه وبين ولده يوسف، فاستجاب الله دعاءها فلم يَصِلْ يعقوب إلى يُوسُفَ إلا بعد أن لَقِيَتْ تلك الجارية ابنَها. هذا بالنسبة إلى حال يعقوب وابتلائه، وأمَّا بالنسبة إلى يوسف، فقد حكي أنه أَخَذ يوماً مرآةً فنظر إلى صورته، فأَعْجَبَه حسنه، وبهاؤه، فقال: لو كنتُ عَبْداً فباعوني لما وجد لي ثمن، فابتليَ بالعبودية، وبِيعَ بثمن بَخْسٍ، وكان ذلك سببَ فِرَاقِهِ من أبيه. وفيه إشارة إلى أنَّ الجَمَال والكمالَ كلَّه لله تعالى.

﴿و﴾ لَمّا طرحوا يوسف في الجب ﴿جاءوا أباهم عشاء﴾؛ أي: رَجَعُوا إلى أبيهم، وَقْتَ العشاء في ظُلمة الليل، لِيَكُونُوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب. فَلَمَّا بَلَغُوا مَنْزِلَ يَعْقُوب جَعَلُوا ﴿يَبْكُونَ﴾؛ أي: يَتَبَاكَوْن ويصرخون لأنهم لم يبكوا حقيقةً بل فعلوا فِعْلَ من يبكي ترويجاً لكذبهم، وتَنْفِيقاً لمكرهم، وغَدْرِهِم، فسمع أصواتَهم، ففَزِعَ من ذلك، وقال: ما لكم يا بنيَّ هل أصابكم في غَنمِكم شيء؟ قالوا: الأمرُ أعظمُ، قال: فما هو؟ وأينَ يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا﴾ حالةَ كونِنَا ﴿نَسْتَبِقُ﴾؛ أي يسابِقُ بَعْضُنَا بعضاً في الرمي، أو العَدْوِ. وقيل: ننتضل[2] ويؤيده قراءةُ ابن مسعود: ﴿ننتضل﴾. قال الزجاج: وهو نوعٌ من المسابقة. وقال الأزهري: النضالُ في السهام، والرِّهانُ في الخيل، والمسابقةُ تجمعهما. قال القشيري: ﴿نستبق﴾؛ أي: في الرمي أو على الفرس، أو على الأقدام. والغرض من المسابقة التدرب بذلك للحرب. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا﴾؛ أي: عند ثيابنا، وأزوادنا لِيَحْرُسَها ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ عَقِبَ ذلك من غير

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

مضي زمان يعتاد فيه التفقدُ والتعهدُ؛ لأنَّ الفاءَ للتعقيب، وقد اعتذروا إليه بما خَافَه سابقاً عليه، ورُبَّ كلمة تقول لصاحبها دَعْنِي ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾؛ أي: بِمُصَدِّقٍ لنا في هذا العذر الذي أبدينا، والمقالة التي قُلْنَاها ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ عندك أو في الواقع ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ أي موصوفين بالصدق، والثقة لِمَا قَدْ عَلِقَ بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له. قال الزجاج: والمعنى: ولو كنَّا عندك من أهل الصدق، والثقة ما صدَّقتنا في هذه القضية لشدة محبتك ليوسف، وكذا ذكره ابن جرير.

فائدة: والفرق[1] بين الصدق والتصديق: والكذب والتكذيب: أنَّ الصدق: هو الإخبارُ عن الشيء على ما هو به. والكذب: الإخبارُ عنه على خلاف ما هو به. والتصديق باللسان: الإخبارُ بكون القائل صادقاً، وبالقلب: الإذعان والقبولُ لذلك. والتكذيب بخلاف ذلك.

والمعنى[2]: أي جَاؤُوه وقت العشاء حين خَالَطَ سوادُ الليل بياضَ النهار، حالَ كونهم يبكون لِيُقْنِعُوه بما يريدون، قائلين له: إنا ذَهَبْنا من موضع اجتماعنا نَتَسَابَقُ، ونَترَامَى بالنِّبَال، وتركنا يُوسُفَ عند ثِيَابِنَا، وأزوادنا لِيَحْفَظَها، إذ لا يستطيع مجاراتِنَا في استباقنا الذي يرهقُ القويَّ، فأكَلَه الذِّئبُ إذ بَعُدْنَا عنه، ولم نسمع استغاثته، ولا صُراخَهُ ونحن نعلم أنك لا تُصدِّقُنَا، ولو كُنَّا عندك صادقين، فكيفَ وأنت تتهمنا في ذلك، ولك العذر في هذا لغرابة ما وقَعَ، وعجيب ما اتَّفَقَ لنا في ذلك الأمر. وقوله: ﴿عِشَآءٗ﴾ نصب على الظرف، أو من[3] العشوة، والعَشْوَةُ: الظلام، فجُمِعَ على فعال مثل رَاع ورُعاء، ويَكون انتصابه على الحال كقراءة الحسن: ﴿عُشى﴾ على وزن دجى جمع عاش حَذف منه الهاء، كما حذفت في مالك وأصلُه مالكة. وعن الحسن: (عشياً) بالتصغير لعشي أي آخر النهار.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

﴿وَجَآءُو﴾؛ أي: جاء إخوة يوسف ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾؛ أي: فَوقَ قميص يوسف، فهو منصوب على الظرفية، من قوله: ﴿بِدَمٍ﴾؛ أي: جَاؤوا بدم فوقَ قميصه، أو على الحالية منه، والخلافُ في تقدُّم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحال ظرفاً ﴿كَذِبٍۚ﴾ مصدر وصف به الدم مبالغةً كأنَّ مجيئَهم من الكذب نفسه، كما يقال للكذَّاب: هو الكذب بعينه، أو مصدرٌ بمعنى مفعول، أي مكذوب فيه؛ لأنه لم يَكُنْ دَمُ يوسف. وقرأ[1] الجمهور: ﴿كذِبٍ﴾ وَصْفاً للدم على سبيل المبالغة، كما قلنا آنِفا أو على حذف مضاف؛ أي: ذي كذب لمَّا كان دالاً على الكذب وصف به، وإن كان الكَذِبُ صَادِراً من غيره. وقرأ زَيْدُ بن علي: ﴿كَذِباً﴾ بالنصب على الحال، فاحتمل أن يَكُونَ مصدراً في موضع الحال، وأن يَكُونَ مَفْعُولاً لأَجْلِهِ. وقرأت عَائِشَةُ والحسن: ﴿كَدِبٍ﴾ بالدال المهملة، وفسرِّ بالكدر. وقيل: الطَّرِيّ. وقيل: اليابس.

روي[2] أنهم ذَبَحُوا سخلةً ولَطَخُوه بدمها، وزَالَ عنهم أن يمزِّقُوه فلَمَّا سمع يعقوبُ بخبر يوسف، صاح بأعلى صوته، فقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه، وبكى حتى خَضِبَ وَجْهَه بدم القميص، قال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أَكَل ابني، ولم يمزِّقْ عليه قَمِيصَهُ. وقوله: ﴿قَالَ﴾ مستأنف استئنافاً بيانياً كأنه قيل: ما قال يعقوب؟ هل صدَّقهم فيما قالوا: أو لا؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ يعقوب جواباً لهم لم يكن ذلك الذي أَخْبَرْتُمُوه لي صدقاً ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ وزينتْ وسَهَّلَتْ ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ قاله ابن عباس رضي الله عنهما. والتسويل[3]: تقدير شيء في الأنفس مع الطمع في إتمامه. قال الأزهري: كأن التسويلَ تفعيل من سؤال الأشياء، وهي الأمنية التي يطلبها فيزيِّن لطالبها الباطلُ وغَيْرُه. ﴿أَمْرًاۖ﴾ من الأمور مُنْكراً لا يُوصَفُ ولا يُعْرَفُ فصنعتموه بيوسف، استدلَّ يَعْقُوبَ على أنهم فَعلُوا بيوسف ما أرادوا، وأنهم كاذبون، بشيئين: بما عرف منْ حسدهم الشديد، وبسلامة القميص، حيث لم يَكُن فيه خرق ولا أثر نَاب؛ فقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ ردٌّ

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

لقولهم: ﴿أكله الذئبُ﴾، وبل للإعراض عمَّا قبله، وإثبات ما بعده على سبيل التدارك، نحو: جاء زيد بل عَمْرُو كما في «بحر العلوم»؛ أي: قال[1] يعقوب ليس الأمر كما تقولون: بل زيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً غَيْرَ ما تَصِفُون. قيل: لَمَّا جاءوا على قميصه بدمٍ جَدْي ذهلوا عن خَرْقِ القميص. فلَمَّا رأى يعقوبُ القميصَ صحيحاً قال: كذبتم لو أكَله الذئبُ لَخَرق قَميصَه. وقالَ بعضُهم: بل قَتَلَهُ اللُّصُّ. فقال: كيفَ قَتَلُوه وتَرَكُوا قَمِيصَه؟ وهم إلى قميصه أحْوَجُ منه إلى قَتْلِه. وقيل: إنهم[2] أتوه بذئب، وقالوا: هذا أكَلَه، فقال يعقوب: أيها الذِّئْبُ أنْتَ أكلت ولدي، وثمرة فؤادي، فأنطقه الله عز وجل وقال: والله ما أكلْتُ ولدَكَ ولا رأيته قطُّ، ولا يَحِلُّ لنا أن نأكل لُحومَ الأنبياء. فقال يعقوب: فكيف وَقَعْتَ في أرض كنعان، قال: جئت لصلةِ الرحم قرابة لي فأخذوني، وأتوا بي إليك فأطْلَقَه يعقوب.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: فصبري صبر جميل، أو فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أولى من الجزع، والصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه إلى أحد إلا إلى الخالق سبحانه وتعالى، وإلا فقد فقال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

واعلم[3]: أنَّ الصَّبْرَ إذا لم يكن فيه شكوى إلى الخلق، يَكُونُ جميلاً، وإذا كَان فيه مع ذلك شكوى إلى الخالق يكون أجمل لِمَا فيه من رعاية حق العبودية ظاهراً، حيث أمسك عن الشكوى إلى الخلق، وباطناً حيث قصَّرَ الشكوى على الخالق، والتفويض جميل، والشكوى إليه أجملُ. وأما[4] الهجرُ الجميلُ فهو الذي لا إيذاء معه. وأما الصَّفْحُ الجميل فهو الذي لا عِتَابَ بعده، وقد تحقق بجميعها كل من يوسف ويعقوب.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى هو ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾؛ أي: المطلوب منه العونُ، وهو

---

(١) المراح.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.
(٤) الصاوي.

إنشاء الاستعانة المستمرة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على تحمل المكاره التي تذكرونها في أمر يوسف، أو على إظهار حال ما تصفون من شأن يوسف، وبيان كونه كذباً، وإظهار سلامته كأنه عَلِمَ منه الكذب، وكأن[1] الله تعالى قد قَضَى على يعقوبَ أن يُوصِلَ إليه تلك الغموم الشديدةَ، والهمومَ العظيمة، لِيَكْثُرَ رُجُوعُه إلى الله تعالى، وينقطِعَ تعلق فكره عن الدنيا فيصلَ إلى درجةٍ عاليةٍ في العبودية، لا يمكن الوصول إليها إلاَّ بتحمل المِحَنِ الشديدة، والله أعلم. وقرأ[2] أبي والأشهب، وعيسى بن عمر: ﴿فصبراً جميلاً﴾ بنصبهما، وكذا هي في مصحف أُبي، ومصحف أنس بن مالك. وروي كذلك عن الكسائي، ونَصبه على المصدر الخبريِّ، أي فاصبر صبراً جميلاً. قيل: وهي قراءة ضعيفة عند سيبويه، ولا يصلح النصبُ في مثل هذا إلا مع الأمر، وكذلك يَحْسُن النَّصْبُ في قوله:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِيْ طُوْلَ ٱلسُّرَىٰ   صَبْراً جَمِيْلاً فَكِلاَنَا مُبْتَلَىٰ

ويروى صبر جميل في البيت، وإنما تصح قراءة النصب على أن يقدَّر أن يعقوبَ رَجع إلى مخاطبةِ نَفْسِهِ، فكأنه قال: فاصبري يا نفسي صبراً جميلاً.

ومعنى الآية: أي إنهم جَاؤوا بقميصه مُلَطَّخاً ظاهره بدم غير دم يوسف، وهم يدعون أنه دمه ليشهد بصدقهم، فكانَ دليلاً على كذبهم، ومن ثم قال: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ليستبين للقارىء والسامع أنه موضوع وضعاً متكلفاً إذ لو كان من افتراس الذئب لتمزق القميصُ، وتغلغل الدم في كل قطعة منه، ومن أجل هذا كلِّه لم يصدِّقْهم، وقال: هيهاتَ ليس الأمرُ كما تدَّعون بل سَهَّلَتْ لكم أنفسكم الأَمَّارةُ بالسوءِ أمراً نكراً، وزينته في قلوبكم فطَوَّعته لكم حتى اقترفتموه، وسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، وإنّي أستعين به على أن يَكْفِيَنِي شَرَّ ما تصفون من الكذب.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾؛ أي: رفقة مسافرون تسير من جهة الشام، يريدون مِصْرَ فأخطؤوا الطريقَ، فانطلقوا يَهِيمُون في الأرض حتى وقعوا في الأراضي التي فيها

(١) المراح.   (٢) البحر المحيط.

الجب، وهي أرض دوثن بَيْنَ مدين ومصر، فنزَلُوا عليه ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾؛ أي: بعثوا سَاقِيَهم ليطلب لهم الماء، وهو مَنْ يُهيِّىء الأرشية، والدِّلاءَ، فيتقدم الرفقة إلى الماء، يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ابن أخي شعيب عليه السلام، وهو رجلٌ من العرب العاربة من أهل مدين، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾؛ أي: فأرْخى، وأنزل دلوه في جب يوسف ليأخذ الماء فتعلق يوسف به، فلم يقدر الساقي على نزعه وإخراجه من البئر فنَظَرَ فيه فرأى غُلاماً قد تعلق بالدلو، فنادى أصْحَابَهُ فـ ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾؛ أي: يا أصحابي. وقال الأعشى: إنه دعا امرأةً اسمها بشرى. وقال السديُّ: إنه نادى صاحبَهُ، واسمه بشرى كما قرأه. وعاصم والكسائي بغير ياء المتكلم بعد الألف المقصورة. وقال أبو علي الفارسي: والوجه أن يجعل البشرى اسماً للبشارة، فنادى ذلك بشارةً لنفسه، كأنه يقول: يا أيتها البشرى هذا الوقت، وقتك، ولو كنت مِمَّنْ يخاطب لخوطبت الآنَ، ولأُمِرْتِ بالحضور، ويدلُّ على هذا قراءة الباقين، ﴿يا بشرايَ﴾ بفتح ياء المتكلم بعد الألف على الإضافة. قالوا: ما ذلك يا مالك؟ قال: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌۚ﴾ أحسن ما يكون من الغلمان، فكَانَ يوسُفُ حَسَنَ الوجه، جَعْدَ الشَّعْرِ، ضخم العَيْنَين، مُسْتَوي الخلق، أبيض اللون، غَليظ الساعدين، والعضدين، والساقين، خَميص البطن، صغير السرة، وكان إذا تبسَّم ظهر النور من ضواحكه، وإذا تكلم ظهر من ثناياه شعاع النور، ولا يستطيع أحد وَصْفَه. وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يُشْبِهُ آدم عليه السلام يَوْم خَلَقه الله تعالى قبل أن يصيب الخطيئةَ، اهـ خازن.

فاجتمعوا عليه فأخرجوه من الجب بعد مكثه فيها ثَلاثَةَ أيام ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾؛ أي: أَسَرُّوا يُوسُفَ وأخفوه حَالةَ كونه ﴿بِضَٰعَةًۚ﴾؛ أي: مَتَاعاً للتجارة؛ أي: كَتَم الواردُ وأصحابه شأنَ يوسف من بقية القوم الذين معهم، وقالوا: إنه بضاعة استبضعناه، وحملناه لبعض أهل المال إلى مصر، وإنما قالوا ذلك خِيفَة أن يطلبوا منهم الشركة فيه، وذلك لأن الواردَ وأصحابَه قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه من الجُبِّ شاركونا فيه قَهْراً. وإن قلنا: اشتريناه سألونا الشركة فالأصوبُ أن نقول: إن أهل الماء جعلوه بِضَاعَةً عندنا على أن نبيعه لهم بمصر. وقيل: إن إخْوَةَ يُوسُفَ أَسَرّوا شأن يوسُفَ، يعني أنهم أخفوا أمر يوسف، وكونه أخاً لهم بل

قالوا: هو عبدٌ لنا أبَقَ. وصدقهم يوسف على ذلك؛ لأنهم توعدوه بالقتل سرّاً من مالك بن ذعر، وأصحابِه. والقول الأول أصحُّ لأن مالك بن ذعر هو الذي أسره بضاعةً وأصحابه. والبضاعةُ: ما بُضِعَ من المال للتجارة، أي: قُطِعَ.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بما يعمل إخْوَة يُوسُفَ بأبيهم وأخيهم من سوء الصنع، ولَمْ يَخْفَ عليه أسرارهم يعني من إرادة إهلاك يوسف، فجعل ذلك سبباً لنجاته، وتحقيقاً لرؤياه حتى يصيرَ ملك مصر بعد أَنْ كان عبداً.

قال أصحاب الأخبار[1]: إنَّ يهوذا كان يأتي يوسُفَ بالطعام، فأتاه فلم يَجِدْه في الجبِّ فأخبر إخْوته بذلك، فطلبوه، فإذا هم بمالك بن ذعْرٍ وأصحابه نزولاً قريباً من البئر، فأتوهم، فإذا يوسف عندهم. فقالوا لهم: هذا عبدنا أبق منا، ويقال: إنهم هددوا يوسفَ حتى يكتم حالَه، ولا يعرفها أحد، وقال لهم مثل قولهم. ثم إنهم باعوه منهم كما قال: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ﴾.

وفي هذه الجملة[2] وعيد شديدٌ لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن، وما صار فيه من الابتذال بجري البيع والشراء فيه، وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسُفَ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام.

والمعنى[3]: أي وجاءت ذلك المكان قافلة تسير من مَدْيَنَ إلى مِصْرَ فأرسلوا وَارِدَهُمْ الذي يجلب لهم الماء للاستسقاء، فأرسل دَلْوه ودلاه في ذلك الجب فتعلق به يوسف. ولما خَرَجَ وراه قال مُبشِّراً جماعته السيارة: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ أي: آن وقت البشرى فاحضري، كما يقال: يَا أسفاً، ويا حسرتا، إذا وقع ما هو سبب لذلك، فاستبشرتْ به السيارة، وأخفوه من الناس لئلا يَدَّعِيهِ أحدٌ من أهل ذلك المكان لأن يَكُونَ بضاعة لهم من جملة تجارتهم، والله عليم بما

(١) الخازن.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

يعمله هؤلاء السيارة، وما يعمله إخوةُ يوسُفَ فلكل منهم مقصد خاص في يوسف، فالسيارة يدَّعون بالباطل، أنه عبد لهم فيتجرون فيه، وإخوةُ يوسف يريدون إخفاءه عن أبيه، ويدَّعُونَ أنَّ الذِّئبَ قد أكله، وذلك كيد بالباطل لِيُمْضِي فيه وفيهم حُكْمَهُ السابقَ في علمه، وليرى إخوةُ يوسُفَ ويُوسُفُ وأبوه قُدْرَتَه تعالى على تنفيذ ما أراد.

وفي هذا تذكير من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وتسلية له على ما كان يلقى من قومه، وأقْرِبَائِه وأنسبائه المشركين من الأذى، فكأنه يقول له: اصبر على ما نالك في الله تعالى، فإني قادر على تغيير ذلك كما قدرت على تغيير ما لقِيَ يوسف من إخوته، وسيصير أمْرَكَ إلى العلو عليهم، كما صار أمر يوسف مع إخوته إذ صار سيدهم. ﴿وَشَرَوْهُ﴾؛ أي: باعوه في مصر؛ أي: باع يوسف مالك بن ذعر وأصحابه في مصر بعد أن وَصلُوا إليها وهو من الأضداد. والضمير للوارد وأصحابه، أو الضمير لإخوة يوسف؛ أي: باع إخوة يُوسُفَ يُوسُفَ للوارد وأصحابه، ويحتمل أن يكونَ الشِّراء على معناه؛ أي: واشترى الوارد وأصحابه يُوسُفَ من إخوته إذ جعلوه عُرْضَةً للابتذال بالبيع والشراء؛ لأنهم لم يَعْرِفُوا حَالَهُ إما لأنَّ الله تعالى أغفلهم عن السؤال، ليقضي أمْراً كان مفعولاً، أو لأنهم سألوا عن حاله، ولم يفهموا لُغَته لكونها عِبْريةً، أي باعوه في مصر. ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾؛ أي[1]: مبخوس ناقص في نفسه لكونه زَيْفاً، وفي قدره لكونه قَلِيلاً فبخس هنا بمعنى مبخوس، لأنَّ الثَمَن لا يوسف بالمعنى المصدري، الذي هو النقص، ووصف بكونه مبخوساً، إما لردائته وغشه، أو لنقصان وزنه، من بخسه حقه؛ أي: نقصه. وقال بعضهم: بثمن بخس؛ أي: حرام منقوص، لأن ثمن الحر حرام، انتهى. حمل البخس على المعنى لكون الحرام ممحوقَ البركات، والقولُ الأول هو الأصح. وقوله: ﴿دَرَاهِمَ﴾ بدل من ثمن أي لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾؛ أي: قليلة غير موزونة، فهو بيان لقلته، ونقصانه مقداراً بعد بيان نقصانه في نفسه، بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾؛ أي: زيف، لأنهم كانوا يَزِنُونَ الأوقية، وهي أربعون درهماً

(١) روح البيان.

ويعدون ما دونها. فعن ابن عباس: أنها كانت عشرين درهماً. وعن السدي: اثنين وعشرين درهماً. وقال عكرمة: كانت أربعين درهماً.

﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: البائعون ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في يُوسُفَ ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾؛ أي: مِمَّنْ يرغب ويعرض عما في يده، فيبيعه بما طفَّ ونَقُصَ من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، لا يبالي بما باعه، ولأنه يخاف أن يَظْهَرَ له مستحق فينزعه من يده، فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثَمن وأرخصه. وأصل[1] الزهد: قِلَّةُ الرغبةِ، يقال: زَهِدَ فلان في كذا، إذا لم يكن له فيه رغبةٌ. والضمير في قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إن قلنا: إنه يرجع إلى إخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه أنهم حسدوه، وأرادوا إبعاده عنهم، ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن، وإن قلنا: إن قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ يرجع إلى معنى واحد، وهو: أن الذين شَرَوْه كانوا فيه من الزاهدين، كان وجه زهدهم فيه: إظهار قلة الرغبة فيه، ليشتروه بثمن بخس قليل. ويحتمل أن يقالَ: إنَّ إخْوَتَهُ لما قالوا: إنه عبدنا، وقد أبق، أظْهَرَ المشترِي قِلَّةَ الرغبة فيه لهذا السبب.

قال أصحاب الأخبار[2]: ثمَّ إن مالك بن ذعر وأصحابَه لما اشتروا يُوسُفَ انطلقوا به إلى مصر، وتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه، لا يأبق منكم، فذهبوا به حتى قدموا مصر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما دخلوا مصرَ لقِيَ قِطْفِيرٌ - صاحب أمر الملك -، وكان على خزائن مِصرَ مالِكَ بن ذعر فاشترى يوسُفَ منه بعشرين ديناراً، وزوج نعل، وثوبين أبيضين.

وقال وهب بن منبه: قَدِمَتِ السيارة بيوسف مِصْرَ، ودخلوا به السوقَ يُعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً، ووزنه فضة، ووزنه مِسْكاً وحَرِيراً. وكان وزنه أربع مئة رطل. وكان عمره يومئذ ثلاث عَشَرَةَ سنةً، أو سبع عشرة سنة. فابتاعه قطفير - وكان يسمَّى العزيز - بهذا الثمن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ﴾.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

والمعنى[1]: أي وباعه السيارة في مصر بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله من الدراهم القليلة التي تعد عداً، ولا توزن وزناً، وكانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية أربعين درهماً، فَما فَوقَها، ويعدون ما دونها، ومن ثم يعبرون عن القليل بالمعدود. وفي سِفرِ التكوين من التوراة: إنَّ إخْوَتَه قرروا بيعه للإسماعيليِّين؛ أي: للعرب، وقد أخرجه من الجب جماعة من أهل مدين، وباعوه لهم. وكانَ الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبغونَ الخلاصَ منه، لئلا يَظْهَرَ مَنْ يطالبهم به، لأنه حُرٌّ، والثَّمَنُ لم يكن مَقْصُوداً حِينَ بيعه، ومِنْ ثَمَّ قَنِعوا بالبخس منه.

الإعراب

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿الٓر﴾ تقدم البحث في إعرابه ومعناه. ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر ومضاف إليه. ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿قُرْءَٰنًا﴾ حال موطئة من ضمير المفعول في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، ولكن بعد تأويله بمشتق، أي حَالَةَ كونه مقروءاً؛ أي: مجموعاً. ﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة ﴿قُرْءَٰنًا﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إن) والجملة مستأنفة. ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ. ﴿نَقُصُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق به. ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ مفعول مطلق، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿بِمَآ﴾ (الباء) حرف جر وسبب. (ما) مصدرية. ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به. ﴿هَٰذَا﴾ في محل النصب مفعول ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية (ما)

(١) المراغي.

مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بإيحائنا إليك هذا القرآن، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نَقُصُّ﴾. ﴿وَإِن كُنتَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. (إن) مخففة، واسمها ضمير الشأن محذوفاً؛ أي: وإنه. (كنتَ) فعل ناقص واسمه. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ متعلق بـ (كنت). ﴿لَمِنَ﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿مِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ جار ومجرور خبر (كان) وجملة (كان) في محل الرفع خبر (إن) المخففة، وجملة (إن) المخففة في محل النصب حال من (كاف) ﴿عَلَيْكَ﴾..

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بـ﴿نَقُصُّ﴾ أو باذكر محذوفاً. ﴿قَالَ يُوسُفُ﴾ فعل وفاعل. ﴿لِأَبِيهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ (إذ). ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ (يا) حرف نداء. ﴿أبت﴾ منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، المعوضة عنها تاء التأنيث للتفخيم، مَنَعَ من ظهورها اشتغال المحل بالفتحة المجلوبة لمناسبة التاء؛ لأن التاء لا يكون ما قبلها إلاَّ مفتوحاً ﴿أب﴾ مضاف وياء المتكلم المعوضة عنها تاء التأنيث في محل الجر مضاف إليه، مبنية على السكون لشبهها بالحرفْ شبهاً وضعياً وتاء التأنيث حرف لا محل لها من الإعراب مبنية على الفتح، وإنما حركت لِكَونها على حرف واحد، وكانت الحركة فتحةً تحريكاً لها بحركة أصلها الذي هو الياء في بعض لغاتها، وجملة النداء في محل النصب مقول قال، اهـ «هدية أولي الإنصاف في إعراب المنادى المضاف».

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿رَأَيْتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول قال على كونها جوابَ النداء. ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾ عدد مركب في محل النصب على المفعولية الأولى، مبني على فتح الجزأين بنيَ الجزء الأول لشبهه بالحرف، شبهاً افتقارياً لافتقاره إلى الجزء الثاني، في دلالته على المعنى المراد، وبني الجزء الثاني لشبهه بالحرف، شبهاً

معنوياً لتضمنه معنى حرف العطف، وإنما حركا ليعلم أن لهما أصْلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحةً للخفة مع ثقل التركيب، ﴿كَوْكَبًا﴾ تمييز لـ ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾ منصوب به. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ معطوفان على ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾. ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مؤكدة للجملة الأولى توكيداً لفظياً. ﴿لِي﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿سَاجِدِينَ﴾. ﴿سَاجِدِينَ﴾ مفعول ثان لـ ﴿رَأَيْتُ﴾.

وفي «الفتوحات»، قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنَّها جملة كررت للتوكيد، لما طال الفصل بالمفاعيل، كررت كما كررت أنكم في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ كذا قاله الشيخ.

والثاني: أنه ليس بتأكيد، وإليه نحا الزمخشري فإنه قال: فإن قلت: ما معنى تكرار ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾.

قلت: ليس بتكرار، إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال، وقَعَ جواباً له، كأنَّ يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ كيف رأيتَها سائلاً عن حال رؤيتها فقال: رأيتهم لي ساجدين؟.

قلت: وهذا أظهر لأنه متى دار الكلام بين الحَمْل على التأكيد، أو التأسيس، فَحَمْلُه على الثاني أولى، اهـ «سمين».

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿يَا بُنَيَّ﴾ إلى قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بالفتح منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحةٌ مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف، بعد قلب الكسرة فتحةً لمناسبة الألف المحذوفة، تلك الألف للتخفيف، ﴿بني﴾ مضاف، وياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف في محل الجر مضاف إليه. وبالكسر منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، وجملة النداء في محل النصب مقول

﴿قَالَ﴾. ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿لا تقصص﴾ ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ (الفاء) عاطفة سببية. ﴿يكيدوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي. ﴿لَكَ﴾ متعلق به، أو حال من ﴿كَيْدًا﴾. ﴿كَيْدًا﴾ منصوب على المصدرية، أو مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلَها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن قصك رؤياك إياهم فكيدهم إياك. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿عَدُوٌّ﴾. ﴿عَدُوٌّ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة عدو، وجملة إن في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿كذلك﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف. ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ فعل ومفعول وفاعل والتقدير: ويجتبيك ربك للنبوة والرسالة اجتباءً مثل اجتبائه إياك بهذه الرؤية، والجملة معطوفة على جملة النداء السابق على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه في محل المفعول الثاني، والجملة الفعلية مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يعلمك﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ ﴿يتم﴾ أو بـ ﴿نِعْمَتَهُۥ﴾. ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ جار ومجرور معطوف على عليك، وكرَّر (على) ليمكن العطف على الضمير المجرور كما هو مذهب البصريين. ﴿كَمَآ﴾ (الكاف) حرف جر. (ما) مصدرية. ﴿أَتَمَّهَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلق به أيضاً. ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ يجوز أن يكونا بدلاً من أبويك، أو عطفَ بيان، أو على إضمار أعني، والجملة الفعلية صلة (ما) المصدرية (ما) مع صلتها في تأويل مصدر مجرور (بالكاف) تقديره:

كإتمامها على أبويك من قبل الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: ويتم نعمته عليك إتماماً مثلَ إتمامه إيَّاها على أبويك من قبلُ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره. ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان له، وجملة إن مستأنفةٌ مسوقةٌ لتعليل ما قبلها على كونها مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿لَّقَدْ﴾ (اللام) موطئة لقسم محذوف. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿فِي يُوسُفَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ (كان) على اسمها. ﴿وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ معطوف على ﴿يُوسُفَ﴾. ﴿ءَايَٰتٌ﴾ اسم (كان) مؤخر. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مستأنفة.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره اذكر ﴿إِذْ قَالُواْ﴾. ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَيُوسُفُ﴾ (اللام) موطئة للقسم، أو حرف ابتداءٍ على الخلاف المار فيه. ﴿يوسف﴾ مبتدأ. ﴿وَأَخُوهُ﴾ معطوف عليه. ﴿أَحَبُّ﴾ خبر المبتدأ. ﴿إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ يتعلقان به، ولم تحصل المطابقة بين المبتدأ، والخبر؛ لأن الخبر هنا اسم تفضيل مجرد، وهو يلزم التذكير والتوحيد. قال ابن مالك:

وَإِنْ لِمَنْكُورٍ يُضَفْ أَوْ جُرِّدَا ... أُلْزِمَ تَذْكِيراً وَأَنْ يُوَحَّدَا

و ﴿أَحَبُّ﴾ مصوغ من حب المبني للمفعول، وهو سماعي، ولو جاء على القياس ليوصل إليه بأشدَّ ونحوه. قال ابن مالك:

وَأَشْدِدَ أَوْ أَشَدَّ أَوْ شِبْهَهُمَا ... يَخْلُفُ مَا بَعْضَ ٱلشُّرُوطِ عَدِمَا

والجملة الاسمية جواب القسم، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَنَحْنُ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال. ﴿نحن عصبة﴾ مبتدأ وخبر، والجملة

في محل النصب حال من ضمير المتكلمين في ﴿مِنَّا﴾. ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿لَفِى﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة إنَّ مستأنفة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿أَوِ﴾ حرف عطف، وتمييز. ﴿ٱطْرَحُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱقْتُلُواْ﴾. ﴿أَرْضًا﴾ منصوب على الظرفية أو بنزع الخافض. ﴿يَخْلُ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذفُ حرف العلة. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به. ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فاعل، ومضاف إليه. ﴿وَتَكُونُواْ﴾ فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿يَخْلُ﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ متعلق به. ﴿قَوْمًا﴾ خبر ﴿تكونوا﴾. ﴿صَٰلِحِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة قائل، والجملة مستأنفة. ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ إلى قوله ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به مجزوم بـ (لا) الناهية، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَأَلْقُوهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على جملة ﴿لَا تَقْتُلُواْ﴾. ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به. ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ فعل ومفعول، وفاعل مجزوم بالطلب السابق. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم فاعلين فافعلوا هذا القدر؛ أي: إلقاءه في البئر، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ منادى مضاف منصوب بالألف، وجملة النداء في محل النصب، مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿تَأۡمَنَّا﴾ فعل مضارع مرفوع بضمة ظاهرة على النون المدغمة في نون (نا). (نا) ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿يعقوب﴾. ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من كاف المخاطب، والعامل فيه الاستقرار الذي تعلق به الخبر. ﴿وَإِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ﴿ناصحون﴾. ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾ (اللام) حرف ابتداء. (ناصحون) خبر (إن) وجملة (إن) في محل النصب على الحال من مفعول ﴿تَأۡمَنَّا﴾.

﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

﴿أَرۡسِلۡهُ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿مَعَنَا﴾ حال من مفعول ﴿أَرۡسِلۡهُ﴾. ﴿غَدٗا﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿أرسل﴾. ﴿يَرۡتَعۡ﴾ مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿وَيَلۡعَبۡ﴾ معطوف عليه. ﴿وَإِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بما بعده. ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ خبر (إن) و (اللام) حرف ابتداء، وجملة إنّ في محل النصب حال من(هاء) ﴿أَرۡسِلۡهُ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ﴾ إلى قوله ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿لَيَحۡزُنُنِيٓ﴾ فعل مضارع ومفعول، و (نون) وقاية و (اللام) حرف ابتداء. ﴿أَن تَذۡهَبُواْ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ (أن) المصدرية. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، وجملة ﴿تذهبوا﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، ليحزن تقديره: ليحزنني ذهابكم

به، وجملة ﴿يحزن﴾ في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقولُ ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَخَافُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ياء المتكلم في ﴿يحزنني﴾. ﴿أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فعل ومفعول وفاعل منصوب بأن المصدرية، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، لـ﴿أخاف﴾؛ أي: والحال أني أخاف أكل الذئب إياه. ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ. ﴿عَنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿غَٰفِلُونَ﴾. ﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من (هاء) ﴿يأكله﴾ ولكنها حال سببية.

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَئِنْ﴾ (اللام) موطئة للقسم. (إن) حرف شرط. ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فعل ومفعول، وفاعل في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من (هاء) ﴿أَكَلَهُ﴾. ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه. ﴿إِذًا﴾ حرف جواب وجزاء، ولكن لا عمل لها لدخولها على الجملة الاسمية. ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ خبر (إنَّ) و (اللام) حرف ابتداء، وجملة إن جوابَ القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب إن الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: إن أكله الذئب، فإنا إذاً لخاسرون، وجملة الشرط معترضةٌ بين القسم، وجوابه، وجملةُ القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة على محذوف تقديره: فأرسَلَه معهم، فلما ذهبوا به، وذلك المقدر معطوف على قوله سابقاً. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ كما في «الجمل». ﴿لمّا﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿ذَهَبُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة فعل شرط لـ (لما). ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ذَهَبُوا۟﴾. ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ ناصب وفعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ جار ومجرور في محل

المفعول الثاني، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، لـ ﴿أَجْمَعُوٓاْ﴾ تقديره: وأجمعوا جعلهم إياه في غيابة الجب، وجواب (لما) محذوف تقديره: فعلوا به، ما فعلوا من الأذى، وجملة (لما) معطوفة على تلك الجملة المحذوفة. ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ فعل وفاعل معطوف على جواب (لمَّا) المحذوف. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به. ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ (اللام) موطئة للقسم. ﴿تنبئنهم﴾ فعل ومفعول. ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق به، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿هَٰذَا﴾ بدل من ﴿أمرهم﴾ أو صفة له، والجملة الفعلية جوابُ القسم لا محل لها من الإعراب، وجملةُ القسم في محل النصب مفعول ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿عِشَآءً﴾ منصوب على الظرفية متعلق به. ﴿يَبْكُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿جاءوا﴾. ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿إِنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿ذَهَبْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل رفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقول قال على كونها جوابَ النداءِ. ﴿نَسْتَبِقُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على إخوة يوسف، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿ذَهَبْنَا﴾. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿ذَهَبْنَا﴾. ﴿عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ ظرف، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تركنا﴾. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على ﴿تركنا﴾. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (ما) حجازية أو تميمية. ﴿أَنتَ﴾ في محل الرفع اسمها أو مبتدأ. ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ خبر (ما) الحجازية، أو خبر المبتدأ و (الباء) زائدة. ﴿لَّنَا﴾ متعلق بـ﴿مؤمن﴾، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فَأَكَلَهُ﴾ على كونها مقول القول. ﴿وَلَوْ كُنَّا

صَٰدِقِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة على محذوف تقديره: إن كنا غير صادقينَ فما أنت بمؤمن لنا. (لو) حرف شرط. ﴿كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة فعل شرط لـ(لو) لا محل لها من الإعراب، وجواب (لو) محذوف تقديره: ولو كنا صادقين، لاتهمتنا في هذه القصة، وجملة لو الشرطية معطوفة على الجملة المحذوفة، والجملة المحذوفة في محل النصب حال من ضمير (لنا) تقديره: وما أنت بمؤمن لنا حَالَةَ كَوْنِنا صَادِقِينَ وغَيْرَ صادقين.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَآءُو﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ظرف بمعنى فوق في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿دم﴾. ﴿بِدَمٍ﴾ متعلق بـ﴿جاؤوا﴾. ﴿كَذِبٍۚ﴾ صفة ﴿دم﴾ ولكنه في تأويل مشتق تقديره: مكذوب، والتقدير: ﴿وجاؤوا﴾ بدم حَالَة كونه فوق قميصه، وجملة ﴿جاؤوا﴾ مستأنفة. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على يعقوب، والجملة مستأنفة. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿بَلْ﴾ حرف ابتداء وإضراب إبطالي. ﴿سَوَّلَتْ﴾ فعل ماض، وتاء تأنيث. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به. ﴿أَنفُسُكُمْ﴾ فاعل. ﴿أَمْرًاۖ﴾ مفعول به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَصَبْرٌ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع. ﴿صبر﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فصبري صبر جميل. ﴿جَمِيلٌۖ﴾ صفة ﴿صبر﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿سَوَّلَتْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾. ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾. ﴿تَصِفُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره على ما تصفونه.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، و(الفاء) عاطفة، والجملة معطوفة على جملة ﴿جاءت﴾.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الوارد، والجملة معطوفة على جملة ﴿أرسلوا﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الوارد، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: يا بشرى بالقصر منادى نكرة مقصودة. وفي قراءة: ﴿يا بشراي﴾ بالياء منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿بِضَٰعَةً﴾ معمولٌ لمحذوف، هو حال من (واو) (أسروه) تقديره: (وأسروه) حالَةَ كونهم جَاعِلِيه بضاعةً، أي شيئاً مُتموَّلاً. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿عَلِيمٌۢ﴾. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره بما يعملونه.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة أو معطوفة على (أسروه). ﴿بِثَمَنٍۭ﴾ متعلق به. ﴿بَخْسٍ﴾ صفة لـ (ثمن) على تأويله بمشتق تقديره: مبخوس، أي: منقوص. ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من (ثمن). ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ صفة لـ ﴿دَرَٰهِمَ﴾. ﴿وَكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾. ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ جار ومجرور خبر (كان)، وجملة (كان) معطوفة على جملة ﴿شروه﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ اسم فاعل من أبان المتعدي، وسيأتي في قوله: ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أنه من اللازم، فهو من أبَانَ بمعنى أظهَرَ أي: المُظْهِرُ للحق من الباطل، والحلال من الحرام. ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ والعربي منسوب للعرب، لأنه نزل بلغتهم، وواحدُ العرب عربي كما أن واحد الروم رومي، اهـ «سمين».

واختلف العلماء هل يمكن أن يقالَ في القرآن شيء غير عربي. قال أبو عبيدة: ومن قال فيه شيء غير عربي، فقد أعظم على الله القول، واحتجَّ بهذه الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾. وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: أنَّ فيه من غير العربي مثل: ﴿سِجِّيلٍ﴾ و﴿المشكاة﴾ و﴿اليم﴾ و﴿استبرق﴾ ونحو ذلك، وهذا هو الصحيح المختار؛ لأن هؤلاء أعلمُ من أبي عبيدة بلسان العرب، وكلا القولين صواب إن شاء الله تعالى. ووجه الجمع بينهما أنَّ هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب، ودارَتْ على ألسنتهم صارت عربيةً فصيحةً، وإن كانت غير عربيةٍ في الأصل، لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم، وصارت لهم لغةً فظَهَر بهذا البيان صحة القولين، وأمكن الجمع بينهما، اهـ «خازن».

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قص من باب: ردَّ والمصدر قَصَصاً بالفك، وقصاً بالإدغام. وفي «المصباح»: قَصَصْتُ الخَبَرَ قَصّاً من باب قتل، حدثته على وجهه، والاسم القصص بفتحتين، وقصصت الأثر: تتبعته، اهـ. وفي «البيضاوي»: القصص هنا بمعنى المفعول كالنقض والسلب بمعنى المنقوض والمسلوب، اهـ.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وأحسن يجوز أن يكون أفعلَ تفضيل على بابه، وأن يكونَ لمجرد الوصف بالحسن، ويكونَ من باب إضافة الصفة لموصوفها؛ أي: القصص الحسن. وفي «الخازن»: أصل القصص في اللغة من قصَّ الخبر، إذا تتبعه، وإنما سميت الحكاية قِصَّةً لأن الذي يَقُصُّ الحديثَ يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً. والمعنى: نحن نبين لك أخبار الأمم السالفة أحسنَ البيان. وقيل: المرادُ خُصوص قصة يوسف، وإنما كانت أحسنَ القصص لما فيها من الحكم، والنكت، وسير الملوك، والمماليك، والعلماء، ومَكْرِ النساء، والصبر على الأذى، والتجاوز عنه أحسنَ التجاوز وغير ذلك من الفوائد الشريفة.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر تاء التأنيث اللفظي التي هي عوض عن ياء المتكلم المحذوفة. وأصله: يا أبي فحذفت الياءُ، وأتي بالتاء عوضاً عنها، ونقلت كسرة ما قبل الياء، وهو الباء للتاء، ثم فتحت الباءُ على القاعدة في فتح ما قبل تاء التأنيث، وبفتح التاء، والأصل عليه: يا أبيَ، بكسر الباء، وفتح الياء، ففتحت

الباءُ ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلَها، ثم حذفت الألف، وعوَّض عنها تاءُ التأنيث، وفُتحت للدلالة على أنَّ أصلَها الألف المنقلبة عن الياء. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز لُحوقُ تاء التأنيث بالمذكر؟

قلت: كما جاز نحو قولك: حَمامَةٌ ذكرٌ وشاة ذكرٌ ورجل رَبْعَةٌ وغلام يفعة. قلت: يعني أنها جيء بها لمجرد تأنيث اللفظ كما في الألفاظ المستشهد بها، ثم قال الزمخشري. فإن قلت: فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟

قلت: لأن التأنيثَ والإضافةَ يتناسبان في أن كلَّ واحد منهما زيادةٌ مضمومةٌ إلى الاسم في آخره.

قلت: وهذا قياس بعيد لا يعمل به عند الحذاق، فإنه يسمى الشبهَ الطَّرْدِيَّ يعني أنه شَبهٌ في الصورة، اهـ «سمين». ﴿لِي سَٰجِدِينَ﴾ والسجودُ هنا: منْ سَجْدَ البعير إذا خَفَضَ رَأْسَهُ لراكبه حين ركوبه، وكان من عادة الناس في تحية التعظيم بفِلَسْطين، ومصر، وغيرهما، الانحناء مُبَالَغَةً في الخضوع والتعظيم، وقدِ استعمله القرآن في انقياد كل المخلوقات لإرادة الله، وتسخيره، ولا يكون السجود عِبَادةً إلا بالقصد، والنية للتقرب إلى من يعتقد أنَّ له عليه سُلْطاناً غَيْبياً فوق سلطان الأسباب المعهودة. ﴿رُءْيَاكَ﴾ الرؤيا مصدر رَئِيَ في المنام رؤيا على وزن فعلى، كالسقيَا والبشرى، وألفه للتأنيث، ولذلك لم يصرف. ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ﴾ يقال: كاد له الأمر إذا دبَّر الكَيْدَ لأجله لمضرته، أو لمنفعته كما قال ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ كاد يَتعدَّى بنفسه كما في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ وعدي هنا باللام لتضمُّنِه معنَى فعل يتعدى باللام، ولذا قال الشارح: يحتالوا في هلاك. قال الزمخشري: فإن قلت: هلا قال: فيكيدوك كما قال: فكيدوني جميعاً؟

قلت: ضُمِّنَ معنى فعل يتعدى باللام؛ ليفيدَ معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن، فيكون أفيد، وأبلغ، في التخويف، وذلك نحو: فيحتالوا لك، ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر، و﴿كَيْدًا﴾ مفعول به أي يصنعوا لك كيداً أي أمراً يكيدونك به، اهـ «سمين».

﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بَين العداوة وظاهرها فهو من أبان اللازم. ﴿وَكَذَٰلِكَ

﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، والاجتباء من جبيت الشيء إذ حصلته لنفسك، اهـ بيضاوي. وفي «الخازن» واجتباءُ العبدَ تخصيصه إياه بفيض إلّهي تحصل منه أنواع المكرمات بلا سعي من العبد، وذلك مختص بالأنبياء، وببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين، اهـ. ومنه: جبيت الماء في الحوض، أي: جمعته، ومعنى اجتباء الاصطفاء، وهذا يتضمن الثناء على يوسف، وتعديد نِعَمِ الله عليه. ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ والتأويل: الإخبار بما يؤول إليه الشيء في الوجود. والأحاديث جمع تكسير لحديثٍ فقيل لواحد: ملفوظ به، هو حديث، ولكنه شَذَّ جَمْعُه على أحاديثَ، وله نظائر في الشدود، كأباطيلَ، وأفاظيعَ، وأعاريضَ في باطل، وفظيعٍ وعريضٍ. وزَعَمَ أبو زيد أن له واحداً مقدراً، وهو أحدوثة، ونحوه، وليس باسم جمع، لأن هذه الصيغة مختصة بالتكسير، وإذا كانوا قد التزموا ذَٰلِكَ فيما لم يصرح له بمفرد من لفظه نحو: عباديد، وشَمَاطِيط، وأبابيلَ، ففي أحاديث أولى، اهـ سمين. ومعنى تأويل الأحاديث تعبيرُ الرؤيا، فالمراد بالرؤيا ما يرى في النوم، وسمي أحاديث؛ لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقةً وأحاديث الشيطان، والنفس إن كانت كاذبةً، اهـ بيضاوي. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾ أحب أفعل تفضيل، وهو مبني من حبَّ المبنيّ للمفعول، وهو شاذ، وإذا بنيت أفعل التفضيل من مادة الحب، والبغض تَعدَّى إلى الفاعل المعنوي بإلى، وإلى المفعول المعنوي باللام، أو بفي فإذا قلتَ: زيد أحبُّ إليَّ من بَكْرٍ كانَ معناه أنك تحب زيداً أكثرَ من بكر، فالمتكلم هو الفاعلُ، وكذلك إذا قلت هو أبغض إليّ منه، كانَ معناه أنت المبغض، وإذا قلتَ: زيدٌ أحب لي من عمرو، أو أحب في منه كان معناه: إنَّ زيداً يحبني أكثر من عمرو، وعلى هذا جاءت الآية الكريمة فإنَّ الأبَ هو فاعل المحبة، اهـ سمين. وقوله: وهو شاذ يُشْكِلُ عيه وقوعَه في القرآن إلا أن يجابَ بأنه شاذ قياساً، فصيح استعمالاً لوروده في أفصح الفصيح، تأمل. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والعصبة: ما زاد على عشرة. وعن ابن عباس ما بين عشرة وأربعين. وقيل: الثلاثة نَفَرٍ فإذا زادوا إلى تسعة فهم رهط، فإذا بلغوا العشرة فَصَاعِداً فعُصْبَةٌ. وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة. وقيل: من عشرة إلى خمسة عشرَ. وقيل: ستة. وقيل: تسعة، والمادة تدل على الإحاطة من العصابة

لإحاطتها بالرأس، اهـ سمين. ولا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر، والرهط، وقد كانت الإخوة عشرةً.

﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قال الهروي: والغيابة: سدٌّ أو طاقٌ في البئر، قريبُ الماء يغيب ما فيه عن العيون. وقال الكلبي: الغيابة تكون في قعر الجب؛ لأن أسفله واسع، ورأسه ضيق، فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه. وقال الزمخشري: هي غوره، وما غاب منه عن عين الناظر، وأظلم من أسفله. والجب: البئر التي لم تُطْوَ، ويقال لها: قبل الطيي رَكِيَّةٌ فإذا طويت قيل لها: بئر سمِّيت جُبّاً إما لكونها محفورة في جيوب الأرض؛ أي: ما غلظ منها، وإما لأنها قطعت في الأرض قطعاً، ومنه الجب في الذكر. ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ والالتقاط: أخذ شيء مشرف على الضياع من الطريق، أو من حيث لا يحتسب، ومنه اللقطة. واللقيط: يعني: يأخذه بعض المسافرينَ فيَذْهَبُ به إلى ناحية أخرى، فيستريحوا منه، اهـ «خازن». والسيارة: الجمع الذين يسيرون في الطريق، جمع سيار؛ أي: المبالغ في السير، اهـ خطيب. وفي «المختار»: السيارة القافلة، اهـ. ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ وفي «السمين»: وقرأ العامة: تأمنا بالإخفاء؛ أي: إخفاءِ النون عند النون المتحركة. والإخفاء: هو عبارة عن تضعيف الصوت بالحركة، والفصل بين النونين، لأنَّ النونَ تسكن رأساً، فيكون ذلك إخفاءً لا إدغاماً. وقرأ بعضهم ذلك بإشمام، وهو عبارة عن ضم الشفتين إشارة إلى حركة الفعلِ مع الإدغام الصريح، كما يشير إليه الواقف. وفيه: عُسْرٌ كَبِيرٌ، قالوا: وتكون الإشارة إلى الضمة بعد الإدغام وقبل كَمَالِه. وقرأ أبو جعفر بالإدغام الصريح من غير إشمام، وقرأ الحسن ذلك بالإظهار مبالغةً في بيان إعراب الفعل، وللمحافظة على حركة الإعراب. واتفق الجمهور على الإخفاء أو الإشمام كما تقدم تحقيقه، اهـ. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ جمع ناصح، والناصح: المشفق المحب للخير. وعبارة «الخازن» هنا: المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف، والمعنى: وإنا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته، وبحفظه. ﴿غَدًا﴾ وهو ظرف مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك، وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد باليوم الذي يلي يومك. وأصله غَدْوٌ فحُذفت لامه، وقد جاءَ تامّاً ذكره أبو حيان. ﴿نرتع﴾ الجمهور على أنَّ العين آخِر الفعل يقال:

رَتَعَ فلان في ماله، إذا أنْفَقَهُ في شهواته. والأصل في الرتع أكل البهائم في الخصب، زمن الربيع، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير. والرَّتع: الاتساع في الملاذ، والتمتع في أكل الفواكه، ونحوها فمنهم من يسكن آخره على الجواب، ومنهم من يَضُمَّه على أن تكون حالاً مقدرة. ويقرأ: ﴿نَرْتَعِ﴾ بكسر العين، وهو نفتعل من رَعَى، أي نَرْعَى ماشيَتَنا، أو نأكلُ نحن ذكره أبو البقاء. ﴿ونلعب﴾ والمراد: باللعب لعب المسابقة، والانتضال بالسهام، ونحوهما مما يتدرب له لمقاتلة الأعداء، وتعليم فنون الحرب. قال الراغب: يقال: لَعب فلان، إذا كان فعلُهُ غيرَ قاصد به مقصداً صحيحاً. ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ والحزن: ألم القلب بفراق المحبوب، أو وقوع مكروه. ﴿وَأَخَافُ﴾ والخوف: ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه. ﴿ٱلذِّئْبُ﴾ والذئب: سبع معروف، ويجمع على أذؤب، وذئاب، وذؤبان، وأرض مَذابة كثيرة الذئاب، وتذائيت الرياح جاءت من هنا ومن هنا فعل الذئاب.

﴿عِشَآءً﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه ظرف أي وَقْتَ العشاء.

والثاني: أن يكون جمع عائش كقائم، وقيامٍ ويقرأُ بضم العين. والأصل: عُشَاة مثل غازٍ وغُزَاة، فحذفت الياء، وزيدت الألف عِوَضاً منها، ثم قلبت الألف همزةً. ويجوز أن يكونَ جمع فاعل على فِعَالٍ كما جمع فعيل على فعال كمرِيضٍ ومِرَاضٍ. ﴿عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ المتاع في اللغة كل ما انتفع به، وأصله النفع الحاضر، وهو اسم مصدر من متع تمتعاً كالسلام من سلم. ﴿بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ فيه وصف الدم بالمصدر على سبيل المبالغة، فكأنَّه نَفْسَه صار كَذِباً، والفاعل والمفعول يسمَّيان بالمصدر كما يقال: ماء سكب؛ أي: مسكوبٌ والفاعل كقوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ وكما سموا المصدرَ بهما قالوا: للعقل المعقول، وللجلد المجلود، ومنه قوله تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ اهـ كرخي. وقرىء: ﴿بدم كدب﴾ بالدال المهملة، والكدب: الكدر، وقيل: الطَّرِيُّ. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾؛ أي: زينت وسهّلت. وأصل التسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه. قال صاحب «الكشاف»: سَوَّلَتْ: سَهَّلَتْ من السول بالتحريك، وهو الاسترخاء في العصب، ونحوه؛ أي: سَهَّلت لكم أَنْفُسُكُم أمراً عَظِيماً، فعلتموه

بيوسف، وهوَّنْتُمُوه في أنفسكم وأعينكم. ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾، والوارد: الذي يَرِدُ الماءَ، ليستَقِي للقوم. ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ في «المختار» الدَّلْو: الذي يُسْتَقى بها، ودَلَّى الدلو إذا نَزَعها، وبابه عَدَا وأدلاها أرسلها في البئر. وفي «القاموس»: ودَلَوْتُ الدَّلْوَ ودليتها أرسلتها في البئر، ودلاَّها جَذَبَها لِيُخْرِجَها، والدلو مؤنث، وقد يذكر، اهـ. ويصَغَّر على دلية ويجمع على أدل ودلاءَ ودُلّى. ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾؛ أي: أخْفَوْه من الناس ﴿بِضَٰعَةً﴾ والبضاعة: القِطْعَةُ من المال يفْرز للاتجار به من بَضَعْتُه إذا قَطَعْتُه، ومنه المَبْضَعُ. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ وشُري الشيء: إذا باعَهُ واشتراه إذا ابْتَاعَهُ. والبَخْسُ: النَّاقِصُ والمَعيب كما قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ والمراد هنا: الحرامُ أو الظلمُ لأنه بيع حر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإشارة بالبعيد إلى القريب في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تنزيلاً لبعد مرتبته في الكمال، وعُلو شأنه مَنْزِلَةَ البُعْدِ الحسّيّ. ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال في[1] «بحر العلوم»: لعلَّ مُستعار لمعنى الإرادة لملاحظة العرب معنى الإرادة، أو الترجي في لَعَلَّ؛ أي: أنزلناه قرآناً عربياً، إرَادَةَ أن تَعْقِلَه العربُ، ويفهموا منه ما يَدْعُوهم إليه، فلا يكون لهم حُجَّةً على الله، ولا يقولوا لنبيهم ما خُوطبنا به.

ومنها: جناسُ الاشتقاق في قوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

ومنها: التعبيرُ عن عدم العلم بالغفلة في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ لإجلال شأنه عليه السلام كما في «الإرشاد» فليست هي الغفلة المتعارفة بين الناس.

ومنها: عَطْفُ الخاصِ على العام في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لإظهار

---

(١) روح البيان.

شَرَفِهِمَا على سائر الطوالع كعطف الروح على الملائكة في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾.

ومنها: إجراءُ غير العقلاء مُجْرَى العقلاء في ضمير ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: التنكير للإبهام في قوله: ﴿أَرْضًا﴾؛ أي: أرضاً مجهولةً.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ أي: ولغيرهم، فالسائلون هم اليهود ففيه اكتفاء، وهو ذِكْرُ أحد متقابلين، وحذفُ الآخر لعلمه من المذكور.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ وفي قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَرْتَعْ﴾ لأنَّ الرتع حقيقةٌ في أكل البهائم في الخصب من الربيع، ويُستعَار للإنسان إذا أريد به الأكلُ الكثير كما مر.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ للدلالة على عظم ذلك الأمر؛ أي: أمراً عظيماً.

ومنها: الحذفُ والزيادةُ في عدَّةَ مواضِعَ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ...﴾ الآيتين، هاتان الآيتان مبدأ قَصَصِ يوسف في بيت العزيز الذي اشتراه، وفيها بيان تمكين الله له، وتعليمه تأويلَ الأحاديث، وإيتائه حُكْماً وعِلْماً وشهادة من الله له بأنه من زمرة المتقين.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانَه وتَعالى لما ذكر[1] وَصِيَّة العزيز لامرأته بإكرام مثواه، وعَلَّلَ ذلك بحُسن الرجاء فيه، ثم بَيَّن عنايتَه سبحانَه به وتمهيدَ سبل كماله بتمكينه في الأرض، ذَكَرَ هنا مراودةَ امرأته له، ونظرها إليه بغير العين ِ، التي نَظَرَ بها زَوْجُها إليه، وأرَادَتْ مِنه غير ما أراده هو، وما أرَادَ الله من فَوْقِهِمَا، وأعدت العُدَّةَ لِذلك فغَلَّقَتْ الأبوابَ، فهرب منها إلى باب المخْدَع، فقدَّتْ قَمِيصَه من خَلْف، ووَجَدَا زَوْجَها بالباب الخارجي، فبادرَتْ إلى اتهامه بإرادة السوء إلى أن استبانت براءته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ...﴾ الآيات، مناسبتُها لما قبلها، بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة مخَادَعَتَها ليوسُفَ عن نفسه، وتغليقَها الأبواب، وهرَبه منها إلى الباب، وجَذْبِهَا لقميصه، ورؤيةِ سَيِّدها لذلك الحادث، واتهامها لِيُوسُفَ بإرادة السوء منها. ذكر هنا تبرئةَ يوسف لنفسه، وحكم قريبِها في القضية بعد بحث وتشاور بين زوجها وأهلها، ثمَّ علم الزوج ببراءةِ يُوسُفَ وثبوتِ خطيئتها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: بعد أن ذكر سبحانه تحقيقَ زوجها في الحادث، وحكم أحد أقاربها بما رَأى وقد استبانَ منه براءةَ يُوسُفَ، ذكر هنا أنَّ الأَمْرَ قد استفاض في بيوت نساء الوزراء، والكُبراء، فأحْبَبْنَ أن يَمْكُرْنَ بها لِتُرِيَهن هذا الشابَّ الذي فتنها جماله، وأذلَّها عَفَافُهُ وكماله حتَّى راودَتْه عن نفسه وهو فَتَاها، ودَعَتْهُ إلى نفسها فردَّها وأَبَاهَا خشيةً لله، وحفظاً لأمانة السيد المحسن إليه، أن يَخُونَه في أعز شيء لديه، علَّه بعد هذا يَصْبُو إليهن، ويَجْذِبُه جمالهن، ويكون له فيهن رَأْيٌ غير ما رآه فيها، فإنه قد أَلِفَ جَمَالها قبل أن يَبْلُغ الأشُدَّ، وكان يَنْظُرَ إليها نظرةَ العبدِ إلى سيدته، أو الولد إلى والدته.

---

(١) المراغي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: اشترى يوسف ﴿مِن مِّصْرَ﴾؛ أي: في مصر لم يبين الكتاب الكريمُ اسم الذي اشتراه في مصر، ولا منصبه، ولا اسمَ امرأته؛ لأن ذلك لا يهم في العبرة من القصة، ولا يزيد في العظة، ولكن لَقَّبه النسوة فيما يأتي ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ وهو اللقب الذي لقب به يوسف بعد أن تولَّى إدارة الملك في مصر. والظاهر أنه لقب أكبر وُزراء الملك. قال في «القاموس»: العزيز: المَلِكُ لغلبته على أهل مملكته، ولَقَبُ مَنْ مَلَكَ مصر مع الإسكندرية، انتهى. وبيانُ كَوْنِه من مصر للإشعار بكونه غيرَ من اشتراه من الملتقطين، بما ذكر من الثمن البخس كما في «الإرشاد».

فالذي[1] اشتراه في مصر هو قطفير خَازِنُ الملكِ الريَّان بن الوليد، وكان صَاحِبَ جنوده، ورئيسَ الشرطة، وحامِيةِ الملك، وناظر السجون، وقد آمن الملك بيوسف، ومات في حياة يُوسُفَ عليه السلام، فملك بَعْدَه قابوس بن مصعب، فدعاه يُوسُفُ إلى الإسلام فأبى. وكانَ من نَسْلِهِ فرعونُ موسى. واشترى ذلك الوزيرُ يُوسُفَ، وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عَشَرَة سنة، واستوزره ريَّان بن الوليد، وهو ابنُ ثلاثين سنَةً. وآتاه الله المُلْكَ والحكمةَ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنةً. وتوفي وهو ابن مئة وعِشْرِين سنةً. وهو أول من عملَ القراطيسَ. وقوله: ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ متعلق بـ (قال) لا بـ (اشترى)؛ أي: قال لامرأته رَاعِيلَ بنتَ رعائيل، ولقبها[2] زُليخا بضم الزاي المعجمة، وفتح اللام والمد مصغراً كما في «عين المعاني» والمشهور في الألسنة فتح الزاي، وكسر اللام.

﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ أي: اجعلي محلَّ إقامته كريماً حَسَناً مَرْضِياً. والمعنى: أحسني تعهده في المطعم، والمشرب وغيرهما. فهو كناية عن إكرام نفسه، وإحسان تعهده كما يقال: المقام العالي ويكنى به عن السلطان. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: يُكْنَى عن الشريف بالجَنابِ، والحضرة، والمجلس،

---

(١) المراح.
(٢) روح البيان.

فيقال: السلامُ على حضرته المباركة، ومجلسه الشريف، والمرادُ به السلامُ عليه، لكن يُكْنَى عنه بما يتعلَّق به نوع التعلق إجلالاً، انتهى.

وخُلاصة ما قال[1]: أحسِنِي تعَهُّدَهُ وانظرِي فيما يقتضيه إكرام الضيف على أبلغ وجه وأتمِّهِ.

ورُوِي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أفرسُ الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾، وابنة شعيب حين قالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ الآية، وأبو بكر رضي الله عنه حين استَخْلَفَ عُمَر بنَ الخطاب رضي الله عنه.

ثمَّ بَيَّنَ عِلَّةِ إكرامه برجائه فيه، وعظيم أمله في جليل مساعدته، فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾؛ أي: عَلَّه أن يَنْفَعنا في أمورنا الخاصة إذا تدرَّبَ فيها، وعَرَفَ مَوارِدَها ومصَادِرَها، أو شؤون الدولة العامة، لِمَا يلوح عليه من مخايل الذكاء والنَّجَابة. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾؛ أي: نتبناه، ونقيمه مقَامَ الولد فَيَكُون قُرة عَيْنٍ لنا، ووارثاً لمالنا، ومَجْدنا إذا تمَّ رشده، ونَضَج عقله. وفي الآية إيماء إلى شيئين:

١ ـ أنَّ العزيز كان عقيماً.

٢ ـ أنه كان صادق الفراسة، ثاقب الفكر.

فقد استدل من كمال خُلُقه وخَلْقِهِ على أنَّ حُسْنَ عشرته، وكرمَ وَفادته، وشرفَ تربيته مما يُكمل استعدادَه الفطرِيّ. فالتجارب دلَّتْ على أنه لا يفسد الأخلاقَ شيء أكثر مما تُفْسِدُها البيئة الفاسدة، وسوء القدوة.

والمعنى: أكرمي إقامتَه عندنا بحسن العشرة، نرجو من الله أن ينفَعَنا فيما نحتاج إليه، ويكفينا بَعْضَ المهمات، أو نتبناه، ونُقيمه مقام الولد، ولم يكن لنا ولدٌ. وكان العزيز هذا لا يأتي النساء أو عَقِيماً. فالمراد من نفعه أحدُ أمرين: إمَّا الرِّبحُ فيه إذا باعوه، أو معاونتُه لهم إن أبقَوه، وهذان غَيْرَ اتخاذه ولداً. ويَجُوز

---

(١) المراغي.

أن تكونَ ﴿أو﴾ مَانِعَة خُلُوٍّ فتجوِّزَ الجمع، اهـ «فتوحات».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: وكما نجينا يوسف من القتل، والجبِّ وجَعَلْنَا في قلب الوزير حُنوّاً عليه ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أعطينا له مَكَانَةً؛ أي: رتبة عالية في أرض مصر. وهي أربعونَ فَرْسَخاً في أربعين فرسخاً. وقوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ معطوف على محذوف متعلق بـ ﴿مَكَّنَّا﴾؛ أي: وكذلك مكنا ليوسف في أرض مصر، وجعلناه وجيهاً بين أهلها، ومحبَّباً في قلوبهم، لينشأ منه ما جرى بينه وبين امرأة العزيز، وليتصرَّف فيها بالعدل، ولنعلِّمه ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: تعبير بعض المنامات، التي أعظمها رؤيا الملك، وصاحبي السجن ﴿واللَّه﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾، و (الهاء) عائدة على الله؛ أي: غالب على أمر يريده لا يرده شيء، ولا ينازِعُه أحدٌ فيما شاء، ويحكم في أمر يوسف وغيره، بل إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، أنَّ الأمر كله لله، وأن قَضَاءَ الله غالب، فمن تأمل في أحوال الدنيا عَرَف ذلك؛ أي: فما حدث من إخوة يوسف له، وما فعله مسترقوه، وبائِعُوه، وما وَصَّى به الذي اشتراه امرأتَه من إكرام مثواه، وما وقع له مع هذه المرأة من الأحداث، ومنْ دخولِهِ السجنَ، قد كان من الأسباب التي أراد الله تعالى له بها التمكينَ في الأرض، ولكنَّ أكثرَ الناس يأخذون الأمورَ بظواهرها، كما زَعَم إخوة يوسف أنه لو أُبْعِدَ يوسفُ عنهم خَلا لهم وجه أبيهم، وكانوا من بعده قوماً صالحين. وقوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ إيماء إلى أنَّ الأقل يعلمون ذلك، كيعقوب عليه السلام، فإنه يعلم أنَّ الله غالب على أمره. فهذه أقواله السَّابقةُ واللاحقةُ صريحة في ذلك، ولكن عِلْمُه إجمالي لا تفصيليٌّ، إذ لا يحيطُ بما تخبئه الأقدارُ.

وبعد أن بيَّن سبحَانَه أنَّ إخوةَ يوسف أساؤوا إليه، وصَبَرَ على تلك الشدائد حتى مكَّنَ الله له في أرض مصر، بيَّن هنا أنه أتاه الحُكْمَ والعلم حين استكمال سن الشباب، وبلوغ الأشد، وأنَّ ذلك جزاء منه سبحانه على إحسانه في سيرته فقال عزَّ اسمه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾؛ أي: سن رشده وكمال قوته،

باستكمال نموه البدني والعقليّ. وقال أهل التفسير: أي منتهى اشتداد جسمه، وقوته واستحكام عقله، وتمييزه، وهو سنُّ الوقوف ما بين الثلاثين إلى الأربعين. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: وَهَبْنَاه ﴿حُكْمًا﴾ صَحِيحاً فيما يعرض له من مَهامّ الأمور، ومشكلات الحوادث مقروناً بالحق والصواب ﴿وَعِلْمًا﴾ لَدُنِيّاً، وفكرِيّاً بما ينبغي أن تسير عليه الأمور.

وقدَّرَ[1] الأطباء هذه السنَّ بخمس وعشرين سَنةً. وقد أثبت علماء الاجتماع أنَّ الاستعدادَ الإنسانيَّ يظهر رُوَيْداً رُوَيْداً حتى إذا ما بلغ المرء خَمْساً وثلاثين سنة وَقَف عند هذا الحد، ولم يظهر فيه شيء جديد غير ما ظهر من بدء سن التمييز إلى هذه السن. ولهذا قال ابن عباس إنها ثلاث وثلاثون سنة.

وفي «روح البيان»[2]: والعقلاء ضبطوا مراتبُ أعمار الناس في أربع:

الأولى: سن النشوء والنَّماء، ونهايته إلى ثلاثين سنة.

والثانية: سن الوقوف وهو سن الشباب ونهايته إلى أن تتم أربعون سنةً من عمره.

والثالثة: سن الكهولة، وهو سن الانحطاط اليسير الخفيّ، وتمامه إلى ستين سنة.

والرابعة: سنّ الشيخوخة، وهو سنُّ الانحطاط العظيم الظاهر، وتمامه عند الأطباء إلى مِئةً وعشرين سنة. والأشُدُّ: غاية الوصول إلى الفطرة الأولى. وعبارةُ «الخازن» ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي[3] منتهى شبابه، وشدته، وقوته قال مجاهد: ثلاثةٌ وثلاثون سنة. وقال الضحاك: عِشْرُون سنةً. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال الكَلْبي: الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنةً. وسُئِلَ مالك عن الأَشُدِّ فقال: هو الحُلُم. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: آتينا يُوسُفَ بعد بلوغ الأشد، ﴿حُكْمًا﴾؛ أي:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الخازن.

نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾؛ أي: فقهاً في الدين. وقيل: حُكْماً يعني إصابة في القول، وعَلماً، بتأويل الرؤيا انتهت. وقال القشيري: مِنْ جملة الحكم الذي آتاه الله نُفوذُ حكمه على نفسه حتى غَلَبَ شَهْوَتَه، فامْتَنَع عمَّا راودته زُلَيخَا عن نفسه، ومَنْ لا حُكْمَ له على نفسه لم يَنفُذْ حُكْمُه على غيره.

قال الإمام نقلاً عن الحسن: كان يوسفُ نبياً من الوقت الذي أُلْقِيَ فيه في غيابة الجب لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾ ولذا لم يقُلْ هُنا: ولمَّا بلغ أشدَّه واستوى، كما قال في قصة موسى، لأنَّ موسى أوحي إليه عند منتهى الأشدّ والاستواء وهو أربعون سنةً، وأوحي إلى يوسف عند أوله، وهو ثمان عشرة سنةً. وعن الحسن: مَنْ أَحسَنَ عبادةَ ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهالِه، وفيه إشارة إلى أنَّ المطيع تُفْتَحُ له ينابيع الحكمة، وتنبيه على أنَّ العطِيَّة الإلَهية تَصِلُ إلى العبد، وإن طَالَ العَهْدُ إذا جاءَ أوانُها فلطالبِ الحق أن ينتظر إحسانَ الله تعالى، ولا ييأس منه.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء العجيب الذي جَزَيْنا يوسف ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: كلَّ مَنْ يُحْسِنُ في عمله، وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعارٌ بعَلِيّة الإحسان له، وتنبيهٌ على أنه سبحانه إنما أتاه الحكمَ والعلم لكونه مُحْسِناً في أعماله، متقياً في عنفوان أمره، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. قال بعضهم: نجزي المحسنين الذين يحسنون لأنفسهم في الطلب، والإرادة والاجتهاد، والرِّيادة فمَنْ أدْخل نَفْسَه في زمرة أهل الإحسان جزاه الله تعالى بأَحْسَنِ الجزاء، وأحبه كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فمن أحبَّه الله تعالى نَالَ سَعَادةَ الدَّارَيْنِ.

والمعنى: أي ومثل ذلك الجزاءِ العظيمِ نُجازِي به المتحلِّينَ بصفة الإحسان الذين لم يدنِّسُوا أنْفُسَهم بسيئات الأعمال، فنُؤتيهم نصيباً من الحكم بالحق، والعدل، وعلماً يظهره القولُ الفصلُ إذ يكون لذلك الإحسانِ تأثيرٌ في صفاء عقولهم وجَودةِ أفْهَامِهم وفقههم لحقائق الأشياء غيرَ ما يستفيدون بالكسب من غيرهم، ولا يتهيأ مثل ذلك للمسيئين في أعمالهم المتبعين لأهوائهم، وطاعة

شهواتهم. ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾؛ أي: راودَتْ يوسفَ وطلبته المرأة ﴿ٱلَّتِي هُوَ﴾؛ أي: يوسف ﴿فِي بَيۡتِهَا﴾؛ أي: في سَكَنِها ومَنْزِلها أن يحابيَ لها ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ ويمكنَ لها من نفسه بالمواقعة عليها، والمجامعة بها. يقال: راودَ فلان جاريتَهُ عن نفسِهَا، وراودته هي عن نَفْسِهِ إذا حاول كل واحد منهما الوطءَ والجماعَ، وهي مفاعلة. وأصلها: أن تكونَ من الجانبين فجُعِلَ السببُ هنا في أحد الجانبين قائماً مقامَ المسبب، فكأن يوسُفَ عليه السلام ـ لمَّا كان ما أعطيه من كمال الخلق، والزيادة في الحسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له ـ مُراود لها، وإنما قال ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ ولم يقُل امرأة العزيز أو زليخا قَصَداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة، والمحافظة على الستر عليها. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ عليها، وعلى يُوسُفَ؛ أي: أطبقَتْها، وكانت سبعةً، لأنَّ مثل هذا الفعل لا يكون إلا في ستر وخفية، أو إنها أغْلَقَتْها لشِدّةِ خوفِها. ﴿وَقَالَتۡ﴾ ليوسف ﴿هَيۡتَ﴾؛ أي: هلمَّ إليَّ، وأَقْبِلْ وبَادِرْ، أو تهيأت ﴿لَكَ﴾ لتستمتع بي وتجامعني. والمعنى: وخادعَتْ امرأة العزيز يُوسُفَ عن نفسه، وراوغته ليريدَ منها ما تريد هي منه، مُخالفاً لإرادته، وإرادة ربه، والله غالبٌ على أمره. قال في «الكشاف»: كأنَّ المعنى خادعَتْه عن نفسه؛ أي: فعلت ما يفعلُ المُخادِعُ لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجَه من يده، وهو يحتال أن يأخذه منه، وهي عبارة عن التمحل في مواقعته إياها، اهـ.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾؛ أي: وأحْكَمَتْ إغلاق بابِ المخدعَ الذي كَانَا فيه، وباب البهو الذي يكون أمامَ الغُرَفِ في بيوت العظماء، وباب الدار الخارجيّ ورُبَّما كان هناك غيرُها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾؛ أي: وقالَتْ: هلم أقْبِلْ وزيدت كلمةُ ﴿لَكَ﴾ لبيان المخاطب كما يقولونَ سقياً لك، ورَعْياً لك. وهذا الأسلوب هو الغاية في الاحتشام في التعبير، وقد يكون هناك ما زادته من إغراءٍ، وتهييج مما تقتضيه الحالُ، وما نُقل من الإسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة فكذب فمثل هذا لا يُعْلَمُ إلا من الله، أو من الرواية الصحيحة عنها، أو عنه، ولا يستطيع أن يدَّعِي ذلك أحدٌ. وقرأ[1] نافع وابن ذكوان والأعرج وشيبة وأبو جعفر: ﴿هِيتَ﴾

---

(١) البحر المحيط.

بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة وفتح التاء. والحلوانيُّ عن هشام كذلك إلاَّ أنه هَمَّزَ وقال: ﴿هِئْتَ﴾. وكذلك قرأ علي، وأبو وائل، وأبو رجاء، ويحيى، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وطلحة، والمقرىء، وابنُ عباس، وأبو عامر في رواية عنهما، وأبو عمرو في رواية، وهشام في رواية، كذلك إلا أنهم ضَمُّوا التَّاء، وزيد بن علي، وابنُ أبي إسحاق كذلك إلا أنهما سهَّلاَ الهمزة. وذكر النَّحاس أنه قرىء بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة، وكسر التاء. وقرأ ابن كثير، وأهل مكة بفتح الهاء، وسكون الياء، وضم التاء. وباقي السبعة أبو عَمرو والكوفيون، وابنُ مسعود، والحسن، والبصريون، كذلك إلا أنهم فتحوا التاءَ. وابن عباس، وأبو الأسود، وابن أبي إسحاق وابنُ مُحيصن، وعيسى البصرة كذلك. وعن ابن عباس: ﴿هييتَ﴾ مثل حييت. فهذه تسع قراءات هي فيها اسمُ فعل إلاّ قراءة ابن عباس الأخيرة، فإنها فعل مبني للمفعول، مسهَّلُ الهمزة من هيأت الشيءَ، وإلا مَنْ ضَمَّ التاءَ، وكَسر الهاء سَوَاءٌ هَمَّز أم لم يُهَمِّزْ فإنه يحتمل أن يكون اسم فعل كحالها عند فتح التاء، أو كسرها، ويحتمل أن يكونَ فِعْلاً واقِعاً عن ضمير المتكلم من هاء الرجل يهيىء إذا أحسن هيئَتَهُ على مثال: جاء يجيء، أو بمعنى تهيأت يقال: هَيْتَ وتَهَيأتَ بمعنى واحد. فإذا كانَ فِعْلاً تعلقت اللام بِهِ. وفي هذه الكَلِمةِ لغات أُخر، أعرضنا عنها صَفْحاً خوف الإطالة.

وانتصب ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ على المصدر بفعل محذوف وجوباً، تقديره: أعوذ بالله سبحانه وتعالى؛ عياذاً مما تدعينني إليه، وألْتَجِىء إليه، وأعْتَصِمُ به مما تريدين مني من فعل السوء فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين، كما سيأتي من قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وجملة: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ تعليل للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقربُ إلى فهم امرأة العزيز، والضميرَ للشأن؛ أي: إنَّ الشَّأْنَ والحالَ رَبِّي وسيِّدِيّ، ومالك رقبتي يعني العزيزَ قد أحسن معاملتي في إقامتي عندك، وأحسن مثوايَ، وإقامتي حيث أمرك، وأوصاك بقولهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ فكيف أخونه في أهله، وأجيبُك إلى ما تريدين من ذلك، فلا أجزيه على إحسانه

بالإساءة. والأصحَّ أنَّ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ أن يعود على الله سبحانه وتعالى، والمعنى: أي: إنَّ الله رَبِّي أحسن مثوايَ إذ نجَّاني من الجبِّ، وأقامني في أحسن مقام، إذ لا يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربي، ولا بمعنى السيد، لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكاً له، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها. والفلاحُ: الظفرُ أي: إنَّ الشأنَ والحال لا يَسْعَدَ ولا يظفر الظالمون لأنفسهم وللناس بجناية وتعد على الأعراض، لا في الدنيا ببلوغ الإمامَةِ والرياسةِ، ولا في الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى، ودخول جنات النعيم. وقيل: المعنى: لا يُفْلِحُ المجازون الإحسانَ بالإساءةِ. وقيل: المعنى: لا يُفْلِحُ الزناة.

وفي هذا إيماء[1] إلى الاعتزاز بربه، والأمانة لسيده، والتعريض بخيانة امرأته، واحتقارها بما أضمر نار الغيظ في صدرها. وقرأ[2] أبو الطفيل والجحدري: ﴿مثوي﴾ كما قرأ: ﴿يا بشرى﴾ وما أحسنَ هذا التنصل من الوقوع في السوء، استعاذَ أولاً بالله الذي بيده العصمةُ وملكوتُ كل شيءٍ. ثم نبَّه على أنَّ إحسانَ الله، أو إحسان العزيز الذي سَبَقَ منه لا يُناسِبُ أن يجازيَ بالإساءة. ثمَّ نفَى الفلاح عن الظالمين، وهو الظفر، والفوز بالبغية، فلا يناسب أن أكون ظالِماً أضع الشيء في غير موضعه، وأَتَعَدَّى ما حَدَّه الله تعالى لي.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد همَّتْ زُلِيخَا بيوسف عليه السلام، وقصدَتْ مخالطةَ يوسف، ومجامَعَتَهُ إياها؛ أي: قَصدَتْها[3] وعَزَمَتْ عليها عَزْماً جازماً، بَعدما باشَرَتْ مَباديها من المراودة، وتغليق الأبوابِ، ودَعْوته إلى نفسها بقولها: هَيْتَ لك، ولعلَّها تصدَّتْ هنالك لأفعال أُخَر من بَسْطِ يدِهَا إليه، وقَصْد المعانقة، وغير ذلك مما يضطره إلى الهرب، نحو الباب، والتأكيدُ لِدَفْعِ ما عسى يتوهم من اختصاص إقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته من

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الزواجر ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾؛ أي: وقَصَدَ يُوسُفُ بمخالطتها؛ أي: مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب ميلاً جبليّاً، لا يكادُ يَدْخُل تحت التكليف لا قصداً اختيارياً؛ لأنه كما أنه بريء من ارتكاب نفس الفاحشة، والعمل الباطل كذلك بريء من الهَمِّ المحرَّم، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همِّها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشُبهةٍ به. ولقد أشير إلى تَبايُنِهِمَا بأنه لم يقُلْ: ولقدْ هَمَّا بالمخالطة، أو همَّ كلٌّ منهما بالآخر. قال بعضهم[١]: الهمّ قسمان: هم ثابت، وهو هم اقترن بعزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز، فالعبدُ مأخوذ به، وهم عارض، وهو الخطرة، وحديث النفس من غير اختيار، ولا عَزْم مثلُ هَمِّ يوسف عليه السلام، والعبد غَيرُ مَأخُوذ به ما لم يتكلم أو يعمل.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ يوسفُ وعلِمَ وأيقن ﴿بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: حُجَّةَ ربه، وأدلّتَه الدالة على كمال قُبْحِ الزنى. والمراد برؤيته لها: كمال إيقانه ومشاهدته لها مشاهدة واصلةً إلى مرتبة عين اليقين، التي تتجلَّى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقية. وجوابُ لولا محذوف تقديره: لولا مشاهدتُه وعِلْمُه بُرْهانَ ربه في شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجِبْلّي فوقَع في الزنا، لكنه حيثُ كانَ البرهانُ الذِي هو الحكم والعلم حاضراً لديه حُضورَ من يراه بالعين، فلم يَهُمَّ به أصلاً. ومن المعلوم أنَّ (لولا) حرف امتناع لوجود، فالمعنى امتنع وانتفى جِماعُه لها، لوجود رؤيته البرهان. وفي «السمين» المعنى: لولا رؤيته برهانَ رَبِّهِ لهَمَّ بها، لكنه امتنع همه بها لوجود رؤية ربه، فلم يَحْصُلْ منه هم ألبتة كقولك: لولا زيدٌ لأكرمتك فالمعنى: إنَّ الإكرامَ امتنع لوجود زيد. وبهذا يتخلَّص من الإشكال الذي يُورد هنا، وهو كيف يليق بنبيٍّ أن يهُمَّ بامرأة، اهـ.

والحاصل[٢]: أن هذا البرهانَ عندَ المحققينَ المثبتينَ لعصمة الأنبياء هو حُجَّةُ الله تعالى في تحريم الزنا، والعِلْمُ بما على الزاني من العقاب. أو المرادُ

---

(١) المراح.

(٢) المراح.

برؤية البرهان حُصُولُ الأخلاق الحميدةِ وتذكير الأحوال الرَّادِعَةِ لهم عن الإقدامِ على المنكرات.

وقيل: إن البرهانَ النبوةُ المانعة من إتيان الفواحش. وقيل: إنه عليه السلام رأى مكتوباً في سقف البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وأمَّا الذين نسبوا المعصية إلى يوسف، فقالوا: إنه رَأى يعقوب عاضاً على إبهامِه، أو هَتَفَ هاتفٌ، وقال له: لا تَعْمَلْ عمل السفهاء، واسمك في ديوان الأنبياء، أو تمثل له يعقوب فضَرَبَ في صدره، فخَرَجَتْ مَنِيُّه من أنامله. وقيل: غير ذلك مما يطولُ ذِكْرُه.

والحاصل: أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما همَّ به.

وعبارة المراغي هنا: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾؛ أي[1]: ولقد همَّت بأن تبطِشَ به إذا عصَى أمرَهَا، وخالف مُرادَها، وهي سيدتُه وهو عبدها، وقد استذلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه بمراودته عن نفسه، وكُلَّما أَلَحَّتْ عليه ازدَاد عتُوّاً واستكباراً معتزّاً عليها بالديانة، والأمانة، والترفُّع عن الخيانة، وحفظ شرف سيده، وهو سيدها ولا عِلاجَ لهذا إلا تذليله بالانتقام. وهذا ما شرَعَتْ في تنفيذه أو كادَتْ بأَن همَّتْ بالتنكيل به.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: ولكنه رَأى من ربه في سريرة نفسه ما جَعَلَهُ يمتنع من مُصاولَتِها، واللُّجوء إلى الفرار منها.

والخلاصة: أنَّ الفارق بين همِّها وهَمِّه أنها أرادت الانتقامَ منه شفاء لِغَيْظِها إذ فَشِلَتْ فيما تريدُ، وأهينَتْ بعتوه واستكباره وإبائه لما أرادَتْ، وأراد هو الاستعداد للدِّفاع عن نفسه، وهَمَّ بها حين رأى أَمارَةَ وُثوبِهَا عليه، فكان مَوقفهما موقف المواثَبةِ والاستعداد للمضاربة، ولكِنَّهُ رأى منْ برهان ربه وعِصْمَتِه ما لم تَرَ مِثله؛ إذ ألهمه أنَّ الفرارَ من هذا الموقف هو الخير الذي به تتمُّ حكمته فيما أعده له، فاستبقا بابَ الدارَ، وكانَ من أمرِهِمَا ما يأتي بيانه فيما بَعْدُ.

---

(١) المراغي.

هذا خُلاصةُ رأي نَقَله ابن جرير، وأيَّده الفَخْرَ الرازيُّ وأبو بكر الباقلاني.

ويَرَى غَيْرُهم من المفسرين أنَّ المعنى أنها همَّتْ بفعل الفاحشة، ولم يكن لها معارض، ولا ممانع، وهم هو بمثل ذلك، ولولا أنْ رأى برهان رَبّه لاقْتَرَفها. وقد فنده بعض العلماء لوجوه[1]:

١ ـ أنَّ الهَمَّ لا يكون إلاَّ بفعل للهام، والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تَهُمَّ به، وإنما نَصِيبُها منه قبوله مِمَّنْ يطلبه منها بتمكينه منه.

٢ ـ أنَّ يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتى يسمَّى قبولها لطلبه، ورضاها بتمكينه هماً لها، فالآيات قبل هذه وبعدها تبرئه من ذلك بل مِن وسائله ومقدماته.

٣ ـ أنه لو وَقَعَ ذلك لوجب أن يقال: ولقد همَّ بها وهمَّتْ به؛ لأنَّ الهمَّ الأُولَى هو المقدم بالطبع، وهو الهم الحقيقيُّ، والهم الثاني متوقِّفٌ عليه.

٤ ـ أنه قد عَلِم من هذه القصة أنَّ هذه المرأةَ كانت عازمة على ما طلبته طلباً جازماً، ومصرةً عليه، فلا يصح أن يُقَالَ: إنها همَّتْ به، إذ الهمُّ مقاربةُ الفعل المتردد فيه، بل الأنسبُ في معنى الهمِّ هو ما فسَّرْناه به أوّلاً وذلك لإرادة تأديبه بالضَّرْبِ، انتهت.

والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى الإراءة المدلول عليها بقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك، وهذه الكاف مع مجرورها في محلِّ نصب بفعل محذوف، واللامُ في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ﴾ متعلقة بذلك المحذوف، والتقدير: أريناه مثلَ ذلك الإراءَةِ أو ثَبَّتْنَاه مثلَ ذلك التثبيت. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾؛ أي: عن يُوسُفَ وندفَع عنه ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي[2]: مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾؛ أي: الزنا. وقيل[3]: السوء كل ما يَسُوؤُه، والفحشاء كل

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

(٣) الشوكاني.

أمرٍ مُفرطِ القُبح. وقيل: السوءُ الخيانة للعزيز في أهله، والفحشاء الزنا. وقيل: السوء الشهوة، والفحشاءُ المباشرة. وقيل: السوءُ الثناءُ القبيح، والأَوْلَى الحمل على العموم فيدخُلُ فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أوّليّاً.

وفي هذه الجملة[1] آيةٌ بَيِّنَةٌ وحجة قاطعة على أنه لم يقع منه هَمٌّ بالمعصية، ولا توجُّهٌ إليها قط، وإلا لقِيلَ: لنصرفه عن السوء والفحشاء، وإنما توجَّه إليه ذلك من خارج، فصرفه تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة، والعصمة كما في «الإرشاد». وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: صَرَفنا عنه السوءَ والفحشاءَ، لأنَّ يُوسُفَ عليه السلام من جملة عِبَادِنا الذين أخْلَصناهم لطاعتنا، بأن عَصَمْنَاهُم مما هو قادح فيها.

وفي هذا دليل على أنَّ الشَّيطانَ لم يجد إلى إغوائه سبيلاً، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ قال في «بحر العلوم». واعلم أنه تعالى شهد ببراءته من الذنب، ومَدَحه بأنه من المحسنين، وأنه من عباده المخلصين، فوَجَبَ على كل أحد أن لا يتوقَّفَ في نزاهته، وطهارة ذيله، وعِفَّته وتثبته في مواقع العثار.

قال الحسن: لم يَقُصَّ الله تعالى عليكم ما حكى من أخبار الأنبياء تعْييراً لهم، لكن لئلا تَقْنَطُوا من رحمته؛ لأنَّ الحُجَّةَ للأنبياء ألزم، فإذا قبلت توبتهم، كان قبولها من غيرهم أسْرَعَ.

وعدَمُ ذكر توبة يوسف دليلٌ على عدم معصيته، لأنه تعالى ما ذكر معصيةً عن الأنبياء، وإن صَغُرت إلا وذكر تَوبتَهم واستغفارَهم منها كآدم ونوح، وداود، وإبراهيم، وسليمان، عليهم السلام.

وقرأ الأعمش: ﴿لِيُصْرِفَ﴾ بياء الغيبة عائداً على ربه. وقرأ العربيان: أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير: ﴿المخلِصين﴾ إذا كان فيه أل حيث وَقَع في القرآن بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا دِينَهم، وعَمَلَهم لله تعالى. وقرأ باقي

---

(١) روح البيان.

السبعة بفتح اللام من جماعتنا ﴿المخلَصين﴾ وهم آباؤه الذين أخلَصهم رَبُّهم وصفَّاهم واختارهم لطاعته، وصفاهم من الشوائب، وقال فيهم: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾؛ أي: تسابق يوسُفُ وزليخا إلى الباب البراني الذي هو المخرج من الدار، ولذلك وَحَّدَ بعد الجمع فيما سلف. وفي الكلام حذف حرف الجر، وإيصال الفعل إلى المفعول، والأصل تَسابَقا إلى الباب، أو ضُمِّن الفعلُ معنى فعل آخر يتعدَّى بنفسه كابتدار الباب. وهذا الكلام متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وما بينَهُما اعتراض، أمَّا يُوسُفُ فلِلفرار منها، وأمَّا هي فلتَصُدَّه عن الفتح والخروج؛ أي: تسابقا إلى الباب، ففَرَّ يوسف من أمامها هارباً إليه، طالباً النجاة منها مرجحاً الفرارَ على الدفاع الذي لا تُعْرَفُ عاقبته وتبعته هيَ تبغي إرجاعه حتى لا يَفْلتَ من يدها، وهي لا تَدْرِي إذا هو خرَجَ إلى أين يذهب، ولا ماذا يقولُ، ولا ما يفعل لكنها أدركته.

﴿و﴾ جذبته بردائه و ﴿قدت﴾؛ أي: شقَّت ﴿قَمِيصَهُ﴾؛ أي: قميص يوسف ﴿مِن دُبُرٍ﴾ وخَلْفِه فانشق طُولاً نصفين، وهو القَدُّ كما أنَّ الشَّقَّ عرضاً هو: القط؛ أي: جذبَتْ قَمِيصَه من ورائِهِ فانْشَقَّ إلى أسفله، وأكثر ما يُستعمل القد فيما كان طُولاً. والقط بالطاء فيما كان عرْضاً وقَعَ ذلك منها عندما فَرَّ يُوسُفُ لمَّا رَأى بُرْهَانَ رَبه، فأرادت أن تَمْنَعَهُ من الخروج بجذبها لقميصه. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾؛ أي: وَجَدا زوْجَها ﴿لَدَا الْبَابِ﴾؛ أي: عند الباب البراني مقبلاً ليدخُلَ أو كان جالساً مع ابن عمٍّ لزليخا يقال له: يَمْليخا.

وقد كان النساء في مصر يلقِّبْنَ الزوجَ بالسيد، وإنما لم يَقُلْ سَيِّدَهُما، لأنَّ مِلْكَهُ لِيُوسُفَ لم يكن صحيحاً، فلم يكن سيداً له، لأن استرقاق يُوسُفَ غير شرعي. وهذا كلامُ ربه العليم بأمره، لا كلام من اسْتَرَقَّه.

وقوله: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مُقدَّرٍ، فكأنه قيل: فماذا وَقَع منهما عندما ألفيا سيدها لدى الباب؟ فقيل:

قَالَتْ مُنزِّهةً نفسَها: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً من الزنا ونحوه، و(ما) نافية؛ أي: ليس جزاؤه ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: لَيسَ جزاؤُه إلا السجنُ أو العذابُ الأليم مثل الضرب بالسوط، ونحوه. أو استفهامية؛ أي: أي شيء جزاؤه إلا السجن، أو العذاب الأليم كما تقول مَنْ في الدار إلاَّ زيد؛ أي: قَالَتْ هذه المقالة طَلَباً منها للحيلة، وللستر على نفسها، فنَسَبَتْ ما كان منها إلى يُوسُفَ، وفي الإبهام للعذاب زيادة تهويل؛ أي: وحينَئِذٍ خرجَتْ مما هي فيه بمكرها، وكيدها، وقالت لزوجها متنصِّلةً من جرمها، وقاذفةً لِيُوسُفَ: ما جزاءُ من أراد بأهلك شيئاً يسوؤُك صغيراً كَانَ أو كبيراً إلا سجن يعاقب به، أو عذابٌ مؤلم موجع يؤدبه، ويلزمه الطاعة. قال الرازي: وفي هذا القول ضروب من الحِيَلَ:

١ ـ إيهام زوجها أنَّ يوسفَ قدِ اعتدى عليها بما يسوؤها ويسوؤه.

٢ ـ أنَّها لم تصرح بجرمِهِ حتى لا يشتد غضبه، ويَقْسو في عقابه، كأن يبيعه أو يُقْصِيه عن الدار، وذلك غير ما تريد.

٣ ـ أنها هدَّدَتْ يُوسُفَ وأنذرته بما يعلم منه أن أَمْرَهُ بِيَدِها ليخضع لها ويُطِيعَها.

٤ ـ أنها قالت: إلا أن يُسْجَن والمراد منه: أن يُسْجَنَ يوماً أو أقلَّ على سبيل التخويف فحسبُ، أمَّا الحبس الدائِمُ، فكان يقال فيه: يجب أن يُجْعَلَ من المسجونين ألا ترى أنَّ فِرْعَوْنَ حينَ هَدَّدَ موسى قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

وجملة القول في هذا: أنَّ يوسف عليه السلام كَانَ قوي الإرادة لا يمكن غَيْرُه أن يحتال عليه، ويَصْرِفَه عن رأيه، ويجعلَه خاضعاً له، ومن ثم لم تستطع امرأةُ العزيز أن تُحوِّل إرادتَه إلى ما تريد بمراودتها، ولا عَجَب في ذلك فهو في وِراثتِه الفطرية، والمكتسبة، ومقام النبوة عن آبائه الأكرمينَ، وما اختصَّه به ربه من تربيته، والعناية به، وما شهد له به من العرفان، والإحسان، والاصطفاء، وما صَرَفَ عنه من دواعي السوء، والفحشاء في مكان مكين، وحرز حصين من أن تتطلع نفسه إلى اجتراح السيئات، وارتكاب المنكرات، فكل ما صوروه به من

الصور البَشِعَةِ الدالة على الميل إلى الفجور، إنما هو من فعل زنادقة اليهود، لِيُلَبِّسوا على المسلمين دينهم، ويشوهوا به تفسيرَ كلام ربهم، ولا يَغُرَّنَّك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة، والتابعين، فهي موضوعة عليهم، ولا ينبغي أنْ يُعْتَدَّ بها؛ لأن نُصوصَ الدِّين تنبذها إلى أنه من علم الغيب في قصة لم يعلم الله رسولَه غير ما قصه عليه في هذه السورة، وكَفَى بهذا دلالة على وضعها.

ثم قال العزيزُ لزليخا: من أراد بأهلي سوءاً، قالت زُليخا: كنت نائمةً في الفراش، فجَاءَ هذا الغلام العبراني، وكشف عن ثيابي، وراودني عن نفسي، فالتفت العزيز إلى يُوسُفَ وقال: يا غلام هذا جزائي منك حيث أحسنت إليك، وأنت تحزنني ﴿قَالَ﴾ يوسف دَفعاً عن نفسه، وتنزيهاً لعرضه ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾؛ أي: طالبتني للمواقعة لا أني أردت بها سوءاً كما قالت؛ أي: هي طلبتني فامتنعتُ، وفرَرَتُ كما ترى.

ولم يَقُل هذه ولا تلك لفرط استحيائه، وهو أدبٌ حسن، حيث أتى بلفظ الغيبة، ولم يكن يوسف يريد أن يهتكَ سَتْرَها، ولكن لما لَطَّخَتْ عرضه احتاجَ إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه، فصرَّحَ بالأمر فقال: هي طَالَبَتْنِي لِلمُواتَاة. وكانت الأمارات دالة على صدق يوسف لوجوه:

١ ـ أن يوسف كَانَ مولى لها، وفي مَجْرى العادة: أنَّ المولى لا يجرؤ أن يتسلَّط على سيدته، ويَتَشدَّد إلى مثل هذا.

٢ـ أنهم رَأوا يُوسُفَ يعدو عَدْواً شديداً ليخرجَ، ومن يطلب امرأةً لا يَخْرُجُ على هذا النحو.

٣ـ أنهم رأوا الزينة قد بدَتْ على وجه المرأة، ولم يكن لها من أثر على وجهِ يوسف.

٤ـ أنهم لم يشاهدوا من أخلاق يُوسُفَ في تلك الحقبة الطويلة ما يؤيد مثل هذه التهمة، أو يقوِّي الظنَّ عليه بأنه هو الطالبُ لا الهاربُ.

وقد أظهر الله تعالى لبراءته ما يقوّي تلك الدلائل الكثيرةَ التي تظاهَرَتْ على أن بدء الفتنة كانت منها لا منه، وأنها هي المذنبة لا هو.

فقال العزيز ليوسف: مَا أقبل قولك إلا ببرهان. وفي رواية نظر العزيز إلى ظاهر قول زليخا وتظلمها، فأمر بأن يُسْجَن يوسُفَ، وعند ذلك دعا يوسفَ بإنزال البراءة، وكان لزليخا خال له ابن في المهد ابن ثلاثة أشهر، أو أربعة، أو ستة على اختلاف الروايات، فَهبَط جبريل إلى ذلك الطفل، وأجلسه في مهده، وقال له: اشهد ببراءة يوسف، فقام الطفل من المهد وجعل يَسْعى حتى قام بين يدي العزيز، وكان في حجراته كما قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ أي: ابن خالها الذي كان صبياً في المهد، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ليكونَ أَوْجَبَ للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه.

واستدلَّ على أنَّ هذا الشاهدَ كانَ صبيّاً في المهد بما نقل عن ابن عباس، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار، ابنُ ماشطة بنت فرعون، لَمَّا أَسْلَمَتْ، أخبرتَ البنت أباها بإسلامها، فأمر بإلقائها، وإلقاء أولادها في النقرة المتخذة من النحاس المحماة، فلما بلغت النوبة إلى آخر ولدها، وكان مُرْضَعاً قال: اصبري يا أماه فإنك على الحق، وشاهد يوسف، وصاحبُ جُريج، وعيسى بن مريم».

وبما روي عن أبي هريرة قال: عيسى بن مريم، وصاحب يوسف، وصاحب جريج، تكَلَّموا في المهد. وهذا موقوف لا يصلح الاحتجاج به، والأول قد ضعفه رجال الحديث، إلا أنه لو نطَقَ الطفل بهذا لكان قولُه كافياً في تفنيد زعمها دون حاجة إلى الاستدلال بتمزيق القميص، لأنه من الدلائل الظنية، وكلامه في المهد من الدلائل اليقينية، وأيضاً لو كانَ كذلك لما كان هناك داعٍ إلى قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ الذي ينفي التحاملَ عليها، ويمتنع إرادة الضر بها. وأيضاً، فإن لفَظَ الشاهد لا يقع عُرْفاً إلا على من تقدَّمَتْ معرفته لما يَشْهَدُ وإحاطته به.

أي: وشهد شاهد من أهلها، فقال: أيها العزيز: إن عندي في أمرك هذا ما لَكَ فيه فرَجٌ ومخرجٌ، انظر إلى قميص الغلام العبرانيّ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾؛ أي: شقَّ من قدام ﴿فَصَدَقَتْ﴾؛ أي: فقد صدقت المرأة ﴿وَهُوَ مِنَ

﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي﴾ لأنه إذا طلبها دفعته عن نفسها، فشقَّتْ قميصَه من قدام، أو يُسْرِعُ خَلْفَها لِيُدْرِكَها فيتعثر بذيله فينشق جيبه، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: من خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾؛ أي: فقد كذبت المرأة في دعْواها ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي﴾ لأنه يدل على أنَّها تَبِعَتْهُ فاجتذَبَتْ ثَوْبَهُ فقدَّتْه، وقوله[1]: ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جملتان مؤكدتان لأنَّ من قوله: ﴿فَصَدَقَتْ﴾ يعلم كذبه، ومن قوله: ﴿فَكَذَبَتْ﴾ يعلم صدقه، وفي بناءِ «قُدَّ» للمفعول ستر على مَنْ قَدَّه. وقال المفضل بن حرب: رأيت في مصحف ﴿قُطَّ من دبر﴾ أي شُقَّ. وقال ابن عطية: وقرأت فرقة ﴿قُطَّ﴾. وقرأ زيد بن علي: ﴿أو عذاباً أليماً﴾ وقدره الكسائي أو يعذَّب عَذاباً أليماً. وقرأ الجمهور: ﴿مِن قُبُلٍ﴾ و﴿مِن دُبُرٍ﴾ بضم الباء فيهما والتنوين. وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية بتسكينها، وبالتنوين وهي لغة الحجاز وأسد. وقرأ ابن يعمر، وابن أبي إسحاق، والعطاردي، وأبو الزناد، ونوح القارىء، والجارود بن أبي سَبْرة بخلاف عنه: ﴿من قبل ومن دبر﴾ بثلاث ضمات. وقرأ ابن يعمر، وابن أبي إسحاق، والجارود أيضاً في رواية عنهم بإسكان الباء مع بنائهما على الضم، جعلوهما غايةً نحو من قبل، ومعنى الغَايَةِ: أن يصيرَ المضاف غايةَ نَفْسِهِ بعدما كان المضاف إليه غَايَتَه. والأصل: إعرابهما لأنهما اسمان متمكنان، ولَيْسا بظرفين. وقال أبو حاتم: هذا رديء في العربية، وإنما يقع هذا البناء في الظروف. وقال الزمخشري: والمعنى: مِنْ قُبُل القميص ومن دُبره. وأما التنكير فمعناه: من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها: دبر. وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: ﴿من قبل ومن دبر﴾ بالفتح كأن جعَلَهُما عَلَمين للجهتين، فَمَنَعهما الصرفَ للعلمية والتأنيث.

والمعنى[2]: أي وحَكم ابن عم أو خال لها مستدلاً بما ذكر، وكان عَاقِلاً حَصيفَ الرأي، فقال: قد سَمِعْنَا جلبةً وضوضاء، ورأينا شق القميص، إلا أنا لا ندري أيكما كان قُدَّامَ صاحبه، فإن كان شق القميص من قُدَّام فصدقت في دعواها، أنه أراد بها سوءاً؛ إذ الذي يقبله العقل أنه لما وثب عليها أخذت

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

بتلابيبه، فجَاذَبَها فانقد قميصه، وهما يتنازعان، ويتصارعان، وهو من الكاذبين، في دَعواه أنها راودته فامتنعَ وفرَّ هارباً، فتبعته وجذبته تريد إرجاعه، وإن كَانَ قميصه قُدَّ من الخَلْف فكذبت في دعواها، أنه هجم عليها يريد ضَرْبَها، وهو من الصادقين في قوله: أنه فرَّ هارباً منها.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ العزيز ﴿قَمِيصَهُۥ﴾؛ أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ﴾ وشق ﴿مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: من وراءَ وخلف، وعلم براءة يوسف وصدقه ﴿قَالَ﴾؛ أي: العزيز ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ الأمر الذي وقع فيه التشاجر ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾؛ أي: من جنس حيلتكنَّ ومكركن أيها النساء، لا من غيركن، فخَجَلَتْ زليخا، وتعميم الخطاب للتنبيه على أنَّ ذَلِكَ خُلُقٌ لهن عريق ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾ ومَكْرَكُنّ يا معشرَ النساء ﴿عَظِيمٌ﴾ فإنه ألصق، وأعْلَقُ بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس؛ أي: من كيد الرجال؛ لأنَّ لهن في هذا الباب من الحِيَلِ ما لا يكون للرجال، ولأنَّ كَيْدَهُنَّ في هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال، ولأنَّ الشيطان يوسوس مسارقة، وهن يواجههن به الرجال، فالعظم بالنسبة إلى كيد الشيطان.

وقال بعض العلماء: إنِّي أخاف من النساءِ ما لا أخاف من الشيطان، فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ وقال للنساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. وإنما وَصَف كَيْدَ النِّساءِ بالعِظم، وكَيد الشيطان بالضَّعْفِ، لأنَّ كَيْدَ النساء أقوى بسبب أنهن حبائل الشيطان، فكيدهن مقرونٌ بكيد الشيطان فهما كيدان، بخلاف كيد الشيطان دونهن فكيد واحد.

والمعنى[1]: أي فلمَّا نظر العزيز إلى القميص، ورأى الشقَّ من الخلف أيقَنَ بصدق قوله، واعتقد كَذِبَها، وقال: إن هذا محاولة للتنصل من جُرْمِهَا باتِّهامها له بضروب الكيد المعروفة عن النساء، فهو سنة عامة فيهن، فهن يجتهدن في التبري من خطاياهن، ما وجدن إلى ذلك سبيلاً، وكيد النساء عظيم، لا قبَلَ للرجال به، ولا يفطنون لحيلهن حتى يدفَعُوها قدر المستطاع، ولا شكَّ أنَّ هذه شهادة من

---

(١) المراغي.

قريب لها، لا يُتَّهَمُ بالتحامل عليها، ولا بظلمها، وتجريحها برَمْيِها بما هي منه براء.

ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله: يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمر الذي جَرَى، واكتمه، ولا تتحدث به حتى لا يشيع فيعيروني. ثم أقبلَ عليها بالخطاب فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ أنتِ يا زليخا ﴿لِذَنۢبِكِۖ﴾ الذي صدر منك وثَبَتَ عليك؛ أي: توبي إلى الله تعالى ممَّا رَمَيْتِ يُوسُفَ به وهُو بريء منه. فإنْ قلت: إنَّهم قوم مشركون، فلا يعرفون ذَنْبَهُم مع خالقِهِم، فما الذنب الذي يطلب منه الاستغفار؟ أُجِيبَ: بأن المرادَ بالذنب خِيَانتها لزوجها.

﴿إِنَّكِ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾؛ أي: من جملة القوم الذين تَعَمَّدُوا للخطيئة والذنب، يقال: خطىء إذا أذنب عَمْداً.

والجملة[1]: تعليل لما قَبْلَها من الأمر بالاستغفار، ولم يقل من الخَاطِئَات تغليباً للمذكر على المؤنث كما في قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾. وقيل: إن القائلَ لِيُوسُفَ ولامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حَكَمَ بينهما.

والمعنى[2]: أي يا يوسف أعرض عن ذكر هذا الكيد، الذي حصل، ولا تتحدَّثْ به كي لا ينتشر أمرُه بين الناس، ولا تَخَفْ من تهديدها، وكيدها لك، وأنتِ أيتها المرأة توبي إلى ربك واستغفري لذنبك، إنك كنت من زمرة المجرمين، الذين يتعمدون ارتكابَ الخَطايا، ويجترحُون السيئات، وهم مُصِرُّون عليها. قيل[3]: وَكَان العزيز رَجُلاً حَلِيماً فاكتفى بهذا القدر في مؤاخذتها. وقيل: إنه كانَ قليلَ الغيرة بل قال في «البحر»: إنَّ تُرْبَةَ مصر تقتضي ذلك، ولهذا لا يَنْشأُ فيها الأسد، ولو دَخَل فيها لا يَبْقى. ورُوي أنَّه حَلَفَ أن لا يدخل عليها إلى أربعين يوماً، وأخرج يوسف من عندها، وشغله في خِدْمَتِه وبقِيَتْ زُليخا لا تَرَى يُوسُفَ.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾؛ أي: جماعة من النساء ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظرف لـ ﴿قَالَ﴾؛ أي: أَشَعْنَ الأمر في مصر، أو صفةٌ للنسوة، وكنَّ خَمْساً امرأة الخبَّاز، وامرأة السَّاقِي، وامرأة صاحب الدواب، وامرأةُ صاحب السجن، وامرأة الحاجب. والنِّسوة اسم جمع لامرأة، وتأنيثه غير حقيقي، ولذا لم يُلْحِق فعلَه تاءَ التأنيث. يقال فيه: نسوة بضم النون، وهي قراءةُ الأعمش، والفضل، وسليمان. ويقال: نسوة بكسر النون، وهي قراءة الباقين، ذكره الشوكاني. ولم[1] يشر الكتاب الكريم إلى عَدَدهنّ، ولا إلى صفاتهن؛ لأنَّ العِبْرَةَ ليست في حاجة إلى ذلك، والذي يقتضيه العُرْفُ، ومجرى العادة أنه عَمَلُ جماعة قليلة من بيوتات كبار الدولة، يُعْهَدُ منهن في العُرف أن يأْتَمِرْنَ، ويتفقن على الاشتراك في مثل هذا المكر؛ إذ نساء البيوت الدنيا أو الوسطى، لا تتجه أنظارُهن إلى الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الدولة، ولا إلى مشاركتها في سلب عشيقها، ولا إلى التمتع بجماله الساحر، وحادث مثل هذا جدير بأن ينتقلَ من بيت إلى بيت بوساطة الخَدم، ويكون الشغلَ الشاغلَ للنساء في مجالسهن الخاصَّة، وسمَرِهِنّ في البيوت، وخلاصَتُهُ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾؛ أي: تطالب غُلامَها بمواقعته لها، وتحتال في ذلك، وتُخادعه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾، وهو يمتنعُ منها. وتُرْسَم امرأةُ هذه بالتاء المجرورة، وأمَّا بالنطق فوقف عليها ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بالهاء، والباقون بالتاء. وأما في الوصل فبالياء للجميع، اهـ خطيب. والعزيزُ بلسان العرب، الملك، والمراد به[2]: قِطْفير، وزير الرَّيان، وبامرأته زليخا، ولم يصرِّحْنَ باسمها على ما عليه عادة الناس عند ذكر السلطان، والوزير، ونحوهما، وذكر من يَتْبَعهم من خواص حُرَمهم. وقال بعضهم: صرَّحْنَ بإضافتها إلى العزيز، مبالغةً للتشنيع؛ لأنَّ النُّفوسَ أقبل إلى سماع أخبار ذوي الأخْطار وما يجري لهم.

وهذا كلام يقال[3] للإنكار والتعجب منْ حصوله لوجوه عدَّة:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

١ ـ أنها امرأة العزيز الأكبر في الدولة، ولها المنزلة السَّامِيةُ بين نساء العظماء.

٢ ـ أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها.

٣ ـ أنها قد بَلَغَ بها الأمر أنْ جادَتْ بعفتها، فكانت هي المراوِدة، والطالبةُ لا المراوَدةَ المطلوبة.

٤ ـ أنها وقد شاع ذكرها في المدينة، لم ينثن عزمها عمَّا تريد بل لا تزال مجدَّةً في نيل مرغوبها، والحصول على مطلوبها كما يفيد ذلك قولهن: ﴿تُرَاوِدُ﴾ وهو فعل يدل على الاستمرار في الطلب.

ثم أكدن هذا الإنكارَ بقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أي: قد شَقَّ[1] فتاها شِغَاف قلبها من جهة الحب، والشغاف: جلدة محيطة بالقلب، يقال لها غلاف القلب.

والمعنى[2]: أنَّ حبه دَخَلَ الجلدةَ حتى أصاب القلبَ، وقيل: إن حُبَّه قد أحاط بقلبها، كإحاطة الشغاف بالقلب.

وقال الكلبي: حَجَبَ حبه قَلْبَها حتى لا تَعْقِلَ شيئاً سواه.

والمعنى: أي قد شَقَّ حبه شغاف قلبها؛ أي: غِلافَهُ المحيط به، وغاصَ في سويدَائِه فَمَلَكَ عليها أمرها، فلا تبالي بما يكون من عاقبة تهتكها، ولا بما يصيرُ إليه حالها. وقرأ[3] ثابت البناني: ﴿شغِفها﴾ بكسر الغين المعجمة، والجمهور بفتحها. وقرأ الحسن: ﴿قد شغُفها﴾ بضم الغين المعجمة كما ذكره الشوكاني. وقرأ علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وابنه محمد بن علي، وابنه جعفر بن محمد، والشعبي، وعوف الأعرابي بفتح العين المهملة، وكذلك قتادةُ، وابن هرمز، ومجاهد، وحميد، والزهري بخلاف عنهم.

---

(١) المراح.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

ورُوِيَ عن ثابت البناني، وابن رجاء كسر العين المهملة. قال ابن زيد: الشَّغَفُ في الحُبِّ، والشَّعَفُ في البُغْضِ.

وقال الشعبي: الشغف والمشغوف بالغين المعجمة في الحبِّ، والشعف الجنُونُ، والمشعوف المجنون. وأدْغَمَ النحويان أبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وهشام، وابن محيصن دَالَ (قَدْ) في شين (شَغَفَها). ثم زدنَ ذلكَ تأكيداً بقولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في خطأ بيِّنٍ ظاهرٍ، حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفافِ، والستر وأحبَّت فتاها؛ أي: إنا لنعلم أنها غَائِصَة في مَهَاوِي الضلالة البينة البعيدة عن طريق الهدى والرشاد. ولم يكن قولهن هذا إنكاراً للمنكر، ولا كرهاً للرذيلة، ولا نصراً للفضيلة، بل قلنه مَكْراً وحيلةً ليصل الحديث إليها، فيَحْمِلها ذلك على دعوتهن، والرؤية بأبصارهن، ما يكون فيه معذرة لها، فيما فعلتْ، وذلك منهن مَكْر ولا رأيٌ، وقد وصلنَ إلى ما أردْنَ. وهذه الجملة[1] مُقرِّرَة لمضمونِ ما قبلها.

والمعنى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي: نَعْلَمُها في فعلها هذا، وهي المراودة لفتاها ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن طريق الرشد والصواب، ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: واضح لا يلتبس على مَنْ نظَر فيه، وإنما لم يقلْنَ[2]: إنها لفي ضلال مبينٍ إشعاراً بأنَّ ذلكَ الحكمَ غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم، ورأي، مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه، ولذا ابْتَلاهن الله تعالى بما رَمَيْنَ به الغيرَ، لأنه ما عَيَّر واحد أخاه بذنب إلاَّ ارتكبه قبْلَ أن يَمُوتَ.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ امرأة العزيز ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾؛ أي: باغتيابهن إياها، وسوءِ قولهن، وقولهن: امرأة العزيز عَشقَتْ عبدها الكِنعانِيَّ، وهو مَقَتَها. وسميت الغيبة مكراً لاشتراكهما في الإخْفاءِ. ﴿أَرْسَلَتْ﴾ امرأة العزيز ﴿إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: إلى نسوة المدينة تدعوهن للضيافة إكراماً لهن، ومكراً بهن، ولتُعْذَر في يوسف، لعلمِها أنهن إذا رأينَهُ دهشن وافتتنَّ به. قيل: دَعَتْ أربعين امرأةً، منهن الخَمْسُ المذكوراتُ.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

﴿وَأَعۡتَدَتۡ﴾؛ أي: أحْضرَتْ وهيَّأتْ ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾؛ أي: ما يتكئنَ عليه من النمارق والوسائد وغيرها عند الطعام، والشراب، كعادة المترفهين، ولذلك نهي عن الأكل بالشمال أو متكأ.

وهذا إنْ[1] قُرِىءَ: مُتَّكَأً بالتشديد، فإن قرىء بالتخفيف مُتْكَأً، كان معناه: الأترج أو الزماورد بالضم، وهو طعام من البيض واللحم، معرب كما سيأتي في مبحث القراءة، لأنهم كانوا يتكئون على المسانيد عند الطعام، والشراب، والحديث. ﴿وَءَاتَتۡ﴾؛ أي: أعطَتْ ﴿كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ﴾؛ أي: من تلك النسوة الحاضرات ﴿سِكِّينٗا﴾ لأجل أكل الفاكهة واللحم؛ لأنهم كانوا لا يأكلون من اللحم إلا ما يقطعون بسكاكينهم، وكانت تِلْكَ السَّكَاكِين تسمَّى خناجرَ. ﴿وَقَالَتۡ﴾؛ أي: زليخا ليوسف وهنَّ مشغولات بإعمال الخناجر في الطعام ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾؛ أي: أبرز لهن، ومرَّ عليهن، فإنَّ يوسُفَ عليه السلام ما قَدر على مخالفتها خوفاً منها.

وحاصل المعنى: أي فلمَّا[2] سمعت مقالتَهن التي يردنَ بها إغضابَها حتى تريَهُنَّ يُوسُفَ إبداء لمعذرتها فيسألن ما يَبْغِينَ من رؤيته، وقد كان من المتوقع أن تَسْمَعَ ذلك لما اعتيدَ بَيْنَ الخَدم من التواصل والتزاور وهن ما قلنَه إلا لتَسمَعه، فإنْ لم يَتمَّ لهن ما أردن احتلن في إيصاله، وقد كان ما أرَدْنَ كما قال: ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾؛ أي: مَكَرت بهن كما مكرن بها، ودعتْهُنَّ إلى الطعام في دارها، وهيأت لهن ما يتكئنَ عليه من كراسي، وأرائكَ كما هو المعروفُ في بيوت العظماء. وكان ذلك في حجرة المائدة، وأعطت كلَّ واحدة منهن سكيناً، وخَنْجراً، لِتَقْطَعَ بها ما تأكل من لحم وفاكهة. ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾؛ أي: وأمرته بالخروج عليهن.

وفي هذا إيماء إلى أنه كان في حجرة في داخل حجرة المائدة التي كنَّ فيها محجوباً عنهن، وقد تَعَمَّدَتْ إتْماماً للحيلَةِ والمكر بهن أن يفجأهُنَّ، وهن

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

مشغولات بما يقطعنه، ويأكلنه عِلْماً منها بما يكون لهذه المفاجأة من الدَّهْشَةِ.

وقد تم لها ما أرادَتْ كما يُشير إلى ذلك قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ هذا مرتَّب على محذوف تقديره: فَخَرج عليهن فلما رأينه أكبرنه؛ أي: فلمَّا رأتِ النسوة يوسفَ أكبَرْنَه؛ أي: أعظمنَ[1] يُوسُفَ ودهشن عند رؤيته من شدَّةِ جماله، وكان يوسُف قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحسن.

وقال عكرمة: كان فَضْلُ يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم. وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أُسْرِيَ بي إلى السماء، يوسفَ كالقمر ليلةَ البدر» ذكره البغوي بغير سند.

وقيل[2]: معنى: أكبرن؛ أي: حِضْنَ، والهاء إما للسكت أو ضمير راجع إلى يوسف على حذف اللام؛ أي: حِضْنَ له من شدة الشَّبَقِ، وأيضاً إنَّ المرأة إذا فَزِعَتْ فربما أسقطَتْ ولدَها، فحاضَتْ ويقال: أكبرت المرأة؛ أي: دخلَتْ في الكبر، وذلك إذا حاضَتْ لأنها بالحيض تَخْرُج من حَدِّ الصغر إلى الكبر.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: وعندي أنه يحتمل وجهاً آخرَ، وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأيْنَ عليه نُورَ النبوة، وسِيمَا الرسالة، وآثارَ الخضوع والإخبات، وشاهدن فيه مهابةً وهيبةً ملكيةً، وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن، وكان ذلك الجمالُ العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة، فتعجبن من تلك الحالة، فلا جَرَمَ أكبرنَه، وأعظمنه، ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن. قال: وحمل الآية عى هذا الوجه أولى، انتهى.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: جرحن أيديهن حتى سال الدَّمُ، ولم يَجِدْن الألَمَ لفرط دهشتهن، وشغل قلوبِهِنَّ بيوسف؛ أي: فلمَّا رأينه أعظمنه فقطَّعْنَ أيديَهُنَّ بدلاً من تقطيع ما يأكلن ذهولاً عمَّا يعملن؛ أي: فجرحنها بما في أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن، وخُرُوج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار، حتى لا

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

يشعرن بما عَمِلْنَ، ولا أَلِمْنَ لما نالهن من أذى، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير في كلامهم، فيقولون: كنت أَقْطَعُ اللحمَ فقطعْتُ يدي، يريدون فأخطأتها، فَجَرحْتُ يدي حتى كدتُ أقطعها.

ولم تقطع[1] زليخَا يديها؛ لأنّ حَالَها انتهت إلى التمكين في المحبة، كأهل النِّهايات، وحال النسوة كانت في مقام التَّلْوين كأهل البِدايات، فلكل مقام تَلَوُّنٌ وتمكنٌ وبداية ونهاية.

﴿وَقُلْنَ﴾؛ أي: النِّسْوَةُ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: تنزيهاً، وبراءةً لله سبحانه وتعالى من كل النقائص. وحَاشَ كلمة وُضِعَتْ موضِعَ المصدر، فمعناه التنزيه، والبراءةُ بدليل قراءة أبي السماك: حاشاً لله بالتنوين واللام لبيان المبرأ، والمنزه كما في (سقياً لك). ﴿مَا هَٰذَا﴾ الغلام ﴿بَشَرًا﴾؛ أي: ليس هذا آدمياً مثلنا؛ لأن هذا الجمالَ غيرُ معهود للبشر ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى ما؛ أي: ما ﴿هَٰذَا﴾ الغلام ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ على الله فإن[2] الجمعَ بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمةِ البالغةِ من خواصِّ الملائكة، أو لأنَّ جَمَالَهُ فوقَ جَمَال البشر، ولا يَفُوقه فيه إلا المَلَكُ، وقَصَرْنَهُ[3] على الملكِيَّة مع علمهن أنه بشر؛ لأنَّه ثَبَتَ في النفوس أنه لا أكمل ولا أحسن خلقاً من المَلَك، يعني رَكَزَ في العقول أن لا حيَّ أحسنَ من الملك، كما ركزَ فيها أن لا أقبح مِنَ الشيطان. ولذلك لا يزال يشبَّه بهما كل متناه في الحسن والقبح، وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال.

وروي أنه كان يُوسُفُ إذا مشى في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه، كما يُرى نور الشمس من السماء عليها، وكان يُشْبِهُ آدمَ يوم خلقه ربه، وكانت أمه رَاحِيلُ وجدَّتُه سَارَة جميلتين جداً.

أي: وقلن على سبيل[4] التعجب والتنزيه لله تعالى، ما صَحَّ أن يكونَ هذا الشخص الذي لم يُعْهَد مثاله في جماله، وعفَّتِه من النوع الإنساني، إن هو إلاَّ

---

(١) روح البيان.
(٢) البيضاوي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

ملك تمثَّلَ في تلك الصورة البديعة، التي تخبل العقولَ، وتدهِشُ الأبصارَ.

رُوِيَ عن زيد بن أسلم من مفسِّري السلف: أعطَتْهُنَّ أُتْرُنْجاً «ثمر من نوع الليمون الحامض كبيرٌ مستطيلٌ يؤكَلَ بعد إزالة قشرته» وعسلاً فكن يحززنَ بالسكين ويأكلنه بالعسل، فلَمَّا قيل له: اخرج عَلَيْهِنَّ خَرَجَ، فلما رأينَه أعظمنه، وتَهَيَّمْنَ به حتى جعلن يحززن أَيْدِيَهُن بالسكين، وفيها الترنجُ، ولا يعقلنَ ولا يحسبنَ، إلا أنهن يحززن الأترنج، قد ذهبَتْ عقولهن مما رأينَ، وقلْنَ حاش لله ما هذا بشراً؛ أي: ما هكذا يكون البشرُ ما هذا إلا ملك كريم. وقرأ[1] الزهري، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿متَّكى﴾ مشددَ التَّاءِ من غير همز على وزن متقى، فاحتمل ذلك وجهين:

أحدهما: أن يكون من الاتكاء، وفيه تخفيفُ الهمز كما قالوا في توضأت: توضيتُ.

والثاني: أن يَكُونَ مفتعلاً من أوكيت السقاءَ إذا شددتَه؛ أي: ما يشتددنَ عليه إما بالاتكاء، وإما بالقطع بالسكين. وقرأ الأعرج: ﴿مُتْكَأً﴾ بوزن مفعلاً من تكأ يَتْكَأُ إذا اتَّكَأَ. وقرأ الحسن، وابن هرمز: ﴿متكاءً﴾ بالمد والهمز وهو مفتعل من الاتكاء إلا أنه أشبع الفتحة فتولَّدَتْ منها الألفُ كما قال الشاعر:

أُعُـوْذُ بِـٱلـلَّـهِ مِـنَ ٱلْـعَـقْـرَابِ ٱلـشَّـائِـلَاتِ عُـقَـدَ ٱلأَذْنَـابِ

وقرأ ابن عباسَ، وابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والجحدري، والكلبي، وأبان بن تغلب ﴿مُتْكاً﴾ بضم الميم وسكون التاء وتنوين الكاف. وجاء كذلك عن ابن هرمز. وقرأ عبد الله، ومعاذ، كذلك إلا أنهما فَتَحَا الميم. وقرأ الجمهور: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ بغير ألف بعد الشين، والله بلام الجر. وقرأ أبو عمرو: ﴿حاشا للّه﴾ بألف ولام جر. وقرأت فرقة منهم الأعمش: ﴿حَشَى﴾ على وزن رمى، ﴿للَّه﴾ بلام الجر. وقرأ الحسن: ﴿حاش﴾ بسكون الشين وصلاً، ووقفاً، وبلام الجر. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿حاش الله﴾ بالإضافة، وعنهما كقراءة أبي

---

(١) البحر المحيط.

عمرو، قاله صاحب «اللوامح». وقرأ الحسن: ﴿حاش الإلّه﴾ قال ابن عطية: محذوفاً من حاشى. وقرأ أبو السمال: ﴿حاشا للّه﴾ بالتنوين كرعياً لِلّهِ.

فأما القراءات ﴿للّه﴾ بلام الجر في غير قراءة أبي السمال، فلا يجوز أن يكون ما قبلها مِن حَاشَى، أو حاشَ، أو حَشَى، أو حَاشَ حرف جر، لأنَّ حرف الجر لا يدخل على حرف الجر، ولأنه تصرُّف فيها بالحذف. وأصل التصريف بالحذف أن لا يكون في الحروف. وزعم المبرِّد وغيره، كابن عطية، أنه يتعيَّن فعليتها، ويكون الفاعل ضمير يُوسُفَ؛ أي: حاشى يوسف أن يفارِقَ ما رَمَتْهُ به زليخا، وعلى هذا تكون اللامُ في ﴿للّه﴾ للتعليل؛ أي: جانَبَ يوسف المعصيةَ لأجل طاعةِ الله. وذهب غير المبرد إلى أنها اسم، وانتصابها على المصدرية انتصابَ المصدر الواقع بدلاً من اللفظ بالفعل، كأنه قَالَ تنزيهاً لله، ويدل على اسميتها قراءة أبي السمال: ﴿حاشا﴾ منوناً. وعلى هذا القول يتعلَّق لله بمحذوف على البيان كَلام لَكَ بعد سقياً، ولم ينوَّن في القراءات المشهورة مراعاةً لأصله الذي نقِل منه، وهو الحرف.

وأما قراءةُ الحسن، وأبي بالإضافة فهو مصدر مضاف إلى فاعله، كما قالوا: سبحانَ الله، وهذا اختيار الزمخشري. وقال ابن عطية: وأما قراءة أبي بن كعب، وابن مسعود، فقال أبو علي: إنَّ حاشى حرفُ استثناء، كما قال الشاعر:

حَـــاشَـــىٰ أَبِـــيْ ثَـــوْبَـــانَ

انتهى. وأما قراءة حاش بالتسكين ففيها جَمْعٌ بين ساكنين، وقد ضعَّفوا ذلك. وقرأ الحسن، وأبو الحويرث الحنفي: ﴿ما هذا بشراء﴾ على أنَّ الباء حرف جر، والشين مكسورة، فالشراء حينئذ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: ما هذا بعبد يُشْتَرى. وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله: ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وتابَعهما عبد الوارث عن أبي عَمْرو على ذلك، وزَادَ عليهما: ﴿إلا ملك﴾ بكسر اللام، واحد الملوك فهم نفَوا بذلك عنه ذل المماليك، وجعلوه في حيِّزِ الملوك، والله أعلم، انتهى. ونسب ابن عطية كسْرَهَا للحسن، وابن الحويرث اللذَين قرآ: ﴿بشرى﴾.

﴿قَالَتْ﴾ امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسفَ ودهشْنَ عند رؤيته ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾، والخطاب في (كن) للنسوة، والإشارة في ذا ليوسف، ولم تَقُلْ فهذا مع أنه حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن، واسم الإشارة مبتدأ، والموصول خبرَه، وهو ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾؛ أي: فذلكن الخارج الذي ظَهَرَ لكم هو الغلام الذي لمتنَّني، وعيبتُنَّني في شأنه ومحبته. وإنما قالت ذلك لإقامة عُذْرِهَا عندهن، حِينَ قلْنَ إنَّ امرأة العزيز قد شَغَفَها فَتَاها الكنعانيُّ حبّاً، وإنما قالت فذلكن الخ، بعدما قام من المجلس، وذهَبَ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ﴾؛ أي: والله لقد راودتُه، وطلَبْت منه أن يمكنني ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ حسبما قلتن وسمعتن ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾؛ أي: فامتنعَ من ذلك الفعل الذي طلبته منه، وإنَّما صرحت بذلك لأنَّها علمت أنه لا مَلامَةَ عليها منهن، وإنهن قد أصابَهُنَّ ما أصابها عند رؤيته؛ أي: طلَب العصمةَ من الله مبالِغاً في الامتناع؛ لأنه يدلُّ على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنَّه في عصمة، وهو مجتهد في الاستزادة منها. وفيه برهان نيِّرٌ على أنه لم يصدر عنه شيء مخل باستعصامه، بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ من الهم وغيره. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾؛ أي: والله لئن لم يَفْعَلْ يُوسُفُ ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ به مستقبلاً من قضاء شهوتي كما لم يفعله ماضياً والله ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنون الثقيلة آثَرتْ بِناء الفعل للمفعول[1] جَرْياً على رَسْمِ الملوك؛ أي: واللّهِ ليعاقبنَّ على إباءه بالسجن والحبس ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالنون الخَفِيفَة، وإنما كتبت الألف إتباعاً لخط المصحف مثل ﴿لَنَسْفَعًا﴾ على حكم الوقف يعني أنَّ النون الخفيفة يبدل منها في الوقف الألف لشبهها بالتنوين، كقول الأعشى:

وَلاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللَّهَ فَٱعْبُدَا

﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ أي: من الأذلاء المقهورين في السجن، وهو من[2] صغر بالكسر، والصغيرُ من صَغُرَ بالضم؛ أي: والله لَيَكُونَنْ يُوسُفُ من الصاغرين المهانين في السجن، فإن زوجي لا يخالف لي رغبةً ولا يَعْصِيني في أمر، وسيعاقبه بما أريد، ويُلْقِيهِ في غَيَابَاتِ السجون، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه، وجعلِه كولده. وقرأت فرقة: ﴿وليكوننَّ﴾ بالنون المشددة.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

وفي ذلك[1] إيماء إلى أنها ستشدِّد العقوبةَ عليه أكثرَ مما توعَّدتْ به أولاً، فهناك أنذرته بسجن قد يكون على أخفِّ صورة، وأقلِّها وعذاب بأهون أنواعه، وألطفها كحَبْسٍ في حجرة الدار، أو لَطْمة على خَدَّيْهِ تُزِيلُ منها الاحمرار. وهنا أَنْذَرَتْهُ بسجن مؤكَّد، وذل وصغار تأباه الأنفسُ الكريمةُ كنفس يوسف عليه السلام، فأشق الأعمال أهْوَنُ على كِرامِ الناس من الهوانِ والصَّغَارِ.

وفي هذا التهديد ليُوسُفَ من ثقتها بسلطانها على زوجها مع علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، ما كان مِنْ حقه أن يجعلَ يُوسُفَ يَخَافُ من تنفيذ إرادتها، ويثبتَ لديه عَدَم غيرته عليها، كما هو الحالُ لدى كثير من العظماء المُتْرفينَ العاجزين عن إحصان أزواجهم، والمحرومين من نِعْمَةِ الأولاد منهن، ورُبَّما تكون مُبَالَغَتُها في تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما في قَلْبها منه من غل، وجَوى بظهور كذبها، وصدقه، وتصميمه على عِصْيَان أمرها، ولتُظْهِرَ لِيُوسُفَ أنها ليسَتْ في أمرها على خِيفةٍ من أحد، فتضيِّقَ عليه، ولينصَحْنَه في موافقتها، ويرشِدنَه إلى الخلاص من عذابها.

فلمَّا سمع يوسف مقالَتَها هذه، وعَرَف أنها عُزْمَةٌ منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز، قال مناجياً لربه سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾؛ أي: قال: يا ربي أنت العليم بالسر، والنجوى، والقدير، على كشف تلك البلوى؛ إنَّ دُخُولَ السجن الذي هدَّدَتْ به، والمكث في بيئة المجرمين على شَظَفِ العيش، ورقة الحال ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾؛ أي: أحبُّ عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾؛ أي: مما تدعو إليه أولئك النسوة في مُؤَاتَاتِها التي تؤدِّي إلى الشقاءِ، والعذاب الأليم؛ أي: من الاستمتاع بها في ترف القصور والاشتغال بحبها عن حبِّك، وبقُرْبها عن قربك. وفي قوله: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ إيماءٌ إلى أنهن خوفنه مُخَالفَتَها، وزيَّنَ له مطاوعتَها، فقلنَ لهُ: أطع مولاتَك، وأنِلها ما تهوَى لتكفى شرَّها، وتأمَنَ عقوبتَها. إن قلتَ هو مجاب الدعوة فلِمَ طَلَب النجاة بالسِّجْنِ ولم

(١) المراغي.

يطلُبِ النجاةَ العامَّة؟ أجيب: بأنه اطَّلَعَ على أنَّ السِّجْنَ محتمٌ عليه، فدعا به، لأن النبيَّ لا ينطِقُ عن الهوى ذكره «الصاوي». وقرأ عثمان[1]، ومولاه طارقٌ، وزيد بن علي، والزهري، وابن أبي إسحاق، وابن هرمز، ويعقوب: ﴿السَّجْنِ﴾ بفتح السين، وهو مصدر سجن؛ أي: حبسُهم إيَّايَ في السجن أحب إلـيّ، وأفعل التفضيل هنا ليس على بابه من التفضيل؛ لأنه لم يحب[2] ما يَدْعُونَهُ إليه قط، وإنما هذان شران فآثر أحدَ الشرين على الآخر، وإن كان في أحدهما مشقَّةٌ، وفي الآخر لَذَّة لكن لما يترتَّبُ على تلك اللذة من معصية الله، وسوء العاقبة لَمْ يُخْطُرْ له ببال. وإسناد[3] الدعوة إليهن جميعاً، لأنهن خَوَّفْنَه من مخالَفَتِها، وزيَّنَّ له مُطاوَعَتها أو دَعَوْنَهُ إلى أنفسهن، وقيل: إنما ابتلي بالسجن لقوله: ﴿هذا﴾ وإنما كان الأولى له أن يسأل الله العافِيَة من شرها، ولذلك رَدَّ رسُولُ الله ﷺ على مَنْ كان يسأل الصبرَ.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾؛ أي: وإنْ لـم تـصـرف وتـدفـع ﴿عَنِّي﴾ يـا إلـهـي ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ ومكرهن؛ أي: وإن لم تبعد عني شِراكَ كيدهن، وتثبتني على ما أنا عليه من العصمة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ مجزوم على أنه جواب الشرط؛ أي: أمِلْ إلى موافقتهن على أهوائهن، وأقَعُ في شباكِ صيدهن، وأرتَعُ في حمأة غوايتهن، وقد لجأ يوسف إلى ألطاف ربه، وسلكَ سبيل المرسلينَ من قبله في فزعهم إلى مولاهم، لينيلهم الخيرات، ويُبعُدَ عنهم الشرور، والموبقات، وإظهارَهم أن لا طاقةَ لهم إلا بمعونته سبحانه مبالغةً في استدعاء لطفه، وعظيم كرمه ومنِّه. ﴿وَأَكُن﴾؛ أي: وأصر ﴿مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ أي: من الذين لا يعملون بعِلْمهم؛ لأنَّ من لا جدوى لعلمه فهو ومَنْ لا يعلم سواء؛ أي: من السفهاءِ الذين تستخِفُّهم الأهواء والشهوات، فيَجْنَحُون إلى ارتكاب الموبقات، واجتراح السيئات، فمَنْ يعِشْ بين هؤلاءِ النسوة الماكرات المترفات، لا مهربَ له من الجهل إلاّ أن تَعْصِمَهُ بما هو فوقَ الأسباب، والسنن العادية. وقرىء[4]: ﴿أصب إليهن﴾ من صبب صبابةً فأنا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البيضاوي.
(٤) البحر المحيط.

صَبَبٌ، والصَّبَابَةُ: إفراطَ الشوق، كأنه ينْصَب فيما يَهْوَى. وقرأه الجمهور: ﴿أَصْبُ﴾ من صبا إلى اللهو ويصبو صباً، صبواً، ويقال: صَبَا يَصْبا صِباً والصِّبا بالكسر اللهو واللعبُ.

وفي هذه الجملة الشرطية إيماء إلى أنه ما صَبَا إليهن، ولا أحبَّ أن يَعِيشَ معهن، بل سأَلَ ربه أن يُدِيمَ له ما عوَّده من كشف السوء عنه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: فأجاب له ربُّه دعاءه، الذي تضمنه قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ الخ، فإنَّ فيه التجاءً إلى الله تعالى، جَرْياً على سننِ الأنبياء والصالحينَ في قَصر نيل الخيرات، وطلبِ النجاة من الشرور، على جناب الله تعالى، كقول المستغيث: أدركني وإلا هلكتُ، فكأنه قال: اللَّهم اصرف عني كَيْدَهن. ﴿فَصَرَفَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: عن يوسف ﴿كَيْدَهُنَّ﴾؛ أي: كيدَ تلك النسوةَ، ومكْرَهُن، وعَصَمُه من الجهل والسفه، باتباع أهوائهن حَسْبَ دعائِه، وثبَّتَهُ على العصمة والعفة حتى وطَّنَ نَفْسَه على مشقة السجن ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء مَنْ تَضرَّعَ إليه، وأخلص الدعاءَ له ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بصدق إيمانهم، وبما يُصْلِح أحوالهم. وفي هذا إرشاد إلى أنَّ ربه حَرَسه بعنايته في جميع أطواره، وشُؤونه وربَّاه أكْمَلَ تربية، ما خَلاهُ ونَفْسَه في أهون أموره. وهذه الجملةُ تعليلٌ[1] لما قبلها من صرف كيد النسوة عنه؛ أي: إنَّه هو السميع لدعوات الداعينَ له، العليم بأحوال الملتجئينَ إليه.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾؛ أي: ثم ظهر العزيز وامرأته ومَنْ يُهِمُّه أمْرهُمَا من أصحابه المتصدِّين للحل والعقد رأي، أي: ظَهَرَ لهم من الرأي ما لم يظهر لهم من قبلُ. وثُمَّ تدلُّ على تغيُّرِ رأيهم في حقه. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: منْ بعد أنْ رأوا الآيات، والشواهدَ الدالة على بَراءة يوسفَ وصدقه كشهادة الصبي، وقَدِّ القميص من دُبر، وقطع النساء أيديَهن، وذهاب عقولهن عند رؤيته؛ أي: ظَهَرَ

---

(١) الشوكاني.

لهم سجنُه بعد هذه الآيات، قائلين: والله ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾؛ أي: لَيَسْجُنُنَّ يوسُفَ في السجن ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى حين انقطاع مقالة الناس في المدينة، وهذا باديَ الرأي عند العزيز، وخواصِّه، وأمَّا عندها فحتى يُذَلِّلَهُ السجنُ، ويُسَخِّره لها، ويَحْسَب الناس أنه المجرمَ فلبث في السجن خَمْسَ سنين، أو سبع سنين، ولا دَلالَةَ في الآية على تعيين مدة حبسه؛ لأنَّ الحينَ عند أهل اللغة وقْتٌ من الزمان غير محدود، ويقع على القصير منه والطويل؛ أي[1]: إن زليخَا لما أيِسَتْ من يُوسُفَ بجميع حِيَلها كي تحملَه على موافقة مرادها، قالت لزوجها: إنَّ هذا العَبْدَ العِبْرانِيَّ فَضَحني في الناس، يقول لهم: إني راودتُه عن نفسه، فإمَّا أنْ تأذن لي فأخرج وأعتذرَ إليهم، وإما أن تَسْجُنه فسَجَنَه، لأنه كان مِطْواعاً لها. وقرأ الحسن: ﴿لتسجننه﴾ بالتاء على خطاب بعضهم، العزيزَ، ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم. وقرأ[2] ابن مسعود: ﴿عَتى﴾ بإبدالِ حاءِ حتى عيناً، وهي لغة هذيل، وأقرأ بذلك فكَتَبَ إليه عُمَرُ يَأْمُرُه أن يُقْرِىءَ بلغة قريش ﴿حَتَّى﴾ لا بِلُغَةِ هُذَيْلٍ.

والمعنى[3]: أي ثُمَّ ظهر للعزيز وامرأتِه، ومَنْ يهمه أمْرُهُمَا كالشاهد الذي شهِدَ عليها من أهلها من الرأي ما لم يكن ظاهراً لهم من قبلُ. بعد أنْ رأوا من الآيات ما اختبَرُوه بأنفسهم، وشهدوه بأعينهم، ممَّا يدلُّ على أنَّ يوسف لم يكن إنساناً كالذين عرفوا في أخلاقه، وعفَّتِه، واحتقاره للشهوات، واللذات التي يَتَمتع بها سكانُ القصور.

وفي إيمانه بأنَّ ربه لن يَتْرُكَهُ بل يكلؤه بعين عنايته، ويَحْرُسَه بوافر رعايته، وقد اسْتَبَانَ لهم ذلك من وجوه:

١ ـ إنَّ افتتانَ سيدته في مراودته وجَذْبها خَلَسات نَظَرِه لم تؤثِّر في ميل قلبه إليها، بل ظلَّ معرِضاً عنها، مُتَجاهِلاً لها حتى إذا ما صَارَحَتْهُ بما تريد، استعاذَ

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

بربه، وربِّ آبائه، وعَيَّرَها بالخيانة لزوجها.

٢ ـ أنها لَمَّا غَضِبَتْ وهمَّتْ بالبطش به، هَمَّ بمقاومتها، والبطشِ بها، ولم يمنعه إلاّ ما رأى في دَخِيلةِ نفسه من برهان ربه، الذي يَدُلُّ على أنَّ ربَّه صارف السوء والفحشاء.

٣ ـ أنها حين اتهمته بالتعدِّي عليها شَهِدَ شاهدٌ من أهلها، أنَّها كاذبةٌ في اتهامها إياه، وهو صادقٌ فيما ادَّعاه من مراودتها إياه عن نفسه، بدلالة القميص على ذلك. كلُّ هذا أثبتَ لهم أنَّ بَقَاءَه في هذه الدار بَيْنَ رَبَّتِهَا وصَدِيقَاتِهَا مَثارُ فتنة تدرك غَايتها، وأنَّ الحِكْمَة هو تنفيذُ رأيها الأول بسجنه لإخفاء ذكره، وكَفِّ ألسنة الناس عنها في أمره، وأقسموا ليسجننه حتى حين، دُونَ تقييد بزمن معين، لِيَرَوا ماذا يكون فيه من تأثير السجن، وحديث الناس عنه.

وفي تنفيذ هذا العزم، دَلالةٌ على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها، تَقُودُه كيف شاءَتْ، حتى فَقَدَ الغَيْرةَ عليها، فهو يَجري وراءَ هواها، ويستجلب رِضَاها، حتى أنساه ذلك، ما رَأى من الآيات وعَمِلَ برأيها في سجنه، لإلحاق الهَوَان، والصَّغار به، حتى أيست من طاعته، وطَمِعَتْ في أن يذلِّلَهُ السجنُ لأمرها، ويَقِفَ به عند مشيئتِها، والله أعلم.

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ فعل ومفعول. ﴿مِن مِّصْرَ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَالَ﴾. ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئتَ قلت: ﴿أَكْرِمِى﴾ فعل وفاعل. ﴿مَثْوَىٰهُ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول

﴿قَالَ﴾. ﴿عَسَىٰٓ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على يوسف. ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على يوسف، وجملة ﴿يَنفَعَنَآ﴾ في تأويل مصدر منصوب على كونه خَبَر ﴿عَسَىٰٓ﴾ ولكنه في تأويل اسم الفاعل تقديرُهُ: عسى نَفْعُه إيانا؛ أي: نَافِعاً لنا، وجملة ﴿عَسَىٰٓ﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها على كونها مقولَ القول. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ فعل ومفعولان معطوف على ﴿يَنفَعَنَآ﴾ وفاعله ضمير يعود على المشترَى، والتقديرُ: عسى نَفْعُهُ إيانا، أو اتخاذُنا إياه ولداً؛ أي: عسى هو نافعاً لنا، أو مُتخَذاً لنا ولداً. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿كذلك﴾ جار ومجرور صفةٌ لمصدر محذوف، تقديره: تمكيناً مثل ذلك التمكين السابق من اجتبائه، وإنجائه من القَتْل والجُبِّ. ﴿مَكَّنَّا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِيُوسُفَ﴾ متعلق بـ ﴿مَكَّنَّا﴾. وكذلك قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفةٌ على محذوف متعلق بـ ﴿مَكَّنَّا﴾ تقديره: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض، لينشأ منه ما جَرَى بينه وبين امرأة العزيز، وليتصرَّفَ فيها بالعَدْل. ﴿لنعلمه﴾ (اللام) حرف جر وتعليل. ﴿نعلمه﴾ فعل، ومفعول أول منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: وكذلك مكنَّا له في الأرض لتصرُّفه فيها بالعدل، ولتعليمنا إياه تأويلَ الأحاديث. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿غَالِبٌ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكنَّ﴾، والجملة الاستدراكية معطوفةٌ على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لمَّا﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿بَلَغَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿بَلَغَ﴾، والجملة فعل شرط لـ ﴿لما﴾. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ فعل وفاعل ومفعولان. ﴿وَعِلْمًاۚ﴾ معطوف على ﴿حُكْمًا﴾ والجملة الفعلية جواب ﴿لمَّا﴾، وجملةُ ﴿لما﴾

مستأنفة. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿كذلك﴾ جار ومجرور صفةٌ لمصدر محذوف. ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والتقدير: ونجزي المحسنين جزاء مثل جزائنا ليوسف، والجملة معطوفة على جملة ﴿لما﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿راودته﴾ فعل ومفعول. ﴿ٱلَّتِى﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ﴾ مبتدأ. ﴿فِى بَيْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿راودت﴾. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة معطوفة على جملة ﴿راودت﴾. ﴿وَقَالَتْ﴾ فعل ماض والفاعل ضمير يعود على زليخا ﴿هَيْتَ لَكَ ۚ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء، والتاء اسم فعل أمر بمعنى أقبِلْ وتعَالَ مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً استعمالياً، وفاعله ضمير يعود على يوسف، وجملة اسم الفعل في محل النصب مقولُ ﴿قَالَ﴾. ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الخطاب كائن لك، أو معكَ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. وفي «السمين»: ﴿لَكَ﴾ متعلق بمحذوف على سبيل البيان، كأنها قالت: أقول لك أو الخِطابُ لك كهي، في سَقْياً لك، ورَعْياً لك، اهـ.

فائدة في لغات ﴿هيت﴾: وفي «الفتوحات»: ﴿هَيتَ﴾ بفتح الهاء، والتاء ككيف ولَيْت و﴿هِيْتَ﴾ بكسر الهاء وفتح التاء كقِيلَ وغِيضَ، و﴿هَيْتُ﴾ بفتح الهاء وضم التاء، كحيثُ و﴿هِئْتُ﴾ بكسر الهاء وبالهمزة الساكنة وفتح التاء أو ضمها. وهذه خمسُ قراءات، وكلها سبعية، وكلُّها لغات في هذه الكلمة، وهي في كلها اسم فعل أمر بمعنى هَلُمَّ؛ أي: أقبل وتعال، اهـ شيخنا. فمن فَتَحَ التاء بناها على الفتح للتخفيف نحو: أيْنَ وكيف، ومن ضمَّها كابن كثير، فقد شَبَّهَها بحيثُ. ومَنْ كَسَرَها فعلى أصل التقاء الساكنين، اهـ «سمين». وذكر فيها قراءات أربعٌ أُخَرُ شاذة كما مرَّتْ في مبحث القراءة.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على يوسفَ، والجملة مستأنفة. ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف وجوباً تقديره: أعوذ بالله معاذاً، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ ناصب واسمه وخبره، والضمير يعود على الباري جَلَّ وعلا، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونِها تعليلاً لما قبلَها. ﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَبِّىٓ﴾. ﴿مَثْوَاىَ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال لازمة من ربي. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، والضمير للشأن. وجملة: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في محل الرفع خبر (إنَّ)، وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿هَمَّتْ﴾ فعل ماض، وفاعلُه يعود على زليخا. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جوابُ القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القَسمِ مستأنفة. ﴿وهَمَّ﴾ فعل ماض. ﴿بِهَا﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة معطوفة على جملة ﴿هَمَّتْ﴾. ﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿رَّءَا﴾ فعل ماض وفاعله ضمير على يوسف، ﴿رَّءَا﴾ بصرية. ﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، وجملة ﴿رَّءَا﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، تقديره: لولا رؤيته برهانَ ربه، والخَبرُ محذوف وجوباً، تقديره: موجودة، وجوابُ ﴿لولا﴾ محذوف تقديره: لولا رؤيته برهانَ ربه موجودةٌ لقَدْ همَّ بها، وجملةُ ﴿لولا﴾ مستأنفةٌ، والمعنى: انتفَى وامتنع جماعه لها لوجود رؤية برهان ربه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف تقديره: أريناه برهانَ ربه، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾. ﴿لِنَصْرِفَ﴾ ﴿اللام﴾ حرفُ جر وتعليل. (نصرف) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنْهُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ مفعول به. ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ معطوف عليه، والجملة

في تأويل مصدر مجرور باللام، و(اللام) متعلقة بذلك المحذوف، والتقدير: أريناه كذلك لصرفنا عنه السوءَ والفحشاءَ. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ جار ومجرور خبر (إن). ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صفة لـ ﴿عِبَادِنَا﴾، وجملة (إن) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ ﴿استبقا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿الباب﴾ منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلى الباب أو ضمن استبقَ معنى ابتدر. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة معطوفة على جملة ﴿استبقا﴾. ﴿مِن دُبُرٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قدت﴾. ﴿وَأَلْفَيَا﴾ فعل وفاعل، وهو من أخوات ظن. ﴿سَيِّدَهَا﴾ مفعول أول. ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ظرف، ومضاف إليه، والظرف في محل المفعول الثاني لألْفَى تقديره: وألفيَا سيدها كائناً لدى الباب، والجملةُ الفعلية معطوفة على جملة ﴿استبقا﴾.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة مستأنفة. ﴿مَا جَزَآءُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قَالَتْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿جَزَآءُ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتْ﴾. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية. ﴿جَزَآءُ﴾ مبتدأ ﴿جَزَآءُ﴾ مضاف. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل الجر، مضاف إليه. ﴿أَرَادَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿بِأَهْلِكَ﴾ متعلق به. ﴿سُوٓءًا﴾ مفعول به، والجملة صلةُ ﴿من﴾ الموصولة. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء. ﴿أَن يُسْجَنَ﴾ ناصب وفعل مغير، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء إن قلنا: (ما) استفهامية، أو مرفوع على الخبر إن قلنا: (ما) نافية، تقديره: ما جزاء مَنْ أراد بأهلك سوءاً إلاّ السِّجْن. ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معطوف على المصدر المؤول من الفعل على كونه خَبَرَ المبتدأ فـ (أو) للتنويع.

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن

قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هِىَ﴾ مبتدأ ﴿رَٰوَدَتْنِى﴾ فعل ومفعول، و(نون) وقاية. ﴿عَن نَّفْسِى﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة الفعلية في محل الرفع خَبرِ المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قال﴾. ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿شَاهِدٌ﴾. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ (إن) على كونه فِعل شرط لها. ﴿قُدَّ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على قميص. ﴿مِن قُبُلٍ﴾ متعلق بـ ﴿قد﴾، وجملة ﴿قد﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿فَصَدَقَتْ﴾ الفاء رابطة الجواب جوازاً، وقيل: إنه على تقدير: قد؛ أي: فقد صدقت لِيَكُونَ من المواضع التي تَجِبَ فيها الفاء. ﴿صدقت﴾ فعل ماض في محل الجزم على كونه جوابَ الشرط، وفاعله ضمير يعود على زليخَا، وجملة (إن) الشرطية في محل النصب مقول لقول محذوف حال من ﴿شَاهِدٌ﴾، تقديره: وشهد شاهد من أهلها حَالةَ كونه قائِلاً: إن كانَ قميصه قد من قبل. . فصدقت. ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ جار ومجرور خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿صدقت﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ جازم وفعل ناقص واسمه. وجملة ﴿قُدَّ﴾ في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿مِن دُبُرٍ﴾ متعلق بـ﴿قُدَّ﴾. وجملة ﴿فَكَذَبَتْ﴾ جواب الشرط، والجملة الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة الشرط الأولى. ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مبتدأ وخبر معطوف على جملة ﴿كذبت﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، لأنها أفْصَحَت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتَ ما شَهِدَ الشاهدُ وأردتَ بيانَ ما قال العزيز. فأقولُ لك.

﴿لَمَّا﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على العزيز. ﴿قُدَّ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على قميصه، والجملة في محل النصب حال من قميصه؛ لأنَّ ﴿رَءَا﴾ بصرية، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مِن دُبُرٍ﴾ متعلقا بـ﴿قُدَّ﴾ ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على العزيز، وجملة ﴿قَالَ﴾ جواب لمَّا، وجملةُ (لمّا) في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: إنه ناصب واسمه. ﴿مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ خبره، وجملة إنَّ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ﴾ ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٞ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾.

﴿يُوسُفُ﴾ منادى مفرد العلم حُذِف منه حرف النداء للتخفيف، وجملةُ النداء في محل النصب مقولُ ﴿قَالَ﴾. ﴿أَعۡرِضۡ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ متعلق به، وجملة ﴿أَعۡرِضۡ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جوابَ النداء. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي﴾ فعل وفاعل. ﴿لِذَنۢبِكِۖ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَعۡرِضۡ﴾. ﴿إِنَّكِ﴾ ناصب واسمه. ﴿كُنتِ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ خبره، وجملة (كان) في محل الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها تعليلاً لما قبلَها.

﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾.

﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿نِسۡوَةٞ﴾. ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على المرأة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تُرَٰوِدُ﴾. ﴿قَدۡ﴾ حرف

تحقيق. ﴿شَغَفَهَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الفتى. ﴿حُبًّا﴾ تمييز محول عن الفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال عن الفتى. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَنَرَنهَا﴾ (اللام) حرف ابتداء. ﴿نرى﴾ فعل مضارع. (ها) مفعوله، وفاعله ضمير يعود على النسوة. ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ متعلق بـ﴿نرى﴾ وهو في محل المفعول الثاني، وجملة ﴿لَنَرَنهَا﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) مستأنفة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿سَمِعَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرأة العزيز. ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ جار ومجرور متعلّق به، والجملة فعل شرط لـ (لمّا). ﴿أَرْسَلَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرأة العزيز. ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ متعلق بـ﴿أرسل﴾، والجملة جواب ﴿لمَّا﴾، وجملةُ لَمَّا معطوفة على جملة قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾. ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ فعل ماض. ﴿لَهُنَّ﴾ متعلق به. ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ مفعول به، وفاعله ضمير يعود على امرأة العزيز، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلَتْ﴾. ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ﴾ فعل، ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على امرأة العزيز، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلَتْ﴾. ﴿مِّنْهُنَّ﴾ صفة لـ﴿واحدة﴾. ﴿سِكِّينًا﴾ مفعول ثان. ﴿وَقَالَتِ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿أَرْسَلَتْ﴾، وفاعله ضمير يعود على المرأة. ﴿ٱخْرُجْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿لما﴾ حرف شرط. ﴿رَأَيْنَهُۥٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة فعل شرط لـ﴿لما﴾. ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جوابُ ﴿لَمَّا﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿لمَّا﴾ الأولى. ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿وَقُلْنَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾. ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقولُ محكي، وإن شئت قلت: ﴿حَٰشَ﴾ فعل ماض بمعنى بعد وتنزَّه، ويتصرَّفُ منه المضارع أحاشِي، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿حَٰشَ﴾ و(اللام) فيه للتعليل، والمعنى: بَعُدَ يوسفُ عن المعصية لأجل طاعة الله تعالى، وخَوْفِه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُلْنَ﴾. ﴿مَا﴾ نافية تعمل عمل ﴿ليس﴾. ﴿هَٰذَا﴾ اسمها. ﴿بَشَرًا﴾ خبرُها، والجملة في محل النصب مقول ﴿قلن﴾. ﴿إِنْ﴾ نافية. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ. ﴿إلا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿مَلَكٌ﴾ خبر المبتدأ. ﴿كَرِيمٌ﴾ صفة ﴿مَلَكٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قلن﴾.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة مستأنفةٌ. ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أَفْصَحَتْ عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا رأيتن ما رأيتن، وأردتُنَ بَيانَ ما شغلني فأقولُ لَكُنَّ ﴿ذَٰلِكُنَّ﴾. ﴿ذلكن﴾ مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾ خبره. ﴿لُمْتُنَّنِى﴾ فعل وفاعل، ومفعول ونون وقاية. ﴿فِيهِ﴾ متعلق به، وهو العائد على الموصول، والجملة الفعلية صلة الموصول، والجملة الاسمية في محل النصب، مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذَا المقدرة في محل النصب مقولُ ﴿قَالَتْ﴾. ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (اللام) موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿رَٰوَدتُّهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾. ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿استعصم﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ﴾. ﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (اللام) موطئة للقسم. (إن) حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ يَفْعَلْ﴾ جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على يوسف والجملة الفعلية في محل الجزم بـ(إن)

على كونِها فِعْلَ شرطِ لها. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿آمرُهُ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها، وجواب الشرط محذوف دَلَّ عليه جواب القسم تقديره: ولئن لم يفعل ما آمره يسجن، وجملة الشرط معترضة بين القسم وجوابه. ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ (اللام) موطئة للقسم مؤكدةً للأولى. ﴿يسجنن﴾ فعل مضارع مغير الصيغة في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونائب فاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة جوابُ القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب معطوفة على جملة القسم الأول، على كونه مقولاً لـ﴿قالت﴾. ﴿وَلَيَكُونًا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿يكونا﴾ فعل مضارع ناقص في محل الرفع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة المنقلبة ألِفاً للتخفيف، واسمها ضمير يعود على يوسف. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ جار ومجرور خبرها، والجملة جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة القسم في قوله ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة في محل النصب مقول القولِ على كونها جَوابَ النِّداءِ. ﴿إِلَيَّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحَبُّ﴾. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحَبُّ﴾ أيضاً. ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ فعل وفاعل و (نون) وقاية ومفعول به، لأنه فعل مضارع مبني على سكون الواو، والنون الأولى للنسوة فاعل، والثانية: نون وقاية، وهو مثل النسوة يَعْفُون، فالواو ليست ضميراً بل لام كلمة. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق به، وهو العائد على (ما) الموصولة، والجملة صلة لـ (ما) أو صفة لها. ﴿وَإِلَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إلا﴾ ﴿أَنْ﴾ حرف شرط جازم مبني

بسكون على النون المدغمة في لام ﴿لا﴾ لا نافية. ﴿تَصۡرِفۡ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ(إن) الشرطية على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿عَنِّي﴾ متعلق بـ﴿تصرف﴾. ﴿كَيۡدَهُنَّ﴾ مفعول به. ﴿أَصۡبُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ(إن) الشرطية على كونها جواباً لها، وعلامةُ جزمه حذفُ حرف العلة. ﴿إِلَيۡهِنَّ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود يوسف، وجملة الشرط في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَأَكُن﴾ فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿أَصۡبُ﴾ واسمها ضمير يعود على يوسف. ﴿مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ خبرها.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريغ. ﴿استجاب﴾ فعل ماض. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به. ﴿رَبُّهُۥ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة قال. ﴿فَصَرَفَ﴾ (الفاء) حرف عطف وتفريع. ﴿صرف﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنۡهُ﴾ متعلق به. ﴿كَيۡدَهُنَّ﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿استجاب﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ خبره الأول. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ خبر ثان، وجملة (إنَّ) مستأنفة مسوقةٌ لتعليل ما قبلها.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب. ﴿بَدَا﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على السجن المعلوم من قوله: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ كما في «البحر». ﴿لَهُم﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾ جار ومجرور متعلق به أيضاً، وجملة ﴿بَدَا﴾ معطوفة على جملة محذوفة، تقديرها: تَشَاوَرُوا في شأن يوسف، ثمَّ بدا لهم السجن من بعد ما رأوا الآيات. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملةُ في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد رؤيتهم الآيات الدالة على صدق يوسف. ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ (اللام) موطئة للقسم. ﴿يسجننه﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و ﴿الواو﴾ المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة. ﴿حَتَّىٰ

حِينٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يسجنن﴾، والجملة الفعلية جوابُ القسم المحذوف، وجملة القسم في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: ثم بدا لهم السجن حالَةَ كونهم قائلين: ليسجننه حتى حين.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مَثْوَنٰهُ﴾ المثوى: اسم لمكان الثواء والإقامة، يقال: ثويَ بالمكان من باب: رِضي إذا أقام به؛ أي: أحْسَن تعهدَه. ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: جعلنا له مَكَانةً رفيعةً، ودرجة عاليةً في أرض مصر؛ أي: جَعَلْنَاهُ على خزائنها، ومَكَّنَ يَتَعَدَّى بنفسه على حد قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و (باللام) كما هنا، والمراد نعطيه مكانةً ورتبةً عاليةً في الأرض. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: بعض تعبير الرؤيا التي عَمَدَتْها رؤيا الملك، وصاحبي السجن. ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: لا يمنع عما يشاء، ولا يُنازَع فيما يريد. ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ والأشُدُّ: هو وقت رشده، وكمال قوته، باستكمال نموه الجسمانيِّ، والعَقْلِيِّ، ثم يكون بعده النقصانُ، قيل: هو ثلاث وثلاثون سنة، وقيل: ثماني عشرة، وقيل غير ذلك. وفي «الفتوحات»: في الأشد ثلاثةُ أقوال:

أحدُها: وهو قول سيبويه أنه جمعٌ مفرده شدَّةُ نحو: نعمة وأَنْعُم.

والثاني: قول الكسائي أنَّ مفرده شُدّ بزنة قُفل.

الثالث: أنه جمعٌ لا واحِدَ له من لفظه قاله أبو عبيدة، وخَالَفه الناس في ذلك، وهو من الشدِّ، وهو الرَّبْطُ على الشيء والعَقْدُ عليه. قال الراغب: وفيه تنبيه على أنَّ الإنسان إذا بلغ هذا القَدْرَ يتقوَّى خلقه الذي هو عليه، فلا يكادُ يُزايله، اهـ «سمين».

ولم يَقُلْ هنا: واستوى كما قال في شأن موسى في سورة القصص؛ لأنَّ موسى كان قد بلغ أربعين سنة، وهي مدة النبوة، فقدِ استوى وتهيأ لحمل أسرار النبوة. وأما يُوسُفُ فلم يكن يوسف إذ ذاك قد بلَغَ هذا السن، اهـ شيخنا، اهـ «فتوحات». ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ والحكم: هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان

مصر. والعلم: هو العلم بالحكم الذي يحكمه. وقيل: العقل والفهم والنبوة. وقيل: الحكم هو النبوة، والعلم هو العلم بالدين. وقيل: علم الرؤيا.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ المراودة: الإرادةُ والطلبُ برفق ولين. وقيل: هي مأخوذةٌ من الرَّود؛ أي: الرفق، والتأني، ويقال: أَرْوِدْنِي بمعنى أمهلني. وقيل: المراودة مأخوذة من راد يَرُود إذا جَاءَ، وذهب، كأن المعنى أنها فعلَتْ في مراودتها له فعل المخادع، ومنه الرائد لِمَنْ يطلُب الماءَ والكلأ. وقد يُخَصُّ بمحاولة الوقاع، فيقال: راودفلان جَارِيَتَهُ عن نفسها، وراودته هي عن نفسه، إذا حاول كُلُّ واحد منهما الوطء والجماع، وهي مفاعلة، وأصلها أن تَكُونَ من الجانِبَيْنِ فجعل السبب هنا في أحد الجانبين قَائِماً مقام المسبَّب، فكأنَّ يُوسُفَ عليه السلام ـ لما كان ما أعطيه من كمال الخَلْقِ والزيادة في الحسن سبباً لمراودة امرأة العزيز له ـ مراود. ويجوز أن يُرادَ بصيغة المفاعلة مجردُ المبالغَةِ. وقيل[1]: الصِّيغَةُ على بابها بمعنى أنَّها طلبت منه الفعلَ، وهو طَلَب منها التزْك. وقال الراغب: المراودة أن تنازعَ غيرك في الإرادة، فتريد منه غيرَ ما يريد، كما قالَ إخوة يوسف ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: نحتالُ عليه، ونخدعه عن إرادته، ليرسل بنيامين معنا، اهـ.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾، وفي هذه[2] الصيغة ما يدل على التكثير، فيقال: غلق الأبوابَ، ولا يقال: غلَّق البابَ، بل يقال: أغلق البابَ، وقد يقال: أغلق الأبوابَ، ومنه قول الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء:

مَا زِلْتُ أُغْلِقُ أَبْوَاباً وَأَفْتَحُهَا   حَتَّىٰ أَتَيْتُ أبَا عَمْرِو بْنَ عَمَّارِ

قيل: وكانت الأبواب سبعةً. ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وضمها وكسرها، اسمُ فعل بمعنى هَلُمَّ وأقبل وبَادِرْ. قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث، فالفتحُ للخفة، والكسر لالتقاء الساكنين، والضم تشبيهاً بحيثُ، وإذا بين باللام نحو: هَيْتَ لك، فهو صوتٌ قائمٌ مَقامَ المصدر، كأف

(١) الفتوحات.   (٢) الشوكاني.

له؛ أي: لَكَ أقول هذا، وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مَقَامَ مصدر الفعل، فيكون اسمَ فعل، إما خبر؛ أي: تهيأت، وإما أمرٌ؛ أي: أقْبلْ. وقال في «الصحاح»: يُقال: هوت به، وهيت به إذا صَاحَ به، ودَعاهُ، ومنه قول الشاعر:

يَـحْـدُوْ بِـهَـا كُـلُّ فَـتَـىٰ هَـيَّـاتُ

وقد روي عن ابن عباس، والحسن، أنَّها كلمةٌ سريانية معناها، أنها تَدْعُوه إلى نفسها. قال أبو عبيدة: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حورانَ، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تَعَالَ. قال أبو عبيدة: فسألت شَيْخاً عَالِماً منْ حورانَ فذكر أنها لُغَتُهم. ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدر منصوب بفعل محذوفٍ، وجوباً على أنه نائب عن فعله مضاف إلى اسم الله سبحانه؛ أي: أعوذ بالله مَعاذاً ممَّا تدعونني إليه، كسبحانَ الله بمعنى أسبِّح اللَّهَ، ويقال: عَاذ يعوذ عِيَاذاً، وعياذةً ومعاذاً، وعوذاً، اهـ «سمين».

والمعنى: أعُوذ وأتحصَّن بالله من أن أكونَ من الجاهلينَ الفاسِقِينَ. وقال في «روح البيان»: هو من جملة المصادر التي ينصبُها العربُ بأفعال مضمرة، ولا يستعمل إظهارُها كقولهم: سبحانَ اللَّهِ، وغفرانَكَ وعونك، اهـ. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ﴾؛ أي: هَمَّتْ[1] وقصدت لتبطش به لعصيانه أمرها، وهم بها ليقهرها في الدفع عما أرادته، ويَرُدَّ عنفها بمثله. وفي «الشهاب» قال الإمام: المراد بالهمِّ؛ أي: بهم يوسفَ في الآية: خطور الشيء بالبال، أو ميل الطبع كالصائم، يَرَى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، ولكنه يَمْنَعُه دينُه عنه، اهـ. ﴿المخلِصين﴾ بكسر اللام؛ أي: مُخْلصين أعمالهم لله تعالى، وبفتحها هم الذين أخلصهم الله تعالى، واجتباهم واخْتَارَهم لطاعته. ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾؛ أي: تَسَابَقَا إلى الباب، وقصد كل منهما سَبْقَ الآخر إليه، فهو ليخرج، وهي لِتَمْنَعَه من الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾؛ أي: قطعته، وشقته طولاً من خلف، فهو من المضاعف المعدى من باب شدَّ. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾؛ أي: وَجداه، والسيد[2]:

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

فيعل من سَادَ يسودُ يطلق على المالك، وعلى رئيس القوم، وفَيْعَل: بناء مختص بالمعتل، وشذ بيئس وصيقل اسم امرأة. ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ والنسوة[1]: اسمُ جمع لا واحد له من لفظه، بل من معناه، وهو امرأةٌ وتأنيثها غير حقيقي، بل باعتبار الجماعةِ، ولذلك لم يَلْحَقْ فعلَها تاء التأنيث، والمشهور كسر نونها. ويجوز ضمها في لغة ونقلها أبو البقاء قراءة ولم أحفظه وإذا ضُمَّت نونه كان اسمَ جمعَ بلا خِلاف. والنساء: جمع كثرة أيضاً، ولا واحدَ له من لفظه، اهـ «سمين». ﴿تُرَاوِدُ فَتَنٰهَا﴾ وألف الفتى منقلبة عن ياءٍ، لقولهم: فَتَيانِ، والفتوة شاذ؛ أي: رَقِيقَها وعَبْدَها. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ والشِّغَافُ: الغلاف المحيط بالقلب، ويقال: شَغَفْتُ فلاناً إذا أَصَبْتَ شِغَافَ قلبه كما يقال: كبدته إذا أصبتَ كبده. وفي «المصباح»: شَغَفَ الهوى قَلْبَه شغفا من باب نَفَع، والاسم الشَّغَفُ بفتحتين بلَغَ شغافه بالفتح، وهو غشاؤه، وشغفه المال زين له فأَحَبَّهُ فهو مشغوف به، اهـ.

﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والضلال: الحيدة عن طريق الرشد، وسنَنِ العَقل. ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾؛ أي: بِقَوْلِهِنّ وسمِّي ذلك مكراً لأنهن كن يردن إغْضَابَها كي تعرض عَليهنَّ يُوسُفَ لتبديَ عُذْرَهَا فَيَفُزْنَ بمشاهدته. ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾؛ أي: أعدَّتْ وهيَّأَتْ. ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ والمتكأ: ما يجلس عليه من كراسي، وأرائك. وأصل[2] الكلمة: موتكأ لأنه من توكأت، فأبدلت الواو تاءً وأدغمت. ويجوز أن يكون من أوكيت السِّقَاءَ: فتكونُ الألفُ بدلاً من الياءِ، ووزنُه مفتعل من ذلك ذكره أبو البقاء. ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾؛ أي: أعظمنَه ودَهِشْن من جماله الرائع. ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: جَرَحْنَها.

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: تنزيهاً لله أن يكون هذا المخلوقُ العجيبُ من جنس البشر، قال أبو البقاء: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ يقرأ بألفين، وهو الأصل، والجمهور على أنه هنا فعل ماض، وقد صُرِّفَ منه أحاشي، وأيَّدَ ذلك دخول اللام على اسم الله تعالى، ولو كان حرفَ جر لَمَا دَخَل على حرف جر، وفاعلُه مضمر تقديره: حَاشَى يوسفُ؛ أي: بَعُدَ من المعصية لخوفِ الله تعالى. وأصل الكلمة: حاشَيْتُ

---

(١) الفتوحات. (٢) العكبري.

الشيءَ، فَحَاشَا صَارَ في حاشيةٍ أي ناحيةٍ. وقال بعضهم: هي حرف جر، و (اللام) زائدة، وهو ضعيف، لأنَّ موضعَ مثلِ هذا ضرورةُ الشعر، اهـ.
﴿استعصم﴾؛ أي: اعتصَمَ وامتنعَ، فالسين فيه زائدة، أو المعنى: استمسك بعروة عصمتِه التي ورثها عمَّن (نَشَؤا) عليها. ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ بكسر السين اسمٌ للمكان، والمحبوبُ له، دخوله لا ذاته؛ أي: دخول السجن. ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾؛ أي: عندي. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ الصبوة الميلُ إلى الهوى، ومنه ريح الصَّبَا لأن النَّفْسَ تستطِيبُها، وتميل إليها، اهـ «بيضاوي». وفي «المصباح»: صَبَا يَصْبُو صَبْواً من باب قعد، وصَبْوَةً أيضاً مثل شَهْوَةٍ إذا مَالَ. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ﴾؛ أي: أجاب دُعاءَه فالسين والتاء زَائِدتان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآياتُ أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الكناية في قوله: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ لأنه كناية عن إحسان تعهده.

ومنها: التشبيه المجمل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

ومنها: إطلاق العامّ وإرادةُ الخاصِّ في قوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّ المرادَ أرض مصر.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ لأنّه كناية عن استكمالِ زمان قوته ورُجولته.

ومنها: التشبيهُ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ومنها: العدول[1] عن ذكر اسمها في قوله: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ للمحافظة على الستر، أو للاستهجان بذكره.

---

(١) الفتوحات.

ومنها: إيراد الموصول لتقرير المراودَةِ، فإنَّ كونَه في بيتها مما يَدْعُو إلى ذلك. قيل لواحدة: ما حَمَلَكِ على ما أنت عليه ممّا لا خَيْرَ فيه؟ قالت: قُرْبُ الوِسَادِ وطُولُ السَّوَادِ، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام، فإنَّ عَدَمَ ميله إليها مع دوام مشاهدته لِمَحَاسِنِها، واستعصائِه عليها مع كونه تحت مِلكها، ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة، اهـ أبو السعود.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام اهتماماً بشأنه في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

ومنها: الحَصْرُ في قوله: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿قُبُلٍ﴾ و﴿دبر﴾، وبين ﴿صدقت﴾ و﴿كذبت﴾، وبين ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ و﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿صدقت﴾ و﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وبين ﴿كذبت﴾ و﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

ومنها: تغليبُ الذكور على الإناث في قوله: ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ ومقتضى السياق أن يقال من الخاطئات.

ومنها: الاستعارة التصريحيةُ الأصلية في قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ حيث استعار المكر للغِيْبَة بجامع الاختِفاءِ في كل منهما.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ شبَّهَ الجُرْحَ بالقطع بجامع الإيلام في كلٍّ، فاستعارَ لفظ القطع للجرحِ، ثمَّ اشتقَّ من القطع بمعنى الجرح، قَطَّعْنَ بمعنى جَرَحْنَ على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الحصْرُ في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿يسجنن﴾ و ﴿ٱلسِّجْنُ﴾.

ومنها: التشنيع، والتقبيحُ في قوله: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ لأن في إضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع؛ لأنَّ النفوسَ أميل لسماع أخبار ذوي الجاه.

ومنها: الاتيانُ بالمضارع في قوله: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ للدلالة على أنَّ ذلك سَجيَّةٌ لها؛ لأنَّ المضارعَ يفيد التجدد، والاستمرارَ.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ شبه يوسفَ بالملك، بجامع الحُسن، والجمال في كل ثمَّ استعار له اسم الملك على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الإشارة إلى القريب باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تنزيلاً لبُعْدِ مرتبته عن غيره منزلة البعد الحسِّي.

ومنها: الدلالة على فَخَامَةِ شأن المشار إليه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ ذلك إشارةٌ إلى مصدر الفعل المؤخر، على أن يكونَ عبارة عن التمكين، في قلب العزيز، أو في منزله، وكون ذلك تَمْكيناً في الأرض بملابسة أنه عزيز فيها، لا عن تمكين آخر يشبه به، فالكاف مقحم للدلالة على فَخَامة شأنِ المشار إليه، إقحاماً، لا يترك في لغة العرب، ولا في غيرها، ومن ذلك قولهم: مِثْلُكَ لا يَبْخَلُ؛ أي: مثل ذلك التمكين البديع، مكنا ليوسف في الأرض، وجعلناه محبّاً في قلب العزيز، ومكْرماً في منزله، ليترتَّب عليه مِا ترتب بما جرى بينه وبين امرأة العزيز، ذكره في «روح البيان».

ومنها: الحَذْفُ والزيادةُ في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أن الله سبحانه[1] وتعالى لمَّا ذكر مكْر النسوة بامرأة العزيز لتريهن يوسف، ثم مكر امرأةِ العزيز بهن حتى قَطَعْنَ أيدِيَهُنَّ، وقلنَ في يوسف ما قلنَ من وصف جماله، ثم إظهارُ امرأة العزيز المعذرةَ لنفسها، فيما فعلتْ وعزمَها على سجنه إن لم يكن مطواعاً لها، ثمَّ حمايةُ الله له من كيدها بعد دعائه إياه، ثم تدبيرُ مُؤَامرة بين العزيز وامرأته وأهلها على إدخاله السجن، مع كل ما رَأوا من الآياتِ حتى ينسَى الناس هذا الحديث، وتَسكُن تلك الثائرة في المدينة.. ذَكَرَ هنا تَنْفِيذَهم لما عزموا عليه من إدخالهم إياه السجن، وما كان من لطف الله به، إذ آتاه من علم تعبير الرؤيا ما يستطيع به أن يُعَبِّرَ لكل حالمٍ عمّا يراه، ويُخْبِرَ كلَّ أحد عما يسأله عنه، مما لم يكن حاضراً لديه، وما سيأتي له من طعام، وشراب، ونحوِ ذلك. ثمَّ ذَكَر قولَ يُوسُفَ إنَّ هذا كلَّه نعمة من نعم الإيمان بالله عليه وعلى آبائه إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن[2] يوسف لمّا ذَكَرَ ما هو عليه من الدين الحنيفي.. تلطَّفَ في حُسْنِ الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفَتَيين من عبادة الأصنام فَناداهما باسم الصحبة في المكانِ الشَّاقِّ الذي تَخْلُص فيه المودةُ، وتتمحض فيه النصيحةُ.

وعبارة المراغي هنا[3]: بعد أن أبطلَ يوسف عليه السلام ما هما عليه من الشرك فيما سَلَفَ، وذكر أنه قد اتبعَ ملةَ آبائه إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وبيَّن أنَّ هذا فضلٌ من الله تعالى، ومنة منه عليهم، وعلى سائر الناس، وكثير من الناس لا يشكرون الخالقَ، لهذه النعم، فيعبدوه وحده دون أن يشركوا به شيئاً.. دَعَاهُما إلى التوحيد الخالص، وأيدَهُ بالبرهان الذي لا يَجدُ العقل محيصاً من التسليم به، والإقرار بصحته قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ الآيتين.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا...﴾ الآيتين، مناسبتُهما لما قبلهما: أنَّ يُوسُفَ[1] لمَّا أَلْقَى إليهما ما كان أهم وهو أمر الدين رجاء في إيمانهما.. ناداهما ثانياً لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ...﴾ الآيات، مناسبتُها لما قبلها: أنه لما دنا فَرَج يُوسُفَ عليه السلام.. رأى ملك مصر الريان بن الوليد رُؤيا عجيبةً هالته فرأى سبع بقراتٍ سمانٍ، الخ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾؛ أي: مع يوسف ﴿ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾، وفي الكلام[2] حذفٌ تقديره: فسجنوه فدخلَ معه السجنَ غلامان. و(مع) تدلُّ على الصحبة واستحداثِها، فدلَّ على أنهم سَجَنُوا الثَّلاثَةَ في ساعةٍ واحدةٍ. ولمَّا دخل يُوسُفُ السِّجنَ، استمالَ النَّاس بحسن حديثه وفضله ونُبْلِهِ.

وكان يسلِّي حَزِينَهم، ويعود مريضَهم، ويسأل لفقيرهم، ويندبهم إلى الخير، فأحبَّه الفتيان، ولزماه، وأحبَّه صاحب السجن، والقيِّمُ عليه، وقال له: كُنْ في أيِّ البيوت شئت، فقال له يوسف: لا تحبَّني يرحمك الله، فلقد أدخلت عليَّ المحبة مضرات أحبتني عمتي فامتحنت بمحبتها، وأحبَّني أبي، فامتحِنت بمحبته، وأحبَّتِني امرأة العزيز، فامتحنت بمحبتها بما ترَى.

وكان يوسف عليه السلام قد قال لأهل السجن: إنِّي أُعبِّر الرؤيا، وأُجيدُ - أي: ودخل[3] معه السجنَ غلامان مملوكان مِنْ غلمان ملك مصر الأعظم، وهو الريَّانُ بن الوليد بن نَزْوَانَ العِمليقِ، أحدهما خَبَّازه، وصاحب طعامه، والآخرُ سَاقِيه، وصاحب شرابه، وكان قد غَضِبَ عليهما المَلِكُ فحبسهما. وكان السَّببُ في ذلك أنَّ جماعةً من أشراف مصر أرادوا المَكْرَ بالمَلِكِ واغتياله، وقتله،

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الخازن.

فضمنوا لهذين الغلامين مالاً على أن يَسُمَّا المَلِكَ في طعامِه وشرابِه، فأجابا إلى ذلك، ثمَّ إنَّ الساقيَ ندم، فرجَعَ عن ذلك، وقَبِلَ الخبَّازُ الرَّشْوةَ، وسَمَّ الطعامَ. فلما حضر الطعامُ بين يدي الملك قال السَّاقي: لا تأكل أيها الملك، فإنَّ الطَّعامَ مسموم. وقال الخبَّاز: لا تَشْرَبْ فإنَّ الشَّراب مسموم. فقال للساقي: إشْرَبْ، فَشَرِبَه به فلم يضره. وقال للخباز: كل من طعامك، فأَبَى. فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت. فأمر الملك بحبسهما فحبسَا مع يُوسُفَ. وكان يُوسُفُ لما دخَلَ السِّجْنَ جَعَل ينشر علمه، ويقول: إني أعبِّر الأحلامَ فقال أحد الغُلامين لصاحبه: هلم فلنجرب هذا الغلام العبراني، فتَرَائيَا له رؤيا فسألاه من غير أن يكونا قد رَأيَا رؤيا حقيقةً.

قال ابن مسعود: ما رأيا شيئاً إنما تحالما لِيُجَرِّبا يُوسُفَ، وقال قوم: بل كانَا قد رأيا رؤية حقيقةً فرآهما يوسف وهما مهمومان، فسألَهما عن شأنهما، فذَكَرا أنهما غُلامانِ للملك، وقد حبَسهما، وقد رَأيا رؤيا قد غمتهما، فقال يوسف قصَّا عليَّ ما رأيتما فقصا عليه ما رأياهُ. فذلك قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾؛ أي: أحد الفتيين، وهو صاحب شراب الملك، اسمه سَرْهَم، أو مَرْطَش؛ أي: قال أحَدُهما ليوسف: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾؛ أي: رأيت نفسي ﴿أَعْصِرُ خَمْرًاۖ﴾؛ أي: أعصِرُ عِنباً، فيصيرُ خَمراً، وأسقِي المَلِكَ. وسمَّى العِنَبَ خَمَراً باعتبار ما يؤول إليه. إذ الخَمْرُ لا يُعْصَرُ. وقيل: إنَّ عَربَ غسان وعُمَان يسمون العِنَبَ خَمْراً. رُوي أنه قال: رأيت حَبْلَةً من كرم حسنةً، لها ثلاثة أغصان، فيها عناقيدُ، فكنت أعصرها، وأسقي. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿أعصر عنباً﴾ وينبغي أن يحمل ذلك على التفسير لمخالفته سَوادَ المصحف، والثابتُ عنهما بالتواتر قراءتهما: ﴿أَعْصِرُ خَمْرًاۖ﴾. وفي مصحف عبد الله: ﴿فوق رأسي ثَرِيداً تأكل الطير منه﴾ وهو أيضاً تفسير لا قراءة ذكره في «البحر».

﴿وَقَالَ ٱلْأَخَرُ﴾ وهو الخباز، واسمه بُرْهَمُ، أو رَأسَانُ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾؛ أي: رأيت نفسي كأني ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ﴾؛ أي: من ذلك الخبز. وفوق بمعنى على؛ أي: على رأسي. ومثله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ كما في

«التبيان». وقد روي أنه قال: رأيتُ أني أَخْرجُ من مطبخ الملك، وعلى رأسي ثلاثُ سلال فيها خبز، والطير تأكل من أعلاه. ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: أخبرنا بتفسير ما رأينا، وما يؤول إليه أمرُ هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: من العالمين بتعبير الرؤيا. والإحسان هنا بمعنى العلم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فيسليهم، ويقول: اصبروا وأبشروا تؤجَروا، فقالوا: بارك الله فيك، يا فتى، ما أحسن وجهك، وما أحسن خلقك، لقد بورك لنا في جوارك، فمَنْ أنت يا فتى؟ فقال: أنا يوسف بن صفيِّ الله يعقوبُ بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. فقال له عامل السجنِ: لو استطعت خلَّيْتُ سبيلك، ولكني أُحْسِن جِوارَكَ فكن في أيِّ بيوت السجن شئت.

فلمَّا[1] قصَّا عليه رؤياهما كره يوسف أن يعبِّرها لهما حينَ سألاه، لما علم ما في ذلك من المكروه لأحدهما: وأعرض[2] عن سؤالهما، وأخذ في غيره من إظهار المعجزة، والنبوة والدعاء إلى التوحيد. وقيل: إنه عليه السلام أراد أن يبين لهما أنَّ دَرَجَتهُ في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدَا فيه، وذلك أنهما طَلَبَا منه علم التعبير، ولا شكَّ أنَّ هذا العلم مبني على الظن، والتخمين، فأراد أن يعلمهما أنه يمكنه الإخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين، وذلك مما يعجز الخلق عنه، وإذا قدَرَ على الإخبار عن المغيبات، كان أقْدَرَ على تعبير الرؤيا بطريق الأولى. وقيل: إنما عدل عن تعبير رؤياهما إلى إظهار المعجزة؛ لأنه علم أنَّ أحدهما سيصلب، فأراد أن يُدخِلَهُ في الإسلام، ويخلِّصه من الكفر، ودخول النار، فأظْهَرَ له المعجزة لهذا السبب.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في اليقظة في منزلكما على حسب عادتكما، المطَّرِدَةِ ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ وأخبرتكما ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾؛ أي: بقدَرِهِ ولونه، والوقت الذي يصل إليكما فيه، والاستثناء[3] مفرَّغ من أعمِّ الأحوال؛ أي: لا

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

(٣) روح البيان.

يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلاّ حالَ ما نبأتكما؛ أي: بينت لكما ماهيَتَهُ وكيفيته ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾؛ أي: قبل أن يَصِلَ إليكما، وأيُّ طعام أكلتم، وكم أكلتم؟ ومتى أكلتم؟

وهذا مِثْلُ معجزة عيسى عليه السلام، حيث قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. فقالا ليوسف عليه السلام: هذامن علم العرَّافِينَ والكهنة، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن، ولا عرَّاف، وإنما ذلك مما علَّمنِيه رَبي، كما سيأتي بيانه. وقيل: أراد به في النوم، يقول: لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما إلا أخبرتكما خبره في اليقظة.

والمعنى[1]: أي قال لهما لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما به، وهو عند أهله، وبما يريدون من إرساله، وما ينتهي إليه بعد وصولِهِ إليكما. روي أنَّ رِجَالَ الدولة كانوا يرسلون إلى المجرمين طعاماً مسموماً، يقتلونهم به، وأنَّ يوسف أراد هذا من كلامه.

وفي ذلك إيماء إلى أنه أُوتي عِلم الغيب، وهذا يجري مجرىٰ قول عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

ومن هذا يعلم أن وحيَ اللَّهِ جاءَهُ وهو في السجن، وبذلك تَحَقَّقَ قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. كما أنَّ وَحْي الإلهام جَاءه حين إلقائه في غيابة الجب، كما تقدم ذكره. وكأنه سبحانه جَعَلَ في كلِّ مِحْنَةٍ مِنْحَةً، وفي كلِّ ما ظاهره بلاء نِعْمةً.

﴿ذَٰلِكُمَا﴾؛ أي: ذلك الذي أنبأتكما به أيها الفَتَيان. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾؛ أي: بعض ما علمني ربي سبحانه بوحي، وإلهام منه، لا بكهانة ولا عرافة، ولا يشبه ذلك من تعليم بشرى يلتبس به الحق بالباطل، ويَشْتَبِهُ فيه الصواب بالخطأ. وذلك[2] أنه لما نَبَّأهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قَبْلَ أن يَأْتِيَهُما ويَصِفُه لهما، ويقول: اليومَ يأتيكما طعام من صفته كيت وكيتَ، قالا هذا من

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فعل العرافين، والكهَّان، فمن أيْنَ لك هذا العلم، فقال: ما أنا بكاهن؛ وإنما ذلك العلم مما علمني ربي.

وفيه دلالة على أنه له علوماً جَمَّةً ما سَمِعاه قِطْعةً من جملتها، وشعبة من دَوْحَتها.

وكأنَّه قيل: لماذا علمك ربُّك تلك العلوم البديعة؟ فقيل: ﴿إِنِّي﴾؛ أي: لأني ﴿تَرَكْتُ﴾؛ أي: رفضتُ من أول أمري ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾؛ أي: دينَ قوم؛ أيَّ قوم كانوا من قوم مصر وغيرهم ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يُصَدِّقُون بوحدانية الله تعالى. والمراد بالقوم[1] هنا: الكنعانيون وغيرهم من سكان أرض الميعاد، والمصريون الذين هم بينهم، فقد كانوا يعبدون آلهةً منها الشمس، وعجلهم، وفراعنتهم، وكان التوحيد خاصاً بحكمائهم وعلمائهم. ومعنى تركها أنه تَرَكَ دخولها، واتباعَ أهلها من عبدة الأوثان على كثرة أهلها. وفي ذلك لفت لأنظارهما لأن يَتْرُكَا تلك الملةَ التي هم عليها.

والمعنى: إني بَرِئْتُ من ملة مَنْ لا يصدق بالله، ولا يقرُّ بوحدانيته، وأنه خَالِقُ السموات والأرض وما بينهما. وعبارة «روح البيان» هنا: والمراد[2] بتركها، الامتناع عنها رَأْساً، لا تركها بعد ملابستها، وإنما عَبَّرَ بذلك لكونه أدخلَ بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾ وما فيها من الجزاء ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: هم مختصون بذلك دون غيرهم، لإفراطهم في الكفر بالله تعالى. والمعنى: أي: وهم يكفرون[3] بالآخرة، والحساب، والجزاء على الوجه الذي دعا إليه الأنبياء، إذ أنهم كانوا يصورون حياةَ الآخرة على صور مبتدعةٍ، منها: أنَّ فراعنتهم يعودون إلى الحياة الآخرة بأجسادهم المحنطة، ويَرجع إليهم الحكم والسلطان، كما كانوا في الدنيا، ومن ثَمَّ كانوا يَضَعُونَ معهم في مقابرهم جواهرهم، وحليهم، ويبنون

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

الأهرام لحفظ جثَّتِهم، وما معهم، ولهم معتقدات أُخرى في تلك الحياة، لا تشاكل ما جاء منها على ألسنة الرسل عليهم السلامُ.

قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ معطوف على (تركت). وقرأ[1] الأشهب العقيلي والكوفيون: ﴿آبائي﴾ بإسكان الياء، وهي مروية عن أبي عمرو، وسماهم جميعاً آباء، لأنَّ الأجدادَ آباء، وقدَّمَ الجد الأعلى ثم الجدَّ الأقرب، ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده، ثم تلقاها عنه إسحاق، ثم يعقوبُ. وفي ذكر ذلك ترغيب لصاحبيه في الإيمان بالله، والتوحيد، وتنفير لهما عما هما فيه من الشرك والضلال؛ أي: واتبعت ملةَ آبائي الذين دعوا إلى التوحيد، الخالص، وهم إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. وعَرَّف[2] شرَفَ نَسَبِه، وأنه من أهل بيت النبوة، لتتقوى رغبتهما في الاستماع منه، والوثوق عليه، وكان فضل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب أمراً مشهوراً في الدنيا، فإذا ظَهَرَ أنه ولدهم عظموه، ونظروا إليه بعين الإجلال وأخذوا منه. ولذلك جوّز للعالم إذا جهلت منزلته في العلم، أن يَصِفَ نَفْسَه، ويعلم الناسَ بفضله حتى يعرف، فيقتبس منه، وينتفع به في الدين، وفي الحديث: «إنّ الله يسألُ الرجلَ عن فضل علمه كما يسأل عن فضل ماله». وقدم ذكر ترك ملة الكفرة على ذكر أتباعه لملة آبائه، لأن التخليَة بالمعجمة متقدمة على التحلية بالمهملة. وفيه إشارة إلى أنَّ الاتباعَ سبب للفوز بالكمالات، والظفر بجميع المرادات.

ثم بيَّن أساسَ الملة التي وَرِثَها عن أولئك الآباءِ الكرام، فكانت يقيناً له بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾؛ أي ما صحَّ، وما استقام، فضلاً عن الوقوع ﴿لَنَا﴾ معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا، ووفور علومنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ﴾؛ أي: شيء كان من ملك أو جنيّ أو إنسي فضلاً عن الجماد الذي لا يضر ولا ينفع؛ أي[3]: لا ينبغي لنا مَعْشرَ الأنبياء أن نشرك بالله شيئاً فنتخذه رباً مدبراً معه، ولا إلَهاً معبوداً

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

من الملائكة، أو البشر كالفراعنة فضلاً عمَّا دونهما من البقر، كالعجل أو من الشمس والقمر أو ما يُتَّخَذُ من التماثيل والصور لهذه الآلهة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد المدلول عليه بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ إلخ ناشىء ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافَّةً بواسطتنا، وإرسالنا لإرشادهم؛ إذ وجود القائد للأعمى رحمة من الله أيُّ رحمة.

والمعنى: أي عدم الإشراك من فضل الله علينا؛ إذ هدانا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته، وألوهيته بوحيه وآياته في الأنفس والآفاق. وعلى الناس بإرسالنا إليهم، ننشر فيهم الدعوةَ، ونقيم عليهم الحجة، فنهديهم سبيل الرشاد، ونبين لهم محجة الصواب، ونبعدهم عن طرق الغواية والضلال. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المبعوث إليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَم الله عليهم فيشركون به أرْباباً وآلهة من خلقه يذلون أنفسَهم بعبادتهم، وهم مخلوقون لله مثلهم، أو أدنى منهم.

والإضافة في قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ من باب[1] الإضافة إلى الظرف؛ إذ الأصل: يا صاحبين لي في السجن، ويجوز أن يكونَ من باب الإضافة إلى التشبيه بالمفعول به، والمعنى: يا ساكني السجن كقوله: أصحاب النار، اهـ «سمين». والاستفهام في قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ تقريري؛ أي: لطلب الإقرار بجواب الاستفهام؛ أي: أقروا واعلموا أنَّ الله هو الخير، اهـ «جمل».

ومعنى التفرق هنا[2]: هو التفرق في الذوات، والصفات، والعدد، كذهب، وفضة، وحديد، وخشب، وحجارة، وغير ذلك، وجماد، وحيوان، وحي وميت.

والمعنى: هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم المختلفون في صفاتهم، المتنافون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن، أم الله المعبود بحق المتفرد في ذاته، وصفاته الذي لا ضدَّ له ولا نِدَّ ولا شريك القهار الذي لا يغالبه مغالب، ولا يعانده معاند، أورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه

---

(١) الجمل. (٢) الشوكاني.

الحجةَ القاهرة على طريق الاستفهام، لأنهما كانا ممن يَعبُد الأصنام، وقد قيل: إنه كان بَيْنَ أيديهما أصنامٌ يعبدونها، عند أن خاطبهما بهذا الخِطَاب.

وعبارة المراغي: وهذا الاستفهام لتقرير ما يذكر بعده، وتوكيده، والمرادُ بالتفرق التفرقُ في الذوات، والصفات المعنوية التي يَنْعتونهم بها، والصفات الحسية التي يصوِّرها لهم بها الكَهَنة والرؤساء من رسوم منقوشة وتماثيل منصوبة في المعابد والهياكل.

والمعنى[1]: أأرباب كثيرون متفرِّقون شأنهم التنازعُ والاختلاف في الأعمال، والتدبير الذي يُفْسِدُ النظام خير لكما، ولغيركما فيما تطلبون من كشف الضر، وجلب النفع، وكلِّ ما تحتاجون فيه إلى المعونة من عالم الغيب، أم اللَّهُ الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمد الذي لا ينازِع ولا يعارض في تصرفه، وتدبيره، وله القدرة التامَّةُ، والإرادةُ العامَّةُ، وهو المسخر لجميع القوى، والنواميس الظاهرة التي تَقُوم بها نظم العوالم السماوية، والأرضية، من نور وهواء وماء، والغائبة عنا كالملائكة، والشياطين مما كان الجهل بحقيقتها، هو سبب عبادتها، والقولُ بربوبيتها، ولا شكَّ أنَّ الجوابَ عن هذا مما لا يختلف فيه عاقلٌ، فلا خيرَ في تفرق المعبودات التي لا تستطيع ضرّاً ولا نفعاً في السموات والأرض.

ثم بين لهما أنَّ ما يعبدونه، ويسمونه آلهة إنما هي جَعْلٌ منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تَلَقَّاها خلف عن سلف، ليس لها مستندٌ من العقل، ولا الوحي السماويّ فقال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ أي: ما تعبدون من دون الواحد القهار ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ لمسميات ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾؛ أي: وضعتموها ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ من قِبَلِكُم وتحملتموها صفات الربوبية، وأعمالها، وما هي بأرباب تَخْلُق، وترزق وتضر وتنفعُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ أي: ما أنزل الله حجةً وبرهاناً على أحد من رسله بتسميتها أرباباً، حتى يقالَ: إنكم تتبعونها تعبداً له وحده، وطاعةً لرسله.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنها تسمية لا دليلَ عليها من نقل سماوي، فتكونُ أصلاً من أصول الإيمان، ولا دليل عليها من عقل، فتكون من نتاج الحجة والبرهان.

وقيل المعنى[1]: ما تعبدون من دون الله تعالى إلا مسميات أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم آلهةً من عند أنفسكم، وليس لها من الإلَهية شيء إلا مجردَ الأسماء لكونها جمادات لا تَسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: بتلك التسمية ﴿مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾؛ أي: من حُجَّةٍ تدل على صحتها، وإنما قال: ما تعبدون على خطاب الجَمع، وكذلك ما بعده من الضمائر؛ لأنه قَصَدَ خطاب صاحبي السجن، ومَنْ كان على دينهم. ومفعول سَمَّيتموها، الثاني محذوف كما قدرناه آنِفاً؛ أي: آلهةً من عند أنفسكم. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾؛ أي: ما الحكم[2] الحق في الربوبية، والعبادة إلا لله سبحانه وتعالى وحده، يوحيه لِمَن اصطفاه من رسله، ولا يمكن بشراً أن يَحْكُم فيه بهواه، ورأيه، ولا بعَقْله، واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه. وهذه قاعدة اتفقت عليها كلُّ الأديان دونَ اختلاف الأمكنة والأزمان.

ثمَّ بيَّنَ ما حَكَمَ به الله تعالى فقال: ﴿أَمَرَ﴾ سبحانه وتعالى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي[3]: أمَرَ ألاَّ تعبدوا غَيْرَه، ولا تَدْعُوا سِوَاه، فله وحده اركعوا، واسجدوا، وإليه وحده توَجَّهوا حنفاءَ غير مشركين به شيئاً من مَلَك من الملائكة ولا ملك من الملوك الحاكمين، ولا شمس، ولا قمر، ولا نجم، ولا شجر، ولا حيوان كالعِجْل (أبِيسُ) لدى المصريين؛ لأنَّ[4] العبادَة نهاية التعظيم، فلا تليق إلا بمَنْ حَصَلَ منه نهاية الإنعام، وهو الله تعالى؛ لأنَّ منه الخلق والإحياء، والرزق والهداية، ونعم الله كثيرة، وجهاتُ إحسانه إلى الخلق غير متناهية، فالمؤمن الصادق الإيمان، لا يذِلُّ ولا يَخْضَعُ لأحد غير الله تعالى مما خلق بدعاء ولا استغاثة، ولا طلب فرج من

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) المراح.

ضيق، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر لكل شيء، وأن كلَّ ما سواه فهو خاضع لسلطانه، ولا يملك لنفسه، ولا لغيره غير ما أعطَاه من القوى، فإليه وحده المَلْجَأُ في كل ما يعجز عنه الإنسانُ، أو يجهله من الأسباب، وإليه المصير في الجزاء على الأعمال يومَ يقوم الحساب والمعنى أنه[1] أمركم بتخصيصه بالعبادة دُونَ غيره مما تزعمون أنه معبودٌ.

ثم بين لهم أنَّ عبَادَته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تخصيصه بالعبادة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: المستقيم الثابت؛ أي: إنَّ تَخْصِيصَه بالعبادة هو الدينُ الحق، الذي لا عِوَج فيه، والذي دعا إليه جميع الرسل، ودلَّتْ عليه براهينُ العقل والنقل. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ذلك هو الدين الحق المستقيم، الذي لا اعْوجَاجَ فيه، لا ما سَارُوا عليه تبعاً لآبائهم الوثنيين من الاعتقاد، بأرباب متفرقين لجهلهم بتلك البراهين.

ولما فرغ يوسف عليه السلام من بيان الحق لهما في مسألة التوحيد، وعبادة الله تعالى وحدَه، شرع في تعبير رؤياهما فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ الإضافة فيه بمعنى في؛ أي: يا صاحبين لي في السجن ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقي الذي رأى أنه يعصِرُ خَمْراً، ولم يعينه ثقةً بدلالة الحال، ورعايةً لِحُسْن الصحبة، أو لكراهةِ التصريح للخبَّاز بأنه الذي سَيُصلب ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾؛ أي: فيسقي سيده، ومالكَ رقبته خَمْراً. وقد رُويَ أنَّ يُوسُفَ قال له في تعبير رؤياه: ما أحْسنَ ما رأيتَ؟ أمَّا الكرمة فهي الملك، وحسنها حسن حالك عنده برجوعك إلى منزلتك الأولى، بل إلى أحسنَ منها، وأما الأغصان الثلاثة: فثلاثة أيام، تَمْضي في السجن، ثم تخرج، وتعود إلى عملك. وقرأ الجمهور: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ من سقى، وفرقة: ﴿فيسقي﴾ من أسقى، وهما لغتان بمعنى واحد. وقال ابن عطية: وقرأ عكرمة والجحدري: ﴿فيُسْقَى ربه خمراً﴾ بضم الياء، وفتح القاف؛ أي: ما يرويه، ذكره أبو حيان. ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الخبَّاز الذي رَأى أنه يحمل خبزاً تأكل الطير

---

(١) الشوكاني.

منه ﴿فَيُصْلَبُ﴾؛ أي: فيقتل صَلْباً ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ﴾ الكواسر، كالحدأة، والرخمة، ونحوهما ﴿مِن رَّأْسِهِۦ﴾ رُوي أنه عليه السلام قال له: بئس ما رأيتَ؟ أمَّا خروجك من المطبخ، فخُروجُك من عملك، وأما السلال الثلاث فَثلاثَةَ أيامٍ تمُرُّ ثم يُوجه الملك إليكَ عند انقضائهن، فيصلبك فتأكل الطير من رأسك. وفي «الكواشي»: أكْلُ الطير من أعلاها إخراجه في اليوم الثالث، انتهى.

﴿قُضِىَ﴾؛ أي: نُفذَ وفرغ، وأتِمَّ، وأحكِم ﴿ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أي: تطلبان فتواهُ، وتأويلَه، وهو ما رأياه من الرؤيين.

وإسناد[١] القضاء إليه مع أنه من أحوال مآله، وهو نَجَاةُ أحدهما، وهلاك الآخر؛ لأنه في الحقيقة عَيْنُ ذلك المآل، وقد ظَهر في عالم المثال بتلك الصورةِ؛ أي: تَمَّ الأمر الذي تسألان عنه، رأيتما أو لم تَرَيَا، فكما قلتما، وقُلْتُ لكما كذلك يكونُ. رُوِيَ أنَّه لمَّا عَبَّر رؤياهما جَحَدا، وقَالا: ما رأينا شَيْئاً فأخْبَرَ أنَّ ذلك كائن صدقتما، أو كذبتما، ولعَلَّ الجحودَ من الخباز؛ إذ لا داعي إلى جحود الساقي إلاَّ أن يكون ذلك لمراعاة جانبه، فكان الأمر كما عبَّر يُوسُف. قال ابن مسعود[٢] رضي الله عنه: فلما سمعا تعبيرَ يوسف عليه السلام، وقَولَه ذلك قالا: ما رأينا شيئاً، إنما كنا نَلْعَبُ قال يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أي: فُرِغَ من الأمر الذي سألتما عنه، ووجب حُكْمُ الله عليكما بالذي أخبرتكما به، رأيتما شيئاً أم لم تَرَيا. ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾؛ أي: يوسف؛ أي: عِلمَ وتَحَقَّق، فالظَّنُّ بمعنى العلم، والظان[٣] هو يوسف عليه السلام؛ لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الساقي، وهلاك الخَبَّاز، وهكذا قال جمهور المفسرين. وقيل: الظن على ظاهره، ومعناه: لأنَّ عابِرَ الرؤيا إنما يَظُنُّ ظَنّاً، والأُولى أَولى، وأنسبُ بحال الأنبياء، ولا سيما وقد أخبَر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلَعه الله على شيء مِنْ علم الغيب كما في قوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.
(٣) الشوكاني.

﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ الآية. ﴿أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾؛ أي قال يوسف للرجل الذي ظَنَّهُ نَاجِياً من القتل منهما؛ أي: من صاحبيه، وهو الساقي. وجملة قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ أيُّها الساقي ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: سيدك الملك الأكبر، هي مقول القول؛ أي: اذكر حالي عند سيدك، فقل له: إنَّ في السجن غلاماً مَحبوساً، مظلوماً، طال حبسه نحوَ خمسٍ سنينَ. يعني أمره بأن يذكره عند سيده، ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير، والاطلاع على شيء من علم الغيب. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: فأنسى الشيطان الساقي ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: أن يذكر يوسُفَ عند الملك؛ أي: أنسَى الشيطان بوسوسته الساقيَ ذكره ليوسف عند الملك، فالإنساء في الحقيقة لله تعالى، وهذا قول عامَّة المفسرين، قالوا: لأنَّ صَرْفَ وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقي، حتى أنساه ذكرَ يوسف أولى من صرفها إلى يوسف. وقيل: الضمير في أنساه عائد على يوسف.

والمعنى: أن الشيطان أنْسَى يوسفَ ذكرَ ربه عز وجل حتى طَلَب الفَرَجَ من مخلوق مثله، وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام، فإنَّ الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر جائزة في الشريعة، إلا أنه لما كان يوسف في أشرف المراتب، والمقامات، وهي منصب النبوة، والرسالة، لا جَرَمَ صارَ يوسف مؤاخذاً بهذا القدر من الاستعانة، فإنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فإن قلتَ[1]: كيف تمَكَّن الشيطان من يوسف حين أنساه ذكر ربّه؟.

قلت: بشغل الخاطر، وإلقَاءِ الوسوسة، فإنه قد صحَّ في الحديث: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مَجْرى الدم»، فأما النِّسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر، وإزالته عن القلب بالكلية، فلا يقدر عليه. وبالجملة: فالأولى بالصدِّيقين أن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب، ولذلك جوزي يُوسُفُ بسنتين في الحبس كما قال: ﴿فَلَبِثَ﴾ يوسف ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ﴾ بسبب ذلك القول ﴿بِضۡعَ سِنِينَ﴾؛ أي: سبعَ سنينَ خَمْساً منها قبل ذلك القول، وثنتين بعده، هذا هو الصحيح. وقيل: لَبِثَ

(١) الخازن.

بعد هذا القول سبعَ سِنين، وقَبْلَه خمساً، فالجملة اثنتا عشرةَ سنةً. وهذه الجملة تؤيِّدَ[1] عَوْدَ الضمير في أنساه إلى يوسف، ويؤيِّد عوده إلى الذي نجا منهما قوله فيما سيأتي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي سنة.

والمعنى: وقال يوسف[2] للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند سيدك الملك، بما رأيتَ مني، وما سمعتَ، وعلمت من أمري عَلَّه ينصفني ممَّنْ ظلمني، ويخرجني من ضائقة السجن، ومما هو جدير أن يذكره به من دَعْوَتِهِ إياهم إلى التوحيد، وتأويله للرؤيا، وإنبائهم بكل ما يأتيهم من طعام وشراب، وغيرهما، قبل إتيانه، وفُتْيَاه التي أفتى بها ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: فأنسى الشيطانُ ذلك الساقيَ النَّاجيَ تذكر إخبار ربه؛ أي: أن يَذْكُرَ يوسف للملك ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ منسياً مظلوماً. والبضع من ثلاث إلى تسع، وأكثرُ ما يطلق على السبع، وعليه الأكثرون في مدة سجن يوسف. وقيل: ثنتا عشرة سَنَةً. وقيل: أربع عشرةَ سنةً. وقيل: خَمس سنينَ.

رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف عليه السلام لها

ولما دنا فرج يوسف عليه السلام، وأراد الله عز وجل إخراجَه من السجن رأى مَلِكَ مِصْرَ الأكبر رُؤيا عجيبةً هالته، وذلك أنه رَأى في منامه سَبعَ بقرات سمان، قد خَرَجْنَ من البحر، ثُمَّ خَرَجَ عَقِيبَهن سبع بقرات عجاف، في غاية الهزال، فابتلع العِجافُ السمانَ، ودَخَلْن في بطونهن، ولم ير منهن شيء، ولم يتبين على العجاف منها شيء، ورأى سنبلات خضراً قد انعَقَد حبها، وسبعَ سنبلات أخر اليابسات، قد استحصدت، فالتوت يابسات على الخُضْر، حتى علون عليهن، ولم يبقَ من خضرتها شيء، فجَمَع السحرة والكهنة والمعبِّرين، وقص عليهم رؤياه التي رآها فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: ملك مصر الأكبرُ، وهو الريَّانُ بن الوليد الذي كَانَ العزيز، وزيراً له، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ في المنام عَبَّر بالمضارع حكايةً للحال الماضية، وكذلك قوله الآتي: ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾؛ أي:

---

(1) الشوكاني.　　(2) المراغي.

قال: إني رأي فيما يَرَى النائم رُؤيا جَلِيَّةً كأني أراها الآن ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ جمع سمين، وسمينة خرجن من نهر يابس في إثرهن سبع عجاف؛ أي: مهازيلُ ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾؛ أي: يأكل تلك السمان ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾؛ أي: فابتلعت العجاف السمان. والعجاف: جمع عجفاءَ على غير قياس. وقياس جمعه: عُجْفٌ؛ لأنَّ فَعْلاءَ وأفْعل لا يجمع على فعال كما سيأتي في مبحث الصرف إن شاء الله تعالى، ولكنه عَدَلَ عن القياس حَمْلاً على سمان. ﴿و﴾ إني رأيت ﴿سبع سنبلات﴾ جمع سنبلة، وهي ما يكون فيه الحب كسنبلة الحنطة ﴿خُضْرٍ﴾ قد انعَقَدَ حبها جمع خضراء، وهي التي لم تبلغ أوانَ الحصاد ﴿و﴾ رأيت سبعاً ﴿أُخَرَ يابسات﴾ قَدْ أدركت، وبلغت أوانَ الحصاد جمع يابسة، واليابس من السنبل ما آن حصاده، فالْتَوَتْ اليابساتُ على الخضر، حتى غلبن عليها، واستغنى عن بيان حالها، بما قصَّ مِنْ حال البقرات.

فلما[1] استيقظ من منامه، اضطرب بسبب أنَّهُ شاهَدَ أنَّ الناقص الضعيفَ، استولى على الكامل القوي، فشهدت فطرته بأنَّ هذه الرؤيا صورة شر عظيم، يقع في المملكة إلا أنه ما عَرَفَ كَيفية الحال فيه، فاشتاقَ ورغِبَ في تحصيل المعرفة بتعبير رؤياه، فجمع أعْيَانَ مملكته من العلماء والحكماء، وكذا الكهنة والمنجمين، وأخْبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله تعالى عن تأويل هذه الرؤيا؛ ليكون ذلك سبباً لخلاص يُوسُفَ من السجن، وذلك قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ والأشراف من قومي المعبرون للرؤيا فهو خطاب للأشراف من العلماء، والحكماء، أو للسحرة، والكهنة، والمنجمين، وغيرهم ﴿أَفْتُونِى﴾ وأجيبوا لي ﴿فِى﴾ تأويل ﴿رُءْيَٰىَ﴾ هذه؛ أي: عبِّروها لي وبيِّنوا حكمَها، وما تؤول إليه من العاقبة ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تعلمون تعبيرَ جنس الرؤيا، وتفسيرَ المنام؛ أي: عبروها[2] لي إنْ كنتم تعبرون الرؤيا، وتبينونَ المعنى الحقيقيَّ المرادَ من المعنى المثاليِّ، فيكون حالكم حالَ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

من يعبرُ النَّهْرَ من ضفةٍ إلى أخرى. وأصلُ العبارة[1]: مشتقة من عبور النهر، فمعنى عبرت النهر: بلغت شَاطِئَه، فعابرُ الرؤيا يخبر بما يؤول إليه أمرها. قال الزجاج: (اللام) في (للرؤيا) للتبيين؛ أي: إن كنتم تعبرون، ثمّ بَيَّن فقال: (للرؤيا). وقيل: هي للتقوية وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفَواصل. وجملة قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر، فكأنه قيل: فماذا قال الملأ للملك؟ فقيل: قالوا، إلخ. والأَضْغَاثُ[2]: جمع ضغث، وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما. والأحلامُ: جمع حلم، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقةَ لها، كما يكون من حديث النفس، ووسواس الشيطان، والإضافة بمعنى من أو من قبيل إضافة لجين الماء، وجمعوا الأحلام ولم يكن من الملك إلا رُؤْيَا واحدة مبالغةً منهم، في وصفها بالبطلان، ويجوز أن يَكُونَ رأى مع هذه الرؤية غيرها مما لم يَقُصَّه الله تعالى علينا، أو لتضمنها أشياءَ مختلفةً من السبع السمان، والسبع العجاف: والسنابل السبع: الخضر والأخر اليابسات؛ أي: قالوا هذه الرؤيا أضْغَاثُ أحلام؛ أي: أخالِيطُ الأحلام وأباطيلها وأكاذيبها من حديث نفس أو وسوسة شيطانٍ؛ أي: هذه أحلام مختلطَةُ ورؤيا كاذبة، لا حقيقةً، ولا معنى لها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾؛ أي: بتعبير المنامات الباطلة التي لا أصل لها ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾؛ لأنه لا تأويلَ لها، وإنما التأويل للمنامات الصادقةِ لا لأنَّ لها تأويلاً، ولكن لا نعلمه. قال الزجاج: المعنى: بتأويل الأحلام المختلَطَة، نفُوا عن أنفسهم عِلْمَ ما لا تأويلَ له، لا مطلقَ العلم بالتأويل. وقيل: إنَّهُم نَفَوْا عن أنفسهم عِلْمَ التعبير مطلقاً، ولم يَدَّعُوا أنه لا تعبيرَ لهذه الرؤيا. وقيل: إنهم قَصدوا مَحْوَها من صدرِ المَلِكِ حتى لا يشتغل بها، ولم يكن ما ذكروه مِنْ نَفْيِ العلم حقيقةً.

ويجوز[3] أن يكون ذلك اعترافاً منهم بقصور علمهم، وأنَّهم لَيسوا بِنَحَارِير في تأويل الأحلام، مع أنَّ لها تأويلاً فكأنهم قالوا: هذه الرؤيا مختلطة من أشياء

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

كثيرة، والانتقال فيها من الأمور المخَيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية، ليس بسهلٍ، وما نحن بمتبحِّرين في علم التعبير، حتى نهتدي إلى تعبير مثلها، ويَدُلُّ على قصورهم قول الملك ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، فإنه لو كان هنا متبحِّر: لبت القولَ بالإفتاء، ولم يعلِّقْه بالشرطِ، وهو اللائحُ بالبال، وعلى تقديرِ تبحرهم عَمى اللَّهُ عليهم، وأَعْجَزَهم عن الجواب؛ ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من الحبس، وظهور كماله وفَضْلِهِ. وقرأ[1] أبو جعفر بالإدغام في (الرؤيا) وبَابُه (بعد) قلب الهمزة واواً، ثمَّ قلبها ياءً لاجتماع الواو والياء، وقد سَبَقَتْ إحداهما بالسكون، ونصُّوا على شُذُوذِهِ؛ لأنَّ الواوَ هي بدلٌ غيرُ لازم و(اللام) في ﴿لِلرُّءْيَا﴾ مقوية لوصول الفعل إلى مفعوله، إذا تقدَّمَ عليه، فلو تأخَّرَ لم يَحْسُن ذلك بخلاف اسم الفاعل، فإنه لِضَعْفِهِ قد تَقوَّى بها، فتقول: زيد ضاربٌ لعمرٍو فصيحاً.

وقد كان حديث الملك في رؤياه، مع كهنته، وعلمائه، ورجال دولته، مذكراً للذي نجا من الفَتَيَيْنِ بِيُوسُفَ، وحُسْنِ تعبيره للرؤيا بعد أن مضَى على ذلك مدَّةً من الزمان، كما يشير إلى هذا ما بعده. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ وخرج من السجن ﴿مِنْهُمَا﴾؛ أي: من صاحبي يوسف، وهو السَّاقي ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿ادَّكَرَ﴾؛ أي: قد تذكَّر يوسفَ وما قاله ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: بعد مدة طويلة من الزمان. وادّكر: أصله: إذْتكر، فقلبت التاء دَالاً، والذال دالاً، وأدغمت كما سيأتي في مباحث الصرف. أي: تذكَّر[2] الناجي منهما يوسفَ، وتأويلَه رؤياه، ورؤيا صاحبه، وطَلَبَه أن يَذْكُره عند الملك، فجَثى بين يَدَي الملك؛ أي: جَلَس النَّاجِي على ركبتيه، قُدَّامَ الملك فقال للملك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: أنا أُخبركم ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾؛ أي: بتأويل هذا المنام الذي أَشْكَلَ عليكم وتعبيره. خَاطبه بلفظِ الجمع تعظيماً له ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾؛ أي: فابعثون إلى السجن، فإن فيه رجلاً حكيماً من آل يعقوب، يقال له: يُوسُفُ يعرِفُ تعبير الرؤيا، قد عَبَّر لنا قبلَ ذلِكَ فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فاعتذَرَ إليه، فاسْتَفْتَاه فيما عَجَزُوا عنه، وقال: يا ﴿يُوسُفُ﴾، ويا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾؛ أي: أيها البالغ غاية الكمال في الصدق، وإنما وَصَفَهُ بذلك، لأنه جَرَّب أحوالَه، وعرف صِدْقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه. وجملةُ مجيء الرسول ليوسف في السجن أربعَ مرات، الأولى في قوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ﴾، والثانية في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، والثالثة في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ إلخ، والرابعة في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ إلخ؛ أي: يا يُوسُفُ البالغُ غَايَةَ الكمال بصدقك في أقوالك وأفعالك، وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام ﴿أَفْتِنَا﴾؛ أي: أخْبِرنا، وبيِّنَ لنا ﴿فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾؛ أي: أخْبِرْنا في رؤيا مَنْ رَأَى في منامه سبع بقرات سمان، يَبْتَلِعهُنَّ سبعُ بقرات مهازِيلُ، وفي رؤيا مَن رأى سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خضر، وسبعاً أخرى يابسات، فإنّ الملِكَ قَدْ رَأَى هذه الرؤيا، وعَجَز المعبّرون عن تعبيرها. ففي قوله[1]: ﴿أَفْتِنَا﴾ مع أن المستفتي واحد إشعارٌ بأن الرؤيا لَيْسَتْ له، بل لغيره ممن له ملابسةٌ بأمور العامة، وأنه في ذلك سَفِيرٌ، ولم يُغَيّر لفظ الملك، وأصاب فيه، إذ قد يكون بعض عبارات الرؤيا متعلقة باللفظ ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: إلى الملك ومَنْ عنده من الملأ، وأعود إليهم بفَتْوَاك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ما تأتي به في تأويل هذه الرؤيا، أو يعلمون فَضْلَكَ ومعرفِتَكَ فنَّ التعبير، فيطلبوك ويُخَلِّصوك من محنتك.

والمعنى: أفتِنا[2] في هذا المنام الذي رآه الملك، وإنّي لأرجو أن يحقِّقَ اللّهُ أمَلَكَ بالخروج من السجن، وانتفاعَ المَلِكِ وملئه بفضلك، وعِلْمِك، وإنَّما لم يبتَّ الكلامُ فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع، فرُبَّما اخْتَرَمَتْهُ المنية دونه، ولا يُعْلِمهم. ذكره «البيضاوي». وقرأ[3] الجمهورُ: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ بالدال المهملة المشدَّدة. وقرأ الحسن: ﴿واذكر﴾ بإبدال التاء ذالاً، وإدغام الذال فيها. وقرأ الأشْهَبُ العقيليُّ: ﴿بعد إِمَّة﴾ بكسر الهمزة؛ أي: بعدَ نعمة أنْعَم الله عليه بالنجاة من القَتْلِ$. وقال ابن عطية: بعد نعمةٍ أنعم الله بها على يوسف في تقريب إطلاقه

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي

من السجن، والإِمَّةُ النِّعْمَةُ قال الشاعر:

أَلاَ لاَ أَرَىٰ ذَا إِمَّـةٍ أَصْبَـحَـتْ بِـهِ   فَـتَـتْـرُكُـهُ ٱلأَيَّـامُ وَهِـيَ كَـمَـا هِـيَـا

قال الأعلم: الإِمَّةُ النِّعمة، والحالُ الحَسَنَةُ. وقرأ ابنُ عباس، وزيد بن علي، والضحاك، وقتادةُ، وأبو رجاء، وشبيل بن عزرة الضبعي، وربيعة بن عَمرو: ﴿بعد أَمَهٍ﴾ بفتح الهمزة، والميم مخففةً، وهاءٍ، والأَمَهُ: النِّسيانُ. وكذلك قرأ ابنُ عُمَرَ، ومجاهد، وعكرمة، واختلف عنهم. وقرأ عِكْرَمة، وأيضاً مجاهد، وشبيل بن عزرة: ﴿بعد أَمْهٍ﴾ بسكون الميم مصدر أَمَهَ على غير قياس. وقال الزمخشري: ومَنْ قرأ بسكون الميم فَقَدْ أخطأ، انتهى. وهذا على عادته في نسبته الخطأ إلى القرَّاء. وقرأ الحسن: ﴿أنا آتيكم﴾ مضارعُ آتى مِن الإتْيان، وكذا في مصحف أُبيٍّ. وقرأ يعقوب: ﴿فأرسلوني﴾ بالياء.

وجملة قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعةٌ في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال يوسف في التأويل؟ فقيل: قال يوسفُ لهم: تزرعون إن شاء الله تعالى في المستقبل. ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾؛ أي: متواليةً متتابعةً، فدأباً مصدرٌ واقع موقعَ الصفة؛ أي: دائبةً متواليةً فهو مصدرٌ دَأَب في العمل، إذا جَدَّ فيه، وتعبَ، أو واقع موقِعَ الحال من فاعل ﴿تَزْرَعُونَ﴾ بمعنى دائبين؛ أي: مُستَمِرِّينَ على الزراعة على عادتكم بجِدٍّ واجتهاد. وقرأ حفص: (دَأَباً) بفتح الهمزة والجمهور بإسكانها وهما مصدران لدأب. والفرق بين الحرثِ والزرع أنَّ الحرثَ إلقاء البذْر، وتهيئة الأرضِ، والزرعُ مراعاتُه، وإنباتُه. فعَبَّر يوسف عليه السلام السبعَ البقراتِ السمانَ بسبع سنين فيها، خصبٌ والعجافَ بسبع سنين فيها جَدْبٌ. وهكذا عبَّر السبع السنبلات الخضرَ، والسبع السنبلات اليابسات، واستَدَلَّ بالسبع السنبلات الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ وقطعتم من الزروع في كل سنة من السنين المُخْصِبة ﴿فَذَرُوهُ﴾؛ أي: فاتركوا ذلك المحصودَ ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾؛ أي: كَوافرِهِ، وبقَصَبِهِ ليكون القصب عَلَفاً للدوابِّ، ولا

---

(١) البحر المحيط.

تَدُوسوه، وتفصلوه عن سنبله، لئلا يأكله السُّوسُ كما هو شأن غلال مصر، ونواحيها، فإن ذلك أبقى له على طول الزمان. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في هذه السنين المخصبة؛ فإنه لا بدَّ لكم من فصله عن سنبله وإخراجه عنها، وقتَ حاجتكم إليه، واقتصر على استثناء المَأْكُول دونَ ما يحتاجون إليه من البذر الذي يبذرونه في أموالهم؛ لأنه قد علم من قوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾. وفيه إرشاد منه عليه السلام إلى التقليل في الأكل. وقرأ السلمي: ﴿مما يأكلون﴾ بالياء على الغيبة؛ أي: يأكل الناس، وهذا تأويل السبع السمان، والسبع الخضر.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: من بعدِ السبع السنين المخصِبَة ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾؛ أي: سبع سنين مجدبة يصعب أمرها على الناس، وهذا تأويل السبع العجاف، والسبع اليابسات، ﴿يَأْكُلْنَ﴾؛ أي: يأكل أهلُهُنَّ؛ أي: يأكل أهل السبع الشداد فيهن ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: ما ادَّخرتم لأجلهن مِن الحبوب المتروكة في سَنَابِلِها. وإسناد الأكل إلى السنين مجاز، فهو من باب نهارُه صائمٌ؛ أي: تأكلون الحَبَّ المزروعَ وَقْتَ السنين المخصبة المتروك في سنبله في السنين المجدبة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾؛ أي: مما تَحْبِسُون من الحب لتزرعوا به، لأن في استبقاء البذر تحصين الأَقْوات. وقال أبو عبيدة: معنى تُحْصِنُون تُحْرِزُون. وقيل: تَدَّخِرُون للبَذْرِ. والمعنى واحدٌ: فَأَكْلُ ما جُمِع أيامَ السنين المخصبة في السنين المجدبة، تأويل ابتلاع العجاف السمان.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما ذُكِرَ من السنين المجدبات ﴿عَامٌ﴾؛ أي: سنة ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك العام ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾؛ أي: يمطر الناسُ، وينقذون فيه من كرب الجدب بالغيث ﴿وَفِيهِ﴾؛ أي: وفي ذلك العام ﴿يَعْصِرُونَ﴾ ما منْ عادته أن يُعْصَر كالعنب، والقصب، والزيتون، والسمسم، ونحوها من الفواكه لِكَثْرَتِها.

وقيل: معنى ﴿يَعْصِرُون﴾: يَحْلِبون الضُّروعَ. وقيل معناه: يمطرون. وقيل معناه: ينجون من الشدة. وعلى هذين المعنيَيْنِ يقرأ بالبناء للمفعول. قال

أبو حيان[1]: والجمهور على أنه من عَصَر النباتَ كالعنب، والقصب، والفجل، وجميع ما يعصر، ومصر بلد عصير لأشياء كثيرة، والحلب منه، لأنه عَصْرٌ للضروع. وروي أنهم لم يَعْصِرُوا شيئاً مدة الجدب، انتهى. وهذا مِن[2] مدلولات المَنام، لأنه لما كانت العجاف سبعاً دَلَّ ذلك على أنَّ السِّنينَ المجدبة لا تزيدُ على هذا العدد.

فالحاصلُ بعده: هو الخِصبُ على العادة الإلَهية حيث يُوسِّع الله سبحانه وتعالى على عباده بعد تضييقه عليهم. وقيل: إنَّ الإنباءَ بهذا العام زَائِدٌ على تأويل الرؤيا، ولم يعرفه يوسف على التخصيص والتفصيل إلاَّ بِوَحيٍ من الله عز وجل. وقرأ[3] الأخوان حمزة، والكسائي: ﴿تعصرون﴾ بالتاء على الخطاب، وباقي السبعة بالياء على الغيبة. وقَرأ جعفر بن محمد، والأعرج، وعيسى البصرة: ﴿يُعصَرون﴾ بضم الياء، وفتح الصاد مبنياً للمفعول. وعن عيسى أيضاً: ﴿تعصرون﴾ بالتاء على الخطاب مبنياً للمفعول، ومعناه: يُنْجَونَ من عصره إذا أنجاه، وهو مناسب لقوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾. وحكى النقاش أنه قُرِىء: ﴿يعصرون﴾ بضم الياء وكسر الصاد، وشدِّها من عَصَّر مشدداً للتكثير. وقرأ زيد بن علي: ﴿وفيه تعصرون﴾ بكسر التاء، والعين، والصاد، وشدها وأصلُه تعتصرون فإدغم التاء في الصاد، ونقَلَ حركتها إلى العين، وأتبع حركة التاءِ لحركة العين، واحتمل أن يكونَ من اعتصر العنبَ، ونحوَه، ومن اعتصر بمعنى نجا. فلما رجع الساقي إلى المَلِك وأخْبَره بما ذكره يوسف استَحْسَنَه المَلِك ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾؛ أي: ملك مصر، وهو رَيَّان بن الوليد ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾؛ أي: جيئوني بيُوسُفَ عليه السلام كي أستمع كَلاَمَه مِنْ فمه، وأعْرِفُ دَرَجَة عَقْلِهِ، وأعلم تفضيلَ رَأْيِهِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾؛ أي: يوسف ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ أي: رسول الملك، وهو الساقي، وبلغه أمر الملك، وطلب إليه إنفاذه ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: سيدك قبل شخوصي إليه، ومثولي بَيْنَ يديه ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ﴾ والبَالُ هو[4] الأمر الذي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

يَبْحَثُ عنه، ويُهْتَمُّ به؛ أي: واسأله عن حال النسوة اللاتي قطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ ليعرِفَ حَقِيقَةَ أمره؛ إذ لا أحبُّ أن آتيه، وأنا متَّهَمٌ بقضيَّةٍ عوقبت من أجلِهَا بالسجن، وقد طال مكثِي فيه دُونَ تعرف الحقيقة، ولا البحث في صميم التهمة.

ولم يذكر[1] سيدته تأدُّباً ومراعاةً لحقها، واحترازاً من مكرها، حيث اعتقدَها مقيمةً في عَدْوَةِ العَداوة، وأما النسوة فقد كان يَطْمَعُ في صَدْعهن بالحقِّ وشهادتهن بإقرارها، بأنها رَاوَدَتْهُ عن نفسِهِ ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

قال العلماء[2]: إنما أبَى يُوسُفَ عليه السلام أن يخرجَ من السجن، إلا بعد أن يتفحَّص المَلِكُ عن حاله مع النسوة. لتنكشفَ حقيقة الحال، عنده لا سيما عند العزيز، ويَعلم أنه سجِنَ ظُلماً، فلا يقدِر الحاسد إلى تقبيح أمره، وليظْهَرَ كمال عقله، وصَبْرِه ووقَارِه، فإن مَنْ بَقِيَ في السجن ثنتي عشرة سنةً إذا طلبه الملك، وأمر بإخراجه، ولم يبادر إلى الخروج، وصَبَرَ إلى أن تتبين براءتَهُ من الخيانة في حق العزيز، وأهله دَلَّ ذلك على براءته من جميع أنواع التُّهَمِ. وفي الحديث: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخِر فلا يقِفَنَّ مَوَاقِفَ التُّهَم». ومنه قال عليه السلام للمارين به في معتكفه وعنده بعض نساءه: «هِيَ فُلانةٌ» نفياً للتهمة.

وروي عن النبي ﷺ أنه اسْتَحْسَنَ حَزْمَ يُوسُفَ وصَبْره حين دعاه الملك، فلم يُبَادِر إلى الخروج حيث قال عليه السلام: «لقد عَجِبْتُ من يوسُفَ وكرمه، وصَبْرِه، والله يَغْفِرُ له حينَ سُئل عن البقرات العِجاف والسمانِ، ولو كنتُ مَكَانَه ما أخبرتهم حتى اشْتَرطت أن يُخْرِجوني، ولقد عَجِبْتُ حين أتاه الرسول فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، الآية. ولو كنت مكانَه ولبثتُ في السجن ما لَبث.. لأسْرَعْتُ الإجابة، وبادَرْتُهم الباب، وما ابتغيت العذرَ، إنه كان حليماً ذَا أناة». الحِلْمُ، بكسر الحاء: تأخير مكافأة الظُلْم، والأناة على وزن القَنَاة: التأني وترك العجلة. قال ابن الملك: هذا ليس إخباراً عن نبينا عليه الصلاة والسلام بتَضَجُّره، وقلة صبره، بل فيه دلالة على مدح صبر يوسف، وترك الاستعجال بالخروج، لِيَزُولَ

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

عن قلب الملك ما كان مُتَّهَماً به من الفاحشة، ولا يُنْظَر إليه بعين مشكوكة، انتهى.

وقال الطَّيبِي: هذا من رسول الله ﷺ على سبيل التواضع لا أنه كان مستعجلاً في الأمور غير متأن، والتَّواضُعُ لا يصغِّر كبيراً، ولا يَضعُ رفيعاً، بل يُرحِّب لصاحبه فَضلاً، ويُورِثُه جَلالاً وقدراً.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه وتعالى، أو إن سيدي[1] ومربي، وهو ذلك الملك، قاله ابن عطية، ورُدَّ عليه. ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾؛ أي: بمكرهن ﴿عَلِيمٌ﴾ حين، قلنَ لي: أطع مَوْلاَتَكَ. وفيه استشهاد بعلم الله على أنهن كِذْنَه، وأنه بريء من التهمة كأنه قيل: احمله على التعرف، يتبيَّنُ له براءة ساحتي، فإنَّ الله يعلم أنَّ ذلك كان كيداً منهن. والمعنى: أنه[2] تعالى هو العالم بخفيات الأمور، وهو الذي صرَف عنِّي كيدهُن، فلم يَمْسَسْنِي منه سوء.

وقد دلَّ هذا التمهل، والتأني من يوسف عليه السلام عن إجابة طلب الملك له حتى تحقق براءته على جملة أمور:

١ ـ جميلُ صبره، وحُسْنُ أناته، ولا عَجَب، فمِثْلُه ممَّن لقيَ الشدائد جدير به أن يكون صبوراً حليماً، ولا سيما ممن ورَثَ النبوة كابراً عن كابر، وقد وَرد في «الصحيحين» مرفوعاً: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الدَّاعي»، وفي رواية أحمد: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغَيْتُ العُذْرَ».

٢ ـ عِزَّة نفسه وصون كرامته، إذ لم يَرْضَ أن تكون التهمة بالباطل عالقةً به، فطلب إظهار براءته، وعفَّتِه عن أن يَزِنَ بريبة، أو تَحُومَ حول اسمه شائبة السوء.

٣ ـ أنه عَفَّ عن اتهام النسوة بالسوء، والتصريح بالطعن عليهن، حتى يتحقق الملك بنفسه، حِينَ ما يسألهن عن السبب في تقطيع الأيدي، ويعلمُ ذلك

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

منهن حينَ الإجابة.

٤ ـ أنه لم يذكر سيدَتَهُ معهن، وهي السبب في تلك الفتنة الشّعواء وَفاءً لزوجها ورحمةً بها، وإنما اتَّهمها أولاً دِفاعاً عن نفسه، حين وَقَفَ موقفَ التهمة لدى سيدها، وبعد أن طَعنَتْ فيه. وقرأ[1] أبو حيوة، وأبو بكر، عن عاصم في رواية ﴿النُّسوة﴾ بضم النون وقرأت فرقة ﴿اللائي﴾ بالياء وكلاهما جمع التي.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إنَّ اللّهَ سبحانه وتعالى عَالِمُ بصنيعهنّ، وما احتَلْنَ في هذه الواقعة من الحِيل العظيمة؛ فلمَّا أبى يُوسُفُ أن يَخْرُجَ من السجن، قبل تبين الأمر رَجَعَ الرسول إلى المَلِكِ، فأخبره بما قال يوسف عليه السلام، فأمر الملك بإحضارهنَّ، وكانت زليخا معهن، فلما حَضَرْنَ ﴿قَالَ﴾ الملك لهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾؛ أي: ما شأنكن وأمركن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ﴾ وطالبتن ﴿يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ والخطب: الشَّأْنُ[2] العظيم الذي يقع فيه التخاطب، إما لغرابته، وإما لإنكاره، ومنه قولُه تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وعن موسى عليه السلام: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾. وإنما[3] خاطَبَ الملكُ جميعَ النسوة بهذا الخطاب، والمراد بذلك امرأةُ العزيز، وَحْدَها لِيَكُون أسْتَر لها. وقيل: إنَّ امرأة العزيز راودته عن نفسه، وَحْدَها وسَائِر النسوة أمَرْنَه بطاعتها، فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب؛ أي: فلمَّا اجْتَمَعْنَ بأمره سألهن بقوله: ما خطبكن الذي حَمَلَكُنَّ على مراودته عن نفسه، هل كان عن ميل منه إليكن؟ وهل رأيتُنَّ منه مواتاة واستجابةً بعدها؟ وماذا كان السببُ في إلقائِهِ في السجن مع المجرمين؟ ﴿قُلْنَ﴾؛ أي: جماعةُ النسوة مجيبات للملك ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: مَعاذاً وتنزيهاً لله تعالى عن كلِّ ما لا يليقُ به. وأصله: حَاشَا بالألف فحُذِفَت للتخفيف، وهو في الأصل حَرفٌ وضِعَ هنا موضعَ المصدر؛ أي: التنزيه، و (اللام) لبيان من يبرأ، وينزَّهُ وقد سبقَ في هذه السورة، فهو تنزيه له

---

(١) البحر المحيط. (٣) الخازن.

(٢) المراغي.

تعالى، وتعجب من قدرته على خَلْقِ عَفيفٍ مِثله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾؛ أي: خيانَةٍ في شيء من الأشياء؛ أي: تَنْزِيهاً لله سبحانه وتعالى، ما عَلِمْنَا على يوسف سوءاً، ولا ذَنْباً يَشِينَهُ ويسوؤه لا قليلاً، ولا كثيراً في شيء من الأشياء. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ زُليخَا ﴿ٱلْـَٔنَ﴾؛ أي: في هذا الوقت الحاضر ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ظَهَرَ، وتَبَيَّنَ أنه مع يوسف بعد أن كانَ خَفِيّاً؛ أي: إنَّ الحقَّ في هذه القضية كان في رَأْيِ مَنْ بَلَغهم موزَّع التبعة بيننا معشر النسوة، وبين يُوسُفَ لكل منَّا حِصَّة بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظَهَرَ الحق في جانب واحد، لا خَفَاءَ فيه، وهُنَّ قد شَهِدْنَ بما عِلِمْنَ شهادة نَفْيٍ، وها أنا ذَا أشهد على نَفْسِي شهادةَ إيجاب بقولي: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ وطلبته ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لا أنَّه راودني بل اسْتَعْصَمَ، وأعرض عني ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: وإنَّ يوسف ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: حين افتريت عليه ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

وإنَّماأقرَّت زُليخَا واعترفت بذنبها، وشَهِدَتْ ببراءة يوسف من الذنب، مُكَافأةً ليوسف على فعله، حيثُ تَرَكَ ذِكْرَهَا، وقال: ما بال النسوة اللاَّتي قَطَّعْنَ أيديهن، مع أنَّ الفِتَنَ كُلَّها إنما نشأت من جهَتِها، وقد عَرَفَتْ أنَّ ذلك لرعاية حقها، ولتعظيمها، ولإخفاء الأمر عليها. وفي هذا الاعتراف شهادةٌ مُريحة من امرأة العزيز، ببراءة يوسف من كلِّ الذنوب، وطهارته من كلِّ العيوب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الاعترافُ منّي بالحق له، والشهادة بالصدق الذي عِلِمْتُهُ منه ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يوسف ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ عنه منذ سجن إلى الآن، فلم أَنَلْ من أمانته، أو أطْعَنَ في شَرَفِه، وعفَّتِه بالغيبة، بل صرَّحَت لأولئك النسوة بأني راودته عن نفسه، فاستعصم، وها أنا ذا أُقِر بهذا أمام الملك، ورجال دولته، وهو غائب عنَّا، وإن كنتُ قد قلت فيه ما قلت في حضرته، ثمَّ بالغت في تأكيد هذا القول فقالت ﴿و﴾ ليعلم يوسف ﴿أنَّ اللَّه﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾؛ أي: لا ينفذه، ولا يسدِّدُهُ بل يبطله، ويُزْهِقُهُ، وتكون عاقبته الفَضِيحَةُ، والنَّكال، ولقد كِدنا له، فصرف رَبُّهُ عنه كيدنا، وسجَّنَّاه فبَرَّأه الله تعالى، وفَضَحَ مكرنا حتى شَهِدْنَا على أنفسنا في مثل هذا الحفل الرهيب، والمقام المنيف، ببراءته من كل

العيوب، وسلامته من كل سوء. وعلى الجملة فالتحقيقُ أسْفَرَ عن أنَّ يُوسُفَ كان مثلَ الكَمال الإنساني في عفته ونزاهته، لم يمسسه سوء من فتنة أولئك النسوة، وأنَّ امرأة العزيز أقرَّتْ في خَاتِمَةِ المطاف بذنبها في مجلس الملك، إيثاراً للحق، وإثباتاً لبراءة يُوسُفَ عليه السلام.

تنبيه: واختلفَ المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ على قولين[1]:

أحدهما: أنه من قول المرأة، وهو الظاهر كما جَرَيْنا عليه في حَلِّنا سابقاً. ووجه هذا القول: أنَّ هذا كلام متَّصِلٌ بما قبله، وهو قول المرأة: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ثم قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إلخ. والمعنى عليه[2]: كما تقدَّم ذلك الإقرار، والاعتراف بالحق، ليعلم يوسُفُ أنّي لم أخنه في غيبته، وهو في السجن، ولم أكذب عليه بذنب، وهو بريء منه، بل قلت: أنا راودته عن نفسه، ثم اعتذرت عمَّا وقعت فيه، ممَّا يقع فيه البشرُ من الشهوات بقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾. والنفوسُ مائِلةٌ إلى الشهوات، أمَّارةٌ بالسوء. وقال الزمخشري: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ مع ذلك من الخيانة، فإني قَدْ خنته حين قذفته وقلتُ: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾ تريد الاعتذارَ لما كان منها؛ بأنَّ كل نفس لأمارة بالسوء إلاّ نفساً رَحِمَها الله تعالى بالعصمة، إنَّ ربي غفورٌ رحيمٌ، استغفرت ربَّها واسْتَرْحَمْتُهُ ممَّا ارتكَبْت.

والقول الثاني: أنه من كلام يُوسُفَ عليه السلام اتصلَ بقول امرأة العزيز: أنا راودتُه عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين، لذلك مع غموض فيه؛ لأنه ذَكَرَ كلامَ إنسان، ثمَّ أَتْبَعَه بكلام إنسان آخر، من غير فصل بين الكلامين.

وقال الفراء: ولا يبعد وصْلُ كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلَّتِ القرينة

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

الفارقة لكل منهما إلى ما يليق به. ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ هذا من قول الملأ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ هذا من قول فرعون. ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ هذا من كلام بلقيس ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ من قوله عز وجل تصديقاً لقولها.

ومعنى الآية على هذا القول ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: طَلَب[1] البراءة أو ذلك التثبتُ، والتَّشمُّرُ لظهور البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في حرمه؛ لأنَّ المعصية خيانة ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: بظهر الغيب، وهو حال من الفاعل؛ أي: لم أخنْهُ، وأنا غائِبٌ عنه خفي على عينه، أو من المفعول؛ أي: وهو غائب عني خفي عن عيني، أو ظرف؛ أي: بمكان الغيب؛ أي: وراءَ الأستار والأبواب المغلَقة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وليعلم العزيز أنَّ الله سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى﴾ ولا ينفذ، ولا يسدِّد، ولا يتمِّم ﴿كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ بل يبطله، ويزهقه كما لم يسدد كَيْدَ امرأته، حتى أقرت بخيانة أمانة زوجها، وسُمِّي فعل الخائن كيداً؛ لأنَّ شأنَه أنْ يُفْعَلَ بطريق الاحتيال، والتلبيس، فمعنى هداية الكيد، إتمامُه وجعله مؤدِّياً إلى ما قُصِدَ به. وفيه تعريض، بامرأة العزيز في خِيَانَتِها أمانَتَهُ، وبنفس العزيز في خيانة أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسِ يوسف بعدما رأوا آيات نَزَاهَتِه. ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته، وأنه لو كان خائناً.. لمَا هَدَى الله أمره وأحسن عاقِبَتَهُ. وفيه إشارة إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى يُوصِلُ عبادَه الصَّادِقين بعد الغمِّ إلى السرور، ويُخرِجُهم من الظلمات إلى النور. وفي[2] الآية دلالة على أنَّ الخيانة من الصفات الذميمة، كما أنَّ الأمانَةَ من الخصال المحمودة. ثمَّ أراد[3] يُوسُفُ أن يَتَوَاضَعَ لله، ويهضم نفسه لئلا يكون مُزَكِّياً لها، ولحالها في الأمانة مُعْجِباً، وليبيِّنَ أنَّ ما فيه من الأَمانةِ ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله، ولُطْفِهِ، وعصمته فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من الزلل، وما أشهدُ لها بالبراءة بالكلية، ولا أزكِّيها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ بالعصمةِ ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.

وعلى هذا القول الأخير: اختلفوا[1] أَيْنَ كان يُوسُفُ حين قال هذه المقالة على قولين؛ **أحدهما**: أنَّه كان في السجن، وذلك أنَّه لمّا رَجَعَ إليه رسولُ الملك، وهو في السجن، وأَخْبره بجواب امرأة العزيز، للْمَلِك حينئذ قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، وهذه رواية أبي صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن جريج. **والقولُ الثاني**: أنه قال هذه المقالَةَ عند حضوره عند الملك، وهذه روايةُ عطاء عن ابن عباس، رضي الله عنهما، والله أعلم.

الإعراب

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾.

﴿وَدَخَلَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. (دخل) فعل ماض. ﴿مَعَهُ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق به. ﴿ٱلسِّجۡنَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق به. ﴿فَتَيَانِۖ﴾ فاعل مرفوع بالألف، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: فسجنوه، ودَخَل معه السجن. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ فعل وفاعل، والجملةُ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾ وإن شئتَ قلت: ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ فعل ومفعول أول ونون وقاية وفاعله ضمير يعود على أحدهما. ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على أحدهما، وجملة ﴿أَعۡصِرُ﴾ في محل النصب مفعول ثاني لـ ﴿أَرَىٰ﴾ الحلمية، وجملة ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ فعل وفاعل، معطوف على قال الأول. ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ فعل ومفعول أول و (نون) وقاية وفاعله ضمير يعود على الآخر. ﴿أَحۡمِلُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الآخر. ﴿فَوۡقَ رَأۡسِي﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَحۡمِلُ﴾. ﴿خُبۡزٗا﴾ مفعول لـ ﴿أَحۡمِلُ﴾. ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِنۡهُۖ﴾ متعلق به، وجملة

(١) الخازن.

﴿تَأْكُلُ﴾ صفة لـ ﴿خُبْزًا﴾، ولكنّها صفةٌ سببية، وجملة ﴿أَحْمِلُ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾، وجملة ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنِّيٓ﴾، وجملة ﴿إِنِّيٓ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿نَبِّئْنَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ متعلّق به، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿نَرَىٰكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الفتيين. ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان، أو حال من (الكاف)، وجملة ﴿نَرَىٰكَ﴾ في محل الرفع خَبر (إنَّ)، وجملة (إنَّ) مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلتَ: ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ فعل ونائب فاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿طَعَامٌ﴾. ﴿إلا﴾ أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال. ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ متعلّق به، والجملة في محل الجر بإضافة المستثنى المحذوف، والتقدير: لا يأتيكما طعام ترزقانه في حال من الأحوال إلا في حال تنبئني إياكما بتأويله. ﴿قَبْلَ﴾ منصوب على الظرفية. ﴿أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الطعام، والجملةُ في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: قبل إتيانه إياكما، والظرفُ متعلق بـ ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾. ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ مبتدأ. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور خبرُ المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مما علَّمنِيه ربي، والجملة صلةٌ لـ(ما) أو صفةٌ لها، والعائد، أو الرابطُ الضمير المحذوف. ﴿إِنِّى﴾ ناصب واسمه. ﴿تَرَكْتُ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ مفعول، ومضاف إليه، وجملةُ ﴿تَرَكْتُ﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إنَّ) مستأنفة على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به والجملة في محل الجر

صفة لـ ﴿قَوۡمٖ﴾. ﴿وَهُم﴾ مبتدأ. ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ متعلق بـ ﴿كَٰفِرُونَ﴾. ﴿هُم﴾ الثاني تأكيد للأول. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ على كونها صفةً لـ﴿قَوۡمٖ﴾.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿تَرَكۡتُ﴾ على كونها خبراً لـ(إن). ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بدل من ﴿ءَابَآءِيٓ﴾ بدل تفصيل من مجمل مجرور بالفتحة. ﴿وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ معطوفان على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لَنَآ﴾ خبرها مقدم على اسمها. ﴿أَن نُّشۡرِكَ﴾ ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿نُّشۡرِكَ﴾. ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ مفعول ﴿نُّشۡرِكَ﴾ و (من) زائدة، وجملة ﴿نُّشۡرِكَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ والتقدير: ما كان إشراكُنا بالله شيئاً كائناً لنا، والجملة مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيۡنَا﴾ متعلق بـ﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على ﴿عَلَيۡنَا﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ناصب واسمه. وجملة ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ خبر ﴿لكن﴾ والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قَالَ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، وهو من إضافة الوصف إلى الظرف؛ أي: يا صاحبين لي في السجن، أو من باب الإضافة إلى الشبيه بالمفعول، والمعنى: يا ساكني السجن. ﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾ (الهمزة) للاستفهام التقريري. ﴿أرباب﴾ مبتدأ. ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ صفة له، والجملة

في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جواب النداء ﴿خَيْرٌ أَمِ﴾ عاطفة متصلة. ﴿ٱللَّهُ﴾ معطوف على ﴿أرباب﴾. ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ صفة أولى للجلالة. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ صفة ثانية له.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَا﴾ نافية. ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ متعلق به، والمستثنى منه محذوف تقديره: ما تعبدون من دونه شيئاً. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء. ﴿أَسْمَآءً﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لتاء المخاطبين، ليُعْطَفَ عليه ما بعده. ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾ معطوف على (تاء) الفاعل والمفعول الثاني لـ﴿سميتم﴾ محذوف تقديره: سميتموها آلهةً، وجملة ﴿سَمَّى﴾ في محل النصب صفة لـ﴿أسماء﴾. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (ما) نافية. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿بِهَا﴾ متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ مفعول ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿من﴾ زائدة. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ ﴿إن﴾ نافية. ﴿ٱلْحُكْمُ﴾ مبتدأ. ﴿إلا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿للَّهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَمَرَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة على كَوْنِها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ (أن). ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿إِيَّاهُ﴾ ضمير نصب منفصل في محل النصب مفعول ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾، وجملة ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف تقديره: أَمَرَ بعدم عِبادَتِكم إلاَّ إياه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلدِّينُ﴾ خبره. ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلدِّينُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ناصب، واسمه. وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَمَّآ﴾ حرف شرط وتفصيل. ﴿أَحَدُكُمَا﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ فعل ومفعولان، و (الفاء) رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، وفاعله ضمير يعود على الأحد. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مستأنفة استئنافاً بيانياً.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿أما﴾ حرف شرط. ﴿ٱلۡأٓخَرُ﴾ مبتدأ. ﴿فَيُصۡلَبُ﴾ (الفاء) رابطة لجواب ﴿أما﴾. ﴿يصلب﴾ فعل مضارع مغيَّر الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿الآخر﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾ معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى. ﴿فَتَأۡكُلُ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿تأكل الطير﴾ فعل وفاعل. ﴿مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة (يصلب). ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿ٱلَّذِي﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿الأمر﴾. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بما بعده. ﴿تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير فيه.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿قال﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾. ﴿لِلَّذِي﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿قَالَ﴾. ﴿ظَنَّ﴾ فعل ماض ناسخ، وفاعله ضمير يعود على الموصول والجملة صلة الموصول. ﴿أَنَّهُۥ نَاجٖ﴾ ناصب واسمه وخبره. ﴿مِّنۡهُمَا﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستتر في ﴿نَاجٖ﴾؛ أي: حَالَة الناجي من جملة الاثنين، وجملة (أن) في تأويل مصدر سَادٌّ مسدَّ مفعولي ﴿ظَنَّ﴾ تقديره:

وقال للذي ظن نجاته حَالَةَ كونه منهما. ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ فعل ومفعول و (نون) وقاية وفاعله ضمير يعود على ﴿الناجي﴾. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿أنساه الشيطان﴾ فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَبِثَ﴾ (الفاء) عاطفة. ﴿لبث﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ﴾ متعلق بـ﴿لبث﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أنساه﴾. ﴿بِضۡعَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿لبث﴾ بضع مضاف. ﴿سِنِينَ﴾ مضاف إليه.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الملك. ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿سِمَانٖ﴾ صفة لـ ﴿بَقَرَٰتٖ﴾. ﴿يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل. ﴿عِجَافٞ﴾ صفة لـ ﴿سَبۡعٌ﴾ وجملة ﴿يَأۡكُلُهُنَّ﴾ في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَرَىٰ﴾ وجملة ﴿أَرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ معطوف على ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ﴾. ﴿خُضۡرٖ﴾ صفة لـ ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾. ﴿وَأُخَرَ﴾ معطوف على ﴿سَبۡعَ﴾ لا على ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾ ويكون، قد حُذِفَ اسمُ العدد من قوله: ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ والتقدير: وسبعاً آخر، وإنما حذف لأن التقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات، اهـ «سمين». ﴿يَابِسَٰتٖۖ﴾ صفة لـ ﴿أُخر﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَفۡتُونِي﴾

فعل وفاعل ومفعول، و (نون) وقاية. ﴿فِي رُءْيَٰىَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونِها جوابَ النداء. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ (إن) الشرطية على كونه فعلَ شرط لها. ﴿لِلرُّءْيَا﴾ (اللام) زائدة في المفعول. ﴿الرؤيا﴾ مفعول مقدم لـ ﴿تَعْبُرُونَ﴾. ﴿تَعْبُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوفٌ معلوم ممَّا قبله تقديره: إن كنتم تعبرون الرؤيا، فأفتوني في رؤياي، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محلِّ النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ مقول محكي، لـ ﴿قَالُوٓاْ﴾، وإن شئتَ قلت: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذه أضغاث أحلام، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية حجازية، أو تميمية. ﴿نَحْنُ﴾ اسمها أو مبتدأ. ﴿بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بما بعده. ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ خبر ﴿ما﴾ الحجازية أو خبر المبتدأ و﴿الباء﴾ زائدة، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ على كونها مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿نَجَا﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْهُمَا﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿نَجَا﴾. ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال. ﴿ادكر﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى نَجَا﴾. ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿ادكر﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿نَجَا﴾. ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾ إلى قوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت:

﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ. ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى نَجَا﴾. ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ مفعول ثان، و (الباء) زائدة، والجملة الفعلية في محل الرفع خَبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ (الفاء) عاطفة. (أرسلوا) فعل أمر مبني على حذف النون، و ﴿الواو﴾ فاعل، والنون للوقاية و(ياء) المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة (نون) الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يُوسُفُ﴾ منادى مفرد العلم حذف منه حرف النداء، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَيُّهَا﴾ منادى نكرة مقصودة حذفت منه حرف النداء للتخفيف. ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿أَفْتِنَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها جَوابَ النداء. ﴿فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿أَفْتِنَا﴾. ﴿سِمَانٍ﴾ صفة لـ ﴿بَقَرَٰتٍ﴾. ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ فعل ومفعول. ﴿سَبْعٌ﴾ فاعل. ﴿عِجَافٌ﴾ صفة لـ ﴿سَبْعٌ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ ﴿سَبْعٌ﴾، ولكنها سببية، أو في محل النصب حال من ﴿سَبْعٌ﴾. ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ معطوف على ﴿سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾. ﴿خُضْرٍ﴾ صفة لـ ﴿سَبْعِ﴾. ﴿وَأُخَرَ﴾ معطوف على ﴿سَبْعِ﴾ على كونه صفة لمحذوف تقديره: وسبعاً أخر مجرور بالفتحة للوصفية، والعدل؛ لأنه معدول عن الآخَر. ﴿يَابِسَٰتٍ﴾ صفة لـ ﴿أُخر﴾. ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرْجِعُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِى نَجَا﴾. ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ وجملة ﴿لعل﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مسوقة لتعليل قوله ﴿أَفْتِنَا﴾. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿لعلَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها مسوقة لتعليل الترجي قبلها.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة مستأنفة. ﴿تَزْرَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿دَأَبًا﴾ مصدر واقع موقع الصفة، فهو صفة لـ ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾؛ أي: سبع سنين متواليةً متتابعة، أو واقع موقِع الحال، فهو حال من (واو) ﴿تَزْرَعُونَ﴾؛ أي: حَالَة كونكم متدائبين؛ أي: مستمرين في الزراعة في تلك السبع. ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنَّكم تزرعون سَبْعَ سنين، وأرَدْتُم بَيَانَ ما تفعلون بالمحصود من الزرع، فأقول لكم: ﴿ما حصدتم﴾. ﴿مَا﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿حَصَدتُّمْ﴾ فعل، وفاعل في محل الجزم بما، والرابط محذوف تقديره: فما حصدتموه. ﴿فَذَرُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب. ﴿ذروه﴾ فعل وفاعل، ومفعول في محل الجزم على كونه جواب الشرط. ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ متعلق به، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿إلا﴾ أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿قَلِيلًا﴾. ﴿تَأْكُلُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لـ (ما)، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: مما تأكلونه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿يَأْتِي﴾ فعل مضارع. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ ﴿يَأْتِي﴾. ﴿سَبْعٌ﴾ فاعل. ﴿شِدَادٌ﴾ صفة أولى له. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صفة ثانية لـ ﴿سَبْعٌ﴾ ولكنها صفة سببية، وجملة ﴿يَأْتِي﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تَزْرَعُونَ﴾ على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَأْكُلْنَ﴾. ﴿قَدَّمْتُمْ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَهُنَّ﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾

أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما قدمتموه لهن. ﴿إلا﴾ أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿قَلِيلًا﴾. ﴿تُحْصِنُونَ﴾ فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: تحصنونه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿يَأْتِي﴾ فعل مضارع. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ متعلق به. ﴿عَامٌ﴾ فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ الأول. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُغَاثُ﴾. ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿عَامٌ﴾. ﴿وَفِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿يَعْصِرُونَ﴾. وجملة ﴿يَعْصِرُونَ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُغَاثُ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ فعل، وفاعل معطوف على محذوف تقديره: فلما رجع الساقي إلى الملك، وأخبره بما ذكره يوسف استحسنه الملك، وقال: ائتوني به، كما مرَّ في مبحث التفسير. ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ائتوني﴾ فعل وفاعل، ومفعول. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ فعل ومفعول، وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لَمَّا﴾. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على يوسف، والجملة جواب ﴿لما﴾، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على محذوف تقديره: فرجع الرسول إلى يوسف من عند الملك ليخرجه من السجن، فلما جاءه الرسول، قال يوسف: ارجع إلى ربك. ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿ٱرْجِعْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على الرسول، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ متعلق به. ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿اسأله﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الرسول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة

﴿ٱرۡجِعۡ﴾. ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ خبر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ﴿سأل﴾. ﴿ٱلَّٰتِي﴾ صفة لـ﴿النسوة﴾. ﴿قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿بِكَيۡدِهِنَّ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمٞ﴾. ﴿عَلِيمٞ﴾ خبر (إن)، وجملة (إن) في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾ على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الملك، والجملة مستأنفة. ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ مقول محكي، لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ما﴾ اسم استفهام للاستفهام الاستخباري في محل الرفع مبتدأ. ﴿خَطۡبُكُنَّ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية متعلق بـ ﴿خَطۡبُكُنَّ﴾ لأنه في معنى الفعل إذ المعنى ما فعلتن، وما أردتن به في ذلك الوقت، اهـ «سمين». ﴿رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿رَٰوَدتُّنَّ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر، مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿قُلۡنَ﴾ فعل، وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلۡنَ﴾ وإن شئت قلت ﴿حَٰشَ﴾ فعل ماض بمعنى بَعُدَ مبني بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة، للتخفيف لكثرة الاستعمال، وفاعله ضمير يعود على يوسف. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق به، ولكنه على حذف مضاف، والتقدير: حاش يوسف عن المعصية لطاعة الله تعالى وخوفه كما ذكره أبو البقاء، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿عَلِمۡنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلق به. ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿سُوٓءٖ﴾ مفعول به؛ لأن علم هنا بمعنى عرف، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾

إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية، متعلق بـ ﴿حَصۡحَصَ﴾. ﴿حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ فعل، وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾. ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ. ﴿رَٰوَدتُّهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَتِ﴾. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إنه﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمِنَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء. ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿إن﴾ والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة الاسمية المذكورة قبلها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يعلم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على يوسف على القول، بأنه من كلام زليخا، وهو الظاهر من السياق، أو يعود على العزيز إن قلنا: إنه من كلام يوسف، وفيه تكلف ظاهر كما مرت الإشارة إليه، في مبحث التفسير. والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، ذلك الاعتراف كائن مني لكي يعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب. ﴿أَنِّي﴾ ناصب واسمه. ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ جازم وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على زليخا، والجملة في محل الرفع خبر (أن) وجملة (أن) في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾ تقديره: ذلك ليعلم يوسف عدم خيانتي إياه في الغيب. ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ جار ومجرور إما حال من فاعل ﴿أَخُنۡهُ﴾ تقديره: حَالَةَ كوني غَائِباً عن عينيه أو من المفعول تقديره: حَالَةَ كونه غَائِباً عن عيني، ويجوز أن تكون (الباء) ظرفية متعلقة بـ ﴿أَخُنۡهُ﴾؛ أي: لم أخنه في مكان الغيب، ذكره «السمين». ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أن﴾ المذكورة قبلها على كونها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿علم﴾ تقديره: ذلك الاعتراف ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ يوسف عدمَ خيانتي إياه، في الغيب، وعدم هداية الله تعالى كَيدَ الخائنين؛ أي: عَدَمَ إتمامه لهم مرادَهم من الكيد والمكر.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾؛ أي: في صحبته؛ أي: صَاحَبَاهُ في الدخول فَدَخَلَ الثلاثةُ في وقت واحد. ﴿فَتَيَانِ﴾ تثنية فتى قلبت ألفه ياء في التثنية، لكونها أصله؛ لأنه من فتِيَ بوزن رَضِيَ بمعنى شَبَّ، وذلك يدل على أنهما عبدان للملك الأكبر. ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم، وإن لم يكن مملوكاً. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾؛ أي: عِنباً فسمَّاه باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود. ﴿خُبۡزٗا﴾ الخُبْزُ معروف، وجمعه خبز ومعانيه خبَّازٌ. ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾ اسم جنس مفرده الطائر. ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: أخبرنا بتأويل ما قصصناه عليك من مجموع المرئيين، أو بتأويل المذكور لك من كلامنا. ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: من العالمين بتعبير الرؤيا، والإحسان هنا: بمعنى العلم. وكذا قال الفراء: إن مَعْنَى ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من العالمين الذين أحسنوا العِلْمَ. وقال ابن إسحاق: من المحسنين إلينا، إن فسرت ذلك، أو من المحسنين إلى أهل السجن. ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ﴾ التَّرْكُ هنا عبارةٌ عن عدم التلبُّس بالشيء من أول الأمر، وعدم الالتفات إليه بالكلية، اهـ «خازن». ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾؛ أي: مُصَاحبين للسجن لطول مقامهما فيه. وقيل: المرادُ يا صاحبي في السجن؛ لأن السِّجْنَ ليس بمصحوب، بل مصحوب فيه، وأنَّ ذلك من باب يا سارق الليلة، وعلى الأول من باب قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾. ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾؛ أي: من أجناس مختلفة من حيوان، أو جماد، كذهب، وفضة، وحديد، وخشب، وحجارة.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ السجن: المَحْبَسُ. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، قاله قتادة. وقال مجاهد: من الثلاثة إلى السبعة. وقال أبو عبيدة: البضع لا يبلغ العقد، وإنما هو من الواحد إلى العشرة. وقال الفراء: ولا يُذْكَر البِضع إلا مع العشرات، ولا يُذْكَر مع مئة ولا ألف. ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ جمع سمينة، ويُجمع سَمِينٌ أيضاً عليه يقال: رِجالٌ سِمَانٌ كما يقال: نساء كرام، ورجال كرام. والسِّمَنَ مصدر سَمِن، يَسْمَنُ من باب فَرِح فهو سمين، فالمصدر واسم الفاعل جاءا على غير قياس، إذ قياسُهما سَمْناً بالفتح، فهو سَمِنٌ نحو: فَرِحَ فَرَحاً فهو فَرِح. وفي «المصباح»: سَمِنَ يسمن من باب تَعِبَ، وفي لغة: من

باب قتل إذا كَثُر لَحْمُهُ وشَحْمُه، ويتعدى بالهمزة والتضعيف. ﴿عِجَافٌ﴾ جمع عجفاء جمعاً سماعِياً، والقياسُ عُجْف كحمراء وحُمْر على حد قول ابن مالك:

فُـعْـلٌ لِـنَـحْـوِ أحْـمَـرٍ وَحَـمْـرَا

لكنه حُمِل على سمان، لأنه نَقِيضُه كما ذكره «البيضاوي». والعجفاء: المهزولة جِدّاً. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ عبَر الرؤيا إذا فَسَّرها من باب نصر، ينصر، ويستعمل أيضاً بالتشديد، كعلَّم يعلِّم تَعْلِيماً، اهـ شيخنا؛ أي: إن كنتم عَالِمين بعبارة الرؤيا، وهي الانتقالُ من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالُها من العبور، وهو المجاوزة، وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها بالتشديد تعبيراً، واللام للبيان أو لتقوية العامل، اهـ «بيضاوي». وفي «السمين»: وحقيقةُ عَبَرْتُ الرؤيا ذَكَرْتُ عَاقِبَتَها وآخِرَ أمرها كما تقول: عَبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ أخر عرضه، اهـ. وفي «المصباح»: عبرت النهر عَبْراً من باب قتل، وعُبُوراً أيضاً إذا قطعته إلى الجانب الآخر، وعَبَرْت الرؤيا عَبْراً أيضاً، وعبارةً إذا فسرتها، وبالتثقيل مبالغةً، وفي التنزيل: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اهـ. ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾؛ أي: هي تخاليط المنامات الباطلة التي لا معنَى لها جمع ضغث، وأصله: ما جمِعَ وحُزِم من أخلاط النبات، كالحزمة من الحشيش، فاستعير للرؤيا الكاذبة، والأحلام: جمع حلم، وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها، والإضافةُ على معنى منْ؛ أي: هي أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤولُ إليها، والأضغاث: جمع ضِغْثٍ بكسر الضاد، وهو ما جمع من النبات، سواءٌ كان جنساً واحداً أو أجناساً مختلطة، وهو أصغر من الحزمة وأكبر من القبضة.

﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أصله: إذْتَكَرَ بوزن افْتَعَلَ من الذّكر فوقعت تاء الافتعال بعد الذال، فأبدلت دالاً، فاجتمع متقاربان، فأبدل الأولُ من جنس الثاني، وأدغم، وكذا الحكمُ في (مدّكر) كما سيأتي في صورته إن شاء الله تعالى. ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بضم الهمزة، وتشديد الميم، وتاء منونة، وهيَ المدة الطويلة. وقرأ ابنُ عبَّاس، وغيره: (بعد أَمَهٍ) بفتح الهمزة وتخفيف الميم، وهاء منونةٌ والأَمهُ: هو النسيان يقال: أمَهَ يأْمَهُ أَمَهاً، وأَمْهاً، والسكونُ غيرُ مقيس، والمعنى: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: بعد حين، وهو سنتان، أو سبع، أو تسع، وسمِّي الحين من الزمان، أمة لأنه

جماعة أيّامٍ؛ والأمَّةُ: الجماعة، اهـ «خازن».

﴿دَأَبًا﴾ قرأ حفص بفتح الهمزة والباقون بسكونها، وهما لغتان في مصدر دَأَبَ يَدْأَبُ؛ أي: دَاومَ على الشيء ولازمه، وهذا كما قالوا: ضَأَنَ وضَأْن ومعَز ومعْز، بفتح العين وسكونها، وأصل معنى الدأب التعب، ويُكنى به عن العادة المستمرة، لأنها تنشأ عن مداومة العمل اللازم له التعبُ، اهـ «شهاب». ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ وفي «المصباح»: وسُنبُل بضم الفاء والعين، الواحدة سُنْبلةٌ، والسبل مثله، الواحدة سَبَلَة، مثل قَصَب وقَصَبَة، وسَنْبَل الزرع أخرج سُنْبُلَهُ وأسبل أخرج سبله، اهـ.

﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ من الغيث على أنَّ الألف منقلبة عن ياءٍ، أو من الغوث على أنها منقلبة عن واو. والغيث مصدر غاث الله البلادَ يغيثها غيثاً، إذا أنزل بها الغيثَ، وهو المطر، والغوث الفرجُ، وزوالُ الهم، والكرب، وعلى هذا يكون فعله رُباعِياً يقال: استغاثَ اللّهَ، فأغاثه؛ أي: أنْقَذَه من الكرب الذي هو فيه، كالحقط، اهـ «زاده». وفي «السمين»: قوله: يغاث الناس، يجوز أن تَكُونَ الألف عن واو، وأن تكونَ عن ياء إمَّا من الغَوْثِ، وهو: الفَرَجُ، وفعلُه رباعي، يقال: أغاثنا الله من الغيث، اهـ. وفي «المصباح»: أغاثه إغاثةً إذا أعانَهُ، ونَصَره، فهو مُغِيث والغوث اسم منه، واستغاث به فأَغَاثَه، وأَغاثهم الله برحمته، كَشَفَ شدتَهم، وأغاثَنا المطر من ذلك فهو مغيث، وأغاثنا الله بالمَطر، والاسم الغِيَاث بالكسر، اهـ. وفيه أيضاً: الغَيْثُ المطرُ وغاث الله البلاد غَيثاً من باب ضَرب، أنزلَ بها الغيثَ، ويبنى للمفعول: فيقال: غِيثتِ الأرضُ تُغاثُ، وغاث الغيث الأرض غيثاً، من باب ضرَبَ نزل بها. وسمى النَّبَات غَيْثاً تسمية باسم السبب، ويقال: رعينا الغيثَ، اهـ. ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ بكسر الصاد من باب ضرب كما في «المصباح» و «القاموس».

﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ والخطب الأمر والشأن الذي فيه خطر، وهو في الأصل مصدر خطب يخْطُب، وإنما يُخْطَبُ في الأمور العظام، اهـ «سمين». وفي «المختار»: الخَطْبُ: الأمر، تقول: ما خَطْبُك. قال الأزهري: أي: ما أمْرُكَ، وتقول: هذا خطب جليل، وخَطْبُ يسير، وجمعه خُطُوب، اهـ. ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: ظَهَرَ ووضح، وتبيَّنَ بعد خفاء، قاله الخليل. قال بعضهم: هو

مأخوذ من الحصة، والمعنى: بانَتْ حصة الحق من حصة الباطل، كما تتميز حصحص الأراضي وغيرها. وقيل بمعنى: ثَبَتَ واستَقَرَّ. وقال الراغب: حَصْحَصَ الحق، وذلك بانكشاف ما يغمِزُه وحص، وحصحص، نحو: كف، وكَفْكَفَ وحصه قَطَعَه إما بالمباشرة، وإما بالحكم، والحصة القطعة من الجملة، وتُسْتَعمل استعمالَ النصيب، اهـ «سمين». ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾؛ أي: لا ينفذه، ولا يُمضيه، ولا يسدِّده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعلَ على الكَيْدِ مبالغةً، اهـ «بيضاوي».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة، وضروباً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ لأنه أطْلَقَ الخمر على العنب، باعتبار ما يؤول إليه، كما يطلق الشيء على الشيء، باعتبار ما كان كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾.

ومنها: التعبير بالمضارع في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في الموضعين حكايةً للحال الماضية، وحق العبارة أن يقال: إني رأيتني، وكذا قول الملك: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ فيه حكايةٌ للحال الماضية، وحق العبارة أن يقال: إني رأيتُ.

ومنها: الطِّباق بين قوله: ﴿سِمَانٍ﴾، وقوله: ﴿عِجَافٌ﴾، وبين قوله: ﴿خُضْرٍ﴾، وقوله: ﴿يَابِسَٰتٍ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ فإنَّها من أبلغِ الاستعارة وألْطفها، فإن الأضغاثَ حقيقةٌ في المختلط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض، فشبَّه اختِلاطَ الأحلام، وما فيها من المحبوب، والمكروه، والخير، والشر باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرةٍ.

ومنها: براعة الاستهلال في قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ حيث قدَّم الثناء قبل السؤال، طَمَعاً في إجابة مطلبه.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ لأن السِّنينَ لا تأكل،

وإنما يأكل الناسُ ما ادخروه فيها، فهو من باب الإسناد إلى الزمان كقول الفصحاء نهار الزاهد صائم، وليلُه قائم.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وفي غير ذلك.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

ومنها: المجاز في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، لأن هدايةَ الكيد مجاز عن تنفيذه، وإمضائه، أو المراد لا يَهْدِي الخَائِنين بسبب كيدِهم، فأوقع الهدايةَ المنفيةَ على الكيد، وهي واقعة عليهم تجوزاً للمبالغة؛ لأنه إذا لم يهد السببُ علمَ منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى، اهـ «شهاب».

ومنها: الزيادة والحذفُ في عدة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراد كلامه

* * *

---

(١) إلى هنا تَمَّ ما أردنا إيرادَهُ من تفسير الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم، وكان الفراغُ من تأليفه ليلةَ الخميس المباركة، الخامس عشر من ربيع الأول، الشهر الثالث من شهور سنة إحدى عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكَى التحية، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأسألُ اللّهَ الإعانةَ على الكمال والتمام، وأن يُضَاعِفَ لنا البركةَ في أعمارنا إلى تمامه، ونشره بين المسلمين، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين.

تمَّ المجلد الثالث عشر من تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن في تاريخ ١٥/ ٣/ ١٤١١ هـ ويليه المجلد الرابع عشر وأوَّله قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ الآية.

شعرٌ

وَقُلْ بِذُلٍّ رَبِّ لاَ تَقْطَعْنِيْ عَنْكَ بِقَاطِعٍ وَلاَ تَحْرِمْنِيْ
مِنْ سِرِّكَ ٱلأَبْهَىٰ ٱلْمُزِيْلِ لِلْعَمَىٰ وَٱخْتِمْ بِخَيْرٍ يَا رَحِيْمَ ٱلرُّحَمَا

آخرُ

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا أَوْلَىٰ فَنِعْمَ مَا أَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ

الفهرس